الرواية الفائزة بجائزة بوكر للعام ٢٠٠٢

حياة باي

يان مارتل

ترجمة: سامر أبو هواش

منشورات الجمل

رواية

يان مارتل

حياة باي

ترجمة: سامر أبو هواش

منشورات الجمل

Conseil des Arts du Canada

Canada Council for the Arts

ولد يان مارتل في اسبانيا عام ١٩٦٣، لوالدين دبلوماسيين، وتنقل في نشأته بين كوستاريكا وفرنسا، والمكسيك، وألاسكا وكندا، كما أمضى مطلع شبابه بين إيران وتركيا والهند. بعد دراسة الفلسفة في جامعة «ترنت» في كندا، شغل وظائف عدة، حتى امتهن الكتابة في السابعة والعشرين. «حياة باي» هو كتابه الثالث بعد رواية ومجموعة قصصية، وقد فاز عام ٢٠٠٢ بجائزة «بوكر مان» الأدبية الرفيعة، التي أكسبته شهرة كبيرة ووضعته على خارطة الأدب العالمي. ترجمت الرواية حتى الآن إلى أربعين لغة. يعيش يان مارتل حالياً في مونتريال.

ولد سامر أبو هواش عام ١٩٧٢ بصيدا - لبنان. درس الإعلام والصحافة بالجامعة اللبنانية ١٩٩٦. كاتب وصحافي. له العديد من الأعمال الشعرية والترجمات الأدبية، منها: الحياة تُطبع في نيويورك، شعر، بيروت ١٩٩٦؛ تحية الرجل المحترم، شعر، بيروت ١٩٩٩؛ تذكَّر فالنتينا، شعر، بيروت ٢٠٠١؛ جورنال اللطائف المصوّرة، بيروت ٢٠٠٢؛ نُزل مضاء بيافطات بيض، شعر، بيروت ٢٠٠٥. كما يعد سلسلة ترجمات شعرية صدر منها ثمان مجموعات ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤.

يان مارتل: حياة باي، رواية، ترجمة: سامر أبو هواش، الطبعة الأولى ٢٠٠٦

كافة حقوق النشر والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد ٢٠٠٦

© Yann Martel: Life of Pi, 2001

© *Al-Kamel Verlag 2006*

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدمة المترجم

تقوم «حياة باي» على تواطؤ خفي، عنوانه، وهذا جوهر الرواية في الوقت عينه: «اختيار القصة الأفضل». هناك مثلما سيتضح للقارئ، الذي عليه أن يتحلى ببعض الصبر، سيناريوان لـ«ما جرى حقاً»، أو لما يزعم الكاتب يان مارتل بأنه جرى حقاً، في هذه القصة «الحقيقية»، وما على القارئ سوى أن يختار بين حقيقتين، أو بالأحرى بين زعمين، كل منهما يتساوى في درجة حدوثه أو لا حدوثه، أحدهما عقلاني، ومنطقي، والثاني سحري وعجائبي. الزعم الأول هو مما يمكن إيراده في التقارير الرسمية، والزعم الثاني ينتمي إلى عالم المرويات السحرية والخارقة. يبقى الاختيار رهناً بالقارئ نفسه. فإذا كانت الكتابة تشكل خمسين بالمائة من حياة الكتاب، بحسب مارتل، فإن القراءة تشكل الخمسين بالمائة الأخرى، وهذا ليس بالقول النظري، تحديداً في «حياة باي»، حيث سيجد القارئ نفسه، في أكثر من محطة، مدفوعاً إلى الاختيار، وإلى التفكير، وإلى الاستنتاج، وباختصار إلى التفاعل.

وهذا التفاعل يبدأ قبل الوصول إلى مرحلة «اختيار القصة الأفضل»، بل عند كل مفصل من مفاصل الرواية، حيث يجد القارئ نفسه مدفوعاً باستمرار إلى التساؤل حول «صدقية» الأحداث التي

يسردها الكاتب أو «واقعيتها»، وما إذا كان تمهيد هذا الأخير الذي يقول فيه إن ما سنقرأه هو سيرة شخص حقيقي، أم محض اختلاق جادت به مخيلة الكاتب. «أليس إخبار شيء ما يصبح دائماً قصة؟»، تتساءل الشخصية الرئيسية في الرواية، أي «باي»، الذي يوضح أكثر بتساؤل آخر: «أليس استعمال الكلمات لإخبار شيء ما، سواء أكانت هذه الكلمات إنكليزية أم يابانية، أمر فيه اختراع أساساً؟ أليس النظر في هذا العالم أمر فيه اختراع؟». تساؤل يقدّم لنا أحد المفاتيح الأساسية لفهم الرواية، بل ويعيدنا إلى جوهر فن الرواية نفسه، الذي في أي حال من الأحوال لا يقاس بقدر ما يرسم الواقع بصورة تسجيلية، بل بقدر ما يتمكن من القبض على لب هذا الواقع أو «جرفه عن مساره وتحويله إلى شيء آخر» مثلما يقول مارتل. علينا إذاً أن نصدق الواقع الحكائي نفسه، قبل أن نبحث عن «الواقع» الذي تنجح الرواية أو لا تنجح في أن تعكسه. الحكاية كاستعارة لا تصح كثيراً هنا، بل الرواية كواقع قائم في حدّ ذاته. بالتالي، لا يعود مهماً أن نصدّق ما إذا كان اسم الشخصية الرئيسية هو «بيسين» (أي «بركة سباحة» بالفرنسية، واختصاراً «باي»)، وما إذا كان اعتنق بالفعل ثلاثة أديان دفعة واحدة أم لا، وما إذا كان ظل تائهاً في المحيط الهادئ اشهراً عدة، على قارب نجاة، بصحبة عدد من الحيوانات المفترسة أم لا. تفاصيل قد يراها بعضهم مستحيلة لكن «أليس صعباً تصديق الحب؟»، مثلما يقول باي. نظرتنا إلى الحياة (وتجربتنا) بالتالي هي التي تحدّد خياراتنا، وما الذي نصدقه أو نرفض تصديقه.

«حياة باي» التي أرجو أن أكون وفقت في ترجمتها، مغامرة شائقة، يقودنا يان مارتل من خلالها إلى ما يفوق مجرد وصف

الأشياء، ورصف المعلومات، وبناء المواقف والاستنتاجات، إلى متعة السرد نفسه، ومنه إلى تأمل ذواتنا بطريقة مختلفة بعض الشيء. وإذا استعرنا قول «باي» بأن «بعض الأشخاص الذين نلتقيهم قد يغيرون حياتنا»، فإن بعض الكتب قد يسهم أيضاً في تغيير حياتنا. ملحمة يان مارتل هذه، بالغة البساطة، وبالغة الغموض والسحر في آن، تنتمي بالتأكيد إلى هذا النوع من الكتب.

سامر أبو هواش

توطئة الكاتب

ولد هذا الكتاب بينما كنت جائعاً. سأشرح ذلك: في ربيع العام ١٩٩٦ صدرت روايتي الثانية في كندا، ولم تصب أي حظ من النجاح. احتار بعض النقاد في أمرها، وامتدحها بعضهم الآخر بشكل باهت، أما القراء فتجاهلوها. ولم يثمر لعبي دور المهرج أو لاعب أرجوحة السيرك في الأوساط الإعلامية في الترويج لها. وفي حين اصطفت الكتب على رفوف المكتبات كفتيان يقفون في الصف للعب البايسبول أو كرة القدم، كان كتابي بمثابة الفتى الأزعر غير الرياضي الذي لا أحد يريده ضمن فريقه. اختفى الكتاب من التداول بسرعة وبصمت.

لم أتأثر كثيراً بهذا الفشل. كنت بدأت بمشروع رواية أخرى تجري أحداثها في البرتغال في العام ١٩٣٩. لكنني كنت أشعر بالسأم، وكان ما أملكه من مال شحيحاً جداً.

سافرت إلى بومباي. وهذا ليس بغير منطقي أخذاً في الاعتبار ثلاثة أمور: أن الالتزام بمهمة في الهند قد يقضي على السأم عند أي كائن حي؛ وأن القليل من المال يكفي هناك؛ وأن رواية تجري أحداثها في البرتغال في ١٩٣٩ ليس ضرورياً أن تكون لها أي علاقة بالبرتغال في ذلك العام.

كنت قد زرت شمال الهند سابقاً لخمسة أشهر. وفي تلك الرحلة الأولى لم أكن مستعداً كفاية. في الواقع كل ما جهزته لتلك الرحلة كان كلمة واحدة. حين أخبرت صديقاً يعرف الهند جيداً أنني أزمعت السفر إليها، قال لي: «إنهم يتحدثون بإنكليزية طريفة في الهند. . . يحبون استعمال كلمات مثل «بامبوزل» (غش). تذكرت كلماته هذه أثناء هبوط الطائرة التي تقلني إلى مطار دلهي، فكانت كلمة «بامبوزل»، كل ما أملكه لمواجهة الهند الغنية والصاخبة والمجنونة، وقد لجأت إليها بالفعل ذات مرة، حين قلت لقاطع التذاكر في محطة القطارات: «لم أظن أن الأجرة ستكون مكلفة إلى هذا الحد. هل تحاول أن تغشني؟». فابتسم وقال: «لا ياسيدي! لا غش هنا. لقد تقاضيت منك الأجرة المناسبة».

خلال تلك الزيارة الثانية إلى الهند كنت أعرف بشكل أفضل ما الذي أتوقعه وما الذي أريده: سأستقر في نزل جبلي وأعكف على كتابة روايتي. كنت بنيت تصورات عن نفسي جالساً إلى طاولة الكتابة على شرفة فسيحة، وأوراقي مفرودة أمامي إلى جوار كوب شاي ساخن. التلال الخضراء المغلفة بالضباب ستكون تحتي، وستملأ القردة سمعي بزعيقها. سيكون الطقس معتدلاً، تكفي سترة خفيفة للصباحات والأماسي، وسترة قصيرة الكمين لأوقات النهار. في مثل تلك الأجواء، والقلم في يدي، سعياً إلى الحقيقة الأعظم، سأحول البرتغال إلى مكان روائي («متخيل»). أليست هذه ماهية «الخيال» («فيكشن» = السرد، الرواية)، أي تحويل الواقع بشكل انتقائي؟ وحرفه للوصول إلى جوهره؟ ما حاجتي إذاً للذهاب حقاً إلى البرتغال؟

ستخبرني السيدة التي تدير الفندق قصصاً عن نضال الأسبقين من

أجل التخلص من الاستعمار البريطاني. وسنتفق على ما أرغب بتناوله من وجبات طعام ظهراً ومساء. وبعد أن أنتهي من الكتابة، سأمضي في نزهات على التلال المتموجة لمزارع الشاي.

لكن ما حدث لسوء الحظ، أن روايتي حشرجت، سعلت، ثم لفظت آخر أنفاسها. حدث ذلك في «ماثيران» التي لا تبعد كثيراً عن بومباي، وهي مركز صغير على التلال، فيه بعض القردة لكن من دون مزارع شاي. إنها معادلة مأساوية بالنسبة إلى الطامحين إلى أن يصيروا كتاباً: موضوعك جيد، وكذلك قدرتك التعبيرية. شخصياتك مفعمة بالحياة إلى حدّ أنه يمكنك أن تستخرج لها شهادات ميلاد. الحبكة التي وضعتها لهم عظيمة، بسيطة ومشوقة. كما أنك قمت بأبحاثك، وجمعت الوقائع ـ التاريخية، والاجتماعية، وتلك المتعلقة بالطقس وعادات الأكل ـ التي ستمنح قصتك المصداقية والأصالة. الحوار يتدفق بالحيوية، ويمور بالتوتر. الوصف يتفجر بالألوان، والتناقض، والتفاصيل الدالة. حقاً، يستحيل ألا تكون قصتك عظيمة. لكن هذا كله لا يعني شيئاً. على الرغم من الوعد الواضح المشع في قصتك، تأتي اللحظة التي تسمع فيها بوضوح ما كنت تسمعه يتردد همساً طوال الوقت في خلفية تفكيرك، والذي يقول لك الحقيقة البسيطة الفجة: لن تنجح الرواية. ثمة عنصر ناقص، تلك الشرارة التي تجعل قصة تنبض بالحياة حقاً، بصرف النظر عن درجة الدقة في هذه المعلومة أو تلك.. قصتك ميتة عاطفياً، هذا هو الأمر الأساسي. أقول لكم، إنه اكتشاف مدمر للروح. فهو يترك صاحبه يعاني من جوع مزمن مؤلم.

أرسلت من «ماثيران» ملاحظات حول روايتي الفاشلة، إلى عنوان وهمي في سيبيريا، وأرفقتها بعنوان للرد، وهمي أيضاً، في بوليفيا.

بعد أن ألصق موظف البريد الطابع بالمغلف ووضع الرسالة في العلبة المناسبة، جلست كئيباً ومثبط الهمة. «ماذا الآن يا تولستوي؟ أي أفكار أخرى لديك لحياتك؟»، سألت نفسي. كان لا يزال لدي بعض المال، وكنت لا أزال أشعر بالسأم. نهضت وخرجت من مكتب البريد، مصمماً على استكشاف جنوب الهند.

كان في ودي أن أجيب أولئك الذين يسألونني عن طبيعة عملي: «أنا طبيب»، بما أن الأطباء هم متعهدو السحر والمعجزات المعاصرون. لكنني كنت واثقاً من أن الحافلة التي أستقلها ستتعرض لحادث عند المنعطف التالي، وستتجه عندها كل العيون نحوي، وسيكون عليّ أن أشرح، وسط بكاء الضحايا وعويلهم، أنني حائز على دكتوراه في القانون؛ ثم عندما يطلبون مني مساعدتهم في دعواهم القضائية ضد الحكومة المسؤولة عن مثل هذا الخلل، سيكون عليّ أن أعترف لهم بأنني مجاز في الفلسفة في حقيقة الأمر، ثم وأمام الأصوات المنادية بأن أشرح المعنى الميتافيزيقي لهذه المأساة الدموية، سيكون عليّ أن أعترف أنني بالكاد قرأت كيركغارد. وهكذا دواليك. ففضلت الاعتراف بالحقيقة البسيطة.

أثناء ترحالي، هنا وهناك، حين كان يسألني أحدهم عن عملي، وأجيبه بأنني كاتب، كانت تكون ردة الفعل غالباً: «كاتب؟ أحقاً؟ لدي قصة لك». معظم الأحيان كانت القصص كناية عن نوادر، تخلو من النفس ومن الحياة.

ثم وصلت إلى بلدة بونديتشيري، وهي منطقة اتحادية صغيرة تتمتع بحكم ذاتي تقع إلى جنوب «مادراس»، على ساحل تاميل نادو. في حجمها وعدد سكانها هي جزء غير مهم من الهند - بالمقارنة معها فإن

«جزيرة الأمير إدوارد» في كندا تعد عملاقة ـ لكن التاريخ وضعها في منزلة خاصة. ذلك أن بونديتشيري كانت سابقاً عاصمة أكثر الإمبرطوريات الاستعمارية تواضعاً، أي فرنسا الهندية. كان الفرنسيون يطمحون إلى منافسة البريطانيين، لكن «الراج» الوحيد الذي تمكنوا من الحصول عليه كان حفنة من الموانئ الصغيرة. ظلوا متمسكين بها قرابة الثلاثة قرون، ثم رحلوا عنها في ١٩٥٤، تاركين وراءهم مباني بيضاء جميلة، وشوارع واسعة، متعامدة جيداً مع بعضها، وشوارع تحمل أسماء مثل «رو دي مارين» و«رو دي سان لوي»، وقبعات رأس لرجال الشرطة.

حدث ذلك في «المقهى الهندي»، في شارع نهرو، وهو كناية عن صالة كبيرة بجدران خضراء وسقف عال، ومراوح على السقف تعمل على تبديل الهواء الرطب والحار. المكان مفروش كله بالطاولات المربعة، التي أحيط كل منها بأربع كراس. ويمكنك الجلوس حيث تجد مكاناً شاغراً، حتى لو كان ثمة شخص جالساً إلى الطاولة. القهوة في ذلك المقهى لذيذة، كما تقدم التوست الفرنسي، ومن السهل جداً إجراء المحادثات. وهكذا حدث أن وجدت نفسي منخرطاً في محادثة مع رجل عجوز حيوي، عيناه تلمعان وشعره شائب إلى حد كبير. أكدت له أن كندا باردة وأن الفرنسية تحكى بالفعل في مناطق منها، وأنني أحب الهند وهكذا دواليك، أي ذلك الحديث الاعتيادي الودي بين هندي وغريب. وحين أخبرته عن مجال عملي اتسعت عيناه وأخذ يهز برأسه، فأيقنت أنه حان وقت رحيلي. رفعت يدي أطلب الحساب.

عندها قال الرجل العجوز، «لدي قصة ستجعلك تؤمن بالله».

توقفت عن التلويح للنادل بيدي، لكنني شككت بالرجل فوراً. أيمكن أن يكون من شهود يهوه؟: «أتجري قصتك قبل ألفي عام في زاوية نائية من الامبرطورية الرومانية؟» سألته.

«لا».

أهو مبشر إسلامي إذاً؟: «أتجري أحداث قصتك في القرن السابع ميلادي في الجزيرة العربية؟».

«لا، لا. إنها تبدأ هنا في بونديتشيري قبل بضع سنوات، ويسرني أن أقول لك إنها تنتهي في بلدك».

«وستجعلني هذه القصة أؤمن بالله؟».

«أجل».

«لقد رفعت السقف عالياً».

«لكن يمكنك أن تطاله».

ظهر النادل. ترددت للحظة، ثم طلبت فنجاني قهوة. تعارفنا بالأسماء. إسمه فرانسيس أديروباسامي، «أرجوك أخبرني قصتك»، قلت له.

«عليك أن تصغي جيداً» رد عليّ.

«سأفعل»، ثم أخرجت القلم ودفتر الملحوظات.

«أخبرني، هل زرت الحديقة النباتية؟» سألني.

«زرتها البارحة».

«هل انتبهت إلى القطار».

«أجل».

«لا يزال يتم تشغيل هذا القطار يوم الأحد من أجل تسلية الأطفال. لكنه في السابق كان ينطلق يومياً مرتين في الساعة. هل انتبهت إلى أسماء المحطات التي يتوقف عندها؟».

«إحداها تدعى روزفيل. إنها إلى جوار حديقة الزهور».

«هذا صحيح، والمحطة الأخرى؟».

«لا أذكر».

«لقد نزعت اللافتة. المحطة الأخرى كانت تدعى «زوتاون» (مدينة الحيوانات). كان يتوقف القطار عند هاتين المحطتين. كان ذات مرة حديقة حيوانات في حديقة بونديتشيري النباتية».

مضى في كلامه، ومضيت في تسجيل الملاحظات، التي تتضمن عناصر القصة. «عليك أن تتحدث إليه»، قال قاصداً الشخصية الرئيسية، «إنني أعرفه حق المعرفة، وهو رجل بالغ الآن. عليك أن تسأله كل الأسئلة التي تريدها».

لاحقاً، في تورنتو، بين تسعة أسماء «باتيل» في دليل الهاتف، عثرت عليه. خفق قلبي بقوة وأنا أطلب الرقم. الصوت الذي أجابني فيه لكنة هندية، خفيفة لكن يسهل تمييزها، كأثر عطر في الهواء. «حدث هذا قبل زمن بعيد»، قال. ومع ذلك وافق على مقابلتي. التقينا مرات عدة. أراني الدفتر الذي سجل عليه يومياته خلال الأحداث. وأراني الصحف التي اصفرت أوراقها والتي جعلته لفترة وجيزة رجلاً شهيراً. أخبرني قصته. وسجلت الملاحظات طوال الوقت. بعد نحو سنة، وبعد صعوبات عدة، تلقيت شريطاً مسجلاً وتقريراً من وزارة النقل اليابانية. كان أثناء إصغائي إلى الشريط أنني

وافقت مع السيد أديروباسامي على أن هذه القصة بالفعل تجعل المرء يؤمن بالله.

بدا لي طبيعياً أن تروى قصة السيد باتيل بلسانه هو، بعينيه، وصوته. لكن أي أخطاء قد تكون وقعت أنا وحدي المسؤول عنها.

هناك بضعة أشخاص أود أن أشكرهم. إنني مدين بالدرجة الأولى إلى السيد باتيل، امتناني له بلا حدود كالمحيط الهادئ؛ وآمل ألا يخيب أمله من الطريقة التي أخبرت بها قصته. وأشكر السيد أديروباسامي لأنه قادني أساساً إلى هذه القصة، وللمساعدة على إكمالها أنا ممتن لثلاثة رسميين: السيد كازوهيكو أودا، من السفارة اليابانية في أوتاوا، والسيد هيروشي واتانابي، من شركة الشحن اليابانية «أويكا»، وخصوصاً السيد توموهيرو أوكاموتو، من وزارة النقل اليابانية والذي هو متقاعد الآن. ومن أجل شرارة الحياة التي أمدني بها أنا مدين أيضاً للسيد مواكير سكليار. أخيراً أود أن أعبر عن امتناني العميق لتلك المؤسسة العظيمة، «المجلس الكندي للفنون»، الذي من دون منحته، لما تمكنت من كتابة هذه القصة التي لا علاقة بها بالبرتغال في العام ١٩٣٩. إذا لم ندعم، نحن المواطنين، فنانينا، فإننا نضحي بمخيلتنا على مذبح الواقع الفظ، وينتهي بنا الأمر إلى ألا نصدّق شيئاً، وإلى أن تصبح أحلامنا بلا قيمة.

الجزء الأول

تورونتو وبونديتشيري

الفصل ١

خرجت من محنتي حزيناً وكئيباً.

غير أن الدراسة الأكاديمية، والمواظبة على ممارسة الشعائر الدينية، أعادتا دمجي، ببطء، في الحياة. فقد ثابرت على ما قد يبدو لنظر البعض ممارسات دينية غريبة. بعد إنهائي «الثانوية» بسنة، انتسبتُ إلى جامعة تورونتو، حيث نلت إجازة مزدوجة في تخصّصين: الدراسات الدينية وعلم أحياء الحيوان. وإذ تمحورت أطروحة السنة الرابعة من الدراسات الدينية حول نظرية النشوء عند إسحق لوريا، ذلك القبلاني العظيم من صفد الذي عاش خلال القرن السادس عشر، فقد عُنيت الأطروحة الثانية بالتحليل العضوي للغدة الدرقية عند الكسلان ثلاثي الإصبع. وإذا ما سألتني عن علة اختياري درس هذا الحيوان تحديداً، فلأنني وجدت في سلوكياته، الموسومة بالصمت والهدوء والانطوائية، ما ساعدني على نحو ما على لملمة شتات نفسي المبعثرة.

هناك نوعان من الكسلان: ثنائي الإصبع، وثلاثي الإصبع، ويمكن التمييز بينهما بالنظر إلى الكف الأمامية للكسلان، إذ يشترك النوعان بأنه لديهما ثلاثة أصابع في الكفين الخلفيين. وقد كان حظي عظيماً، حين أتيحت لي، ذات صيف، دراسة الكسلان ثلاثي الإصبع في بيئته الأصلية، أي في أدغال البرازيل الاستوائية. ولكم وجدته كائناً آسراً،

هذا الحيوان الذي يكرس جلّ وقته لممارسة عادة واحدة هي الكسل، فهو ينام أو يرتاح بمعدل عشرين ساعة في اليوم. وقد أجرى فريقنا، خلال تلك الرحلة، أبحاثاً حول نمط نوم الكسلان عبر خمس عينات، قمنا بعد أن غطّت في النوم، عند مطلع المساء، بوضع صحون بلاستيكية حمراء مليئة بالمياه على رؤوسها، لنجد صبيحة اليوم التالي أنها لا تزال على حالها، وقد احتشد سطح الماء بالحشرات. ويكون الكسلان في ذروة حركته عند الغروب، لكن ينبغي ألا تؤخذ كلمة «حركة» هنا بمعناها الحرفي، بل بأقصى ليونة ممكنة. حيث يروح يتنقّل على غصن الشجرة بالوضعية المعهودة، أي رأساً على عقب، معتمداً على الذراعين، بسرعة تقريبية تصل إلى ٤٠٠ متر في الساعة. أما حين يكون على الأرض فتراه يزحف من شجرة إلى أخرى بسرعة ٢٥٠ متراً في الساعة، وذلك إذا ما تمّت استثارته، وهي سرعة أبطأ ب ٤٤٠ ضعفاً من سرعة «الشيتا» المستثارة. أما في الأحوال العادية، فلا يتجاوز معدل سرعته الأربعة إلى الخمسة أمتار في الساعة.

ليس لدى الكسلان أي فكرة عن البيئة التي يتحرك ضمنها. ففي قياس من اثنين إلى عشرة، حيث الدرجة الثانية تمثل أقصى البلادة، والعاشرة تمثل ذروة الحركة، مَنح العالم وليم بيب (١٩٢٦) حواس اللمس والتذوق والرؤية عند الكسلان الدرجة الثانية، وحاسة الشم الدرجة الثالثة. فيكفي إذا ما اقتربتَ من كسلان نائم في البرية، أن تنكزه مرتين أو ثلاث مرات حتى يستيقظ، وعندها سيروح ينظر بخمول في الاتجاهات كافة، إلا في اتجاهك. أما العلة وراء ذلك فغير معروفة، خصوصاً أنه يرى الأشياء كافة بطريقة مشوشة. وبالنسبة إلى السمع فإن الكسلان ليس أصماً، لكنه ببساطة لا يعير الأصوات

اهتماماً يذكر. وقد أفاد بيب بأن لعلعة الرصاص بجوار كسلان نائم أو يتناول الطعام بالكاد تثير عنده ردة فعل تذكر. كما لا ينبغي الإفراط في تقدير قوة حاسة الشم لديه، وإن كانت أفضل حالاً بقليل من غيرها، حيث يقال إنه قادر على اشتمام الأغصان المهترئة وتجنّب الاعتماد عليها في تنقله، لكن يذكر العالم بالوك (١٩٦٨) أن الكسلان يهوي «غالباً» على الأرض، بعد تعلقه بغصن مهترئ.

قد تتساءل كيف يتمكّن، والحال هذه، من البقاء حياً؟

بسبب بطئه هذا على وجه التحديد، حيث يجنبه نعاسه وكسله الدائمان الوقوع فريسة الحيوانات الأخرى، فيكاد لا يحسّ بحضوره الجاغوار أو الأسلوت أو النسناس أو الأناكُندة. بالإضافة إلى انطواء فرائه على وبر يصطبغ باللون البني في المواسم الجافة، وبالأخضر في المواسم الماطرة، فتراه يندمج في الطحلب وأوراق الأشجار، ليبدو للناظر إليه كشبكة من النمل البيضاء أو السناجب، أو أنه لا يشبه شيئاً على الإطلاق، بقدر ما يبدو جزءاً من الشجرة التي يمكث فيها.

يعيش الكسلان ثلاثي الإصبع حياة مسالمة في انسجام تام مع بيئته، و«ترتسم على شفتيه ابتسامة طبيعية وادعة»، مثلما ذكر العالم تيرلر (١٩٦٦). وقد رأيت رأي العين تلك الابتسامة، ومع أنني لست ممن يحبّذون إسقاط السمات والمشاعر الإنسانية على الحيوانات، لكن حدث مرات عدة في سياق رحلتي تلك، إذ كنت أنظر إلى نفر من الكسلان الهاجعة، أن أحسستُ بأنني في حضرة ممارسي يوغا مستغرقين في تأملاتهم، أو في حضرة نسّاك في غمرة الصلاة؛ حيوات كثيفة متخيلة تتجاوز بكثير نطاق بحثي العلمي.

كنت أخلط أحياناً بين التخصّصين. فيذكّرني بعض زملائي في

الدراسات الدينية ـ أولئك اللا أدريين، مشوشو الذهن، الذين أضاعوا الدرب تماماً، عبيد العقل، ذلك الذهب الوهمي بالنسبة إلى العقول اللامعة ـ بالكسلان؛ أما هذا الأخير، وهو مثال رائع عن معجزة الحياة، فيذكرني بالله.

لم تكن لدي أدنى مشكلة مع زملائي العلماء أولئك الملحدون، المتفانون في عملهم، الذين لا يشغل بالهم، حين لا يكونون منهمكين بأمور العلم، سوى الجعة والجنس والشطرنج والبايسبول.

كنت تلميذاً نجيباً، إذا جاز لي أن أمتدح نفسي؛ الأول على دفعتي في كلية «سانت مايكل» لأربع سنوات على التوالي، حصلت خلالها على كافة الجوائز من قسم «الزولوجيا» (علم الحيوان). أما عدم حصولي على أي منها في قسم الدراسات الدينية، فلأنه فببساطة ليس ثمة جوائز كهذه (فالجوائز الدينية لا يمنحها الفانون). وقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الحصول على ميدالية الأكاديمية العامة، وهي أرفع جائزة تمنحها جامعة تورونتو، والتي حظي بها بالفعل عدد غير قليل من الكنديين اللامعين، لو لم ينافسني عليها فتى ضخم البنية زهري البشرة، من أكلة اللحم، الذين تطفح وجوههم ببهجة دائمة.

لا تزال تلك الحادثة التافهة تحزّ قليلاً في نفسي. فحين تكون عرفتَ في حياتك عذاباً عظيماً كالذي عشته، يصبح كل ألم إضافي تافهاً، ويفوق الاحتمال في آن. ولعل حياتي تشبه، بهذا المعنى، تذكارات الموت في الفن الأوروبي: ثمة باستمرار جمجمة متجهمة ترافقني باستمرار، لتذكرني بمدى سخف الطموح البشري. لكنني أسخر من هذه الجمجمة. أنظر إليها قائلاً: «إنك تتبعين الشخص غير المناسب، لعلّك لا تؤمنين بالحياة، لكنني لا أؤمن بالموت. فامض

في حال سبيلك!». لكن الجمجمة تقهقه بمكر وتزداد التصاقاً بي. سبب التصاق الموت بالحياة إلى هذا الحد ليس الضرورة البيولوجية، بل الغيرة. فالحياة رائعة إلى حد أن الموت واقع في غرامها، غرام استحواذي غيور يتشبث بكل ما يمكنه الحصول عليه. لكن الحياة تتغلّب على النسيان بكل خفة، خاسرة على الدرب تفصيلاً أو اثنين تافهين، أما الكآبة فليست سوى ظلّ غمامة عابرة. حُظي الفتى الزهري أيضاً بمنحة «جمعية رودس». لكنني لا أحقد عليه، بل أحبّه وأتمنى أن يسعى إلى إثراء تجربته في أكسفورد. وإذا ما أرادت آلهة الثروة «لاكشمي»، أن تنعم عليّ يوماً، فإن أُكسفورد هي خامس مدينة أحلم بزيارتها بعد مكة وفراناسي والقدس وباريس.

ليس لدي الكثير مما أقوله عن حياتي العملية، سوى أن ربطة العنق بالنسبة إلي هي بمثابة أنشوطة معقودة بالمقلوب، ويمكن أن تشنق صاحبها ما لم يحتط جيداً.

أحب كندا. صحيح أنني أفتقد إلى دفء الهند، وإلى طعامها، إلى العظاءات تزحف على جدران المنازل، وإلى الأفلام الغنائية على الشاشة الفضية، إلى الأبقار تجوب الشوارع، وإلى الغربان الناعبة، وحتى إلى الثرثرات المصاحبة لمباريات الكريكت، لكنني أحب كندا، ذلك البلد العظيم المصقع، وأهله الودودون الأذكياء، المشهورون بقصات شعورهم السيئة. وعلى أي حال، فليس ثمة ما أرجع إليه في مدينتي بونديتشيري.

لم يبرح ريتشارد باركر فكري. لم أنسه يوماً. هل أجرؤ على القول إنني اشتقت إليه حتى؟ بلى، أفتقده. ولا أزال أراه في أحلامي، التي هي كوابيس في أغلب الأحيان، لكنها كوابيس مفعمة بالحب. يا

لغرابة القلب البشري. لا أزال عاجزاً عن فهم تخلّيه عني بمثل هذا الجفاء، بلا وداع، ومن دون أن يلتفت ولو لمرة إلى الوراء، ألم أحسّه فأساً تقطّع قلبي.

كان الأطباء والممرضات في المستشفى المكسيكي بالغي اللطف معي، وكذلك المرضى من ضحايا السرطان أو حوادث السير، الذين ما أن سمعوا بقصتي، حتى جاؤوا، وعائلاتهم، يعرجون أو على كراسيهم النقالة، لكي يتعرفوا إلي، مع أن أحداً منهم لا يتحدث الإنكليزية، وأنا لا أجيد الفرنسية. ابتسموا لي، صافحوني، ربتوا على رأسي، وملأوا سريري بالطعام والثياب. أضحكوني وأبكوني من صميم قلبي.

تمكنت في غضون يومين من الوقوف، والقيام بخطوة أو اثنتين، على الرغم من التخدير، والدوخة، والوهن العام. وقد أظهرت فحوص الدم إصابتي بفقر الدم، وارتفاع مستوى «الصوديوم» مقابل انخفاض مستوى «البوتاسيوم»، كما أن جسدي لم يكن يتخلص من السوائل الفائضة، مما جعل رجلاي تنتفخا بصورة هائلة. كنت أبدو كمن زُرع بدلاً من رجليه، رجلا فيل. وكان لون بولي أصفر داكناً، مائلاً إلى البني. وقد تمكنت، بعد نحو أسبوع من السير بشكل طبيعي تقريباً، وانتعال الحذاء، من دون أن أحكم رباطه طبعاً، كما تماثل جلدي للشفاء، مع أن آثار الندوب لا تزال بادية على كتفي وظهري.

حين فتحت صنبور المياه للمرة الأولى روعتني جلبة المياه المتدفقة بغزارة منه، إلى حدّ أن توازني اختلّ، وتداعت رجلاي، وأغمي عليّ بين ذراعي الممرضة.

في المرة الأولى التي قصدت فيها مطعماً هندياً في كندا شرعت

آكل بيدي، فرمقني النادل بازدراء وقال: «لقد نزلت لتوك من القارب.. أليس كذلك؟». امتقع وجهي. أشعرني كلامه بأن أصابعي، التي كانت قبل ثوان تتذوق الطعام، قبل أن تنقله إلى فمي، قد اتسخت بفعل نظراته. تجمدت كمجرم قُبض عليه في الجرم المشهود. لم أجرؤ على لحس أصابعي، فمسحتها بالمنديل الورقي. لا يعرف هذا النادل كم جرحتني كلماته التي نشبت في جلدي كالمخالب. حملت بيدين مرتعشتين السكين والشوكة اللتين بالكاد استعملتهما قبل ذلك في حياتي. لم يعد لطبق «السامبار» الذي كنت أتناوله أي طعم.

الفصل ٢

يعيش في «سكاربورو». رجل هزيل، لا تتجاوز قامته المتر ونصف المتر. أسود العينين والشعر، إلا عند الصدغين حيث يصطبغ شعره بالرمادي. لا يبدو أنه تجاوز الأربعين. بشرته جميلة بلون القهوة. ويرتدي، على الرغم من اعتدال الطقس، سترة سميكة من الفرو، إضافة إلى قبعة فرو كان يعتمرها في طريقه إلى المطعم. وجهه ينضح بالتعابير. لسانه يتحرّك ويداه بوتيرة واحدة. من دون مقدمات، بدأ يحكي:

الفصل ٣

سُمّيت على اسم بركة سباحة، وهذا غريب بالنظر إلى أن والديّ لم يكونا من عشاق السباحة. كان أحد معارف والدي القدماء، وهو صديق مقرب من العائلة، يدعى فرانسيس أديروباسامي، لكنني اعتدت

على أن أناديه «ماماجي»؛ «ماما» التي نعني بها باللغة التاميلية العم، و«جي» نلحقها عادة بالكلمة تعبيراً عن الود والاحترام. وقد كان ماماجي هذا في شبابه، أي قبل ولادتي بوقت طويل، بطلاً في مسابقات السباحة، بطل جنوب الهند بلا منازع. وكانت السباحة عنوان حياته الأسمى. كان عشقه للمياه غامراً، إلى حدّ يحسب المرء أنه ولد فيها. ولا أعرف ما إذا كان صحيحاً ما أخبرني به مرة أخي رافي، بأن ماماجي، خلال ولادته، كان رافضاً التخلي عن التنفّس في مياه الرحم، مما اضطر الطبيب إلى انتشاله من رجليه، وأن يخضخضه بعد ذلك بحركة دائرية في الهواء، لكي ينقذ حياته.

«نجح الأمر»، قال رافي، «وهكذا خرجت المياه من فمه وبدأ يتنفس الهواء، لكن أدى ذلك إلى دفع دمه ولحمه إلى الجزء الأعلى من جسده، ولهذا ترى صدره عريضاً للغاية، ورجليه رفيعتين».

صدّقته. (كان رافي استفزازياً للغاية، وحين تجرأ ذات يوم وأطلق على ماماجي لقب «السيد سمكة» في حضوري، انتقمت منه بأن دسست له قشرة موز في سريره). وأياً يكن من أمر ولادته، فقد كان بوسع ماماجي، حتى وهو في الستين، حين احدودبت قامته قليلاً، وبدأت الجاذبية تعاود شدّ لحمه إلى أسفل، أن يؤدي كل صباح ثلاثين جولة من السباحة في بركة «أوروبيندو أشرام».

حاول أن يعلّم والداي السباحة، لكن محاولاته أخفقت في جعلهما يخوضان في مياه الشاطئ إلى مستوى أعلى من الركبتين، حيث يروحان يحركان أذرعهما بطريقة مضحكة، فيظهران وهما يؤديان ضربة سباحة الصدر، كأنهما يفرقان الأعشاب الضارية في الأدغال، أو وهما يؤديان الكرول الأمامية، كأنهما يعدوان نازلين من هضبة،

مرفرفين بأيديهما لكي لا يفقدا توازنهما. وعلى غرارهما، لم يكن لدى رافي أي حماسة للسباحة.

كان على ماماجي أن ينتظر دخولي في الصورة حتى يجد تلميذاً راغباً حقاً بتعلّم السباحة. فما إن بلغت السن المناسبة، وهي السابعة بحسب ماماجي، وعلى الرغم من امتعاض أمي، اصطحبني إلى الشاطئ، وفرد ذراعيه قبالة البحر وقال لي: «هذه هديتي لك».

«ثم كاد أن يتسبّب بغرقك»، زعمت أمي لاحقاً.

بقيت وفياً لمعلمي المائي. في البداية كنت أنبطح بمعيته على رمل الشاطئ وأروح أصفق برجلي، خامشاً الرمل بأظافري لكي أبعده عن وجهي، مديراً رأسي مع كل ضربة ذراع، لكي أتنفس. لا بد من أنني كنت أبدو، لمن يراني من بعيد، طفلاً غارقاً في موجة غضب غريبة، تحدث بالحركة البطيئة. أما في المياه الأعمق، حين يرفعني ماماجي إلى السطح، فكنت أبذل قصارى جهدي لكي أسبح. كان الأمر أصعب بكثير مما هو عليه على الشاطئ. لكن كان معلمي صبوراً ومشجعاً.

حين شعر ماماجي أنني تقدّمت بما فيه الكفاية، أعلن انتهاء مرحلة الضحك والصراخ، والركض والطرطشة، وإثارة الفقاعات على أمواج الشاطئ الخضراء والزرقاء، واصطحبني إلى بركة السباحة الحقيقية (التي ينبغي دفع رسم للدخول إليها)، أي بركة سباحة أشرام.

ظلّ ماماجي، على امتداد سنوات طفولتي تلك، يصطحبني إلى هناك صبيحة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، ويدرّبني لأوقات محددة على السباحة الحرة. أذكره تماماً وهو يبدّل ملابسه، فينكشف جسده رويداً مع كل قطعة ملابس ينزعها، ثم يلتزم جانب الحياء في النهاية

بأن يتنحّى جانباً ويقرفص ويرتدي بنطاله الرياضي القصير المستورد، ثم ينتصب واقفاً حين يصبح جاهزاً. مشهد ينطوي على بساطة ملحمية. لا أنسى كم كانت شاقة تعليمات السباحة، التي تحولت مع الوقت إلى تدريبات. لكنني لا أنسى أيضاً روعة السباحة بسرعة وسهولة أكبر، المرة تلو المرة، حتى التنويم المغناطيسي، حيث تتحول المياه عملياً من الحديد المصهور إلى الضوء السائل.

كنت من حين لآخر، وضد تعليمات ماماجي، وبلذة مصحوبة بالذنب، أسبح في مياه البحر، الذي تجذبني إليه تلك الأمواج العملاقة التي تتكسر وتصل إلي وتلفني كخيوط رقيقة.

كانت هديتي إلى ماماجي ذات عيد ميلاد، الأرجح في الثالثة عشرة، أنني أديت بصورة كاملة سباحة الفراشة، التي أنهيتها مرهقاً إلى حدّ أنني بالكاد تمكنت من التلويح له.

ثمة، إضافة إلى سحر ممارسة السباحة، سحر الحديث عنها، الذي كان أبي يعشقه بصورة خاصة. فبقدر ما كان يقاوم بشراسة ممارسة السباحة، كان يحلم بعوالمها. فكانت مرويات ماماجي عنها، تشكّل فسحة عطلاته، بعيداً من الأحاديث اليومية المتعلقة بعمله كمدير لحديقة حيوانات، محبذاً بالتأكيد مياه البحر الصافية على تلك الموحلة التي تخوض فيها أفراس النهر.

وكان لدى ماماجي الكثير مما يرويه في هذا المجال. فهو تمكن، بفضل الإدارة الكولونيالية، من الدراسة في باريس مدة عامين، شكلا بلا ريب الفترة الذهبية في حياته. كان ذلك في مطلع الثلاثينات من القرن الفائت، حين كان الفرنسيون ما زالوا يطمحون إلى فرنسة بونديتشيري، على نحو ما سعى البريطانيون لجعل بقية الهند إنكليزية.

لا أتذكر بالتحديد ما كان اختصاصه، لكنني أظن أنه متعلق بالتجارة. المهم أنه كان حكواتياً عظيماً، وبعيداً من قصص الدراسة أو برج إيفل أو اللوفر أو مقاهي الشانزيليزيه، وغيرها من قصص يتوقع المرء سماعها من شخص عاش في باريس، كان معظم قصصه يدور في فلك أحواض السباحة ومسابقاتها. حكى لنا، على سبيل المثال، عن مسبح «دليني»، أقدم أحواض المدينة، الذي يرجع تاريخه إلى العام ١٧٩٦، وهو كناية عن مسبح كبير مكشوف قريب من رصيف «دورساي»، الذي كان مسرح افتتاح الألعاب الأولمبية للسباحة عام ١٩٠٠، ولم يكن معترفاً به من قبل الاتحاد الدولي للسباحة، لأنه كان يزيد طولاً ستة أمتار عن معايير المسبح الدولية. وقتذاك كانت مياه المسبح تأتي مباشرة من نهر السين، غير مدفأة ولا مصفاة، «بل باردة ووسخة» على وصف ماماجي: «فالمياه بعد عبورها كل باريس تصل قذرة للغاية، ثم يساهم الناس المحتشدين حول الحوض في زيادة قذارتها». وعطفاً على ذلك، أكد لنا، بنبرة تآمرية هامسة، ومع تفاصيل محددة من شأنها أن تدعم روايته، على شدة تدني معايير الفرنسيين في النظافة: «لقد كان دليني بالغ القذارة، أما باين رويال، وهو حوض آخر على ضفاف نهر السين، فكان أسوأ حالاً... على الأقل كانوا ينظفون دليني من الأسماك النافقة». ومع ذلك يبقى حوض السباحة الأولمبي حوض سباحة أولمبي، وقد لمسته يد المجد الخالدة. ومع أن دليني، حين يصفه ماماجي، يبدو أشبه ببالوعة، فقد كان يشرق محياه بابتسامة افتخار حين يأتي على ذكره.

يعيش السبّاح أجمل أوقاته في أحواض «شاتو لندن»، و«روفيه» أو «دي بولفار دي لا غار»، وكانت هذه بركاً داخلية مسقوفة، ومفتوحة

طوال العام، أما مياهها فتأتي من نتاج المحركات البخارية للمعامل المجاورة، وبالتالي كانت أنظف وأدفأ، وأن لم يخل الأمر من بعض الأوساخ: «كان ثمة لكثير من البصاق والأوساخ، وكنت أحسبني سابحاً في حوض يعج بقناديل البحر»، قال ضاحكاً.

كانت مسابح أخرى مثل «إيبر»، «لودرو رولان»، و«بوت أوكاي»، وهي نظيفة، وحديثة، وفسيحة، وتتغذى بالمياه من الآبار الارتوازية، هي التي أرست المعايير الحاسمة للامتياز في فرنسا. هذا من دون أن ننسى بالطبع حمّام «دي توريل»، وهو المسبح الأولمبي الثاني في المدينة، الذي أنشئ خلال ألعاب باريس الثانية عام ١٩٢٤، وكان ثمة، في حكايات ماماجي التي لا تنتهي، مسابح أخرى أيضاً، الكثير من المسابح.

لكن ولا بركة كان توازي في عيني ماماجي ألق «بيسين موليتور»، إنه مجد باريس المائي المتوج، بالتأكيد، بل ومجد العالم المتمدّن كله.

«مسبح يغري الآلهة بالسباحة، أعظم نادي سباحة تنافسي في باريس، يتكون من مسبحين، مكشوف ومقفل، وكل منهما كناية عن محيط مصغّر. في المسبح المقفل حارتان محجوزتان دائماً للسباحين الذين يتمرنون استعداداً للمسابقات. أما مياه الحوض فنظيفة وصافية حتى أنه يمكنك أن تعدّ منها قهوتك الصباحية. حجرات تبديل الملابس خشبية بيضاء وزرقاء تحيط بالبركة على طابقين، وكنت تنظر حولك فترى كل شيء وكل شخص. وكان العمال الذين يعلّمون مقصورة تبديل الملابس بالطبشور علامة على أنها مشغولة عجائز متهالكين، وودودين للغاية، ولا تكدر أمزجتهم الصافية ضوضاء الناس

أو حماقاتهم. أما مياه الدشّات فدافئة ومريحة، وثمة غرفة سونا وصالة تمرينات رياضية، وفي الشتاء تتحول البركة الخارجية إلى حلبة تزلج. وكان ثمة بار، وكافيتريا، ومشمس فسيح، إضافة إلى شاطئين صغيرين من رمل حقيقي. كل تفصيل سواء أكان من الحجارة، أم من المعدن، أم من الخشب، كان يشعّ... لقد كان ذلك.. كان ذلك...».

كانت البركة الوحيدة التي تجعل ماماجي، إثر الحديث عنها، يغرق في الصمت، بينما تحمله ذكرياته إلى مسافات حلمية بعيدة.

ماماجي يتذكر، وأبي يحلم.

هكذا، حين جئت إلى هذه الدنيا، كآخر فرد مرحّب به في العائلة، بعد ثلاث سنوات من ولادة رافي، حملت اسم تلك البركة الرائعة: بيسين موليتور باتيل.

الفصل ٤

لم يكن عهد أمتنا القديمة الطيبة تجاوز كجمهورية السبع سنوات، حين كبرت مساحة هذه الأخيرة بعد أن ألحقت بها منطقة صغيرة تدعى بونديتشيري، التي انضمت إلى الهند في الأول من تشرين الثاني ١٩٥٤، وهو ما اعتبر إنجازاً مدنياً جرّ إنجازاً آخر، حيث أقدمت الحكومة على وهب جزء من أراضي معرض بونديتشيري النباتي، لتأسيس مجال عمل جديد شائق، فأصبح للهند حديقة حيوان جديدة، تصمّم وتدار وفقاً لأحدث المعايير الأحيائية.

كانت مترامية الأطراف بحيث تتطلب قطاراً لاستكشافها، ومع أنها أخذت تصغر، هي والقطار، رويداً بالنسبة إلي، مع تقدّمي في السن، فقد بتّ أراها اليوم صغيرة إلى حدّ تتناسب فيه ومكانها في رأسي.

عليك بادئ ذي بدء، لكي ترتسم أمام ناظريك الصورة الحقيقية لحديقة حيوانات بونديتشيري، أن تتخيل مكاناً حاراً ورطباً، تغمره الشمس والألوان، وتتسلسل فيه الأزهار في خطوط لا تقل وفرة عن النباتات المعربشة والجَنبات والأشجار مختلفة الأحجام: أشجار التين الهندية الباسقة، وأشجار الخاتم الأحمر، وأشجار شعلة الغابة، والقطن الأحمر، والجكرندة، والمانغا، والجاك فرويت، وأشجار أخرى كثيرة تبقى أسماؤها مجهولة بالنسبة إلى الزائر ما لم يرها مدوّنة على بطاقات الشروحات الأنيقة. وثمة أيضاً مقاعد، ترى عليها أشخاصاً قاعدين، وآخرين مستلقين، ومن حين لآخر ترى عاشقين يتبادلان النظرات خلسة، بينما تتلامس أيديهما إذ ترفرف في الهواء كما لو بفعل مصادفة. وفجأة، من بين الأشجار الباسقة الرفيعة، تلمح زرافتين ترمقانك بهدوء، ولن تكون هذه آخر المفاجآت، فما هي سوى هنيهات حتى يجفلك زعيق حشد من القردة، لا يفوقه مهابة سوى الزعيق الصاخب للطيور الغريبة. ثم تصل إلى باب دوار. فتدفع، وأنت لا تزال مأخوذاً بما تراه حولك، رسماً رمزياً، وتعبر الباب إلى الجهة الأخرى، التي يبرز فيها أول ما يبرز حائط منخفض، وما الذي يمكن أن تتوقع رؤيته وراء حائط منخفض؟ بالتأكيد ليس حفرة مائية ضحلة يخوض فيها وحيدا قرن هنديان عملاقان. لكن هذا ما تراه حقاً. وما أن تدير رأسك قليلاً حتى ترى الفيل الذي تكتشف أنه كان إلى جوارك طوال الوقت، لكنه ضخم إلى حدّ أنك لا تعود تنتبه إلى وجوده. أما ما يعوم في البركة المجاورة فليس إلا فرسي نهر ضخمين. وكلما نظرت أكثر، رأيت أكثر. أنت في مدينة حيوانات!

كان أبي، قبل انتقاله إلى بونديتشيري، يدير فندقاً كبيراً في

«مادراس»، وقد قاده اهتمامه القديم بالحيوانات إلى هذا المجال. ربما تحسبه انتقالاً طبيعياً من إدارة الفنادق إلى إدارة حدائق الحيوانات، لكنه ليس كذلك. فقد تكون إدارة حديقة حيوانات أسوأ كابوس بالنسبة إلى مدير فندق. لنقارن: في حديقة الحيوانات، لا يبرح النزلاء غرفهم، ولا يستأجرون الغرفة لبضعة أيام فقط، بل يطلبون المبيت الدائم، كما أنهم يستقبلون طوال الوقت فيضاً من الزوار، وبعضهم صاخب وصعب المراس، وعليك باستمرار أن تنتظر خروجهم طوعاً من حجراتهم، لكي تتمكن من تنظيفها، ثم عليك أن تنتظر حتى يملوا المشهد، ويعودوا إلى الغرف، لكي تتمكن من تنظيف «الشرفات»: وثمة أعمال نظافة تفوق ذلك بكثير، فهؤلاء النزلاء عديمو النظافة كالمدمنين على الكحول. كل واحد منهم يطلب غذاء محدداً، وهو دائم التذمر من بطء الخدمة، ولا ينفح البقشيش إطلاقاً. ولنكن صريحين، العديد منهم منحرف جنسياً، إما أنه مكبوت، وبالتالي عرضة في أي وقت لموجات من الدعارة المسعورة، أو محروم جنسياً بشكل واضح، وفي الحالين يتحدّى الإدارة باستمرار بممارساته المستمرة للجنس الحرّ وسفاح القربى. هل هذا هو نوع النزلاء الذي تودّ أن تستقبله بحفاوة في فندقك؟ بالنسبة إلى أبي، السيد سانتوش باتيل، مالك حديقة الحيوان ومديرها، وكبير موظفيها البالغ عددهم ٥٣ شخصاً، كانت حديقة حيوانات بونديتشيري مصدراً للكثير من المتع، ومن أسباب الصداع على حد سواء.

في ما يخصّني كانت تلك هي الجنة على الأرض. ليس لدي إلا أجمل الذكريات عن الترعرع في حديقة حيوانات. عشت حياة أمير. فأي ابن مهراجا يتاح له اللعب في مثل تلك الملاعب الواسعة

الباذخة؟ أي قصر يحتوي على مثل تلك المعارض المتنوّعة؟ كانت ساعة المنبّه الخاصة بي، في طفولتي تلك، كناية عن حشد من الأسود، وكن على يقين ليس من ساعة سويسرية يمكن الاعتماد عليها لإيقاظك في الوقت المحدد، بقدر ما يمكن الاعتماد على زئير أسد بين الخامسة والنصف والسادسة فجراً. أما الدعوة إلى الإفطار فكان يتكفّل بإطلاقها زعيق القردة وجلبة طيور المَينَة والكوكاتو المولوكي وهرجها ومرجها. أما حين أمضي إلى المدرسة، فلا تكون نظرات أمي الحانية التي تتبعني فحسب، بل القُضاعات لماعة العينين، وثيران البَيسون الأميركي، والنسانيس. وكان عليّ أن أعدو عدواً لدى مروري من تحت أشجار معينة، ناظراً إلى الأعلى، تحسباً لطاووس ما قد يتبرز عليّ فجأة. فكنت أفضل السير تحت أشجار الفاكهة التي تستوطنها الخفافيش، حيث الاعتداء الوحيد المحتمل في مثل تلك الساعة المبكرة هو صأصأة الخفافيش. وفي طريقي إلى الخارج قد أقف لبرهة عند مرابي الأحياء البرية لأتفرج على الضفادع التي تلمع بألوانها الخضراء، أو الصفراء أو الكحلية، أو البنية أو الخضراء الفاتحة. أو قد تلفت انتباهي الطيور: البشرس الزهر، أو البجع الأسود أو النعام، أو الطيور الأصغر حجماً، كالحمام، أو طيور الحب، أو البراكيت، أو النانداي. ولم يكن مرجحاً في مثل تلك الساعة المبكرة أن أرى الفيلة أو الفقمات أو الهررة الضخمة أو الدببة، لكن القردة بأنواعها المختلفة كالربّاح الإفريقي والمكّاك الآسيوي والمنجبي، والجبّون، إضافة إلى الغزلان، وخنازير التبّير الأميركية واللاما، والزرافات، والنموس، وكلها من الحيوانات التي تنهض باكراً جداً. كل صباح قبل خروجي من البوابة الرئيسية كنت أرى شيئاً أخيراً

اعتيادياً، لكن لا ينسى في الوقت عينه: السلاحف وقد تشكّلت هرماً؛ خطم ميمون متقزح اللون؛ الصمت الجليل لزرافة؛ الفم الأصفر الضخم لفرس بحر؛ خربشة ببغاء يتسلق سياجاً؛ منقار أبو مركوب يصفق محيياً؛ أو ذلك التعبير الشيخوخي الفاسق على وجه جمل. كنت أمرّ بكل هذه المشاهد الغنية لمحاً، وأنا في طريقي إلى المدرسة. أما بعد انتهاء الدوام فكنت أعيش سلسلة من الأحاسيس الباذخة، كأن يروح فيل يفتش ملابسي بود أملاً بأن يعثر على حبة بندق مخبأة فيها، أو أن تفلفش سعلاة شعري بحثاً عن وجبة من القرادة، مطلقة صفيراً ينمّ عن خيبة الأمل لكون رأسي فارغ إلى هذا الحدّ. أتمنى لو أنني أستطيع وصف روعة فقمة وهي تنزلق إلى المياه، أو قرد عنكبوتي يتأرجح بين الأغصان، أو أسد بالكاد يحرك رأسه. لكن اللغة تخفق في مجالات كهذه، والأفضل إذا ما أردت أن تحس بها حقاً أن تتخيلها في رأسك.

أفضل أوقات الزيارة في حديقة الحيوانات، مثلما في البراري، هي عند الغسق والأصيل، ففي هاتين الفترتين يكون معظم الحيوانات في أوج نشاطه. عندها تخرج الحيوانات من مبايتها وتلبث عند حواف الماء، متباهية بأزيائها، صادحة بأغنياتها، ناظرة إلى بعضها البعض، ومؤدية طقوسها اليومية. غالباً ما تكون المكافأة بالنسبة إلى العين الناظرة والأذن المصغية، عظيمة. أمضيت ساعات لا تحصى وأنا أتفرّج بصمت على هذه التعبيرات الرفيعة المتنوعة للحياة التي تغمر كوكبنا نعمة، تلك الإشراقات الصاخبة، الغريبة ومتناهية الصغر، التي تخلب الحواس.

لا يوازي ما سمعته من هراء يردّده بعضهم حول حدائق

الحيوانات، إلا ما سمعتهم يرددونه عن الله والدين. فالناس، ذوو النوايا الحسنة ولكن الذين تنقصهم المعلومات، يحسبون أن الحيوانات تعيش «سعيدة» في البراري لأنها تكون «حرة» هناك. فتراهم يتخيلون حيواناً مفترساً ضخماً وجميلاً، كالأسد أو الشيتا (قلما تعنيهم حياة النّو أو «أبو ذقن»)، وهو يختال في الصحراء لكي يهضّم بعد التهامه فريسة تقبّلت قدرها برضا، أو يتخيلون هذا الحيوان ممارساً الركض لكي يحافظ على نحافته بعد أن أفرط في الاسترخاء. يتخيلونه مشرفاً على ذريته بفخر وحنان، فيما تجتمع العائلة لتستمتع بمنظر الغروب من على جذوع الأشجار، متنهدة بغبطة. وبالنسبة إليهم، تعيش حيوانات البراري حياة سهلة، ونبيلة، وذات مغزى، قبل أن يأتي رجال أشرار فيصيدونها ويرمونها في أقفاص صغيرة. وعندها تتحطم «سعادتها»، ويشتد توقها إلى «الحرية»، وتفعل كل ما في وسعها للفرار. بعد حرمانه من الحرية وقتاً طويلاً، يصبح الحيوان ظل نفسه، وتنكسر روحه. هذا ما يخاله بعض الناس.

لكن الأمور ليست كذلك.

تعيش حيوانات البراري تحت وطأة الإكراه والضرورة ضمن تراتبية هرمية لا ترحم، في بيئة يكثر فيها الخوف، ويندر الطعام، وحيث ينبغي الدفاع باستمرار عن الأرض، ضد تطفل الحيوانات الأخرى. فما معنى الحرية هنا؟ حيوانات البراري، عملياً، غير حرة، لا في المكان ولا الزمان، ولا على صعيد العلاقات في ما بينها. على المستوى النظري ـ وكاحتمال فيزيائي ضعيف ـ قد يحمل الحيوان نفسه ويمضي مبتعداً، كاسراً كل الأعراف الاجتماعية والحدود التي تلائم جنسه. لكن حدثاً كهذا مستبعد، بقدر ما هو مستبعد أن يقوم فرد من

جنسنا، لنقل صاحب متجر يرزح تحت كافة الالتزامات الاعتيادية، تجاه الأصدقاء والعائلة والمجتمع، بالتخلي عن كل شيء والابتعاد عن محيطه، وهو لا يملك من أمره شيئاً، سوى بعض الفكة، والثياب التي ينتزعها من الخزانة. فإذا كان الإنسان، وهو الأجرأ والأذكى بين المخلوقات، لا يحبّذ الانتقال من مكان يألفه إلى آخر يكون فيه غريباً، فلماذا قد يقدم الحيوان الذي هو أكثر تحفظاً بكثير على ذلك؟ لأن الحيوانات كائنات متحفظة، بل ويمكن القول رجعية. وأقل التغييرات يمكن أن تسبب لها الاضطراب، وهي لا تطلب سوى أن تبقى الأمور على حالها، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر. لا تحبّذ المفاجآت، مثلما يتضح جلياً في علاقتها بالمكان. فالحيوان يستوطن مساحته من الأرض، سواء أكان ذلك في حديقة حيوان أم في البرية، بالطريقة نفسها التي تتحرك فيها قطع الشطرنج على الرقعة. ليس ثمة مصادفات، ولا «حرية»، في ما يتعلق بحركة عظاءة أو دب أو غزال، أكثر مما ثمة ارتجال في موقع «فارس» على رقعة شطرنج. في الحالين ثمة المعيار والهدف. في البرية، تلتزم الحيوانات، موسماً بعد موسم، بالسلوكيات نفسها للأسباب الوجيهة عينها. وفي حديقة الحيوانات، إذا لم يكن الحيوان في مكانه الطبيعي في الساعة المعتادة، وفي الوضعية الاعتيادية، فإن هذا يدل على شيء ما، قد يكون تسبب به تغيير بسيط في البيئة. لذلك فإن خرطوم مياه نسيه المشرف يجعل الحيوان يشعر بالتهديد، أو ربما تزعجه بريكة مياه تشكّلت فجأة، بل إن ظل سلّم يمكن أن يشكّل تهديداً بالنسبة إليه. وقد يعني انكفاء الحيوان واضطرابه شيئاً أكبر، وأسوأ ما يتوقعه مدير حديقة حيوان أن يكون مؤشراً لعارض صحي، ونذيراً بمشكلات

ستقع، مما يوجب استدعاء الطبيب البيطري، وفحص روث الحيوان، وفحص المشرف أيضاً. كل هذه الإجراءات قد يتسبّب بها طائر لقلق وقف فجأة في بقعة مختلفة عن تلك التي اعتاد الوقوف عندها.

دعني أستطرد في شرح ناحية واحدة.

إذا ما ذهبتَ إلى بيت أحدهم، وركلتَ الباب برجلك، ورميت بساكنيه إلى الشارع قائلاً لهم: «إذهبوا! وأنتم أحرار كالطيور. اذهبوا. . اذهبوا»، أوتظنهم سيهلّلون ابتهاجاً ويرقصون فرحاً؟ لا، لن يفعلوا ذلك. فالطيور ليست حرة، وأولئك الذي قمت بإخلائهم تواً قد يصرخون في وجهك: «بأي حق ترمينا في الخارج؟ هذا بيتنا. ملكيتنا. إننا نعيش هنا منذ سنوات. سوف نستدعي الشرطة، أيها الوغد».

ألا يردّد البشر غالباً: «ليس من مكان أفضل من البيت»؟ هذا بالتأكيد ما تشعر به الحيوانات. إنها كائنات محلية، ومحليتها هي مفتاح فهم عالمها. وحده المكان الذي تألفه يستوفي بالنسبة إليها الشرطين الأساسيين للعيش في البراري: تجنب الأعداء والحصول على الطعام والشراب. حديقة الحيوان المناسبة أحيائياً، أكانت قفصاً، أم حفرة، أم جزيرة، أم زريبة، أم مربى برياً أم مائياً، أم مطيراً، هي حيز مكاني بديل بالنسبة إلى الحيوان، وهذا الحيز يبدو مختلفاً فقط في حجمه وفي قياسه النسبي إلى الحيز المكاني البشري، أما كونه أصغر بكثير مما هو عليه في الطبيعة فذلك له تفسير منطقي. فالحيز المكاني في البرية ليس كبيراً من باب الرغبة بذلك، بل من باب الضرورة. في الحديقة نقدّم للحيوانات ما نقدمه لأنفسنا في البيوت: نضع في حيز مكاني صغير ومحدد ما هو مشرّع وفسيح في البرية. في الماضي،

بالنسبة إلينا كبشر، كان الكهف هنا، والنهر هناك، وأمكنة الصيد على بعد ميل من هنا، يليها المطلّ، وثمرات العليق في مكان آخر، وكلها ممتلئة بالأسود، والأفاعي، والنمل، واللبلاب السام، أما اليوم فالنهر يتدفق من صنابير مياه على مرمى اليد، ونستطيع غسل ملابسنا قرب حجرات نومنا، ونستطيع أن نأكل حيث نطبخ، وأن نسوّر ذلك كله بجدار، ونبقيه نظيفاً ودافئاً. البيت إذاً هو منطقة مضغوطة تُلبّى فيها حاجاتنا الأساسية بأمان وضمن مجال محدد. وحديقة الحيوانات المناسبة تعادل ذلك كله بالنسبة إلى الحيوان (مع الغياب الجدير بالانتباه للمدفئة وغيرها من كماليات نجدها في السكن البشري). فالحيوانات تجد في الحديقة كل الأمكنة التي تحتاج إليها، المرقب، والمستراح، ومكان للشرب والأكل والاستحمام، وللمزاوجة.. الخ. وإذ يجد الحيوان أنه لا يحتاج إلى الصيد، حيث الطعام يحضر إليه طوال أيام الأسبوع، فإنه يستحوذ على حيزه المكاني في حديقة الحيوانات على النحو نفسه الذي يسيطر فيه على بقعة جديدة في البراري، فيستكشفه ويعلّمه بالبول بالطريقة نفسها التي يفعل بها جنسه ذلك. وما إن يتم طقس الانتقال هذا ويستقر الحيوان، فلن يعود نزيلاً متوتراً، ولن يتصرف كسجين، بل كصاحب ملكية، وسيتصرف تجاه مكانه بالطريقة نفسها التي يتصرف فيها ضمن بيئته البرية، بما يتضمنه ذلك من شراسة في الدفاع عنه إذا ما تعرض للغزو. ليست بيئة كهذه أفضل ولا أسوأ بالنسبة إلى حيوان من البراري، ما دامت توفر له احتياجاته، ليصبح المكان بكل بساطة، طبيعياً كان أم اصطناعياً، ومن دون إطلاق الأحكام، أمراً مسلماً به، كالبقع على جلد فهد. بل يمكن أن يجادل المرء حتى، أنه إذا ما قيّض للحيوان الاختيار،

فسيفضل العيش في حديقة حيوان، ما دام الفرق الجوهري بينها وبين البرية هو غياب المتطفلين والأعداء، ووفرة الغذاء في الأولى، ووفرته النسبية وندرته في الثانية. ضع نفسك في مكانه: أتفضل أن تقيم في فندق «ريتز» مع خدمة غرف مجانية وخدمة طبية متوافرة طوال الوقت، أو أن تكون متشرداً من دون أحد يعتني بك؟ لكن الحيوانات لا تقوم بمثل هذه المفاضلة، فتتكيف ضمن حدود طبيعتها مع ما هو متوافر لها.

حديقة الحيوانات الجيدة هي التي يتحقق فيها ذلك التفاهم المتبادل: تماماً حيث يقول لنا الحيوان: «هذه منطقتي.. ابقوا خارجاً!»، عبر بوله أو أي من إفرازاته الأخرى، ونقول نحن له: «إبقَ في الداخل!»، عبر الأسيجة التي نقيمها. في ظل هذا التفاهم الدبلوماسي، تشعر الحيوانات بالرضى، ونستطيع نحن أن نسترخي ونستمتع بالنزهة.

ثمة، في المرويات الشائعة، أمثلة كثيرة عن حيوانات كان يمكنها الفرار لكنها لم تفعل، أو فرت ثم عادت. هناك حالة أنثى الشيمبانزي التي تُرك باب قفصها مفتوحاً ذات يوم، وإذ أحسّت بالاضطراب جعلت تصرخ وتصفق الباب بشكل متكرر، وبصخب يصم الآذان، حتى جاء المشرف على الحديقة، بعد أن نبهه أحد الزوار، وأصلح الأمر. هناك أيضاً قصة قطيع الرّو في إحدى الحدائق الأوروبية، الذي خرج من زريبته حين ترك الباب مفتوحاً، وإذ ارتعب من الزوار فرّ إلى غابة قريبة، يستوطنها أساساً قطيع من الرّو البري الذي لا يمانع في استقبال المزيد، ومع ذلك فإن قطيع الرّو المدجّن عاد سريعاً إلى الزريبة. وفي حديقة حيوانات أخرى كان عامل متجهاً إلى موقع عمله

في ساعة مبكرة، حاملاً ألواح خشب، حين أجفله دب ظهر له فجأة من قلب الضباب الصباحي، واتجه نحوه بخطوات واثقة، فرمى الرجل الألواح وفرّ هارباً. بدأ العاملون في الحديقة بالبحث عن الدب الهارب، فعثروا عليه في مبيته، وقد سلك الطريق نفسها التي سلكها للخروج، عبر تسلق جذع شجرة مقصوف. وقيل إن صوت ارتطام ألواح الخشب بالأرض هو الذي أجفله.

لكنني لا أتشبّث بوجهة نظري هذه، وليس قصدي الدفاع عن حدائق الحيوانات التي يمكنك إذا شئت أن تقفلها جميعها (ولنأمل بأن ما بقي من الحياة البرية يمكنه الاستمرار في العيش ضمن ما بقي من العالم الطبيعي). وأعرف أن حدائق الحيوانات ما عادت تلقى الرواج نفسه عند الناس. الدين يواجه المشكلة نفسها، فهو يعاني من الأوهام نفسها حول الحرية.

لم تعد حديقة حيوانات بونديتشيري موجودة. حُفرها ردمت، ودمّرت أقفاصها. أستكشفها الآن في المكان الوحيد الذي لا تزال قائمة فيه: ذاكرتي.

الفصل ٥

اسمي ليس هو نهاية القصة حول اسمي. حين يكون اسمك بوب فإن أحداً لن يسألك: «كيف يُلفظ هذا الاسم؟»، وهذه ليست الحال مع اسم مثل بيسين موليتور باتيل.

كان بعضهم يظن أنه «ب. سينغ» وأنني من السيخ، ويستغرب عدم ارتدائي الطربان.

خلال دراستي الجامعية زرت مونتريال مرة بصحبة بعض

الأصدقاء، وخطر لي ذات ليلة أن أطلب البيتزا، وإذ لم أطق سماع قهقهة شخص آخر من الناطقين بالفرنسية لدى سماعه اسمي، أجبت الموظف الذي سألني عن اسمي عبر الهاتف: «آي يام هو آي يام» (أنا هو أنا). بعد نصف ساعة وصلت شطيرتا بيتزا باسم «أيان هوليهان».

صحيح أن من نلتقيهم يمكن أن يغيروننا، وأحياناً يكون التغيير عميقاً إلى حدّ أننا لا نعود الأشخاص أنفسهم بعد ذلك، وقد يشمل التغيير أسماءنا. والشواهد كثيرة على ذلك: سيمون الذي ينادونه بيتر، وماثيو المعروف باسم ليفي، وناتانييل الذي هو أيضاً بارتوليميو، وثمة يوضاس (ليس الإسخريوطي) الذي اتخذ اسم تاديوس، وشمعون الذي اسمه نايجر، وسول الذي أصبح بول.

لكل منا في فترة ما، لا سيما في مرحلة الطفولة، «جنديه الروماني» الذي يهينه ويسخر منه على ما هو معروف في حكاية السيد المسيح. هذا الجندي، فيما يخصني، جاء على هيئة تلميذ آخر. كان واقفاً في باحة المدرسة ذات صباح حين كنت في الثانية عشرة. كنت وصلت تواً، حين رآني ولمعت في عقله البليد فكرة عبقرية شريرة. رفع يده وأشار نحوي صارخاً: «إنه بيسينغ» (التبول) باتيل!».

في لحظة واحدة سرى الضحك بين الجميع، واستمر الأمر حتى دخولنا إلى الصف. كنت آخر الداخلين، واضعاً على رأسي تاجي الشوكي.

من المعروف أي مدى يمكن أن تبلغه فظاظة الأولاد. كانت الكلمات تهب من الملعب إلى أذني، دون طلب، ودون سبب: «عليّ أن بيسينغ (أتبول) فوراً»، أو «إنك بمواجهة الحائط، هل أنت بيسينغ (تتبوّل)؟»، وغيرها من العبارات. كانت الكلمات تختفي، لكن الأذية تلبث، كرائحة البول، بعد وقت من تبخره.

بدأ الأساتذة يفعلون ذلك أيضاً. كان الحرّ هو السبب، فحين يقترب اليوم المدرسي من نهايته، يتحول درس الجغرافيا الذي كان في الصباح بمثابة واحة، إلى صحراء؛ ويصبح درس التاريخ الذي كان يضج بالحياة أول النهار، جافاً ومغبراً، أما المعادلات الرياضية الدقيقة صباحاً، فتصير تشويشاً وجلبة. وفي غمرة تعبهم عصراً، بينما يروحون يمسحون جباههم ورقابهم بمناديلهم، ومن دون أن يتعمّدوا إهانتي أو السخرية مني، كان الأساتذة حتى يغفلون الإيحاء المائي في اسمي، ويشوهون لفظه بطريقة مخزية، كما لو أن لسان الواحد منهم حوذي يحاول أن يسوس عبثاً فرساً جامحاً. كانوا يفلحون في لفظ المقطع الأول من الاسم، ال«بي»، لكنهم بسبب شدة الحر يفقدون سيطرتهم على جيادهم الحرونة، بحيث يصلون إلى «السين»، فيقلبونها «سينغ»، وأجد نفسي رافعاً يدي لأجاوب. غالباً لا ينتبه الواحد منهم إلى الاسم الذي ناداني به، فينظر إلي باستغراب بعد لحظة، متعجباً تلكئي عن الإجابة. وأحياناً حتى الصف كله الذي يكون أرهقه الحر أيضاً، لا يتفاعل أيضاً. لا ابتسامات ولا ضحكات مكبوتة، لكنني كنت دائماً أسمع هسهسة الأصوات.

أمضيت سنتي الأخيرة في مدرسة «سانت جوزيف» شاعراً أنني شبيه بالنبي المطارد محمد عليه السلام في مكة، ومثلما خطط لرحلته إلى المدينة، أي «الهجرة» التي أرّخت للتوقيت الهجري، خططت لهجرتي ولبداية زمن جديد بالنسبة إلي.

انتقلت بعدها إلى «بيتيه سيمينير»، وهي أفضل مدرسة ثانوية إنكليزية خاصة في بونديتشيري. كان رافي سبقني إليها، وككل الإخوة الأصغر، كان عليّ أن أعاني من السير على خطى أخ أكبر يحوز

شعبية كبرى بين التلاميذ. كان النجم الرياضي الأول، لاعب البولينغ الماهر، ولاعب كرة المضرب المتين، وكابتن فريق «كابيل ديف»، أفضل فريق كريكت في المدينة. أما مهارتي في السباحة فلم تثر اهتمام أحد؛ لعله قانون في الطبيعة البشرية أن يكون الذين يعيشون بجوار البحر سباحين مهرة بالفطرة، تماماً كما يفترض بأبناء الجبال أن يكونوا متسلقي جبال بالفطرة، وبالتالي لا فضل لي في مهاراتي المائية. لكن ورغم أنني كنت قابلاً بأي كنية بدلاً من «بيسينغ»، ولو كانت «شقيق رافي»، فإن السير في ظل أحدهم لم يكن بالملاذ الحقيقي بالنسبة إلي. كانت لدي خطة أفضل.

وضعت خطتي هذه موضع التنفيذ في أول يوم دراسي، بل وفي أول حصة. كنت محاطاً بغيري من تلاميذ مدرسة «سانت جوزيف» الذين يعرفون قصة اسمي. بدأ الصف مثلما تبدأ كل الصفوف الجديدة، بتلاوة الأسماء. رحنا نقول أسماءنا من على مقاعدنا بحسب ترتيب جلوسنا.

«غاناباثي كومار»، قال غاناباثي كومار.

«فيبين ناث»، قال فيبين ناث.

«شمشول هدا»، قال شمشول هدا.

«بيتر دارماراج»، قال بيتر دارماراج.

كل اسم يلفظ يشحطه الأستاذ على لائحة أمامه، وهو يرمق صاحبه بنظرة سريعة. كان توتري يخنقني.

«آغيث غيادسون»، قال آغيث غيادسون الذي يبعد عني أربعة مقاعد...

«سامباث ساروجا»، قال سامباث ساروجا، ثلاثة مقاعد....

«ستانلي كومار»، قال ستانلي كومار، مقعدين...

«سيلفستر نافين»، قال سيلفستر نافين الجالس على المقعد الذي يسبقني مباشرة.

حان دوري. إنه الوقت الذي سأهزم فيه الشيطان. أيتها المدينة، ها أنا آت إليك.

نهضت عن مقعدي واتجهت بخطوات سريعة إلى اللوح. وقبل أن يحتجّ المعلم، حملت قطعة طبشور، ورحت أقول فيما أكتب:

اسمي هو

بيسين موليتور باتيل،

المعروف من الجميع باسم

وضعت خطين تحت اسمي

باي باتيل

ولكي يُفهم القصد جيداً أضفت:

= ٣.١٤

ورسمت حوله دائرة كبيرة، قطعتها بعد ذلك إلى نصفين، لكي أذكر التلاميذ بدرس الهندسة المعروف ذاك.

ساد صمت. حبست أنفاسي، فيما المعلم يحدق في اللوح. ثم قال: «حسناً، باي، يمكنك الجلوس. المرة المقبلة عليك أن تستأذن قبل مغادرة مقعدك».

«حاضر سيدي».

شحط اسمي. ونظر إلى الفتى التالي.

«منصور أحمد»، قال منصور أحمد.

لقد أنقذت.

«غوثام سيلفراج»، قال غوثام سيلفراج.

تنفست الصعداء.

«أروان أناجي»، قال أروان أناجي.

بداية جديدة.

كررت الحيلة مع كل معلم. التكرار مهم في تدريب البشر كما في تدريب الحيوانات. كنت، بين اسم عادي وآخر، أخرج إلى اللوح وأروح أخطّ، أحياناً بخربشة فظيعة، تفاصيل انبعاثي. حدث أنه بعد بضعة مرات صار الفتيان ينشدون الاسم معي، ليرتفع صوتهم المتناغم ككورس تدريجياً، حتى يبلغ ذروته بعد تنشق الهواء حين أضع الخطين تحت أحرف «باي». بضعة فتيان كانوا يرددون هاتفين: «ثلاثة. نقطة. واحد. أربعة»، بينما أكتب بأسرع ما أمكنني، وكنت أنهي هذه المعزوفة الموسيقية بقطع الدائرة بقوة تجعل نثرات الطبشور تتطاير.

حين رفعت يدي لكي يأذن لي المعلم بالكلام ذلك اليوم لفظ اسمي بهذين الحرفين اللذين صار لهما وقع الموسيقى في أذني، وقد تبعه التلاميذ في ذلك، بمن فيهم أشرار «السانت جوزيف». في الواقع لاقى الاسم رواجاً، مما يثبت أننا حقاً أمة من المهندسين: بعد فترة وجيزة، أطلق صبي يدعى أومبراكاش على نفسه اسم «أوميغا»، وآخر أطلق على نفسه اسم «أوبسيلون»، وصار هناك «غاما» أيضاً،

و«لامبدا»، و«دلتا». لكنني كنت أول «اليونانيين» في المدرسة وأكثرهم استمرارية. وحتى أخي، كابتن فريق الكريكت، ذلك الإله المحلي، أعجبه الأمر. رآني صباح اليوم التالي في الملعب وانتحى بي جانباً:

«ما الذي اسمعه عن كنية تطلقها على نفسك ؟»، قال.

التزمت الصمت، لأنه أياً كانت السخرة الآتية فلا مجال لتفاديها.

«لم أكن أعرف أنك تحب اللون الأصفر إلى هذا الحد».

اللون الأصفر؟ نظرت حولي خشية أن يسمع أحدهم ما سيقوله، خصوصاً أحد أتباعه. «رافي، ما الذي تقصده؟»، همست.

«لا بأس بالنسبة إلي، يا أخي، فأي اسم هو أفضل من بيسينغ. حتى ليمون باي».

ثم، وهو يمشي الهوينى مبتعداً، ابتسم وقال: «لقد احمرت وجنتاك».

لكنه أبقى على سلامه معي.

وهكذا، في ذلك الحرف اليوناني الذي يشبه كوخاً حديدي السقف، في ذلك الرقم غير المنطقي الذي يحاول العلماء من خلاله فهم الكون، وجدت الملاذ.

الفصل ٦

إنه طباخ ماهر. تفوح باستمرار في أرجاء منزله الدافئ روائح طيبة. رف البهارات في مطبخه يشبه الصيدلية. حين يفتح ثلاجته أو خزانته، أرى أسماء أنواع كثيرة لا أعرفها، ولا أعرف بأي لغة كتبت حتى. يشعرك المكان أنك في الهند، لكنه يجيد أيضاً الطبخ الغربي.

وقد ذقت عنده أفكه وأطيب معكرونة بالجبن أكلتها في حياتي، أما «التاكو» النباتي الذي أعدّه لي، فمن شأنه أن يثير غيرة المكسيك كله.

لاحظت شيئاً آخر: مدى امتلاء خزائن مطبخه. وراء كل باب، وعلى كل رف، كميات من العلب والأكياس. مؤونة تكفي للصمود خلال حصار لننغراد.

الفصل ٧

كان من حسن حظي أنني حظيت ببضع معلمين جيدين في شبابي، نساء ورجال دخلوا إلى رأسي المعتم وأشعلوا فيه ثقاباً. كان أحد أولئك يدعى السيد ساتيش كومار، أستاذ علم الأحياء في «بيتيه سيمينير»، وهو ناشط شيوعي كان حلمه أن يتوقف سكان «تاميل نادو» عن انتخاب نجوم السينما ويحذوا حذو كيرالا. كان غريب الشكل. أصلع ومستدق الرأس، وله حنك لا أظن أنني رأيت في حياتي مثيلاً له. كتفاه الصغيران يهبطان إلى معدة ضخمة تستوي كقاعدة جبل، غير أنه جبل يقف في الهواء، إذ تختفي البطن فجأة، وتتلاشى أفقياً في بنطاله. كان من المحير بالنسبة إليّ كيف أن رجلين رفيعتين كرجليه تقدران على حمل كل هذا الوزن، لكنهما كانتا تحملانه، وإن كانت حركتهما مفاجئة أحياناً، كما لو أن ركبتيه تمكنهما الالتواء في كافة الاتجاهات. كانت هندسي البنية: بدا مثل مثلثين، متوازنين في خطين متوازيين، لكنه كائن عضوي أيضاً، ثألولي في واقع الأمر، تنبت عساليج من الشعر الأسود من أذنيه. وودود. كانت ابتسامته العريضة بمثابة القاعدة التي تسند رأسه المثلث.

كان السيد كومار أول ملحد صريح أعرفه، وهذا لم أكتشفه في

الصف، بل في حديقة الحيوانات. كان يداوم على زيارة الحديقة، ويحرص على قراءة الأسماء والشروحات كاملة، ويمعن النظر في كل حيوان يراه، فكل واحد منها يمثّل بالنسبة إليه انتصاراً للمنطق والميكانيكا، مثلما أن الطبيعة برمتها كناية عن رسم بياني استثنائي للعلم. كانت حاجة الحيوان إلى التزاوج تنطق في أذنيه باسم غريغور ماندل، أبو علم الجينات، وحين تبدأ سمات الحيوان الخاصة بالبروز، يتبدّى له «تشارلز داروين»، أبو الانتخاب الطبيعي، أما ما نعتبره نحن ثغاء، وقباعاً، وهسهسة، وصهيلاً، وهدرا، وهريراً، وعواء، وسقسقة وخرمشة، فلم تكن في اعتباره سوى لهجات غير مفهومة كالتي ينطق بها الأجانب. وباختصار، كان السيد كومار يزور الحديقة لكي يقيس نبض الكون، حيث يؤكّد له عقله السمعي، الذي يصغي باهتمام بالغ إلى هذه الأصوات، أن كل شيء على ما يرام، ويعمل بانتظام. كان يغادر الحديقة وقد انتعشت روحه العلمية.

حين رأيته للمرة الأولى يتنزه في أنحاء الحديقة، خجلت من الاقتراب منه. فبقدر ما كنت أحبه كمعلّم، كان شخصية سلطوية بالنسبة إلي، وكنت أهابه بعض الشيء. راقبته عن بعد وهو يقف عند حفرة فرسي النهر، التي تختلف الفرجة عليهما عن الفرجة على أي حيوان آخر. فهذان الحيوانان الهنديان كانا عنصر جذب استثنائي للزوار، لكن ليس بفضلهما وحدهما، بل بفضل الماعز. معروف أن أفراس النهر اجتماعية، وعند وصول «بيك»، الذكر الفتي، إلى الحديقة، راح يظهر علامات معاناة بسبب الوحدة، ثم أخذ أكله يتقلص شيئاً فشيئاً. كان يحتاج إلى صحبة، خصوصاً صحبة أنثى، وكإجراء مؤقت حتى العثور على رفيقة له من جنسه، فكّر أبي بأن

يجرب ما إذا كان بمقدور «بيك» العيش مع الماعز. فإذا ما نجحت المحاولة فمن شأنها إنقاذ حيوان ثمين، وإلا فلن تكلف الخسارة سوى بضعة رؤوس من الماعز. نجح الأمر بشكل مذهل. صار «بيك» لا ينفصل عن قطيع الماعز، حتى بعد أن انضمت إلى الجمع أنثاه «ساميت». والآن، حين يستحم الحيوانان تنتشر الماعز حول البركة الموحلة، وحين تأكل الماعز في ركنها، يقف «بيك» و«ساميت» قربها كحارسين.

رآني السيد كومار. ابتسم. كان ممسكاً بالسياج بإحدى يديه، فأشار لي بالأخرى بأن آتي إليه.

«مرحباً باي»، قال.

«مرحباً سيدي، جميل منك أن تأتي إلى الحديقة».

«آتي إلى هنا باستمرار، إنها بمثابة معبدي. كم هذا مثير للاهتمام...»، قال مشيراً إلى حفرة فرسي النهر، «لو كان سياسيون كهذه الحيوانات لتضاءلت مشكلاتنا في هذا البلد، لكن لسوء الحظ لدينا رئيس وزراء يملك درع فرس البحر من دون أي من حواسه الأخرى الجيدة».

لم أكن أعرف الكثير في السياسة. أبي وأمي كانا دائمي التذمر من السيدة غاندي، لكن قلما عنى لي هذا شيئاً، فهذه السيدة تعيش بعيداً في الشمال، وليس في حديقة الحيوانات في بونديتشيري، لكنني شعرت بأنه ينبغي أن أقول شيئاً.

«الدين سينقذنا»، قلت. طالما، مذ وعيت، كان الدين الأحبّ إلى قلبي.

«الدين؟»، ارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة: «لا أؤمن بالدين. الدين هو الظلام».

الظلام؟ صدمت. فالظلام آخر ما يمكن أن يوصف به الدين. الدين هو الضوء. أكان يختبرني؟ أكان يقول: «الدين هو الظلام»، على نحو ما يقول في الصف أحياناً «الثدييات تبيض»، فقط لكي يختبر معلومات التلاميذ؟ («منقار البطة هو الحيوان الثديي الوحيد الذي يبيض، سيدي»).

«ليس هناك ما يدعونا إلى المضي أبعد من التفسير العلمي للواقع، ولا منطق صائباً في تصديق أي شيء سوى تجربتنا الحسية. الفكر الصافي، ومراقبة التفاصيل بدقة، والقليل من المعرفة العلمية، ستفضح الدين كهراء خرافي. الله غير موجود».

أكان هذا ما قاله حرفياً؟ أم أنني أستحضر كلام ملحدين آخرين التقيتهم لاحقاً؟ بأي حال، كان شيئاً من هذا القبيل. لم أكن سمعت في حياتي مثل هذه الكلمات.

«لماذا نقبل بالعتمة؟ كل شيء هنا وواضح، ما علينا سوى أن نمعن النظر».

وأشار مجدداً إلى «بيك»، الذي على الرغم من إعجابي به، لم يدر في خلدي يوماً النظر إليه بوصفه لمبة إنارة.

استأنف الحديث: «بعضهم يقول إن الله مات خلال انفصال عام ١٩٤٧. ربما يكون مات عام ١٩٧١ خلال الحرب. أو ربما يكون مات البارحة هنا في بونديتشيري في دار أيتام. هذا ما يردده بعض الناس، يا باي. حين كنت في مثل سنك، اضطررت إلى ملازمة

السرير، بسبب شلل الأطفال. وكنت أسأل نفسي كل يوم: «أين هو الله؟ أين هو الله؟ أين هو الله؟» لكن الله لم يأت أبداً. لم يكن الله الذي أنقذني، كان الدواء. العقل هو نبيي وهو الذي يعلّمني بأنه حين تتعطل ساعتنا نموت. تكون النهاية. إذا لم تعمل الساعة بشكل صحيح، فينبغي أن نقوم نحن بإصلاحها، الآن وهنا. ذات يوم سنسيطر على وسائل الإنتاج وستعم العدالة الأرض».

كان كلامه يفوق احتمالي. بدت نبرته صائبة، ومحبة وشجاعة، لكن التفاصيل قاتمة. فلزمت الصمت، ليس خوفاً من إغضابه، بل بسبب إحساسي بأن الكلمات القليلة التي يمكن أن أقولها قد تدمر شيئاً كنت أحبه. ماذا لو كان لتلك الكلمات تأثير شلل الأطفال عليّ؟ أي وباء رهيب هذا، إذا كان بوسع الكلمات أن تقتل الله في الإنسان.

مضى قدماً على الأرض الثابتة التي بالنسبة إلي تحولت بحراً مضطرباً، «لا تنسَ امتحان الثلاثاء، أدرس جيداً يا ١٤. ٣».

«حاضر أستاذ كومار».

أصبح أستاذي المفضل في «بيتيه سيمينير»، وهو سبب دراستي علم الحيوان في جامعة تورونتو: شعرت بنوع من الزمالة معه، وكان أول من جعلني أشعر بأن الملحدين ليسوا إلا إخوتي وأخواتي في دين آخر، وأن كل كلمة يقولونها تشهد بالإيمان، وأنهم على غراري يركضون بقدر ما تحملهم أرجل المنطق، ثم يقفزون.

سأكون صادقاً حول الأمر. ليس الملحدون هم الذين يزعجونني، بل اللاأدريين. أدرك أن الشك مفيد لبعض الوقت، وأنه علينا جميعاً أن نجتاز حديقة الجثمانية. إذا ما كان المسيح داعب الشك، فينبغي لنا أن نداعبه أيضاً. إذا ما كان المسيح أمضى ليلة من العذاب

والصلاة، وإذا ما صرخ وهو معلق على الصليب: «الهي، الهي، لماذا تخليت عني؟» فيحق لنا نحن أيضاً بأن نشك. لكن علينا المضي قدماً بعد ذلك. أما اختيار الشك كفلسفة حياة، فيماثل عندي اختيار الصخر كوسيلة نقل.

الفصل ٨

غالباً ما نردّد في مجالنا أن الإنسان هو الحيوان الأخطر في حديقة الحيوان، قاصدين بذلك عموماً كيف حولت وحشية جنسنا التاريخية الكوكب كله إلى فريسة لنا. نقصد بالأخص أولئك الذين يعمدون إلى أذية الحيوانات بطرق شتى. فمنهم من يطعم عقاقيف صيد السمك لثعلب الماء، والشفرات للدببة، والتفاح الملغوم بالمسامير الصغيرة للفيلة، وغير ذلك من أساليب وأدوات مؤذية: المسامير حادة الرأس، عقصات الورق، الدبابيس، الشرائط المطاطية، الأمشاط، ملاعق القهوة، حدوات الجياد، شظايا الزجاج، الخواتم، وغيرها من المجوهرات (ليس الأساور البلاستيكية الرخيصة فحسب، بل خواتم الزواج الذهبية أيضاً)، مصاصات الحليب، السكاكين البلاستيكية، طابات كرة الطاولة، طابات كرة المضرب، وهكذا دواليك. لائحة الحيوانات التي تنفق بسبب إطعامها أشياء كهذه تتضمن: الغوريلا، البيسون، اللقلاق، الريّات، النعام، الفقمات، أسود البحر، الهررة الضخمة، الدببة، الجمال، الفيلة، القردة، والغزلان على أنواعها، والطيور المغردة. ولعل من أشهر الحوادث في ذاكرة العاملين في حدائق الحيوانات، حادثة موت «غولياث»، وهي فقمة ضخمة تزن نحو طنين، كانت نجمة إحدى حدائق الحيوانات الأوروبية، وقد

نفقت بسبب نزيف داخلي، بعد أن رمى لها أحدهم بزجاجة جعة مكسورة.

غالباً ما تتخذ هذه الأفعال الفظة أشكالاً أكثر مباشرة وفداحة. وثمة تقارير كثيرة تورد عذابات محددة عانى منها بعض حيوانات الحدائق: طائر «أبو مركوب» الذي نفق من الصدمة بعد أن سحق أحدهم منقاره بمطرقة؛ ذكر الموظ الذي فقد ذقنه وشريحة من لحمه بواسطة سكين أحد الزوار (الحيوان نفسه نفق مسمّماً بعد أشهر)؛ ذراع القرد التي كسرها زائر بعد أن أغراه ببعض البندق لكي يمدها عبر القضبان؛ قرن الوعل الذي قصه زائر بمنشار؛ حمار الوحش الذي طعنه زائر بسيف؛ وغيرها من اعتداءات تعرضت لها حيوانات أخرى بواسطة عصي المشي، والمظلات، ودبابيس الشعر، وإبر الخياطة، والمقصات، وأي شيء آخر، يمكنه أن يفقأ عيناً أو يجرح الأعضاء التناسلية للحيوانات التي يتعرض بعضها أيضاً للتسمم. وهناك أفعال أفظع من ذلك: أشخاص يستمنون على القردة، والمهور، والطيور؛ متطرفون دينيون يسعون إلى بتر رأس أفعى؛ مخبولون آخرون يحبون التبول في فم إلكة.

كنا، في حديقة حيوانات بونديتشيري، محظوظين نسبياً. فقد أعفينا من الساديين الذين تغص بهم حدائق أوروبا وأميركا، ومع ذلك شهدنا بعض الحوادث الأليمة، مثل اختفاء الأغوطي الذهبي، الذي خطفه أحدهم والتهمه، مثلما رجّح أبي، أو مثل طيور التدرج، والطواويس التي نتفت أرياشها. وذات مرة قبضنا على رجل يحمل سكيناً ويتسلق سياج حظيرة الغزلان ليذبح غزالاً؛ قال إنه كان يريد معاقبة «رافانا» الشرير (الذي في «الرامايانا» يتخذ شكل غزال حين يختطف «سيتا»، زوجة «راما»). كما قبض على رجل آخر أثناء

محاولته سرقة أفعى كوبرا، وكان ساحر أفاع نفقت أفعاه. أنقذ الأفعيان من حياة من العبودية والموسيقى السيئة، كما أنقذ الرجلان من لسعتين قاتلتين. كنا مضطرين أيضاً إلى التعامل مع بعض الزوار ممن لا يجدون وسيلة لدفع الحيوانات الخاملة إلى التفاعل معهم إلا عبر رشقها بالحجارة. وهناك حادثة السيدة التي علق ثوبها «الساري» في فم أسد. راحت تغزل كاليويو وهي تخلع الساري، مؤثرة الإحراج الأبدي بأن يراها حشد الزوار عارية، على الموت. اكتشفنا لاحقاً أن هذه أيضاً لم تكن حادثة، فقد مدت المرأة يدها إلى داخل القفص وجعلت تلوح بالساري في وجه الأسد، أما هدفها من ذلك فظل غامضاً. لم تصب بأذى يذكر، إذ هب رجال كثر لمساعدتها. وحين واجهها أبي بفعلتها، أجابته بارتباك: «لكن من سمع عن أسد يأكل القطن؟ كنت أحسب الأسود من أكلة اللحوم». أما أسوأ الزوار فأولئك الذي يرمون الطعام للحيوانات. ورغم تيقظنا معظم الأوقات، فإن بيطري الحديقة السيد أتال، كان يمكنه أن يقدّر، من عدد الحيوانات التي تعاني عسر هضم، أنه كان يوماً مزدحماً في الحديقة. كان يطلق اسم «المشهيات»، على حالات التهاب الأمعاء أو المعدة التي تصيب الحيوانات بسبب تناولها الكثير من المواد المحتوية على الكاربوهايدرايت، وخصوصاً السكر. أحياناً كنا نتمنى ألا يتجاوز الزوار حدود الحلويات في ما يرمونه من أطعمة للحيوانات. يظن الناس عموماً بأن الحيوانات قادرة على أن تأكل كل شيء من دون أي تأثير لذلك على معدتها، وهذا طبعاً غير صحيح. وقد حدث مرة أن مرض أحد دببتنا بشدة والتهبت أمعاؤه بعد أن رمى له رجل، بنية طيبة، سمكة فاسدة.

كان ثمة، بعد كشك بيع التذاكر مباشرة، جدار نقش أبي عليه بطلاء أحمر فاقع، السؤال الآتي: **«أتعرف ما هو أخطر حيوان في الحديقة؟»**، وبعد السؤال رسم سهماً يشير إلى ستارة صغيرة. كان كثر من الفضوليين يقعون في الفخ ويزيحون الستارة، فلا يجدون أمامهم سوى مرآة تعكس صورتهم. كان علينا أن نبدّل الستارة باستمرار.

وقد كنت، وأخي رافي، ضحية اعتقاد أبي الراسخ بوجود حيوان آخر أخطر بكثير منا، إنه ذلك الحيوان الشائع الذي يمكن أن نجده في كل قارة، وفي كل بيت: «أنيمالوس أنترومورفيكوس»: «الحيوان مرئياً بعيون بشرية»، الحيوان المؤنسن، ليس منا من لم يلتق واحداً، أو يمتلك واحداً حتى، إنه الحيوان «الظريف»، «الودود»، «المحب»، «الوفي»، «المرح»، «المتفهم»، الذي نجد نماذج عنه في كل متجر ألعاب وحديقة حيوانات للأطفال، وثمة قصص لا تنتهي عنه، إنه تكملة للائحة تلك الحيوانات «الشريرة»، «المتعطشة للدماء»، «المحرومة» التي تشعل حنق المهووسين الذين ذكرتهم أعلاه، الذين يصبون جام غضبهم عليها بالعصي والمظلات، وفي الحالين ننظر إلى حيوان كما لو أننا ننظر في مرآة. إن هوسنا بأن نضع أنفسنا في مركز كل شيء يشكّل لعنة، ليس فقط على الثيولوجيين، بل على الزيولوجيين أيضاً.

تعلمت درس أن الحيوان يختلف عنا جوهرياً وعملياً، مرتين: مرة مع أبي، ومرة أخرى مع ريتشارد باركر.

حدثت المرة الأولى في صبيحة يوم مشمس. كنت ألعب وحدي بهدوء في البيت. سمعت أبي ينادي علينا.

«أيها الولدان، تعالا».

أطلقت نبرة صوته في رأسي جرس تنبيه صغير. ثمة خطب ما. راجعت ضميري بسرعة، فوجدته صافياً. لا بدّ من أن رافي أقدم مرة أخرى على ارتكاب ذنب ما. اتجهت إلى غرفة الطعام، وأنا أتساءل عما يمكن أن يكون فعله رافي هذه المرة، واستغربت وجود أمي هناك، لأن شؤون التربية، مثل الاعتناء بالحيوانات، كانت عموماً من اختصاص أبي. دخل رافي أخيراً، والذنب ينضح من وجهه المجرم كله.

«رافي، بيسين، سألقنكما اليوم درساً بالغ الأهمية».

«آه حقاً، أذلك ضروري؟»، قاطعته أمي، وكان الحنق جلياً على وجهها.

بلعت ريقي. إذا ما كانت أمي التي عادة ما تكون رائقة وهادئة جداً مضطربة، بل مستاءة، فهذا يعني أننا في ورطة فعلية. تبادلت ورافي النظر.

«بلى، إنه مهم»، قال أبي، منزعجاً، «قد ينقذ هذا الدرس حياتيهما يوماً ما».

ينقذ حياتينا! لم يعد مجرد جرس إنذار صغير يرن في رأسي، بل أجراساً ضخمة تدوي، كتلك التي نسمع طنينها منبعثاً من كنيسة «قلب يسوع الأقدس»، القريبة من حديقة الحيوانات.

«لكن بيسين، إنه في الثامنة فقط»، أصرّت أمي.

«إنه الذي يقلقني أكثر».

«أنا بريء»، صرخت، «لم أفعل شيئاً». نظر إليّ أبي غاضباً.

«هس»، قال، رافعاً يده. ثم ناظراً إلى أمي: «غيتا، ألا ترين، إنه في السن التي يبدأ فهي الأطفال يدسون أنوفهم في كل شيء».

أنا، متطفل، يدس أنفه في ما لا يعنيه؟ ليس صحيحاً، ليس صحيحاً!، دافعي عني يا أماه، دافعي عني، رحت أتوسل في قلبي، لكنها فقط تنهدت وهزت رأسها، علامة على أن الأمر الفظيع يمكنه أن يستمر.

«تعالا معي»، قال أبي.

سرنا كمحكومين يقادان إلى المشنقة.

غادرنا المنزل، وعبرنا البوابة إلى حديقة الحيوانات. كان الوقت مبكراً والحديقة لم تفتح أبوابها بعد، وكان المشرفون على الحيوانات يقومون بعملهم المعتاد. لمحت «سيتارام»، المشرف على القردة، وهو المفضل عندي، وقد توقف عن العمل وأخذ يتفرج علينا ونحن نمر. مررنا بجوار الطيور، والقردة، والسعادين، وذوات الحوافر، والمربى البري، وأقفاص الرنة، والفيلة، والزرافات.

وصلنا إلى أقفاص الهررة الضخمة، من نمور، وأسود، وفهود، حيث كان ينتظرنا «بابو»، المشرف عليها، فرافقناه إلى قفص الهررة الذي يقع في وسط خندق مائي. دخلنا. كان كهفاً إسمنتياً معتماً، دائري الشكل، دافئ ورطب، ويفوح منه بول الهررة. حولنا أقفاص ضخمة تفصل بينها قضبان حديد خضراء غليظة. كان ضوء أخضر ينبعث من المنور، وكان يمكن، عبر مخارج القفص، رؤية الجزيرة الخضراء المحيطة بنا، وقد غمرها شعاع الشمس. كانت الأقفاص خالية من الحيوانات، باستثناء حيوان واحد: «ماهيشا»، نمرنا البنغالي، ذلك الوحش الضخم الذي يزن ٥٥٠ باونداً، والذي ما إن رآنا حتى

اقترب من القضبان وأطلق زمجرة مدوية، أذناه هامدتين على جمجمته، أما عيناه المدورتان فمركزتين على بابو. كان دوي زمجرته قوياً ومخيفاً إلى حدّ بدا لي أنه يهز قفص الهررة كله. اصطكت ركبتاي، فالتصقت بأمي، وكانت ترتجف هي الأخرى. حتى أبي بدا في جموده كأنه يهدئ من روع نفسه. وحده بابو لم يكن عابئاً بتلك الزمجرات والنظرات التي تخترقه. لديه ثقة عمياء بتلك القضبان. كان ماهيشا يتمتختر في القفص.

التفت أبي نحونا: «أي حيوان هو هذا؟»، صرخ محاولاً التغطية على زمجرة ماهيشا.

«إنه نمر»، أجبت ورافي بصوت واحد، مشيرين إلى ما هو واضح.

«هل النمور خطرة؟».

«أجل، أبتاه، النمور خطرة».

«النمور خطرة جداً»، صرخ أبي، «أريدكما أن تفهما بأنه لا ينبغي لكما وتحت أي ظرف أن تلمسا نمراً، أو أن تدلّلا نمراً، أو أن تمدا أيديكما عبر قضبان قفصه، أو حتى أن تقتربا من قفصه. أهذا واضح يا رافي؟».

هز رافي رأسه بقوة.

«بيسين؟».

هززت رأسي بقوة أكبر.

ظلّ يرمقني.

هززت رأسي بعنف شعرت معه أن رأسي سينفصل عن كتفي ويتدحرج على الأرض.

أحب أن أقول دفاعاً عن نفسي أنه على الرغم من أنني كنت أحب أحياناً أن أسبغ على الحيوانات صفات بشرية، متخيلاً إياها تنطق الإنكليزية بسلاسة، كأن تتذمر طيور التدرج لأن شايها برد، أو أن تخطط السعادين للهرب بعد سرقة مصرف، متحدثة بصفاقة رجال العصابات الأميركيين، فإنني كنت واعياً باستمرار أنها مجرد خيالات. كنت ألبس الحيوانات البرية ملابس مخيلتي، لكنني لم أنخدع إطلاقاً بالطبيعة الفعلية لرفاق اللعب أولئك. أنفي المتطفل أعقل من ذلك. لا أعرف من أين جاء أبي بفكرة أن الإبن الأصغر قد يفكر بدخول قفص فيه حيوان شرس من أكلة اللحوم. لكن أياً كان سبب قلق أبي، وهو كان من النوع القلق، فقد كان مصمماً يومها على أن يحرر نفسه من ذاك القلق.

«سأثبت لكما كم النمور خطرة»، ومضى قائلاً، «أريدكما أن تتذكرا هذا الدرس لبقية حياتيكما».

أشار بإيماءة من رأسه إلى بابو، فمضى هذا الأخير، فيما تتابعه عينا ماهيشا حتى استقرتا على الباب الذي خرج منه، وما هي إلا ثوان حتى عاد بابو حاملاً معزاة موثقة القوائم، وما إن رأتها أمي احتضنتني من الخلف، أما ماهيشا فجعل يخرخر عميقاً من حلقه.

دخل بابو إلى قفص مجاور لقفص النمر تفصله عنه القضبان وباب جداري يفتح من السقف، وأوصد الباب وراءه. وما إن رأى ماهيشا المعزاة داخل القفص المجاور حتى تقدّم نحو القضبان الفاصلة، ماداً مخالبه عبرها، وقد تحول هريره إلى عواء أجش. أما المعزاة التي كأنما أدركت مصيرها القاتم فراحت تجيش بعنف ولسانها متدل من فمها وعيناها تغزلان كطابتين صغيرتين. وبعد أن وضعها «بابو» على

الأرض وحرّر قوائمها، خرج من القفص بالطريقة عينها التي دخل بها. داخل القفص أرضيتان، إحداهما متساوية مع الأرض، أما الثانية التي في عمق القفص، فترتفع عن الأرض نحو ثلاثة أقدام، وتفضي إلى الجزيرة. شرعت المعزاة تحاول التسلق إلى الأرضية الثانية. أما ماهيشا، الذي لم يعد يبالي الآن ببابو، فأقعى ساكناً، وذيله الذي يتحرك بهدوء علامة وحيدة على اضطرابه.

صعد بابو إلى أعلى القفص وأخذ يحاول رفع جدار القضبان الذي يفصله عن قفص النمر. وفي الأثناء ظل «ماهيشا» صامتاً وكأنه يتوقع أن ينال قريباً ما يرضيه. سمعت صوتين في تلك اللحظات: أبي وهو يقول متجهماً: «لا تنسيا أبداً هذا الدرس»؛ وثغاء المعزاة. لا بد من أنها كانت تثغو طوال الوقت، غير أننا سمعناها في تلك اللحظة.

أحسست يد أمي تضغط على قلبي الذي كاد يخرج من صدري.

أخذ الجدار الفاصل ينفتح بصعوبة مصدراً صريراً حاداً. بدأ ماهيشا يفقد السيطرة على نفسه، بدا كأنه سيقتحم القضبان، متردداً بين أن يبقى حيث هو، وحيث فريسته أقرب إليه لكن لا يمكنه الوصول إليها، وبين النزول إلى المستوى الأرضي، أبعد من الفريسة لكن حيث يقع الباب المؤدي إليها. نهض وراح يزمجر ثانية.

بدأت المعزاة بالقفز. قفزت إلى علو مذهل. لم يكن لدي فكرة أن المعزاة يمكنها القفز إلى مثل هذا العلو. كانت تحاول الوصول إلى أعلى الجدار في الجهة الخلفية من القفص، لكنه جدار إسمنتي عال وناعم، فيستحيل على قوائمها التشبّث به، أو الارتفاع إلى ذروته.

بسلاسة مفاجئة انفتح الباب الجداري. عمّ الصمت مجدداً، لم نعد نسمع سوى ثغاء المعزاة، وصوت «كليك كليك» توقّعه حوافر النمر على الأرض.

سهم برتقالي مخطط بالسواد اخترق القفص.

عادة تُحرم الهررة الكبيرة من الغذاء ليوم واحد في الأسبوع، وذلك محاكاة لنظامها الغذائي في البرية. لكننا علمنا لاحقاً أن أبي أمر بألا يقدّم أي طعام لماهيشا لثلاثة أيام.

لست أكيداً من أنني رأيت بالفعل دماً قبل أن أختبئ بين ذراعي أمي، أم أنني رسمته لاحقاً في ذاكرتي بفرشاة كبيرة. لكنني سمعت. وكان الصوت كافياً ليسحب مني الضوء النهاري النباتي. أمي مضت بنا على وجه السرعة إلى الخارج. كنا في حال هستيرية. وكانت هي تضطرم سخطاً.

«كيف أمكنك فعل ذلك يا سانتوش؟ إنهما طفلان! سيظلان خائفين طوال حياتهما».

كان صوتها عنيفاً ومهتاجاً، وعيناها مغرورقتين بالدموع. فأشعرني ذلك ببعض التحسن.

«غيتا، عصفورتي، إنه لصالحهما. ماذا لو دس بيسين يده عبر قضبان القفص يوماً لكي يلمس الفراء البرتقالي الجميل؟ من الأفضل معزاة بدلاً منه، أليس كذلك؟».

كان صوته ناعماً، يكاد يكون همساً. بدا نادماً. كانت المرة الأولى التي يناديها «عصفورتي» في حضورنا.

اجتمعنا حولها. انضم إلينا. لكن الدرس لم يكن قد انتهى، مع أنه صار ألطف بعد ذلك.

أخذنا أبي إلى الأسود والفهود.

«ذات مرة حاول رجل استرالي مجنون يملك حزاماً أسود في

الكاراتيه، أن يثبت قوته ضد الأسود. خسر، وبشكل سيء. لم يجد العاملون في حديقة الحيوانات سوى نصف جسده في الصباح التالي».

«أجل، أبي».

اتجهنا إلى الدببة الهمالانية ودببة السلوث.

«ضربة واحدة من كف هذه المخلوقات الوادعة وستريان أحشاءكما تنتزع وتتبعثر أشلاء».

«أجل، أبي».

فرس النهر.

«بفكها الناعم الرخو يمكنها أن تسحق جسم أي كان وتحيله كتلة دموية، وهي في الجري تفوق البشر سرعة».

«أجل، أبي».

الضبع.

«صاحب أقوى فك في الطبيعة. ربما تظنان أنه جبان أو أنه فقط يأكل الجيف، لكنه ليس بجبان ولا يأكل الجيف فحسب. إذا وقع أحدكما فريسته فسيبدأ بالتهامه وهو لا يزال حياً».

«أجل، أبي».

السعلاة.

«إنها قوة عشرة رجال، تسحق عظام فريستها كغصن رقيق. أعرف أن بعضها في الماضي كان حيواناً أليفاً وكنتما تلعبان معه حين كان صغيراً، لكنها الآن حيوانات كبيرة ومفترسة ولا يمكن التنبأ بتصرفاتها».

«أجل، أبي».

النعام.

«تبدو بلهاء وسخيفة، أليس كذلك؟ لكن اسمعا: إنها إحدى أخطر الحيوانات في حديقة الحيوانات. ركلة واحدة منها كفيلة بأن تكسر الظهر».

«أجل أبي».

الغزلان المرقطة.

«جميلة جداً، أليست كذلك؟ إذا ما شعر الذكر أنه مضطر إلى ذلك فسيهاجمكما، ويروح بقرنيه الصغيرين يطعن جسديكما».

«أجل، أبي».

الجمل العربي.

«عضة واحدة من فمه وتفقدان قطعة لحم».

«أجل، أبي».

البجع الأسود.

«مناقيرها قادرة على تحطيم الجمجمة. بخبطة من جناحها تكسر ذراعاً».

«أجل، أبي».

الطيور الأصغر منها.

«يمكنها أن تثقب الأصابع بمناقيرها كما لو كانت زبدة».

«أجل، أبي».

الفيلة.

«الأخطر بين الحيوانات. تقتل من عمال حديقة الحيوانات ومن الزوار أكثر من أي حيوان آخر. فيل فتي يمكنه أن يقطع أوصالكما، ويسحق جسميكما. هذا ما حدث لأحد المساكين في حديقة أوروبية دخل إلى جحر الفيلة عبر النافذة. أما إذا كان الفيل أكبر حجماً وأكثر صبراً فسيعصركما قالبة جدار أو يقعد عليكما. صورة طريفة.. لكن فكرا بها قليلاً».

«أجل، أبي».

«هناك حيوانات لم نقف عندها. لا تحسبا أنها غير مؤذية، فالكائن الحي مهما كان صغيرة يعمد إلى الدفاع عن نفسه. كل حيوان هو مفترس وخطير. قد لا يقتل لكنه بالتأكيد سيجرح. سيخرمش ويعض، ويمكنكما أن تتوقعا في هذه الحالة أن تمرضا وتمكثا عشرة أيام في المستشفى».

«أجل، أبي».

وصلنا إلى الخنازير الغينية، الحيوانات الوحيدة التي أمر أبي بتجويعها إضافة إلى ماهيشا، فحرمت من وجبة الليلة الماضية. فتح أبي القفص. أخرج من جيبه كيس بذار أفرغه على الأرض.

«أتريان هذه الخنازير؟».

«أجل، أبي».

كانت الخنازير ترتجف من شدة هزالها وأخذت تقضم بنهم حبوب الذرة.

«حسناً»، انحنى وحمل إحداها «إنها ليست خطيرة». الخنازير الأخرى انتشرت على الفور.

ضحك أبي، وناولني الخنزير. كان قصده أن ينهي التجربة بطريقة خفيفة.

استقر الخنزير بين يدي. كان صغيراً. اتجهت إلى القفص ووضعته بهدوء على الأرض. اتجه إلى أمه. السبب الوحيد في كون هذه الخنازير غير مؤذية، هو أنها عملياً صارت مدجنة. وإلا فإن حمل خنزير غيني بري باليدين العاريتين يشبه حمل خنجر من جهة النصل.

انتهى الدرس. رافي وأنا بقينا عابسين طوال الأسبوع في وجه أبينا. أمنا تجاهلته أيضاً. حين مشيت بجوار حفرة فرسي النهر تخيلت أن رأسيهما منحنيين حزناً على خسارة رفيقة عزيزة لهما.

لكن ما الذي يمكنك أن تفعله حين تحب والدك؟ تحرص على ألا تلمس نمراً في حياتك. لكن أكثر ما بدأ يشغل بالي، وبعد أن اتهمت رافي بجريمة لم يرتكبها، فقد كان وضعي في غاية الحرج. بعد ذلك اليوم كلما أراد رافي أن يرهبني، همس في أذني: «أنتظر حتى نصبح وحدنا. أنت المعزاة التالية».

الفصل ٩

جعل الحيوانات تعتاد على حضور البشر في ما بينها هو أساس فن وعلم حديقة الحيوانات. الهدف الأساسي هو تقليص المسافة الافتراضية عند الحيوان، أي المسافة الأقصر التي يريد الحيوان أن يبقي عندها عدوه المفترض. طائر نحام في البراري لا يمانع وجودك إذا كنت بعيداً عنه أكثر من ٣٠٠ ياردة، لكن تجاوز هذا الحد وسيصبح متوتراً، اقترب أكثر وستجده قد انطلق في اتجاهك، ولن يقف حتى تستعاد المسافة السابقة، أو يموت الشخص الذي اخترقها.

كل حيوان له مسافة مختلفة، يقيسها بطرق مختلفة. فالهررة تنظر، والغزلان تسمع. أما الزرافة فتسمح لك بالاقتراب حتى مسافة ثلاثين ياردة إذا ما كنت بسيارة، لكنها ستطاردك إذا كنت على بعد ١٥٠ ياردة على رجليك. السلاطعين تفزع إذا كنت على مبعدة عشر ياردات؛ القردة تبدأ بالقفز على الغصون إذا كنت على مبعدة عشرين ياردة. الثور الإفريقي يتحرك عند تجاوز مسافة خمسة وسبعين ياردة.

أما الآداة التي نستعملها لتقليص المسافاة فهي المعرفة التي تتكون لدينا عن الحيوان، والطعام والمأوى، اللذين نؤمنهما له، والحماية. حين تنجح هذه الأمور فالنتيجة حيوان مسترخ ومستقر عاطفياً، لا يبقى هادئاً فحسب، بل بصحة جيدة، ويعيش طويلاً، يأكل بهدوء، ويتصرف ويتعامل مع الحيوانات الأخرى بطرق طبيعية وتصدر منه أفضل الإشارات. لا أقارن بين حديقتنا وحدائق سان دييغو أو تورونتو أو برلين أو سينغافورة، لكن لا يمكنك أن تقلل من شأن مدير جيد. فقد تمكن أبي من التعويض عن التدريب الأكاديمي بموهبة فطرية وعين ثاقبة. كان يحب مراقبة الحيوان وأن يخمّن ما يجول في خاطره. كان شديد العناية بحيواناته، التي في المقابل تضاعفت اعدادها، بل في بعض الأحيان فاضت عن الحدّ.

الفصل ١٠

مع ذلك سيظل هناك دائماً حيوانات تسعى إلى الفرار، ولا سيما تلك التي لا تشعر بالارتياح في حيزها المكاني. كل حيوان يتطلب حاجات محددة فيما يتعلق بالسكن، ينبغي تحقيقها له. فإذا كان القفص مناراً أكثر من اللزوم، أو مبللاً أكثر من اللزوم، أو فارغاً أكثر

من اللزوم، إذا كان مجثمه عالياً أو مكشوفاً أكثر من اللزوم، إذا كانت الأرض ترابية أكثر من اللازم، إذا لم تكن الأغصان كافية لصنع عش، إذا كان الغذاء قليلاً، إذا لم يكن هناك ما يكفي من الطين، والكثير من «إذا». . . فعندها لن يشعر الحيوان بالطمأنينة. لا يتعلق الأمر بمحاكاة شروط عيشه في البرية، بقدر ما بالوصول إلى جوهر هذه الظروف. كل شيء في المبيت ينبغي أن يكون مناسباً ـ بكلام آخر، في حدود قدرة الحيوان على التأقلم. مذمومة الحدائق ذات المبايت السيئة، فهي التي تسبغ الصيت العاطل على كل الحدائق الأخرى.

الحيوانات البرية لتي تؤسر وهي بالغة هي مثال آخر على الحيوانات التي يمكن أن تهرب، فهي غالباً ما تكون معتادة على نمط عيشها القديم بحيث يصعب عليها التأقلم مع بيئة جديدة.

لكن حتى الحيوانات التي يتم استيلادها في حدائق الحيوانات ولم تعرف البرية أبداً، والتي تتأقلم بسهولة مع محيطها ولا تشعر بالتوتر في حضور البشر، تمر بلحظات من الهيجان تدفعها إلى السعي إلى الفرار. يبدو أن ثمة قدر من الجنون في كل الكائنات الحية يحركها بطرق غريبة وغير مفهومة أحياناً. هذا الجنون يمكن أن يكون عامل إنقاذ أحياناً، إنه جزء من القدرة على التأقلم. من دونه لا يمكن لأي جنس الاستمرار بالعيش.

أياً يكن سبب إرادة الهرب، مجنوناً أم معقولاً، فينبغي أن يدرك أولئك الذين ينحون باللائمة على حدائق الحيوانات أن الحيوانات لا تفرّ إلى مكان ما، بل من شيء ما، كأن يخيفها شيء ما في حدود منطقتها ـ دخول عدو مثلاً، اعتداء حيوان آخر، ضوضاء مقلقة. . الخ. عندها فقط تفرّ الحيوانات أو تحاول ذلك. وقد فوجئت حين

قرأت مرة أن الفهود في حديقة حيوانات تورونتو، وهي حديقة ممتازة بالمناسبة، يمكنها القفز إلى ارتفاع ١٨ قدماً. كان ارتفاع السور الخلفي لبيت الفهد في حديقتنا يصل إلى ستة عشر متراً؛ أظن أن سبب عدم محاولة «روزي» و«كوبيكات» القفز إلى الخارج ليس ضعفهما بل لأنه لم يكن لديهما سبب لذلك. الحيوانات التي تهرب تنتقل من المعلوم إلى المجهول، وليس ثمة ما يكرهه الحيوان أكثر من المجهول. لذلك تختبئ الحيوانات الفارة عادة في أول مكان تشعر فيه بالأمان، وهي تكون خطرة فقط على أولئك الذين يحدث أن يحولوا بينها وبين ملاذهم الآمن ذاك.

الفصل ١١

خذ حالة أنثى الفهد السوداء التي فرت من حديقة حيوانات زيوريخ في شتاء ١٩٣٣. كانت وصلت حديثاً إلى الحديقة وبدت منسجمة مع الفهد الذكر. لكنّ جروحاً عدة بالمخالب أشارت إلى نزاع زوجي. وقبل اتخاذ أي قرار حول ما ينبغي فعله، حشرت الفهدة نفسها في فتحة في قضبان السقف واختفت في الليل. وحين اكتشف سكان زوريخ أن وحشاً مفترساً يجول حراً بينهم تولدت لديهم حالة من الذعر، فنصبت الأفخاخ وأطلقت كلاب الصيد، ولم تكن النتيجة سوى تخليص الإقليم من بضع كلابها نصف المهجنة. إذ لم يظهر أثر للفهدة طوال عشرة أسابيع، وفي جوار قريب عثر على بقايا غزال روّ. أن يكون هرّ استوائي ضخم وأسود تمكن من العيش أكثر من شهرين في شتاء سويسري مصقع من دون أن يراه أحد، ومن دون أن يهاجم أحداً، يعبّر بوضوح عن حقيقة أن الحيوانات التي تفر من حدائق

الحيوانات ليست مجرمة فارة خطرة، لكنها ببساطة مخلوقات برية تبحث عن بيئة تنسجم فيها.

وهذه ليست إلا واحدة من حالات عدة. فإذا ما أخذت مدينة طوكيو وقلبتها رأساً على عقب وخضضتها، فسيدهشك عدد الحيوانات التي يمكن أن تسقط منها. لن تكون الكلاب والقطط وحدها التي ستنهمر، بل ستجد الأصلة العاصرة، تنانين كومودو، التماسيح، الضاري، النعام، الذئاب، الوشق، الولّب، خرفان البحر، الشياهم، السعالي، الخنازير البرية ـ هذا هو نوع المطر الذي يمكنك أن تتوقع هطوله على مظلتك. . . وقد ظنوا أنهم سيعثرون عليه. . ها. . وفي قلب الأدغال المكسيكية الاستوائية. . ها! ها! إنه لأمر مضحك؛ مضحك بكل ببساطة. ما الذي كانوا كانوا يفكرون به؟

الفصل ١٢

في بعض الأحيان يصبح مستثاراً. لا شيء مما أقوله يسبب له ذلك (فأنا قليلاً ما أحكي). إنها قصته التي تفعل به هذا. الذاكرة محيط، وهو يتأرجح على سطحه. أقلق في بعض الأحيان من أن تدفعه حالته هذه إلى التوقف. لكنه يريد أن يخبرني قصته. فيستمر. بعد كل تلك السنوات لا يزال ريتشارد باركر في باله.

إنه رجل عذب. كلما زرته يحضر لي وليمة نباتية جنوب هندية. أخبرته أنني أحب البهارات في الطعام. لا أعرف لماذا قلت شيئاً غبياً كهذا. إنها كذبة كاملة، وكان عليّ تحمل عواقبها، إذ بات يحضّر لي وجبات مليئة بالبهارات. أحاول أن آكلها، أضيف إليها كميات من اللبن للتخفيف من حدتها، لكن بلا جدوى. كل مرة النتيجة نفسها:

براعم التذوق عندي تذوي ثم تموت، ثم يبدأ جلدي بالاحمرار، وتمتلئ عيناي بالدموع، ويشتعل رأسي كبيت أضرمت فيه النيران، وتبدأ معدتي تتلوى وتئن من شدة الألم، كأنني أصلة ابتلعت جزازة عشب.

الفصل ١٣

إذاً، كما ترى، إذا ما وقعت في عرين أسد، فلن يمزقك إرباً لأنه جائع، كن واثقاً من ذلك، حيوانات الحدائق تتغذى جيداً - أو لأنه متعطش للدماء، لكن لأنك تجاوزت حدود منطقته.

لهذا السبب يحرص مدرب الأسود في السيرك على دخول الحلبة قبل الأسود، وعلى مرأى منها. فبفعله هذا، يرسخ في أذهانها أن الحلبة هي منطقته، لا منطقتها، وهو مفهوم يعززه بالصراخ، والضرب بشدة بأخمص قدميه، والضرب بسوطه. الأسود تتأثر. تقع تحت وطأة انعدام التكافؤ هذا. لاحظ كيف تدخل إلى الحلبة: مع أنها وحوش مفترسة جبارة، «ملكة الغابة»، فإنها تدخل زاحفة، منخفضة الأذيال، وتلبث عند حافة الحلبة، التي ينبغي أن تكون مدورة بحيث لا تجد الأسود مكاناً للتواري. إنها في حضور ذكر قوي مسيطر، ذكر «سوبر ألفا»، وعليها الخضوع لطقوس سيطرته. هكذا تستجيب للأوامر، فتفتح فكوكها على وسعها، وتقعي، وتقفز داخل طوق مغطى بطبقة ورقية، وتزحف عبر الأنابيب، وتمشي إلى الوراء، وتتدحرج. «إنه غريب»، تفكر الأسود «، لم نر أسداً رئيساً يشبهه، لكنّه مفعم بالكبرياء، كما أن ثلاجته ممتلئة دائماً باللحوم، ولنكن صريحين أيها الرفاق هذه الحركات التي يقوم بها تسلّينا حقاً. فالنوم طوال الوقت

يؤدي فعلاً إلى الملل. على الأقل نحن أفضل حالاً من الدببة التي تركب الدراجات الهوائية، ومن الشيمبانزي التي نلتقط الصحون الطائرة».

ينبغي أن يحافظ المدرب على موقعه ك «سوبر ألفا»، لأنه يمكن أن يدفع ثمناً باهظاً إذا ما انحدر إلى «البيتا». حين تتصرف الحيوانات بطريقة عدوانية، فتعبيراً عن اضطرابها. لذلك ينبغي أن يعرف الحيوان الذي يقف قبالتك موقعه المحدد؛ هل هو أدنى أم أرفع مكانة منك. فالتراتبية الاجتماعية مركزية في نمط عيش الحيوانات، إذ تحدد لها مع من تستطيع التواصل وكيف؛ وأين ومتى يمكنها أن تأكل؛ ومن أين يمكنها أن تشرب؛ وهكذا دواليك. وبانتظار أن يتعرف الحيوان على موقعه بصورة أكيدة، يعيش حياة من الفوضى التي لا تحتمل. يبقى متوتراً، دائم الحركة والقفز، ويكون خطراً. ومن حظ مدرب السيرك فإن التراتبية الاجتماعية بين الحيوانات العليا لا تحدّد دوماً بناء على القوة. يقول هايدغر (١٩٥٠): «حين يلتقي كائنان، فإن الذي يستطيع تخويف خصمه يعدّ متفوقاً اجتماعياً، لذا فسلطة اتخاذ القرار لا تعتمد دائماً على العراك؛ مجرد اللقاء في بعض الحالات يكون كافياً». لا شكّ في أنها كلمات عالم بالحيوانات حكيم. السيد هايدغر عمل لسنوات مديراً لحديقة حيوانات، أولاً حديقة بازل، ثم حديقة زوريخ. كان خبيراً بعالم الحيوانات.

إنه تفوق العقل على العضلات. سيطرة مدرب السيرك سيكولوجية قبل أي شيء آخر: الأشياء المحيطة، وقفته المنتصبة، حركته الهادئة، نظرته الثابتة، خطواته الجسورة، زئيره الغريب (صوت الصافرة أو السوط)، وغيرها من مؤثرات تملأ عقل الحيوان بالشك والخوف،

وتحدد له موقعه ومكانه، وهو ما يريد معرفته بالتحديد. شاعراً بالرضى، الرقم ٢ يتراجع، بينما يلتفت الرقم واحد إلى الجمهور ويصرخ: «ليستمر العرض! والآن سيداتي وسادتي، عبر أطواق من النيران يقفز. . .».

الفصل ١٤

من الامور اللافتة في هذا المجال أن الأسد الذي يخضع بسهولة لسيطرة المدرب هو صاحب المرتبة الأدنى اجتماعياً، «الأوميغا»، الذي يكسب الكثير من علاقته الوثيقة بالسوبر ألفا، أي المدرب. ليست فقط لناحية الحصول على طعام إضافي، فالعلاقة الوثيقة ستعني أيضاً تأمين الحماية من أعضاء المجموعة الآخرين. هذا الأسد الذي لا يميزه الجمهور شكلاً وحجماً عن غيره من الأسود، يصبح نجم الاستعراض، بينما يترك المدرب الأسود البيتا والغاما، الثانوية الأكثر مشاكسة، جاثمة على البراميل الملونة على حافة الحلبة.

الأمر نفسه يصح على حيوانات أخرى في السيرك وفي حديقة الحيوانات. الحيوانات الأدنى رتبة اجتماعية هي تلك التي تبذل أقصى الجهود لكي تكون على صلة بالمشرفين. وتبرهن أنها الأكثر إخلاصاً لهم، والأكثر استجابة لتعليماتهم وحاجة إلى رفقتهم، والأقل تحدياً لهم. هذه الظاهرة تلاحظ عند الهررة الكبيرة، وثيران البيسون، والقردة، والخرفان البرية، وغيرها. إنها من الحقائق الشائعة في هذا المجال.

الفصل ١٥

بيته كناية عن معبد. عند المدخل صورة لغانيشا، الإله ذو رأس الفيل المتوّج والأذرع الأربعة، يقعد مبتسماً فرحاً وملوناً، ثلاثة من أيديه تحمل أشياء مختلفة، أما الرابعة فترتفع بالدعاء. إنه إله تجاوز العقبات، إله الحظ الحسن، إله الحكمة، وراعي العلم. شكله المحبب يدفع المرء إلى الابتسام. عند رجليه فأر لطيف الهيئة، الذي هو عربته، لأن الإله غانيشا، حين يسافر، يمتطي ظهر فأر. على الجدار المقابل لصورة غانيشا ثمة صليب خشبي تقليدي.

في غرفة الجلوس، على نضد إلى جوار الكنبة، ثمة صورة صغيرة مؤطرة لمريم العذراء الغوادالوبية، تتناثر الزهور من عباءتها المفتوحة. وإلى جوارها صورة للكعبة بردائها الأسود، الحرم الأقدس في الإسلام، يتحلق حولها آلاف المؤمنين. على جهاز التلفزيون تمثال برونزي للإله شيفا، متجلياً في واحد من وجوهه العدة، ناتاراجا، الإله الكوني للرقص، الذي يسيطر على حركة الكون وسير الزمن. يرقص وهو يدوس بإحدى رجليه على شيطان الجهل، أما رجله الأخرى مرفوعة في الهواء، وأيديه الأربعة تمتد بحركة راقصة. يقال إنه حين ينزل ناتاراجا رجله الثانية يتوقف الزمن.

ثمة مزار في المطبخ، وضعه في خزانة استبدل بابها بقوس مزين بالنقوش. يخفي القوس جزئياً لمبة صفراء تضيء المزار مساء. ثمة صورتان وراء مذبح صغير عند أحد الجوانب، غانيشا مرة أخرى، وفي الوسط صورة أكبر، يظهر فيها كريشنا المبتسم أصفر الوجه، لاعباً على آلة الفلوت. كل من غانيشا وكريشنا خضبت جبهتيهما ببودرة حمراء وصفراء على الزجاج. وفي طبق نحاسي على المذبح

وضع ثلاثة تماثيل صغيرة فضية، يعرّفها لي مشيراً بإصبعه: لاكشمي، وشاكتي، الآلهة الأم على هيئة بارفاتي: وكريشنا، وهو هذه المرة على هيئة طفل لعوب يزحف على أربع. بين الآلهات وضع تمثال حجري لشيفا شوني لينغا، التي تبدو كنصف حبة أفوكاتة يرتفع وسطها شكل قضيبي، رمز هندوسي يمثل الطاقتين الأنثوية والذكورية للكون. على أحد طرفي الطبق محارة وضعت على قاعدة؛ وعلى الطرف الآخر جرس فضي صغير. بضع حبيبات أرز منثورة، وزهرة بدأت تذبل. العديد من هذه الأشياء طلي بطبقة حمراء وصفراء رقيقة.

ثمة على الرف تحت المزار أشياء عدة مرتبط بالشعائر الدينية: كأس مليئة بالمياه، ملعقة نحاسية؛ مصباح غمّس فتيله بالزيت؛ أعواد بخور وكريات صغيرة من البودرة الحمراء والصفراء، والأرز والسكر.

ثمة صورة أخرى لمريم العذراء أخرى في غرفة الطعام.

فوق في المكتب تمثال من القصدير لغانيشا، يقعد واضعاً رجلاً على رجل إلى جوار الكومبيوتر، على أحد الجدران علق مسيحاً مصلوباً على خشبة أحضره من البرازيل، وعند إحدى الزوايا وضع سجادة صلاة خضراء. المسيح مثير للاهتمام - إنه يتعذب. فوق سجادة الصلاة رف كتب عليه كتاب مغطى بقطعة قماش، حيكت عليها كلمة عربية من أربعة أحرف: الألف، اللامان والهاء: الله، بالعربية.

أما الكتاب الموضوع على نضد قرب السرير فهو الإنجيل.

الفصل ١٦

كلنا نولد مثل الكاثوليكيين، أليس كذلك، في اليمبوس، من دون ديانة، حتى يعرّفنا أحدهم إلى الله؟ وبعد هذا اللقاء ينتهي الأمر

بالنسبة إلى معظمنا. وإذا كان هناك من تغيير يحدث في حياتنا فهو عادة نحو الأصغر، لا الأعظم: يبدو أن معظم الناس يضيعون الله على درب حياتهم. لكن تلك لم تكن حالتي. تعرفت إلى الله كان عبر خالتي الكبرى، وهي امرأة تقليدية اصطحبتني معها إلى المعبد حين كنت طفلاً. كانت الخالة روهيني مسرورة برؤية ابن أختها حديث الولادة، وفكرت بأن تشرك الإلهة الأم في سرورها هذا، «ستكون أول نزهة رمزية بالنسبة إليه»، قالت «إنها السامسكارا»، رمزية بالتأكيد. كنا في «مادوراي»، وكنت الوافد الجديد في رحلة بالقطار ستستغرق سبع ساعات. لا يهم. انطلقنا إلى طقس العبور الهندوسي هذا، أمي تحملني، وخالتي تقودها. لا أعي تماماً زيارتي الأولى تلك إلى معبد، لكن لا يزال عالقاً في ذاكرتي على نحو بعيد وغامض عبق بخور ما، وضوء وظلال، ووميض ما، وألوان صارخة، لا بدّ من أن شيئاً من غموض المكان ورطوبته علق في ذاكرتي منذ ذلك اليوم. جرثومة الإحساس الديني، التي بحجم حبة الخردل، زرعت في داخلي، ولم تتوقف مذ ذاك عن النمو.

صرت هندوسياً بسبب الأكواز المليئة ببودرة الكمكم الأحمر، والسلال المليئة بفصوص الزنجبيل الصفراء، بسبب أكاليل الزهور وكسرات جوز الهند، بسبب رنين الأجراس التي تعلن دخول أحدهم إلى بيت الرب، بسبب أنّات مزمار «الناداشوارام» القصبي، وقرع الطبول، بسبب الخفة التي تدوس فيها الأقدام العارية على الأرض الحجرية في الأروقة المعتمة تخترقها أحزمة الضوء، بسبب عبق البخور، بسبب شعل قناديل «الأراتي» المتوهجة في العتمة، بسبب أغنيات «الباجان» العذبة، بسبب الفيلة التي تحيط بالمكان لتباركه،

بسبب الجداريات المبهجة التي تسرد القصص الجميلة، بسبب الجباه التي نقشت عليها الكلمة نفسها: الإيمان. صرت وفياً لهذه الإنطباعات الحسية حتى قبل أن أعرف ما الذي تعنيه أو ما الذي يمكن فعله بها. كان قلبي الذي أمرني بذلك. حين أدخل إلى معبد هندوسي أشعر أنني في منزلي. أكون واعياً لـ«الحضور»، ليس الحضور الشخصي الذي نحسّه عادة، لكن حضور شيء أعظم. قلبي ينبض بقوة حين أرى تمثال أحد الآلهة، حين أرى الله مقيماً في حرم المعبد. أشعر أنني أتحرك داخل رحم كوني مقدس، المكان الذي يولد فيه كل شيء، ومن حسن حظي أن أرى جوهره الحي. يداي تنضمان إلى بعضيهما في عبادة وقورة. أتشوق إلى «البارساد»، تلك الحلوى التي نقدّمها كرمى للرب، ثم نعاود التهامها كوليمة مفعمة بالقداسة. كفاي تشعران بالحاجة للإحساس بحرارة الشعلة المقدسة، أقرّب بركتها إلى عيني وجبهتي.

لكن الدين ليس الطقس والطقوسي فحسب، بل ما يعنيه الطقس والطقوسي، وفي هذا أنا أيضاً هندوسي. فالعالم يصبح ذا معنى بالنسبة إلي حين أنظر إليه بعينين هندوسيتين. هناك «البراهمان»، روح العالم، ذلك القالب الصلب الذي حوله يحاك ثوب الكينونة وينسج، وأيضاً كل عناصره التزيينية الزمانية والمكانية. ثمة «النيرغونا البراهمانية»، التي من دون صفات، التي تتجاوز الفهم، والوصف، والإدراك، والتي نحاول بكلماتنا العاجزة أن نحيك لها ثوباً: الواحد، الحقيقة، الوحدة، المطلق، الحقيقة المطلقة، أساس الوجود، ونحاول أن نفهمها عبر هذه الكلمات، لكن «النيرغونا البراهمانية» دائماً تشق الثوب، وتتركنا عاجزين عن النطق. وفي المقابل هناك «الساغونا

البراهمانية»، التي لها صفات، التي يمكن تصميم ثوب لها. الآن نسميها «شيفا»، «كريشنا»، «شاكي»، «غانيشا»، ونستطيع مقاربتها ببعض الفهم؛ نستطيع أن نميز بعض صفاتها ـ محبة، رحومة، مخيفة ـ وأن نشعر برابط ما بها. «الساغونا البراهمانية» هي «البراهمان» وقد بات متاحاً لحواسنا المحدودة، «البراهمان» معبراً عنه ليس فقط في الآلهة بل في البشر، وفي الحيوانات، والأشجار، وفي حفنة تراب، ذلك أن كل شيء ينطوي على أثر إلهي. أما حقيقة الحياة فهي أن «البراهمان» لا يختلف عن «الأتمان»، تلك القوة التي في داخلنا، التي يمكن أن نسميها الروح. الروح الفردية التي تناجي روح العالم مثلما بئر يسعى للوصول إلى نطاق المياه الأوسع. ذاك الذي يحفظ الكون فوق التفكير واللغة، وذاك الذي في صلبنا ويبحث عن تعبير، هو الشيء نفسه. المحدود ضمن اللامحدود، اللامحدود ضمن المحدود. إذا سألتني كيف يرتبط «البراهمان» بـ«الأتمان» على وجه الدقة، قد أقول، على النحو نفسه الذي يرتبط فيه الأب بالإبن بالروح القدس: بطريقة غامضة. لكن هناك أمر واحد واضح: «الأتمان» تسعى إلى إدراك «البراهمان»، إلى الاتحاد بالمطلق، فترتحل في هذه الحياة في حج تولد فيه وتموت، وتولد ثانية وتموت ثانية، وثانية وثانية، حتى تنجح في أن تطرح عن نفسها الثوب الذي يأسرها. ممرات الخلاص لا تحصى، لكن «المصرف» على الدرب هو نفسه، «مصرف كامرا»، حيث حساب الخلاص لكل منا ينقص أو يزيد بحسب أفعالنا.

هذه هي الهندوسية، الموضوعة في محارة مقدسة، وقد كنت هندوسياً طوال حياتي، وقد ساعدتني مفاهيمها على أن أحدّد موقعي في الكون.

لكن علينا ألا نتشبث بأفكارنا. لتحل اللعنة على الأصوليين والخَرفيين. أتذكر قصة الرب «كريشنا» حين كان راعي أبقار. كل ليلة كان يدعو خادمات الحليب ليرقصن معه في الغابة. يأتين ويرقصن. الليلة معتمة، والنار في وسطهم تطرطق وتزأر، إيقاع الموسيقى يتسارع، الفتيات يرقصن ويرقصن ويرقصن مع ربهن الجميل، الذي جعل نفسه متعدداً لكي يراقص كل الفتيات. لكن تأتي لحظة تعتري فيها الفتيات الرغبة بالتملك، اللحظة التي تتخيل فيها كل واحدة أن «كريشنا» هو شريكها وحدها، فيختفي. أي أننا ينبغي ألا نكون غيورين مع الله.

أعرف امرأة هنا في تورونتو، وهي عزيزة جداً على قلبي. كانت أمي بالرضاعة. أسميها «خلّولتي» وهي تحب ذلك. إنها من الكيبيك. ومع أنها عاشت في تورونتو أكثر من ثلاثين سنة، فإن عقلها الناطق بالفرنسية لا يزال لا يفهم في بعض المناسبات الأصوات الإنكليزية. لذا حين سمعت للمرة الأولى بهاري كريشنا، لم تسمع الإسم جيداً. سمعت «هايرلس كريستشينز» (المسيحيون الصلع)، وهذا ما عناه لها الاسم طوال سنوات. حين صحّحت لها الامر، قلت لها إنها في الواقع لم تكن مخطئة كثيراً؛ ذلك أن الهندوس في قدرتهم على الحب، هم بالتأكيد مسيحيون صلع، تماماً كالمسلمين، الذين في الطريقة التي يرون الله فيها متجسداً في كل شيء، هم هندوس ملتحون، والمسيحيون في تكرسهم لله، هم مسلمون يعتمرون القبعات.

الفصل ١٧

المعجزة الأولى تحفر عميقاً؛ وتبقى المعجزات اللاحقة متأثرة بالانطباع الذي أثارته. أنا مدين للهندوسية بالمشهديات الأولى في مخيلتي الدينية، تلك البلدات والأنهار، وساحات المعارك والغابات، والجبال المقدسة والبحار العميقة، حيث الآلهة والقديسون والأشرار والأناس العاديون يحتكون ببعضهم البعض، احتكاكاً من شأنه أن يدلّنا إلى ماهيتنا وإلى الهدف من وجودنا. سمعت للمرة الأولى بتلك القوة الكونية المحبة في أرض الهندوس. كان الرب كريشنا يتكلم. سمعته، واتبعته. وفي ظل حكمته وحبه الكاملين التقيت ذاك الرجل.

كنت في الرابعة عشرة، هندوسياً راضياً عن النفس في يوم عطلة، حين التقيت يسوع المسيح.

لم تكن العطلات التي يأخذها أبي من حديقة الحيوانات بكثيرة، لكن في إحدى المرات التي أخذ فيها عطلة ذهبنا إلى «مونار»، في أعالي إقليم كيرالا، وهي منطقة جبلية صغيرة تحيط بها بعض أجود مزارع الشاي في العالم. كان ذلك في بداية أيار ولم تكن هبت بعد الرياح الموسمية. كانت سهول تاميل نادو حارة للغاية. استغرقت رحلتنا من مادوراي إلى مونار خمس ساعات بالسيارة. كانت الهواء البارد هناك لذيذاً كنعناع في الفم.

قمنا بالأمور السياحية المعتادة. زرنا أحد معامل «شاي تاتا»، واستمتعنا بجولة في القارب في بحيرة، وجلنا في مزرعة لاستيلاد الخيول، ورمينا الملح لبعض الماعز البري في حديقة حيوانات محلية. («لدينا بعض منها في حديقتنا. عليك أن تأتي إلى بونديتشيري»، قال أبي لسائح سويسري). كان ذهابي ورافي في نزهات إلى مزارع الشاي

المجاورة للبلدة، مجرد عذر لنمضي وحدنا. عصراً كان أبي وأمي يسترخيان في غرفة الشاي في الفندق المريح كقطتين تتشمسان على إفريز نافذة. أمي تقرأ بينما أبي يتبادل أطراف الحديث مع بعض النزلاء الآخرين.

هناك ثلاثة تلال في مونار، لا تقارن بالتلال الطويلة، أو بالأحرى الجبال التي تحيط بالبلدة، لكنني لاحظت صباح اليوم التالي لوصولنا، حين كنا نتناول الإفطار، كم هي متشابهة: على قمة كل منها معبد. فيعلو معبد هندوسي التل الذي إلى جهة اليمين، عند الجانب الآخر من النهر من جهة الفندق. ويستقر مسجد على التل الذي في الوسط، أما التل الواقع إلى جهة اليسار فمتوج بكنيسة.

في يومنا الرابع في مونار، قبل الغروب بقليل، وقفت على التل الذي إلى اليسار. فرغم أنني درست في مدرسة مسيحية اسمياً، فإنني لم أكن دخلت بعد إلى كنيسة، ولم أكن لأجروء على فعل ذلك وقتذاك. كل ما كنت أعرفه عن الديانة المسيحية هو أنه فيها الكثير من الآلهة والعنف والمدارس الجيدة. جلت حول الكنيسة، التي لا يعكس بناؤها ما تنطوي عليه، حيث الجدران السميكة العالية طليت بأزرق فاتح، وفيها نوافذ ضيقة يستحيل رؤية شيء من خلالها. بدت أقرب إلى الحصن.

وصلت إلى بيت القسيس. كان الباب مفتوحاً. تواريت عند زاوية لأتفرج. على يسار الباب كان ثمة لوح صغير كتبت عليه كلمات «قس الأبرشية» و«القس المساعد». بجانب كل اسم كان ثمة مربع صغير. القس ومساعده كانا «حاضرين»، كما يشير اللوح بأحرف ذهبية واضحة. كان ثمة كاهن يعمل على مكتبه، وقد أعطى ظهره

للمشربيات، بينما الآخر يجلس على كرسي إلى طاولة مستديرة في الردهة الكبيرة التي من الواضح أنها خصصت لاستقبال الزوار. جلس مواجهاً الباب والنوافذ، وفي يده كتاب، افترضت أنه الإنجيل. قرأ قليلاً، رفع رأسه، قرأ مجدداً، رفع رأسه ثانية. كان يفعل ذلك بطريقة مترفة، لكن مركبة ويقظة في آن. بعد بضع دقائق طوى الكتاب ووضعه جانباً. شبك يديه معاً على الطاولة وجلس هناك، تعبيراته صافية، لا تظهر تحفزاً أو بلادة.

جدران الردهة بيضاء نظيفة؛ الطاولة والمقاعد من الخشب الأسود؛ أما الكاهن فيرتدي غفارة بيضاء ـ المشهد كله يوحي بالترتيب، والبساطة والوضوح. ملأني شعور بالسلام. لكن أكثر من هذا المشهد، فإن ما أسرني حقاً هو ذلك الرجل القاعد هناك، بصبر وانفتاح، وأنه في حال أراد أحدهم أراد التحدث إليه، طارحاً عليه مشكلته الروحية، أو مفضفضاً عن ثقل ما في قلبه، وعتمة في ضميره، فهو جاهز للاستماع إليه بكل حب. رجل وظيفته أن يحب، وأن يوظّف معارفه في سبيل تقديم الراحة والمشورة لمن يحتاج إليهما.

تأثرت بما كنت أراه، وتسلل ذلك إلى قلبي وغمرني حماسة.

نهض الرجل. ظننت أنه سيغلق بابه، لكنه لم يفعل، بل تقدم أكثر باتجاه الردهة، تاركاً الباب بين الردهة والغرفة المجاورة مفتوحاً كالباب الخارجي تماماً. لاحظت كيف أن البابين مفتوحان على وسعيهما. من الواضح أنه وزميله لا يزالان متوافرين للناس.

تجرأت على دخول الكنيسة. شعرت بانقباض في معدتي، لشدة خوفي من أن يباغتني مسيحي غاضب ويروح يصرخ في وجهي، *«ما

الذي تفعله هنا؟ كيف تجرؤ على دخول هذا المكان المقدّس، أيها النجس؟ أخرج من هنا، فوراً!».

لم يكن أحد. وكان ثمة القليل مما يمكن فهمه. تقدمت إلى الحرم الداخلي. كان ثمة لوحة. هل هذه هي المورتي؟ تمثل اللوحة قصة تضحية بشرية، رباً ساخطاً يجب إشباعه بالدم، ونساء مذهولات ينظرن إلى الفضاء، ويطوف حولهن اطفال بدينون بأجنحة رفيعة. عصافير جميلة. أي منهم هو الله؟ كان ثمة إلى جانب الحرم منحوتة خشبية مطلية. الضحية نفسها مجدداً، ذكر مثخن بالجراح ينزف دماً غزيراً. حدقت في ركبتيه. كانتا مجرّحتين كثيراً. جلده الزهري كان مقشراً وبدا أشبه ببراعم وردة، عاكساً رضفتين يتفجر منهما الدم. كان من الصعب الربط بين مشهد التعذيب هذا ومشهد الكاهن الوادع قبل قليل.

في اليوم التالي، في الوقت نفسه تقريباً، دخلت مجدداً.

يشتهر الكاثوليك بالصرامة، وبالأحكام القاسية، لكن تجربتي مع الأب مارتن لا تشير إلى ذلك على الإطلاق، فقد استقبلني بلطف شديد، قدم لي الشاي والبسكويت في عدة شاي تخشخش عند كل حركة؛ عاملني كما لو كنت شخصاً بالغاً؛ وأخبرني قصة، أو بالأحرى بما أن المسيحيين معجبين جداً بالأحرف الكبيرة، أخبري القصة.

ويا لها من قصة. ردة فعلي الأولى كانت عدم التصديق. ماذا؟ البشرية ترتكب الآثام لكنه ابن الرب الذي يدفع الثمن؟ تحاولت أن أتخيل أبي وهو يقول لي: «بيسين، لقد اقتحم اليوم أسد قفص الإلما وقتل اثنين منها، وبالأمس قتل أسد آخر وعلاً أسود، والأسبوع الفائت أكل أسدان جملاً، والأسبوع الذي قبله قتلت اللقالق الملونة

ومالك الحزين، ومن يعرف من الذي اعتدى على الأغوطي الثمين؟ لقد بات الوضع لا يحتمل. ينبغي فعل شيء ما. لقد قررت أن الطريقة الوحيدة لكي تدفع الأسود ثمن فعلتها أن أطعمك لها».

«أجل، أبي، هذا أمر صائب ومنطقي. أعطني دقيقة فقط لأغتسل».

«هللويا بني».

«هللويا أبتاه».

يا للقصة الغريبة. يا للسيكولوجية العجيبة.

طلبت منه أن يحكي لي قصة أخرى، علها تكون أكثر إقناعاً. لا بدّ من أن هذا الدين لديه أكثر من قصة - فالأديان تزخر عادة بالقصص. لكن أفهمني الأب مارتن أن القصص التي تسبق هذه القصة - وهي كثيرة - هي ببساطة توطئة بالنسبة إلى المسيحيين الذين تقوم ديانتهم على قصة واحدة، يرجعون لها مراراً وتكراراً. كانت قصة كافية بالنسبة إليهم.

كنت هادئاً تلك الليلة في الفندق.

كان أستطيع أن أفهم تقبّل الله لمحنته، فها هي آلهة الهندوس تواجه اللصوص، وقطاع الطرق، والمتنمرين، والمرابين، وليست «الرامانا» سوى وصف يوم طويل سيء عاشه راما؟ المحنة، نعم. الحظ السيء، نعم. الخيانة، نعم. لكن الإذلال؟ الموت؟ لم أستطع أن أتخيل الرب «كريشنا» يقبل بأن يُعرّى، ويُجلد، ويُستهزأ به، ويجر عبر الشوارع، وفوق ذلك كله يُصلب - وعلى أيدي بشر. لم أسمع من قبل عن إله هندوسي يموت. البراهمانية لا تعرف الموت. الأشرار

والوحوش يموتون، كما الفانون، بالآلاف والملايين ـ هذا هو الهدف من وجودهم. الأشياء المادية تفنى أيضاً. لكن ينبغي ألا تفسد الألوهية بالموت. هذا خطأ. روح العالم لا يمكن أن تموت، ولو جزئياً. إنه لمن الخطأ أن يسمح هذا الرب المسيحي بموت الشخص الذي تتجسد فيه دعوته، إذ يعادل ذلك السماح بموت جزء من ذاته. إذا كان الإبن سيموت فلا يمكن أن يكون هذا خداعاً، فإذا ما كان الرب الذي على الصليب يحاكي مأساة بشرية، فإن ذلك يحيل شغف المسيح إلى تمثيلية المسيح. ينبغي أن يكون موت الإبن حقيقياً. وقد أكد لي الأب مارتن أنه كان كذلك. لكن ما إن تموت مرة كإله حتى تبقى ميتاً، حتى لو بعثت بعدها، إذ يصبح الابن مضطراً إلى الاحتفاظ بطعم الموت في فمه إلى الأبد، ويصبح الثالوث المقدس ملطخاً بالموت، وتفوح رائحة منتنة إلى يمين الرب الأب، ويكون الرعب حقيقياً. لماذا قد يريد الرب ذلك لنفسه؟ لماذا لا يدع الموت للفانين؟ لماذا يلطخ ما هو جميل، لماذا يفسد ما هو كامل؟

الحب. ذاك كان جواب الأب مارتن.

وماذا عن سلوك هذا الإبن؟ هناك قصة الطفل «كريشنا»، الذي اتهمه أصدقاؤه زوراً بأنه أكل الطين. تأتي «ياشودا» أمه بالرضاعة، وتنهره بإصبع متوعدة: «لا ينبغي أن تأكل القذارة، أيها الطفل السيء»، توبخه بعنف. «لكنني لم أفعل ذلك» يقول رب كل الناس والأشياء، متنكراً بهيئة طفل خائف. «صه... صه... افتح فمك»، تأمره «ياشودا»، فينصاع، ويفتح فمه. تشهق «ياشودا»، فداخل فمه ترى الكون اللامتناهي برمته، كل النجوم والكواكب والفضاء والمسافة التي بينها، كل الأراضي والبحار والحيوات التي فيها؛ ترى الأيام

الماضية والآتية كلها؛ ترى الأفكار والعواطف كلها، كل الشفقة والأمل، وشطآن المادة الثلاثة؛ لا تبقى فقاعة أو شمعة أو مخلوقاً أو قرية أو مجرة إلا وتراها، بما في ذلك نفسها، وترى وكل نقطة طين في موضعها الصحيح: «إلهي، يمكنك أن تقفل فمك»، تقول بكل تبجيل.

هناك أيضاً قصة «فيشنو» الذي يتجسّد على هيئة «فامانا» القزم، ويطلب من ملك الشياطين «بالي» أن يمنحه من الأراضي فقط ما يمكنه قطعه بثلاث خطوات. يسخر «بالي» من هذا الحكيم القزم وطلبه التافه. يوافق. فوراً يتخذ «فيشنو» حجمه الكوني الكامل. بخطوة واحدة يغطي الأرض، بالأخرى السموات، وبالثالثة يقذف «بالي» إلى الجحيم.

حتى «راما»، الأكثر إنسانية بين الآلهة، الذي كان ينبغي تذكيره بألوهيته حين ابتأس من نضاله لاستعادة زوجته «سيتا»، من «رافانا»، ملك «رانكا» الشرير، لم يكبح جماحه صليب هزيل. حين جاءت ساعة الحسم أمدّ جسمه البشري المحدود بقوة لا يمكن أن يحصل عليها أي رجل، وبأسلحة لا يمكن أن يواجهها أي إنسان.

هكذا ينبغي أن يكون الرب، ساطعاً وقوياً وجبّاراً. وحده رب كهذا يستطيع أن يخلص البشر وينقذهم، وأن يهزم الشيطان.

هذا الإبن، في المقابل، الذي يضنيه الظمأ والجوع، المنهك، الحزين، القلق، الذي تعرّض للإهانة والإذلال، كان عليه أن يرضى بأتباع لا يفهمون الرسالة، وبخصوم لا يحترمونه، فأي نوع من الآلهة هو هذا؟ إنه إله مفرط في بشريته، هذا ما هو عليه. لقد قام ببعض المعجزات، أجل، معظمها ذات طبيعة طبية، وقام بمعجزات أخرى

متعلقة بالطعام والشراب، وفي أفضل الأحوال هناك معجزة العاصفة، والسير لبرهة على صفحة الماء. إذا كان هذا هو السحر، فهو سحر صغير، يشبه حيل ورق اللعب، وأي إله هندوسي يمكنه أن يفعل أفضل من ذلك بمئة مرة. هذا الإبن هو إله أمضى معظم وقته سارداً القصص، متكلماً. هذا الإبن هو إله يمشي على رجلين، إله مشّاء، وفي مكان حار، يمشي كأي إنسان، يدوس بصنداله المتواضع حجارة الطريق، وحين يلجأ إلى المواصلات يختار حماراً عادياً. هذا الإبن هو إله قضى في غضون ثلاث ساعات، مع كل الأنين، التنهدات، والتفجعات. أي إله هو هذا؟ ما الذي يمكنه استلهامه من هذا الإبن؟

«الحب»، قال الأب مارتن.

سأتمسك بإلهي كريشنا، شكراً جزيلاً. أجد ألوهيته أكثر جاذبية. يمكنك أن تحتفظ بهذا الإبن الثرثار لنفسك.

هكذا قابلت ذاك الرب الآتي من قديم الزمان: بشك وبانزعاج.

تناولت الشاي مع الأب مارتن لثلاثة أيام متتالية. كل مرة فنجان الشاي يرتجف فوق الصحن، وتعلق الملعقة بحافة الفنجان، طرحت أسئلة.

الجواب كان دائماً هو نفسه.

أقلقني، ذاك الإبن. كل يوم كنت أزداد سخطاً منه، وأجد فيه عيوباً أكثر.

إنه حقود. ذات صباح في «العازارية» يشعر بالجوع، ويرغب بتناول الإفطار. يصل إلى شجرة تين، لكنه ليس موسم التين، لذا لا تين على الشجرة. الرب الإبن يغتاظ، ويتمتم «لن تحملي ثماراً بعد

اليوم»، وفوراً تقع أوراق الشجرة التين. هذا ما يرويه متى، ويدعم روايته مرقص.

أسألك، هل هو خطأ شجرة التين بأنه لم يكن موسم التين؟ ما الذي يمكن فعله لشجرة تين بريئة، جعلها تذوي على الفور؟

لم أستطع إخراجه من رأسي. ثلاثة أيام وهو يشغل تفكيري، وكلما زاد استيائي منه تضاءلت قدرتي على نسيانه. وكلما ازددت معرفة به، ازددت تعلقاً به.

في يومنا الأخير، قبل ساعات قليلة من الوقت المقرر لمغادرتنا مونار، صعدت مسرعاً إلى التل. يصدمني الآن، إذ أستعيد ذلك المشهد، كم هو مشهد مسيحي نموذجي. المسيحية ديانة مستعجلة. أنظر إلى العالم الذي خلق بسبعة أيام. حتى على المستوى الرمزي هذا خلقٌ على عجالة. بالنسبة إلى شخص ولد في دين تعتبر فيه المعركة على روح واحدة سباقاً يستغرق قروناً، تولد خلالها أجيال وأجيال، فإن الحدوث السريع للمسيحية له تأثير مدوّخ. إذا كانت الهندوسية تتدفق بسكون مثل الغانج، فإن المسيحية تمضي مسرعة كتورونتو في ساعة الزحام. إنها ديانة رشيقة كسنونو، ومستعجلة كسيارة إسعاف. وهي تعبر عن نفسها في لحظة. في لحظة إما أن تضيع روحك أو تبلغ الخلاص. المسيحية تمتد إلى عصور ماضية، لكنها جوهرياً توجد في وقت واحد: الآن.

صعدت مسرعاً إلى التل. الحمد لله أن الأب مارتن كان موجوداً.

لاهثاً قلت له: «أبتاه، أريد أن أكون مسيحياً، رجاء».

ابتسم «أنت مسيحي أصلاً، بيسين، في قلبك. كل من يلتقي

المسيح بإيمان هو مسيحي. هنا في مونار التقيت المسيح».

ربّت على رأسي. كانت أكثر من تربيتة خفيفة. يده على رأسي مضت: «بوم، بوم، بوم».

حسبتني سأنفجر من الفرح.

«حين ترجع إلى هنا، سنحتسي الشاي معاً ثانية، يا بني».

«أجل، أبتاه».

ابتسم لي ابتسامة طيبة، ابتسامة المسيح.

دخلت إلى الكنيسة، من دون وجل هذه المرة، لأنها كانت بيتي أيضاً. صليت للمسيح، الذي هو حي، الذي هو الحب، الذي هو الآن. ثم عدوت نازلاً التل التي إلى اليسار، وصعدت التلة التي إلى اليمين، لكي أقدم شكري للرب كريشنا الذي جعلني أتعرف على يسوع الناصري.

الفصل ١٨

تعرفت، بعدها بنحو سنة، على الإسلام. كنت في الخامسة عشرة، وذات يوم أردت أن أستكشف بلدتي. لم يكن الحي المسلم ببعيد عن حديقة الحيوانات، وهو حي صغير هادئ تُرى فيه الكتابات العربية وأقمار الهلال منقوشة على واجهات المنازل.

وصلت إلى شارع «ملا». رحت أسترق النظر إلى «مسجد الجامعة»، المسجد الكبير، حريصاً على أن أبقى في الخارج بالطبع. يتمتع الإسلام سمعة أسوأ من المسيحية: آلهة أقل، وعنف أكبر، ولم أسمع أحداً يمتدح المدارس الإسلامية، لذا لم أفكّر بالدخول، مع أن

المكان كان خالياً. بناء المسجد نظيف وأبيض باستثناء بعض حوافه المطلية بالأخضر، بناء مفتوح يتمركز حول صالة مركزية شاغرة. سجادات طويلة تغطي الأرض. مئذنتان محزّزتان ترتفعان في الهواء وفي الخلفية أشجار جوز هند سامقة. لم يكن ثمة في المكان ما يدل على الدين، أو ما هو مثير مثير للاهتمام، لكنه كان هادئاً وجميلاً.

مضيت قدماً. وراء المسجد مباشرة سلسلة من المساكن أحادية الطبقة التي ألحقت بها شرفات صغيرة. بيوت فقيرة ومتهدمة، جدرانها الجصية خضراء باهتة. أحد البيوت كان يتضمن متجراً متواضعاً. لاحظت حاملاً فيه زجاجات «سفن أب» مكسوة بالغبار، وأربعة مراطبين بلاستيكية شفافة ممتلئة إلى نصفها بالحلوى، لكن السلعة الأساسية كانت شيئاً آخر، شيئاً مسطحاً، مستديراً وأبيض اللون. اقتربت. بدت لي هذه الحلوى أقرب إلى الخبز غير المخمر. استرقت النظر إلى إحداها. بدت صلبة. من يمكن أن يأكل هذه، تساءلت.

أمسكت واحدة وضغطت عليها لأرى ما إذا كانت ستنكسر.

سمعت صوتاً: «أتريد تذوق واحدة؟».

كدت أخرج من جلدي فزعاً. يحدث هذا معنا جميعاً، حين بسبب الشمس والظلال، وامتلاء العينين بالبقع والضوء، وانشغال العقل بشيء آخر، لا نحس بوجود أحدهم على مقربة منا.

رأيت محدّثي قاعداً على بعد نحو أربعة أقدام، واضعاً رجلاً على رجل أمام بسطة الخبز. حين جفلت أفلتت حبّة «المعمول» من يدي ووقعت في وسط الشارع، وحطت على بقعة من روث البقر.

«آسف جداً، سيدي، لم أرك!». صرخت، ورحت أعدّ نفسي للفرار.

«لا عليك»، قال بهدوء، «ستطعم بقرة، إليك واحدة غيرها».

قصم حبة إلى قطعتين. أكلناها معاً. كانت قاسية ومطاطية، جهد حقيقي للأسنان، لكن مغذية. أحسست بالاسترخاء.

«إذاً أنت تصنع هذه؟»، قلت، على سبيل المحادثة.

«أجل، دعني أريك كيف». نزل عن الرصيف ودعاني بإشارة من يده إلى دخول منزله.

إنه كوخ من غرفتين. الغرفة الأكبر يحتلها فرن، هو المخبز، والأخرى، التي يفصلها عن الأولى ستار شفاف، هي غرفة نومه. قعر الفرن مكسو بحصى صغيرة. كان يشرح لي كيف يخبز على تلك الحصى الحارة، حين علت صرخة المؤذن آتية من المسجد. كنت على علم بأنها تمثل الدعوة إلى الصلاة عند المسلمين، لكنني كنت أجهل اسمها. اكتفيت باعتبار هذا النداء الذي يدعو المؤمنين المسلمين إلى الصلاة، شبيهاً بالأجراس التي تدعو المسيحيين إلى الكنيسة. قطع الخبّاز شرحه، وقال: «عذراً». دخل إلى الغرفة الأخرى وعاد بعد ثوان حاملاً سجادة صلاة صغيرة ملفوفة، فردها على أرض مخبزه، مثيراً عاصفة صغيرة من الطحين المتشكل طبقة رقيقة على الأرض. وهناك أمامي في قلب مشغله أخذ يصلي. لم يكن ذلك بلائق، لكنني أنا الذي شعرت بأنني متطفل. لحسن حظي صلى بعينين مغمضتين.

وقف. تمتم بضعة كلمات بالعربية. قرب يديه من أذنيه، بحيث لامس الإصبعين الشحمتين، بدا كما لو أنه ينصت لسماع جواب من الله. انحنى إلى الأمام. وقف ثانية. جثا على ركبتيه واضعاً يديه وجبهته على الأرض. انحنى إلى الأمام ثانية. وقف. بدأ الأمر كله مجدداً.

الإسلام ليس إلا تمريناً سهلا، فكرت. يوغا يمارسها البدو في الطقس الحار. «أساناس» بلا عرق، جنة بلا تعب.

أعاد الكرّة أربع مرات، متمتماً خلالها بالكلمات العربية. حين انتهى، أدار رأسه ذات اليمين وذات اليسار، متأملاً لفترة وجيزة، ثم فتح عينيه، ابتسم، ثم عاود لف السجادة بحركة واحدة من يديه تدل على أنها عادة قديمة. أعادها إلى مكانها في الغرفة المجاورة، ثم عاد إلي: «ماذا كنت أقول؟».

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها مسلماً يصلي، صلاة سريعة، ضرورية، فيزيائية، تصاحبها تمتمة كلمات. في المرة التالية التي صليت فيها في كنيسة، جاثياً على ركبتي، بلا حراك، صامتاً أمام المسيح المصلوب، ظلت تعود إلى رأسي صورة ذاك الاجتماع الرياضي بالله في وسط أكياس الطحين.

الفصل ١٩

عدت لمقابلته مجدداً.

«عما هو دينك؟»، سألت.

أشرقت عيناه، «إنها عن المحبوب»، أجاب.

أتحدى أن يفهم أي كان روحانيات الإسلام، ولا يحبه. إنه دين رائع قائم على الأخوة والتفاني.

كان المسجد بالفعل بناء مفتوحاً، لله ولنسائم الهواء. قعدنا متربعين نستمع إلى الإمام حتى أذن وقت الصلاة. قام المصلون عشوائياً بترتيب أنفسهم في صفوف، الكتف على الكتف، مع الحرص

على ألا تبقى مساحة شاغرة في الصف. انتابتني أحاسيس رائعة وأنا أضع جبهتي على الأرض. شعرت فوراً باتصال ديني عميق.

الفصل ٢٠

كان صوفياً، يسعى وراء الفناء، الاتحاد بالله، الذي تربطه به علاقة شخصية قائمة على الحب. «إذا ما خطوت خطوتين نحو الله»، قال لي، «فإن الله يأتيك عدواً».

كان بسيط الملامح، ليس في وجهه أو ثيابه ما يعلق في الذاكرة. لا يفاجئني ذلك، ما دمت لم أره أول مرة التقيته فيها. وحتى بعد أن توثقت معرفتي به، لقاء بعد لقاء، ظللت أعاني صعوبة في التعرف إليه. كان اسمه ساتيش كومار، وهو اسم شائع في تاميل نادو، لذا فالمصادفة ليست استثنائية، ومع ذلك سررت لفكرة أن هذا الخباز المتعبد، صلب البنية، والمسطح كظل، يشترك في الاسم مع أستاذ الأحياء الشيوعي، الذي يكرس حياته للعلم، ذلك الجبل الماشي على طوّالة خشبية. علمني السيد كومار والسيد كومار الأحياء والإسلام. حثني السيدان كومار إلى التخصص في علم الحيوان وعلم الدراسات الدينية في جامعة تورونتو. كانا رسولا مراهقتي الهندية.

صلينا معاً وأنشدنا الذكر. كان حافظاً للقرآن عن ظهر قلب، ويرتله بصوت خفيض وبسيط. لم أكن أفهم اللغة العربية، لكنني أحببت إيقاعاتها، تلك المقاطع الصوتية الطويلة التي تتدفق من الحنجرة كجدول رائع. حدقت طويلاً في هذا الجدول، ومع أنه لم يكن عريضاً، فقط صوت رجل واحد، لكنه كان بعمق الكون.

وصفت مسكن السيد كومار بأنه كوخ، ومع ذلك ليس هناك من

مسجد أو كنيسة أو معبد شعرت فيه بمثل تلك القداسة مثلما شعرت في ذلك الكوخ. كنت أخرج أحياناً من ذاك الفرن مثقلاً بالمجد. أركب على دراجتي وأروح أفجّر، إذ أدوس بسرعة على الدواستين، ذلك المجد، في الهواء.

مرة خرجت من البلدة وفي طريق عودتي، عند مرتفع من الأرض يتيح لي رؤية البحر إلى يساري، والطريق الممتدة نزولاً أمامي، أحسست فجأة أنني في السماء. لم تكن البقعة في حقيقة الأمر تختلف عما كانت عليه حين مررت بها قبل وقت طويل، لكن طريقة رؤيتي لها هي التي تغيرت. كان إحساسي، وهو خليط متضارب من الطاقة النابضة والسلام العميق، كثيفاً ومباركاً. وفي حين كان البحر، والأشجار، والهواء، والشمس، وغيرها من عناصر تمر على طريقي، وتخاطبني بلغات مختلفة، أحسست في ذلك اليوم أنها تتحدث كلها بلغة موحدة. الشجرة تأخذ في الحسبان الطريق التي بدورها تعي الهواء الذي يدرك البحر الذي تربطه بالشمس وشائج عدة. كل عنصر منسجم مع جاره، كل العناصر تربطها ببعض علاقة قرابة ونسب. ركعت فانياً ونهضت خالداً. شعرت أنني في مركز دائرة تتقاطع مع مركز دائرة أكبر بكثير. «أتمان» التقى الله.

حدث مرة أخرى أنني شعرت بالله قريباً مني إلى هذا الحدّ. كنت في كندا، بعدها بوقت طويل، في زيارة لأصدقاء لي في الريف. كان شتاء، وكنت عائداً إلى بيتهم بعد نزهة في أرضهم الشاسعة. كان يوماً صافياً مشمساً أعقب ليلة من الثلوج التي جللت كل شيء بالبياض. التفت فجأة، فرأيت غابة وفي تلك الغابة فسحة صغيرة خالية من الأشجار. هزّت نسمة، أو ربما حيوان عابر، غصناً، وفي الهواء

كانت ندف الثلج تلمع تحت شعاع الشمس. لحظة سقوط ذلك الغبار الذهبي في تلك البقعة المشمسة رأيت مريم العذراء. لماذا هي، لا أعلم. فقد كانت علاقتي الروحانية بها ثانوية، لكنني واثق من أنها كانت هي: شاحبة البشرة، وترتدي ثوباً أبيض وعباءة زرقاء؛ أذكر أنني دهشت لثنيات العباءة. حين أقول إنني رأيتها لا أقصد ذلك حرفياً، رغم أنه كان لها جسد ولون. لكن رؤيتي لها تجاوزت الإبصار. وقفت وأمعنت النظر فيها. بدت رائعة، ملوكية. ابتسمت لي بلطف محب. وبعد بضع ثوان غادرت. نبض قلبي جذلاً ومهابة.

حضور الرب هو أروع الجوائز.

الفصل ٢١

إنني جالس في مقهى في وسط البلد، بعد لقائي به، وأفكّر. كنت أمضيت معظم فترة ما بعد الظهر معه. لقاءاتنا تتركني دائماً برماً بسبب تلك الطمأنينة التي تسم حياتي. ما الكلمات التي استخدمها وصدمتني؟ آه، أجل «العقلانية الجافة السطحية»، «القصة القابلة للتصديق». أخرج من حقيبتي ورقة وقلماً وأدوّن:

كلمات ذات إدراك إلهي: السمو الأخلاقي؛ الإحساس الدائم بالسمو، بالابتهاج، بالفرح؛ تسريع الحس الأخلاقي، الذي ينفذ إلى المرء بما يتجاوز الفهم العقلاني للأمور، رصف الكون في خطوط أخلاقية، لا عقلانية؛ إدراك ن المبدأ المؤسس للوجود هو ما نسميه الحب، الذي يعبر عن نفسه أحياناً بطريقة غامضة، غير صافية، ولا مباشرة، ومع ذلك لا تمكن مقاومتها.

أتوقف. ماذا عن صمت الله؟ أتأمل قليلاً، ثم أضيف:

صمت يحير العقل، ولكن، ذلك ليقين المطلق، بالحضور الإلهي.

الفصل ٢٢

أستطيع أن أتخيل جيداً آخر كلمات قد يرددها الملحد: «إنه أبيض، أبيض! إنه ال.. ال حب..! يا إلهي»، تلك القفزة إلى الإيمان على سرير الموت. بينما اللأدري، في حال بقائه مخلصاً لذاته العقلانية، في حال تمسكه بالواقعية الجافة، فيمكن أن يحاول تفسير الضوء الحار الذي يغمره على النحو الآتي: «إنه على الأرجح جفاف الأوكسجين في الد.. د.. ماغ»، وحتى الرمق الأخير يظل مفتقراً إلى الخيال وتواقاً إلى القصة القابلة للتصديق.

الفصل ٢٣

من المؤسف أن يكون ذلك الحس الجماعي الذي يحققه الإيمان العمومي للناس، هو نفسه الذي أوقعني في مشكلات كنت بغنى عنها. فقد انتقلت ممارساتي الدينية، مع الوقت، من انتباه أولئك الذين لا يهمهم الأمر، ويسليهم فقط، إلى أولئك الذين يهمهم الأمر ولا يسليهم.

«لماذا يذهب ابنك إلى المعبد؟»، سأل الكاهن.

«شوهد ابنك في كنيسة وهو يرسم إشارة الصليب»، قال الإمام.

«صار ابنك مسلماً»، قال المعلم الهندوسي.

أجل، علم والداي بذلك كله، وساءهما الأمر. فهما لم يكونا على علم بأنني أمارس الهندوسية والمسيحية والإسلام معاً. ألا يخفي

المراهقون دائماً بعض الأمور عن ذويهم؟ ألا يخفون أسراراً؟ لكن شاء القدر أن نلتقي جميعاً ذات يوم، أنا ووالدي والحكماء الثلاثة، كما احب أن أسميهم، على كورنيش «غوبير سالاي» البحري، وأن يكشف سري بالكامل. كان ذلك عصر يوم أحد جميل حار تتخلله في الوقت نفسه نسائم عليلة، بينما مياه خليج البنغال تترقرق لمّاعة بزرقة السماء. أهل البلدة يتنزهون. الأطفال يصرخون ويضحكون. البالونات الملونة تملأ الهواء. مبيعات الآيس كريم على أشدّها. لماذا خطر على بالهم «العمل» في يوم كهذا؟ أسأل نفسي، لماذا لم يمروا من أمامنا مبتسمين وملقين التحية بإيماءة بسيطة من رؤوسهم؟ لكن لم يكن ذلك مقدراً. كان مقدراً أن نلتقيهم، ليس واحداً منهم فحسب بل الثلاثة معاً، وليس الواحد بعد الآخر، بل ثلاثتهم في وقت واحد، وكأن كل واحد منهم قرّر، إذ رآنا، أنه الوقت الأنسب للتعرف إلى مدير حديقة حيوانات بونديتشيري المحترم، والد الفتى المؤمن المتواضع. حين رأيت الأول ابتسمت، لكن حين اكتشفت أن ثلاثتهم يسيرون معاً تحولت ابتسامتي إلى رعب. حين بدا واضحاً أن ثلاثتهم يتجهون نحونا قفز قلبي هلعاً، قبل أن ينقبض..

بدوا منزعجين حين أدركوا أنهم ثلاثتهم يتجهون صوب الأشخاص أنفسهم. لا بد من أن كل واحد منهم افترض أن الآخرين يريدان التحدّث إلى أبي في أمر غير رعوي، وقررا بفظاظة فعل ذلك في اللحظة عينها. تبادل ثلاثتهم نظرات الاستياء.

بدا الارتباك على والداي حين سد طريقهما ثلاثة رجال دين غرباء يبتسمون ملء وجوههم. عليّ أن أشرح أن عائلتي كانت كل شيء إلا أرثوذوكسية. كان أبي يعتبر نفسه جزءاً من «الهند الجديدة» ـ هند غنية

وعصرية وعلمانية كالآيس كريم. ولم يكن ثمة عظمة تدين واحدة في جسمه. كان رجل أعمال، رجل أعمال معروف، شغّيل، ومهني، معني بتناسل الأسود، أكثر من أي فكرة وجودية أو أخلاقية. صحيح أنه كان يجعل كل الحيوانات الجديدة تُبارك من قبل كاهن وأنه كان هناك مزاران صغيران في الحديقة، واحد للرب «غانيشا»، والثاني لـ«هانومان»، لكنهما آلهان يتوافقان وذهنية مدير حديقة حيوانات، إذ الأول له رأس فيل، والثاني على هيئة قرد، وقد رأى أبي أن وضعهما هناك سيكون جيداً لازدهار الحديقة، لا لصحته الروحانية، أمر مرتبط بالعلاقات العامة أكثر مما بالخلاص الشخصي. كان القلق الروحاني غريباً عنه؛ كان القلق المالي هو الذي يهز وجوده. «وباء واحد يصيب الحيوانات»، كان يقول، «وسينتهي بنا الأمر في الشارع نكسّر الحجارة». أمي كانت صامتة، برمة وحيادية، في ما يتعلق بالدين. فهي نشأت نشأة هندوسية، وكانت تربيتها التعليمية إنجيلية، ويبدو أن كلاً من الإثنين ألغى الآخر. أظن أنها كانت تعرف بأنه لدي رأي آخر في المسألة، لكنها لم تقل شيئاً حين رحت كطفل التهم الكتب المصورة للأطفال، كتب «الرامايانا» و«المهاباهارتا» والإنجيل المصور، وغيرها من القصص المتعلقة بالآلهة. هي نفسها كانت قارئة نهمة، فكان يسرها أن تراني منغمساً في قراءة كتاب ما، أي كتاب، ما لم يكن كتاباً فاحشاً بالطبع. وبالنسبة إلى رافي، فلو حمل الرب «كريشنا» مضرب كريكت بدلاً من الفلوت، ولو كان المسيح حكم مباراة، ولو أظهر النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بعض الاهتمام بالبولينغ، لربما كان رمش عينه باتجاه الدين، لكنهم لم يكونوا كذلك، وهو لم يبالي بهم قط.

بعد التحيات، ساد صمت غريب، كسره الكاهن حين قال بصوت مفعم بالكبرياء: «بيسين فتى مسيحي جيد. آمل أن ينضم قريباً إلى جوقتنا».

والداي، المعلم الهندوسي والإمام بدوا متفاجئين.

«لا بد من أنك مخطئ. إنه صبي مسلم طيب، فهو لا يفوت صلاة الجمعة، ومعرفته بالقرآن الكريم تتحسّن باضطراد»، قال الإمام.

نظر والداي والمعلم والكاهن نظرات ملؤها الشك.

جاء دور المعلم، «كلاكما مخطئ، إنه صبي هندوسي طيب، أراه طوال الوقت في المعبد آتياً من أجل الدارشان وممارساً البوجا».

نظر والداي والكاهن والإمام بذهول.

«لست مخطئاً»، قال الكاهن، «أنا أعرف هذا الصبي حق المعرفة، إنه بيسين موليتور باتيل، وهو مسيحي».

«أنا أيضاً أعرفه جيداً، وأقول لك إنه مسلم»، أكّد الإمام.

«هراء!»، صرخ المعلم، «بيسين ولد هندوسياً، ويعيش هندوسياً، وسيموت كذلك».

أخذ الحكماء الثلاثة يحدقون في بعضهم البعض، منقطعي الأنفاس وغير مصدقين.

أبعد، يا إلهي، عيونهم عني. همست في روحي.

انهال كل النظرات علي.

«بيسين، أيعقل أن يكون هذا صحيحاً؟»، سأل الإمام بجدية، «الهندوس والمسيحيون وثنيون، يعبدون آلهة عدة».

«والمسلمون متعددو الزوجات»، رد المعلم.

نظر الكاهن شزراً إلى كليهما، «بيسين»، قال همساً، «الخلاص فقط في المسيح».

«هراء! المسيحيون لا يعرفون شيئاً عن الدين»، قال المعلم.

«لقد ضلوا منذ زمن طويل طريق الرب»، قال الإمام.

«أين هو الرب في دينك؟»، صرخ الكاهن، «ليس لديكم معجزة واحدة. أي دين هو هذا الذي ليس فيه معجزات؟».

«على الأقل ليس بسيرك يقفز فيه أناس طوال الوقت من القبور. نحن المسلمون نؤمن بالمعجزة الأساسية للوجود. الطيور تحلق، والمطر يهطل، والحصاد ينمو، هذه معجزات كافية بالنسبة إلينا».

«الريش والمطر جيدان لكننا نحب أن نعلم بأن الله حقاً بيننا».

«أصحيح هذا؟ حسناً، كم كان مفيداً للرب أن يكون بينكم. لقد حاولتم قتله! علقتموه على صليب بمسامير ضخمة. أهذه طريقة متحضرة لمعاملة نبي؟ النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، جاء بكلام الرب من دون أن يتعرض للإذلال ومات كهلاً».

«كلام الرب؟ نزل على هذا التاجر الأمي في قلب الصحراء؟ تلك كانت نوبات صرع سببها لها تأرجح جمله، لا رؤى إلهية. أو ربما أصيب بضربة شمس!»؟.

«لو كان النبي (صلعم) حياً لرد عليك بكلمات مناسبة»، رد الإمام مقطب الجبين.

«لكنه ليس حياً! المسيح حي، بينما (صلعم) هذا الذي تتحدث عنه ميت.. ميت، ميت!».

قاطعهما المعلم بهدوء. قال بالتاميلية: «السؤال الفعلي هو لماذا يعبث بيسين بهذين الدينين الغريبين عنه؟».

جحظت عيون الكاهن والإمام. كانا مواطنين تاميليين أصليين.

«الله كونيّ»، دمدم الكاهن.

أومأ الإمام برأسه موافقا، «هناك رب واحد واحد».

«وبربهم الواحد هذا يسبّب المسلمون المشكلات والاضطرابات. خير دليل على مدى سوء الإسلام هو مدى تخلّف المسلمين»، قال المعلم.

«الهندوس يستعبدون الناس ويعبدون الدمى»، قال الإمام.

«إنهم يعشقون العجل الذهبي، ويركعون للأبقار»، أضاف الكاهن مثنياً على كلام الإمام.

«بينما يركع المسيحيون لرجل أبيض! إنهم إمّعات رب غريب. إنهم كابوس كل الذين ليسوا بيضاً».

«ويأكلون لحم الخنزير، إنهم متوحشون»، أضاف الإمام.

«المهم هنا هو»، قال الكاهن بغضب بارد، «هو ما إذا كان بيسين يريد ديناً حقيقياً أم خرافات من كتاب قصص مصورة؟».

«رباً أم وثناً؟» ترنّم الإمام ببطء.

«آلهتنا، أم الآلهة الكولونيالية؟»، همس المعلم.

يصعب القول أي من وجوههم كان الأكثر احتقاناً بالغضب. بدت وجوههم على أهبة الإنفجار.

رفع أبي يده، «أيها السادة، أيها السادة أرجوكم!»، تدخل معترضاً، «أحب أن أذكركم بحرية العبادة في هذا البلد».

التفتت ثلاثة وجوه صامتة نحوه.

«أجل حرية العبادة، لكن كل دين على حدة»، هتف الثلاثة بصوت واحد. ثلاثة أصابع ارتفعت في الهواء كعلامات الترقيم، توكيداً على وجهة نظرهم.

أحرجهم ذلك التأثير الكورالي أو الاجتماع العفوي لحركتهم، فأخفضوا أصابعهم فوراً، وتنهد كل على حدة. راح أبي وأمي يحدقان، عاجزين عن إيجاد الكلمات المناسبة.

تكلم المعلم أولاً، «سيد باتيل، تقوى بيسين مثيرة للإعجاب. ففي مثل هذه الأوقات المضطربة من الحسن أن نرى فتى قريباً هكذا من الله. جميعنا نتفق على ذلك». أومأ الإمام والكاهن برأسيهما، «لكنه لا يستطيع أن يكون هندوسياً ومسلماً ومسيحياً في آن. هذا مستحيل. عليه أن يختار».

«لا أظن أنها جريمة، لكنني أفترض أنك محق»، رد أبي.

تمتم الثلاثة بكلمات الموافقة وراحوا ينظرون إلى أعلى، مثلما فعل أبي، حين شعروا بأن قراراً لا بدّ من أن يصدر. نظرت أمي إلي».

هبط عليّ صمت ثقيل.

«همم، بيسين»، لكزتني أمي، «ما شعورك تجاه هذا السؤال؟».

«بابو غاندي قال إن كل الأديان محقة، أنا أريد فقط أن أحب الله»، قلت بعفوية، وأطرقت رأسي إلى الأرض، وقد احمرت وجنتاي.

كان إرباكي معدياً، فلم ينبس أي منهم لم بكلمة. صودف أننا لم

نكن بعيدين عن تمثال غاندي على الكورنيش. العكاز في يده، وابتسامة لعوبة على شفتيه، وغمزة في عينيه، كان «الماهاتما» في وضع شخص يسير. أتخيل أنه سمع محادثتنا، لكنه أبدى اهتماماً أكبر بقلبي. سعل أبي سعلة خفيفة وقال بصوت مكتوم، «اظن أن هذا ما نحاول كلنا فعله، أن نحب الله».

فكرت أنه من الطريف جداً أن يضطر أبي إلى قول هذا، هو الذي لم يدخل معبداً مرة بنية جادة. لكن يبدو أن كلامه حقق المراد منه. فلا يحق لأحد أن يؤنب فتى لأنه يريد أن يحب الله. انسحب الحكماء الثلاثة بابتسامات صارمة وكالحة على وجوههم.

نظر إليّ أبي لوهلة، كما لو أنه سيتكلم، ثم فكر أنه من الأفضل أن يقول، «من يريد الآيس كريم؟» واتجه إلى أقرب بائع آيس كريم قبل أن يتلقى الإجابة. رمقتني أمي طويلاً، بتعبير حنون وحائر في آن.

هذا كان تعرفي إلى حوار الأديان. اشترى أبي ثلاثة سندويتشات آيس كريم. أكلناها بصمت، بينما نستأنف نزهتنا.

الفصل ٢٤

حُظي رافي بيوم من المتعة الاستثنائية حين علم بالأمر.

«إذاً أيها المسيح السوامي، هل أنت ذاهب إلى الحج هذه السنة؟» قال ضاماً كفيه إلى وجهه، «هل تدعوك مكة لزيارتها؟»، ثم صلّب نفسه، «أم ستذهب إلى روما لتتويجك الأب بيوس الثاني؟». رسم في الهواء حرفاً يونانياً، موضحاً إشارته الساخرة، «ألم تجد الوقت لكي تحلق غرتك وتصبح يهودياً؟ بالمعدل الذي تمضي فيه، إذا ذهبت إلى

المعبد الخميس، وإلى المسجد الجمعة، وإلى الكنيس السبت وإلى الكنيسة الأحد، فليس عليك سوى اعتناق ثلاثة أديان أخرى لتصبح في إجازة لبقية حياتك».

وسخريات أخرى من هذا القبيل.

الفصل ٢٥

ولم تكن تلك نهاية الأمر. هناك دائماً أولئك الذين يأخذون على عاتقهم مهمة الدفاع عن الرب، كما لو أن «الحقيقة المطلقة»، كما لو أن الإطار الدائم للوجود، كانا شيئاً ضعيفاً ويائساً يحتاج دائماً إليهم. هؤلاء الناس يمرون بامرأة شوهها الجذام، وتستعطي من المارة بعض القروش، أو يمرون بأطفال يلبسون الرقع البالية ويعيشون في الشوارع، ويفكرون: «إنها الأمور المعتادة». أما إذا تناهى إلى مسامعهم أن أحدهم ازدرى الله، فتلك قصة أخرى. تحمرّ وجوههم، وتنتفخ صدورهم، ويبدأون بإطلاق الكلمات الساخطة. يكون سخطهم هائلاً، وعزمهم مروعاً.

لا يدرك هؤلاء أن الدفاع عن الرب يكون من الداخل، لا من الخارج، وإلا لوجّهوا غضبهم إلى ذواتهم. ذلك أن الشر الظاهر ليس إلا شراً ينبعث من الداخل. أرض المعركة الأساسية من أجل الخير ليست في المجال العام المفتوح، لكن في تلك الفسحة الصغيرة داخل كل قلب بشري. في الأثناء يرزح الأرامل والمشردون تحت وطأة قدر شاق، وينبغي أن يسارع أولئك الأشخاص إلى الدفاع عنهم، لا عن الله.

مرة طاردني رجل أخرق وأخرجني من الجامع. وحين ذهبت إلى

الكنيسة راح الكاهن يرمقني بنظرات حانقة فحرمني الإحساس بسلام المسيح. كما قام براهماني بطردي من «الدارشان».

كانت تصرفاتي الدينية تبلغ مسامع والدي بهمس ملحاح يعكس خيانة يتم فضحها.

كما لو أن ضيق الأفق هذا يفيد الرب بشيء.

بالنسبة إليّ، فإن الدين يتعلق بكرامتنا، لا بفسادنا.

توقفت عن الذهاب إلى الزيّاح في «سيدتنا الطاهرة» وصرت أذهب بدلاً من ذلك إلى «سيدتنا أم الملائكة». لم أعد أمكث في المسجد بين إخواني بعد صلاة الجمعة، وصرت أقصد المعبد في أوقات الزحمة حين يكون البراهمانيين مشغولين كثيراً بحيث لا يحولون بيني وبين الله.

الفصل ٢٦

بعد بضعة أيام من ذلك اللقاء على الكورنيش، استجمعت شجاعتي وذهبت لمقابلة أبي في مكتبه.

«أبي؟».

«أجل، بيسين».

«أريد أن أعمّد، وأريد سجادة صلاة».

نطقت على مهل كلماتي هذه. رفع عينيه عن صحيفته بعد بضع ثوان.

«ماذا تريد؟ ماذا؟»

«أريد أن أصلي في الحديقة من دون أن يتسخ بنطالي. وأنا أذهب إلى مدرسة مسيحية لكنني لم أتعمّد بعد».

«لماذا تريد أن تصلي في الخارج؟ بل لماذا تريد أن تصلي أصلاً؟».

«لأنني أحب الله».

«آها». بدا متفاجئاً بجوابي، بل ومرتبكاً. ساد صمت ثقيل. حسبت أنه سيعرض عليّ الآيس كريم ثانية. «حسناً، «بتيه سيمينير» ليست مسيحية إلا بالاسم، وهناك الكثير من أطفال الهندوس الذين ليسوا بمسيحيين، ستتلقى التعليم الجيد هناك من دون أن تتعمّد، أما الصلاة لله فلن تحدث فرقاً كذلك».

«لكنني أريد الصلاة. وأريد أن أكون مسيحياً».

«لا يمكنك أن تمارس الإثنين معاً، عليك أن تختار أحدهما».

«لماذا لا يمكنني؟».

«لأنهما دينان منفصلان، لا شيء مشتركاً بينهما».

«ليس هذا ما يقولانه! كلاهما يزعم نسبه إلى ابراهيم. المسلمون يقولون إن ربهم هو نفسه رب المسيحيين واليهود. إنهم يعترفون بدافيد وموسى والمسيح كأنبياء».

«ما علاقة هذا بنا، بيسين؟ نحن هنود!».

«المسيحيون والمسلمون موجودون في الهند منذ قرون! بعضهم يقول إن المسيح مدفون في كشمير».

لم يقل شيئاً، فقط نظر إلي، مقطّب الجبين. فجأة جاءه نداء العمل.

«تحدث إلى والدتك بهذا الشأن».

كانت تقرأ.

«أمي».

«أجل حبيبي».

«أريد أن أتعمّد وأريد سجادة صلاة».

«تحدث إلى والدك بهذا الشأن».

«فعلت ذلك، وقال لي أن أتحدث معك».

«أحقاً؟»، ووضعت الكتاب من يدها. نظرت إلى الخارج باتجاه حديقة الحيوانات. في تلك اللحظة أنا واثق من أن والدي أحس بقشعريرة في رقبته. التفتت إلى المكتبة، «لدي كتاب هنا سيعجبك». ومدت يدها لتطال الكتاب. كان لروبرت لويس ستيفنسون. إنه تكتيكها المعتاد.

«قرأته، أمي، ثلاث مرات».

«أوه، أمالت يدها إلى جهة اليسار».

«كذلك كونان دويل» قلت.

انتقلت يدها يميناً «ر. ك. نارايان؟ لا يعقل أن تكون قرأت كل كتبه؟».

«هذه الأمور مهمة بالنسبة إلي أماه».

«روبنسون كروزو».

«أماه!».

«لكن بيسين!»، قالت، وقد سوت من جلوسها، وبدت على وجهها علامات مقاومة أقل، مما عنى أنه عليّ خوض المعركة بشكل مناسب. عدلت من وضع الوسادة «أنا وأبوك لا نفهم حماستك هذه إلى الدين».

«تريانها غامضة».

«هممم. لا أعني ذلك بهذه الطريقة. اسمع حبيبي، إذا كنت تريد أن تكون متديناً، فعليك أن تختار بين أن تكون هندوسياً أو مسيحياً، أو مسلماً. لقد سمعت ما قالوه على الكورنيش».

«لا أفهم لماذا لا أستطيع أن أكون الثلاثة معاً. ماماجي يملك جوازي سفر. إنه هندي وفرنسي؟ لماذا لا يمكنني أن أكون هندوسياً ومسيحياً ومسلماً؟».

«هذا أمر مختلف. الهند وفرنسا هما أمتان على الأرض».

«كم أمة هناك في السماء؟».

فكرت لثانية، «هذا هو القصد. أمة واحدة، جواز سفر واحد».

«أمة واحدة في السماء؟».

«أجل، أو ولا واحدة. هناك هذا الخيار أيضاً. إنها أمور بائدة تلك التي أنت مستلب بها».

«إذا كان هناك أمة واحدة في السماء، ألا يفترض أن تكون كل جوازات السفر صالحة لدخولها؟».

ارتسمت غيمة من الحيرة على وجهها.

«بابو غاندي قال..».

«أجل، أعرف ما الذي قاله بابو غاندي»، ووضعت يدها على جبينها. كانت نظراتها غريبة، «يا للأمر المحزن»، قالت.

الفصل ٢٧

لاحقاً ذلك المساء سمعت والداي يتحادثان.

«أوافقتِ؟»، قال أبي.

«أظن أنه سألك أيضاً، وأنت أحلته إلي»، أجابت أمي.

«حقاً؟»

«أجل».

«لقد كان يومي حافلاً..».

«لستَ مشغولاً الآن. إذا أردتَ الدخول إلى غرفته وسحب سجادة الصلاة من تحت رجليه، ومناقشته بمسألة العمادة، فأرجوك افعل، لن أمنعك».

«لا، لا»، استنتجت من صوته أنه يغوص عميقاً في مقعده. ساد صمت.

«يبدو أنه يجتذب الأديان إليه مثلما الكلب يجتذب البراغيث»، قال، «لا أفهم ذلك، نحن عائلة هندية عصرية ونعيش بطريقة عصرية، والهند على وشك أن تصبح أمة عصرية ومتقدمة، وها قد أنتجنا ابناً يحسب نفسه تجسيداً سرياً لراما كريشنا».

«إذا كانت السيدة غاندي هي ما يعنيه التقدم والعصرية، فلست أكيدة من أنني أحب ذلك»، قالت أمي.

«السيدة غاندي ستمضي! أما التقدم فيستحيل إيقافه، إنه قرع طبل يدعونا جميعاً للسير على هديه. التكنولوجيا تساعد والأفكار الجيدة تنتشر، هذان قانونان من قوانين الطبيعة. إذا لم تسمحي للتكنولوجيا بمساعدتك، إذا ما قاومت الأفكار الجيدة، فأنت تحكمين على نفسك

بالفناء! أنا مقتنع كلياً بأن السيدة غاندي ستمضي هي وحماقاتها، وستشرق الهند الجديدة.».

(بالتأكيد سيمضي زمن غاندي، أما الهند الجديدة، أو بالأحرى عائلة منها، فستقرر الانتقال إلى كندا).

مضى والدي قائلاً: «أسمعته وهو يقول، (بابو غاندي قال، كل الأديان صحيحة)».

«أجل».

«بابو غاندي؟ الفتى متأثر كثيراً بغاندي؟ بعد بابا غاندي، ما التالي؟ العم يسوع؟ ثم ما هذا الهراء، هل أصبح مسلماً حقاً؟».

«يبدو ذلك».

«مسلم! هندوسي ملتزم، حسناً، يمكنني فهم ذلك، مسيحي بالإضافة إلى ذلك، بدأ الأمر يصير غريباً بعض الشيء، لكن يمكنني أن أتفهم الأمر، فالمسيحيون يعيشون هنا منذ أزمنة طويلة، وهناك القديس توما، والقديس فرانسيس كزافييه، والإرساليات وما إلى ذلك، ونحن مدينون للمسيحية بالمدارس الجيدة».

«أجل».

«هذا كله يمكنني أن أتفهمه نوعاً ما. لكن أن يصبح مسلماً؟ هذا غريب كلياً عن تقاليدنا، إنهم غرباء».

«إنهم يعيشون هنا منذ زمن طويل أيضاً، وأعدادهم تفوق المسيحيين بمئة مرة».

«لا يهم، إنهم غرباء».

«ربما كان بيسين يسير على إيقاع طبول مختلفة من التقدم».

«أنت تدافعين عن الفتى؟ لا مانع لديك بأن يتخيل نفسه مسلماً؟».

«ما الذي يمكننا فعله، سانتوش؟ إنه متعلق بهذه الأمور، وهذا لا يؤذي أحداً. ربما كانت نزوة وتمضي، مثل السيدة غاندي».

«لماذا لا يهتم بالأمور التي يهتم بها الفتيان في مثل سنه؟ أنظري إلى رافي. كل ما يمكنه التفكير فيه هو الكريكت والأفلام والموسيقى».

«أتظن أن هذا أفضل؟».

«لا، لا، أوه. لا أعرف بماذا أفكر. لقد كان يوماً مجهداً»، تنهد، «أتساءل إلى أي مدى سيمضي باهتماماته هذه».

ضحكت أمي: «الأسبوع الماضي أنهى كتاباً بعنوان (محاكاة المسيح)».

«محاكاة المسيح! قوليها ثانية، أتساءل إلى أي حدّ سيمضي في اهتماماته هذه؟»، صرخ أبي.

ضحكا.

الفصل ٢٨

أحببت سجادة الصلاة. فمع أنها كانت من نوعية عادية، غير أن روعتها كانت تتوهج في عيني. يحزنني أنني أضعتها. كلما كنت أفردها للصلاة، كنت أشعر بعلاقة خاصة مع بقعة الأرض التي تحتها ومع الأشياء المحيطة، وهذا بالنسبة إلي كان مؤشراً واضحاً على أنها سجادة صلاة جيدة، لأنها ساعدتني على أن أتذكر أن الأرض هي من خلق الله، وأنها مقدسة مثله. كانت الرسوم على السجادة المنسوجة

بخيوط ذهبية فوق خلفية حمراء، بسيطة: مستطيل صغير ينتهي عند أحد طرفيه بمثلث يشير إلى القبلة، تنشتر عليه رسوم دوائر صغيرة، كأنها دوائر من دخان أو لهجات في لغة غريبة. كانت ناعمة. حين أصلي عليها، تلامس شراشيبها جبهتي من جهة، وأطراف رجلي من الجهة الأخرى، أما حجمها الحميم فيشعرني أنني على إلفة مع أي مكان على هذه الأرض الفسيحة.

كنت أحب الصلاة في الهواء الطلق. معظم الأحيان ألف سجادتي وأضعها في زاوية الباحة خارج المنزل. كانت بقعة معزولة في ظل شجرة قرنفل، إلى جوار جدار مكسو بالبوغنفلية. على امتداد الجدار صف من أشجار البونزيتياس، التي تطاولت البونغفيلية إليها. كان التناقض اللوني بين الحواف البنفسجية للسجادة والزهور الحمراء جميلاً جداً. وحين كانت تلك الشجرة مزهرة كانت تجذب إليها طيور الغربان، والمينة، والبابلر، والتمير والباستورات الزهرية والبراكيت. كان الجدار إلى يميني، في زاوية منفرجة، وعلى يساري، وراء الظل الحليبي الملون للشجرة، كانت الفسحة المفتوحة المشمسة للباحة. مظهر الأشياء يتبدل بالطبع بحسب الطقس، وبحسب مواقيت النهار، ومواسم السنة، لكنه كله ماثل في ذاكرتي، كما لو أنه لم يتغير البتة. كنت أقف إلى جهة القبلة بمساعدة خيط مددته على الأرض الصفراء الشاحبة.

أحياناً، عند انتهائي من الصلاة كنت ألتفت فأرى أمي وأبي ورافي يحدقون بي، حتى اعتادوا على المشهد.

كانت مسألة عمادتي غريبة بعض الشيء. تماشت أمي مع الأمر بلطف، أما أبي فبدا مذهولاً، وكان رافي لحسن حظي غائباً لاشتراكه

في مباراة كريكت، مع أن ذلك لم يمنعه من التعليق كثيراً على الحدث. انسلّت المياه من وجهي إلى رقبتي، ومع أنها كانت بسعة كأس فقط، فقد كان تأثيرها عليّ منعشاً كالأمطار الموسمية.

الفصل ٢٩

لماذا يهاجر الناس؟ ما الذي يجعلهم يقتلعون أنفسهم من جذورهم ويتركون كل ما يألفونه من أجل مجهول عظيم وراء الأفق؟ لماذا يقدم أحدهم على تسلق هذا الجبل الشاهق من الشكليات والمعاملات التي تجعله يشعر كالشحاذ؟ لماذا يختار الدخول إلى هذه الأدغال من الغربة حيث كل شيء سيكون جديداً، وغريباً، وصعباً؟

الجواب هو نفسه في العالم بأسره: يهاجر الناس طلباً لحياة أفضل.

كانت حقبة منتصف السبعينات في الهند شديدة الاضطراب. كنت أحسّ بجدية ما يحدث من التجاعيد العميقة التي تظهر على جبهة والدي وهو يقرأ الصحف، أو من نتف المحادثات بينه وبين أمي وماماجي وآخرين. ليس أنني لم أفهم ما يقولونه، لكنني لم أكن أبالي. السعلاة متعطشة كعادتها للفطائر المحلاة، والقردة لا تأبه بالأخبار الآتية من دلهي؛ فرسا البحر والماعز تعيش معاً بسلام؛ الطيور تغرد؛ الغيوم تحمل أمطاراً؛ الشمس دافئة؛ الأرض تتنفس؛ الله موجود؛ لم يكن هناك من إحساس بالطوارئ في عالمي.

أخيراً، سلبت السيدة غاندي أبي أفضل ما يملك. في شباط ١٩٧٦ أُسقطت حكومة تاميل نادو من قبل دلهي. كانت تلك الحكومة من أكثر مناوئي السيدة غاندي صراحة وعلانية. جرى الانقلاب

بسهولة، وتوارى رئيس الوزراء كارونانيدي عبر «الاستقالة» أو الإقامة الإجبارية، ولماذا ينبغي أن يكون مهماً سقوط حكومة محلية واحدة، حين يكون دستور البلد برمته معلقاً لثمانية أشهر كاملة؟ لكن بالنسبة إلى أبي كان ذلك تتويجاً لسيطرة السيدة غاندي الديكتاتورية على الأمة. لم يبدِ الجمل في حديقة الحيوانات انزعاجه، لكن القشة قصمت ظهر أبي.

جعل يصرخ: «قريباً ستأتي إلى حديقتنا قائلة لنا إن سجونها قد امتلأت وتحتاج إلى مساحة إضافية. أيمكننا أن نضع (ديساي) مع الأسود؟».

كان مورارجي ديساي سياسياً معارضاً. لم يكن صديقاً للسيدة غاندي. أحزنني قلق أبي المستمر هذا. كان يمكن للسيدة غاندي أن تقصف شخصياً الحديقة بالقنابل، لم أكن لأبالي لو كان أبي يرضى بذلك. أتمنى لو لم يتملكه الحنق إلى هذا الحدّ. يصعب على ابن أن يرى أباه مريضاً بالقلق.

لكنه كان قلقاً. كل عمل تجاري ينطوي على المخاطر، لكن أخطر الأعمال تلك الصغيرة التي قد يضطرك انهيارها إلى أن تبيع ملابسك. حديقة الحيوانات هي مؤسسة ثقافية، كالمكتبة العامة، كالمتحف، إنها في خدمة الثقافة العامة والعلم. وبهذا المعنى ليست بمؤسسة ربحية، فالخدمة العامة والنفع العام ليسا هدفين ربحيين. إضافة إلى ذلك لم نكن عائلة ثرية، بالتأكيد ليس بالمعايير الكندية. كنا عائلة فقيرة صودف امتلاكها عدداً كبيراً من الحيوانات، لكنها لا تملك السقف الذي فوق رأسها. حياة حديقة الحيوانات، كحياة ساكنيها في البراري، متقلقلة. ليست عملاً ضخماً كفاية ليكون فوق القانون، ولا صغيراً كفاية للاستمرار على هوامشه. ولكي تزدهر،

تحتاج الحديقة إلى حكومة برلمانية، وانتخابات حرة، إلى حرية الكلام، وحرية الصحافة، وحرية العلاقات، وسيادة القانون وكل شيء آخر منصوص عليه في دستور الهند. من المستحيل الاستمتاع بالحيوانات من دون هذه الشروط. السياسات السيئة والحكم الديكتاتوري تلحق الضرر بهذا العمل.

يهاجر الناس بسبب تفاقم القلق، بسبب الإحساس المقيت بأنه مهما عملوا بجد فلن يأتيهم عملهم بنتيجة، وأن ما يعمرونه في سنة قد يدمره الآخرون في يوم. بسبب الإحساس بأن المستقبل مقفل، وأنهم وإن دبّروا أمورهم فلن يتمكنوا من تدبير أمور أطفالهم. بسبب الإحساس بأن شيئاً لن يتغير، وأن السعادة والازدهار ممكنان فقط في مكان آخر.

تشظّت الهند الجديدة أشلاء في عقل أبي. أمي وافقت. علينا أن نهاجر.

أخبرنا أبي بذلك ذات أمسية على العشاء. أنا ورافي صدمنا. كندا! إذا كانت «أندرا برادش»، التي تقع إلى شمالنا، غريبة بالنسبة إلينا، وإذا كانت سريلانكا التي هي على بعد قفزة قرد منا، تمثل بالنسبة إلينا الجزء المظلم من القمر، فتخيل ما هي كندا بنظرنا. لم تعن كندا لنا شيئاً البتة. إنها أشبه بتومبكتو، التي هي بالتعريف، مكان يظل نائياً.

الفصل ٣٠

إنه متزوج.

كنت منحنياً أعقد شريط حذائي، حين سمعته يقول «أود أن أعرفك إلى زوجتي». رفعت رأسي لأجد السيدة باتيل قربه، «مرحباً»، قالت، مادة ذراعها ومبتسمة، «أخبرني بيسين الكثير عنك». لم أستطع

قول الأمر نفسه عنها، إذ لم تكن لدي أدنى فكرة عن أنه متزوج. قال بيسين إنها مضطرة الآن إلى الذهاب، لذا كان حديثنا مقتضباً. هي هندية أيضاً، لكن لهجتها كندية، لا بد من أنها من الرعيل الثاني. هي أصغر بقليل منه، وجلدها أغمق بقليل، وشعرها الأسود الطويل معقود في ضفيرة. عيناها سوداوان جميلتان وأسنانها بيضاء جميلة، وتحمل معطفاً أبيض خاصاً بالمختبرات الطبية ملفوفاً في غشاء بلاستيكي أبيض. إنها صيدلانية. حين قلت لها «سررت بمعرفتك، سيدة باتيل»، ردت «أرجوك ناديني مينا». بعد قبلة سريعة بين الزوجين، انطلقت إلى العمل.

هذا البيت هو أكثر من مجرد علبة كبيرة مليئة بالإيقونات. أبدأ بملاحظة وجود أشياء لها علاقة بالزواج. كانت هناك طوال الوقت، لكنني لم أرها لأنني لم أكن أنظر إليها.

إنه رجل خجول. علمته الحياة ألا يتباهى بما هو الأعز على قلبه.

هل «مينا» هي «إلهة الانتقام» تلك المسؤولة عن دمار معدتي؟

«أعددت لك الشوتني»، يقول مبتسماً.

لا، هو إله الانتقام.

الفصل ٣١

التقيا مرة واحدة. السيد والسيد كومار، الخباز والأستاذ. عبر الأول عن رغبته برؤية حديقة الحيوانات «طوال كل السنوات الماضية لم أزرها مع أنها قريبة، هل تصحبني في جولة فيها؟»، سألني.

«أجل، بالطبع»، أجبت، «هذا شرف لي».

اتفقنا على الالتقاء عند البوابة الرئيسية اليوم التالي بعد المدرسة.

كنت مضطرباً طوال اليوم. رحت أوبخ نفسي بعنف: «أيها الأحمق! لماذا قلت له البوابة الرئيسية؟ فالمكان هناك مزدحم طوال الوقت. أنسيت كم أنه يصعب تمييز ملامحه؟ لن تتمكن البتة من رؤيته!». إذا ما مررت من أمامه من دون أن أراه فإن ذلك سيجرح مشاعره، سيفكر أنني غيرت رأيي وأنني أتحاشى أن يراني أحد مع خبّاز مسلم فقير، وسيغادر من دون أن ينبس بكلمة. لن يغضب مني، وسيقبل مزاعمي بأن الشمس كانت في عيني، لكنه لن يرغب بزيارة حديقة الحيوانات مرة أخرى. تخيلتُ الأمر يحدث على هذا النحو. عليّ أن أراه. سأختبئ وأنتظر حتى أتأكد من أنه هو، هذا ما سأفعله بالتأكيد. لكنني كنت لاحظت قبلاً أنني حين أبذل أقصى جهدي لكي ألاحظه أصبح أقل قدرة على رؤيته. الجهد نفسه يصيبني بالعمى.

عند الساعة المتفق عليها وقفت مباشرة مقابل البوابة الرئيسية ورحت أفرك عيني بكلتا يدي.

«ما الذي تفعله؟».

كان هذا راج، أحد أصدقائي.

«إنني مشغول».

«أمشغول أنت بفرك عينيك؟».

«إذهب من هنا».

«لنذهب إلى بيتش روود».

«إنني أنتظر أحدهم».

«حسناً لن تراه إذا ما ظللت بفرك عينيك على هذا النحو».

«شكراً على المعلومات، استمتع في «بيتش وورد».

«ما رأيك بغفرمانت بارك؟»

«لا أستطيع قلت لك».

«هيا».

«أرجوك راج، اذهب الآن».

غادر. عدت إلى فرك عيني.

«أتساعدني في فرض الرياضيات، باي؟».

كان ذاك آغيث، صديق آخر.

«لاحقاً، إذهب الآن».

«مرحباً بيسين».

كانت السيدة راداكريشنا، صديقة أمي. حييتها بكلمات قليلة وهي ماضية في طريقها.

«عذراً، كيف أذهب إلى شارع لابورت؟».

كان رجلاً غريب.

«من هنا».

«كم تعرفة الدخول على الحديقة؟».

غريب آخر.

«خمس روبيات. كشك البطاقات هناك».

«هل دخل الكلورين إلى عينيك؟».

كان ماماجي.

«مرحباً ماماجي. لا، ليس هناك كلورين في عيني».

«هل أبوك في الجوار؟».

«أعتقد ذلك».

«أراك صباح الغد».

«جسناً، ماماجي».

«أنا هنا، بيسين».

تجمدت يداي على عيني. ذلك الصوت، غريب على نحو مألوف. شعرت بابتسامة تنمو في داخلي.

«السلام عليكم، سيد كومار! تسرني رؤيتك».

«وعليكم السلام. هل هناك خطب ما في عينيك؟».

«لا، لا شيء، مجرد غبار».

«تبدوان حمراوين».

«لا شيء مهماً».

اتجه إلى كشك التذاكر، لكنني ناديت عليه.

«لا، ليس عليك أن تدفع يا سيدي».

لوحت بيدي بكبرياء لقاطع التذاكر وأريت السيد كومار طريق الدخول.

أدهشه كل شيء، كيف تقف الزرافات الطويلة عند الأشجار الطويلة، كيف تتغذى الحيوانات المفترسة بالعواشب، وكيف تقتات العواشب من العشب، كيف تحتشد بعض الحيوانات نهاراً، وأخرى ليلاً، وكيف أن التي تحتاج إلى مناقير حادة لديها مناقير حادة، وكيف أن التي تحتاج إلى أطراف لينة أطرافها لينة. أسعدني أنه تأثر إلى هذا الحدّ.

اقتبس من القرآن الكريم «ولكم في ذلك حكمة يا أولو الألباب».

وصلنا إلى حمار الوحش. لم يكن السيد كومار سمع بمخلوقات كهذه، ناهيك عن رؤية إحداها. ذهل بها.

«تسمى حمار الوحش»، قلت له.

«هل طليت بفرشاة؟».

«لا، لا، إنه شكلها الطبيعي».

«ماذا يحدث حين تمطر؟».

«لا شيء».

«ألا تذوب الخطوط؟»

«لا».

أحضرت بعض الجزر. كان بقي واحدة كبيرة، أخرجتها من حقيبتي. وفي تلك اللحظة سمعت خربشة حصى إلى يميني. كان السيد كومار الثاني آتياً باتجاهنا بطريقة مشيه المعتادة.

«مرحباً، سيدي».

«مرحباً، باي».

أومأ الخباز، وهو رجل خجول ووقور، برأسه للأستاذ الذي أومأ له بدوره.

انتبه حمار الوحش إلى الجزرة التي في يدي فاقترب من السياج الخفيض. أرعش أذنيه وضرب الأرض بحافره ضربة خفيفة. قصمت الجزرة إلى نصفين ووزعتهما على السيدين كومار. «شكراً، بيسين»، قال أحدهما. «شكراً، باي»، قال الثاني. السيد كومار فعل ذلك أولاً، مدخلاً يده من فوق السياج، فقبضت شفتا حمار الوحش

السوداوين الغليظتين التواقتين على الجزرة بكل قوة. لم يفلت السيد كومار الجزرة. غرز حمار الوحش أسنانه فيها وراح يجرشها لثوان قليلة، ثم اتجه إلى القطعة الثانية التي في يد السيد كومار، مد فمه بسرعة خاطفة إلى الجزرة في اللحظة التي أفلتها فيها السيد كومار ولمست أصابعه فم حمار الوحش.

جاء دور السيد كومار. لم يكن متطلباً إلى هذا الحدّ من حمار الوحش. ما إن وضع الأخير شفتيه على الجزرة حتى تركها، فازدردها الحيوان بسرعة. بدا السيدان كومار مسرورين. «اسمه حمار الوحش، قلت لي»، قال السيد كومار.

«هذا صحيح»، أجبت، «ينتمي إلى عائلة الحصان نفسها».

«رولز رويس ذوات الحوافر»، قال السيد كومار.

«يا له من مخلوق عجيب»، قال السيد كومار.

«عظيم» قلت.

السيد كومار قال: «إيكووس بورتشيلي بوهيمي».

السيد كومار قال: «الله أكبر».

قلت: «إنها جميلة جداً».

ورحنا نتأمله.

الفصل ٣٢

هناك أمثلة عن حيوانات تصل إلى تدبيرات عيش مفاجئة، وتدل كلها على المعادل الحيواني للـ«أنتروبومورفيزم»: الـ«زومورفيزم»، حيث ينظر حيوان إلى إنسان أو إلى حيوان آخر، على أنه من بني جنسه.

الحالة الأشهر هي تلك الأكثر شيوعاً: الكلب الأليف، الذي يشبّه البشر بدنيا الكلاب حتى أنه يرغب في مزاوجتهم، يشهد على ذلك الموقف الذي يجد أي صاحب كلب نفسه فيه من وقت لآخر، حيث يضطر إلى أن يجر كلبه جراً بعيداً عن رجل أحد زواره الذي يكون الكلب وقع في غرامه.

الأغوطي الذهبي الذي في حديقتنا والباكة المرقط توافقا معاً جيداً، فقد كانا يجتمعا معاً، ويناما معاً، إلى أن سرق الأول.

وقد ذكرت سابقاً حالة فرسي البحر والماعز، وحالة أسود السيرك.

هناك أيضاً قصص موثقة عن بحارة أنقذتهم الدلافين من الغرق، على نحو ما تهب هذه الأخيرة إلى مساعدة بعضها بعضاً. وهناك حالة فاقم وجرذ عاشا معاً، في حين أنه حين قدمت جرذان أخرى للفاقم التهمها مثلما تفعل الفواقم عادة..

هناك حالة خاصة أيضاً تعكس العلاقة الغريبة بين المفترس وفريسته، وهي حالة الفأر الذي عاش أسابيع عدة مع الأفاعي، وفي حين اختفت فئران أخرى ألقيت في البيت الزجاجي خلال يومين، فإن هذا الفأر البني الصغير بنى لنفسه عشاً، وجعل يخزّن الحبوب التي وضعناها له في مخابئ مختلفة، وكان يعدو داخل البيت الزجاجي على مرأى من الأفاعي. أدهشتنا هذه الحال، فوضعنا لافتة لكي نلفت انتباه الزوار. أخيراً لقي الفأر حتفه بطريقة مثيرة للاهتمام: عضته أفعى صغيرة. هل كانت هذه الأفعى غير مدركة لوضعية الفأر الخاصة؟ لم تتعرف إليه ربما؟ أياً يكن السبب فقد قضى الفأر بلسعة أفعى صغيرة، إنما التهمته، وعلى الفور، أخرى كبيرة. إذا كان هناك من سحر ما جعل وجود الفأر وسط الأفاعي ممكناً، فقد أبطلته الأفعى الصغيرة.

عادت الأمور إلى سابق عهدها بعد ذلك، وعادت الفئران تختفي في معدات الأفاعي بالمعدل الاعتيادي.

في مجال حدائق الحيوانات، تُستعمل الكلاب أحياناً كمرضعات لأشبال الأسود، ورغم أن الأشبال تكبر بعد ذلك، وتصير أكبر من مرضعاتها، وأكثر خطراً، فإنها لا تتعرض لها، ولا هذه الأخيرة تفقد هدوءها أو إحساسها بالسلطة عليها، وقد اضطررنا إلى وضع توضيحات للزوار بأن الكلب ليس طعاماً حياً رمي للأسود (تماماً مثلما كان علينا وضع إشارة بأن فرس البحر هي من آكلات العشب ولا تأكل الماعز).

ما يمكن أن يكون تفسير «الزومورفيزم»؟ ألا يمكن أن تميز أفراس البحر الكبير من الصغير، والفرو الناعم من الجلد القاسي؟ أليس واضحاً للدلفين كيف هو شكل رفيقه الدلفين؟ أظن أن الجواب يكمن في شيء ذكرته سابقاً، ذلك الجنون الذي يحرك الحياة بطرق غريبة ولكن منقذة. الأغوطي الذهبي، مثل فرس البحر، كان بحاجة إلى الرفقة. أسود السيرك لا يهمها ما إذا كان قائدها بشرياً ضعيفاً: فهو يضمن لها عيشاً جيداً وتحول سلطته دون الفوضوية العنيفة. أما بالنسبة إلى الأشبال فإنه سيقع مغشياً عليها من هول الرعب إذا عرفت أن أمها كلبة، فذلك سيعني أنها بلا أم، وهو أسوأ وضع يمكن أن يتخيله الصغار. أنا واثق من أنه حتى الأفعى الكبيرة، إذ التهمت الفأر، لا بدّ شعرت في مكان ما من عقلها البدائي ببعض الندم، إحساس غامض بأنه فاتها شيء أعظم، قفزة من حياة الزواحف الوحيدة والفظة إلى حياة أخرى متخيلة.

الفصل ٣٣

يطلعني على ألبوم العائلة. صور الزفاف أولاً. زواج هندوسي مع كلمة «كندا» تبرز على حواف الصور. كلاهما شاب. أمضيا شهر العسل في شلالات نياغارا، وكان وقتاً جميلاً، على ما تؤكد الابتسامات. أرجعتنا الصور التالية إلى مرحلة أسبق. صور من أيام دراسته في جامعة تورونتو: مع أصدقاء، على مدخل كنيسة «القديس ميخائيل»، في غرفته، خلال عيد «الدوالي» في شارع «جيرارد»؛ قارئاً في كنيسة القديس باسيل، في زي أبيض؛ وفي زي أبيض ذات طبيعة مختلفة يظهر في مختبر قسم علم الحيوان؛ صورة من حفل التخرج. في كل صورة تعلو الابتسامة محياه، اما عيناه فتخبران قصة أخرى.

هناك صور من البرازيل يظهر فيها الكثير من قطعان الكسلان في سيتو.

صفحة واحدة ونتجاوز حياته في بونديتشيري. وهناك بالكاد صور بعد ذلك. يخبرني أن عائلته كانت تلتقط الصور باستمرار في المناسبات لكن كل شيء ضاع. القليل الباقي جمعه ماماجي وأرسله بالبريد بعد أن حدث ما حدث.

هناك صورة التقطت في حديقة الحيوانات خلال زيارة إحدى الشخصيات المهمة. يظهر أمامي عالم مختلف كلياً بالأبيض والأسود. الصورة مزدحمة بالناس، وهناك وزير من الحكومة الاتحادية يبدو أنه محور الاهتمام. ثمة زرافة في الخلفية، وعند طرف المجموعة أرى السيد أديروباسامي شاباً.

«ماماجي؟»، أسأل مشيراً إليه.

«أجل»، يقول.

ثمة رجل يقف إلى جوار الوزير، يضع نظارات وشعره مصفف جيداً. يبدو السيد باتيل، وجهه أكثر تدويراً من ابنه.

«أهذا أبوك؟»، أسأله.

يهز رأسه «لا، لا أعرف من هو هذا».

صمت لبضع ثوان. يقول: «أبي هو من التقط الصورة».

على الصفحة نفسها من الألبوم، صورة جماعية أخرى، الأرجح لأطفال مدارس. يروح ينقر بأصابعه على الصورة.

«هذا هو ريتشارد باركر»، يقول.

أحملق في الصورة باندهاش، محاولاً استخلاص شخصية ريتشارد باركر مما أرى. لسوء الحظ إنه الأبيض والأسود ثانية، والصورة مشوشة. صورة التقطت في أيام أفضل. ريتشارد باركر ينظر في اتجاه آخر. لا يعرف حتى أن صورته تلتقط.

الصفحة المقابلة مليئة بالصور الملونة لحوض السباحة في «أوروبيندو أشرام». إنه حوض خارجي كبير وجميل تلتمع فيه المياه الصافية، ويبدو قعره أزرق صافياً، وتتصل به بركة غطس.

على الصفحة التالية صورة للبوابة الأمامية لمدرسة «بيتيه سيمينير». قوس نقش عليه شعار المدرسة: «نيل ماغنوم نيزي بونوم»: «لا عظمة من دون اتقان».

وهذا كل شيء. طفولة كاملة لم يبق منها سوى أربعة صور بالكاد مهمة..

تبدو عليه الكآبة.

«أسوأ ما في الأمر» يقول، «هو أنني ما عدت أتذكر شكل أمي. أستطيع أن أراها في رأسي، لكن صورتها تخبو، ما إن أحاول أن أستحضرها بوضوح أكبر حتى تختفي. سيان بالنسبة إلى صوتها. إذا ما رأيتها ثانية في الشارع، فسأستعيد كل شيء، لكن هذا لن يحدث. كم محزن ألا تتذكر شكل أمك».

يطوي الألبوم.

الفصل ٣٤

قال أبي: «سنبحر مثل كولومبوس!».

«كولومبوس كان يبحث عن الهند»، قلت مقطب الجبين.

بعنا حديقة الحيوانات، وبدأنا نستعد للانطلاق إلى بلد جديد وحياة جديدة. إضافة إلى أن عملية البيع ستضمن مستقبلاً آمناً لحيواناتنا، فإن من شأنها أن تغطي تكاليف هجرتنا، وتمكننا من تأسيس بداية جديدة في كندا (مع أنني حين أفكر الآن في الأمر أرى أن المبلغ مضحك، كم يعمينا المال). كان يمكننا بيع مجموعتنا لحدائق حيوانات في الهند، لكن الحدائق الأميركية كانت مستعدة لدفع مبالغ أكبر. كانت اتفاقية «سيتيس»، الدولية حول الاتجار الدولي بالحيوانات المعرضة للانقراض، قد دخلت حديثاً حيز التنفيذ، وبات ممنوعاً الاتجار بالحيوانات التي يتم صيدها. وبالتالي فإن مستقبل حدائق الحيوانات سيعتمد من الآن فصاعداً على حدائق الحيوانات الأخرى. أقفلت حديقة بونديتشيري أبوابها في الوقت المناسب. كان ثمة إقبال كبير على شراء مجموعتنا. الجهات الشارية كانت عدداً من حدائق الحيوانات، خصوصاً حديقة «لينكلن بارك» في شيكاغو،

وحديقة «مينيسوتا» التي كانت ستفتح قريباً، أما الحيوانات الباقية فستذهب إلى لوس أنجلس، لويزفيل، أوكلاهوما، وسينسيناتي.

حيوانان اثنان فقط كانا في طريقهما إلى حديقة حيوانات كندا. ذاك كان إحساسي ورافي، لأننا لم نكن راغبين بالذهاب، لم نكن راغبين بالعيش في بلد تحكمه الرياح الجبارة وتصل فيه درجة الحرارة إلى ما دون الصفر شتاء، ومما زاد الأمور سوءاً بالنسبة إلى رافي أن كندا لم تكن على خارطة الكريكت. غير أننا بدأنا نتقبّل الفكرة مع إنجاز التحضيرات المسبقة للسفر. احتاج الأمر إلى سنة. لا أعني بالنسبة إلينا، بل بالنسبة إلى الحيوانات. أخذاً في الاعتبار أن هذه الأخيرة لا تحتاج إلى الثياب والأحذية والقطنيات والأثاث وأدوات المطبخ والحمام؛ وأن الجنسية لا تعني شيئاً لها، ولا جوازات السفر، ولا المال، والعمالة، والمدارس، وكلفة البيت، والضمان الصحي، باختصار أخذاً في الاعتبار خفة عيش الحيوانات، فمن المذهل كم يصعب نقلها. نقل حديقة حيوانات أشبه بنقل مدينة.

أطنان من الإجراءات الورقية. ليترات من المياه التي استخدمت في تبليل الطوابع. عبارة «عزيزي السيد كذا وكذا»، كتبت مئات المرات. عروض قُدمت. تنهدات سُمعت. شكوك حامت. مساومات تمت. قرارات انتظرت الموافقة عليها. أسعار اتفق عليها. صفقات حسمت. خطوط منقطة تم التوقيع عليها. التهاني قُدمت. شهادات المنشأ استخرجت. وشهادات الصحة. وشهادات الخبراء. وشهادات التصدير. إجراءات الحجر الصحي تمت. النقليات نُظمت. وثروة أنفقت على الاتصالات الهاتفية. إنها لمزحة في مجال حدائق الحيوانات، أن المعاملات الورقية لنقل «زبّابة» مثلاً تزن أكثر من فيل،

وأن المعاملات الورقية للاتجار بفيل تزن أكثر من حوت، وأنه لا يجدر أن تحاول الاتجار بحوت، إطلاقاً. بدا أن هناك صنفاً واحداً من البيروقراطيين من بونديتشيري إلى مينيابوليس مروراً بدلهي، كل واحد منهم لديه شكله ومشكلاته وتردده. شحن الحيوانات إلى القمر ما كان ليكون أكثر تعقيداً. اقتلع أبي تقريباً كل شعرة في رأسه، وكاد يتخلى عن المسألة كلها مرات عدة.

حدثت مفاجآت. معظم طيورنا وزواحفنا وقطعان قردة الليمور ووحيدات القرن، والسعالي، وقردة المكّاك، والنمور، والزرافات، والفهود، والشيتا، والضباع، وحمير الوحش، وآكلات النمل، وقردة الميمون، ودببة العسل، ودببة الهملايا، والفيلة الهندية، والماعز، ضمن حيوانات أخرى، كانت مطلوبة، لكن حيوانات أخرى، مثل فرس النهر «إلفي»، قوبلت بالرفض. «جراحة عين»، صرخ أبي، ملوحاً بالرسالة، «سيشترونها إذا أجرينا هذه العملية لعينها اليمنى. على فرس نهر! ماذا بعد ذلك ؟ جراحة أنف لوحيد القرن». بعض حيوانات أبي اعتبر شائعاً أكثر من اللازم، الأسود وقردة الربّاح، على سبيل المثال، فبادله أبي ببعض النسانيس من حديقة حيوانات مايزور، وبشيمبانزي من حديقة مانيلا. (أما في ما خص «إلفي» فقد أمضت بقية حياتها في حديقة «تريفندروم»). إحدى الحدائق طلبت «بقرة براهمانية أصلية»، لأجل القسم المخصص للأطفال، فقصد أبي أدغال بونديتشيري واشترى بقرة بعينين سوداوين وكفل سمين وقرنين مستقيمين، وطلى القرنين بالبرتقالي ووضع أجراساً بلاستيكية صغيرة على رأسها، لمزيد من الأصالة.

لم أكن رأيت شخصاً أميركياً من قبل، لذلك شعرت بحماسة

شديدة حيال زيارة أولئك الخبراء الأميركيين الثلاثة، الذين أرسلتهم حديقة حيوانات أميركية لفحص بعض الحيوانات والإشراف على نقلها. كانوا زهريي البشرة، سمينين، ودودين، محترفين جداً، ويتعرقون بغزارة. تفحصوا حيواناتنا. خدروا معظمها، وأجروا فحوصات على القلب والبول والبراز، وحللوا الدماء، ربّتوا على حدبات بعضها، نقروا على أسنان بعضها الآخر، استعملوا المصابيح لفحص العيون، ونكزوا الجلود، وشدوا الشعر. مسكينة الحيوانات، لا بد من أنها اعتقدت أنها خاضعة للتجنيد الإجباري في الجيش الأميركي. ابتسم لنا الأميركيون كثيراً وربّتوا على أكتافنا وصافحونا.

النتيجة أن الحيوانات، مثلنا، حصلت على أوراق العمل. كانت «يانكيز» مستقبلية، ونحن «كانكس» مستقبليين.

الفصل ٣٥

غادرنا مادراس في ٢١ حزيران ١٩٧٧، على متن سفينة النقل اليابانية المسجلة في باناما «تسمتسوم». كان ربابنتها يابانيين، وطاقمها تايواني، وكانت ضخمة جداً. ودعت، في يومنا الأخير في بونديتشيري، ماماجي، والسيدين كومار، وكل أصدقائي، وبعض الغرباء. ارتدت أمي أجمل ساري لديها، ورفعت ضفيرتها الطويلة التي زينتها بالياسمين إلى الخلف. بدت رائعة. وحزينة. لأنها تغادر الهند، هند الحر والرياح الموسمية، حقول الأرز ونهر كوفيري، السواحل والمعابد الحجرية، العربات والشاحنات الملونة، الأصدقاء وأصحاب المتاجر المألوفين، شارع نهرو وغوبير سالاي، وغيرها الكثير من أمكنة ومعالم تألفها وتحبها كثيراً. وفي حين كان رجالها ـ كنت أعتبر

نفسي رجلاً، مع أنني كنت لا أزال في السادسة عشرة - مستعجلين على الرحيل، كأنهم ولدوا كنديين، كانت هي مترددة.

في اليوم الذي سبق رحيلنا أشارت إلى كوخ لبيع السجائر وقالت: «لمَ لا نشتري رزمة أو اثنتين؟».

رد أبي: «يوجد سجائر في كندا. ولماذا تريدين شراء السجائر، فنحن لا ندخن؟».

أجل لديهم تنباك في كندا، لكن هل لديهم سجائر «غولد فلايك»؟ ألديهم آيس كريم آرون؟ هل الدراجات الهوائية تحمل اسم «هيروز»؟ هل التلفزيونات «أونيداس»؟ هل السيارات «أمباسادورز»؟ هل المكتبات «هيغنبوثامبس»؟ أحسب أن أسئلة من هذا القبيل كانت تدور في رأس أمي، حين فكرت في شراء السجائر.

الحيوانات خُدرت، الأقفاص حُمّلت وأُمّنت، والمؤن خُزّنت، أمكنة المبيت عُينت، الخطوط نُظمت، والصفارات أُطلقت. بينما كانت السفينة تشق طريقها خارجة من رصيف الميناء، لوحت للهند وداعاً. كانت الشمس مشعة، والنسيم ثابتاً، والنوارس تزعق في الهواء فوقنا. كنت في غاية الحماسة.

لم تجر الأمور مثلما كان متوقعاً لها، لكن ما الذي يمكنك فعله؟ ينبغي أن تقبل الحياة مثلما هي وتحاول أن تصنع الأفضل منها.

الفصل ٣٦

مدن الهند كبيرة وشديدة الاكتظاظ، لكن حين تسافر عبر مناطق البلاد الواسعة بالكاد ترى شخصاً. أتذكر أنني جلت في أمكنة يمكن أن يكون مختبئاً فيها ٩٥٠ مليون هندي.

يمكنني قول الشيء نفسه عن منزله.

وصلت باكراً. كنت وضعت رجلي تواً على الدرجات الإسمنتية للشرفة الأمامية حين خرج مراهق من الباب الأمامي. يعتمر بذة بايسبول ويحمل عدة اللعب، ويبدو مستعجلاً. حين رآني تجمد في مكانه. عاود الدخول بسرعة إلى المنزل. «أبي! وصل الكاتب». حيّاني: «هاي»، وأسرع في الرحيل.

يأتي أبوه إلى الباب «مرحباً»، يقول.

«أهذا ابنك؟»، أسأله متعجباً.

«أجل»، ويبتسم كأنما ليؤكد على ذلك. «عذراً لأنني لم أعرفك إليه بالشكل المناسب. لقد تأخر على التمرينات. اسمه نيخيل، وناديه نيك».

عند المدخل أقول له: «لم أكن أعلم أنه لديك ابن...». أسمع صوت نباح، جرو صغير بني وأسود يعدو باتجاهي، ويروح يشمشم الأرض حولي، وينطنط عند رجلي «...أو كلب»، أضيف.

«إنه كلب أليف. تاتا، ابتعد».

يتجاهله تاتا. تصلني من مكان ما من الغرفة تحية أخرى، «هالو»، ليست قصيرة وسريعة مثل تحية نيك، بل طويلة وناعمة «هالووووو»، تكاد تصل إلي كلمسة خفيفة على الكتف، أو كيد تشد بلطف بنطالي.

ألتفت. أرى صاحبة التحية جالسة على كنبة غرفة الجلوس، وتنظر إلي بحياء، طفلة سمراء، جميلة بثوبها الزهري، تحمل هراً برتقالي اللون، لا يظهر منه سوى قائمتيه الأماميتين المرفوعتين إلى أعلى ورأسه، أما جسمه فمتدل إلى الأرض. يبدو الهر مرتاحاً في وضعيته هذه.

«ابنتك؟»، أقول.

«أجل، يوشا حبيبتي، هل أنت متأكدة من أن موكازين مرتاح هكذا؟».

يوشا تنزل موكازين من يدها.

«مرحباً أوشا»، أقول.

تأتي إلى والدها وتروح تسترق النظر إلي من من وراء رجله.

«ما الذي تفعلينه يا صغيرتي؟»، يقول، «لماذا تختبئين؟».

لا ترد، فقط تنظر إلي مبتسمة، وتواري وجهها.

«كم عمرك، أوشا؟» أسألها.

لا ترد.

ثم ينحني بيسين موليتور باتيل، المعروف لنا جميعاً باسم باي باتيل، ويحمل ابنته.

«تعرفين الجواب على هذا السؤال، أليس كذلك؟ أنت في الرابعة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة».

عند كل رقم يضغط بلطف على أنفها بإصبعه. تجد ذلك مسلياً للغاية. تضحك وتخبئ وجهها في رقبته.

هذه القصة نهايتها سعيدة.

الجزء الثاني

المحيط الهادىء

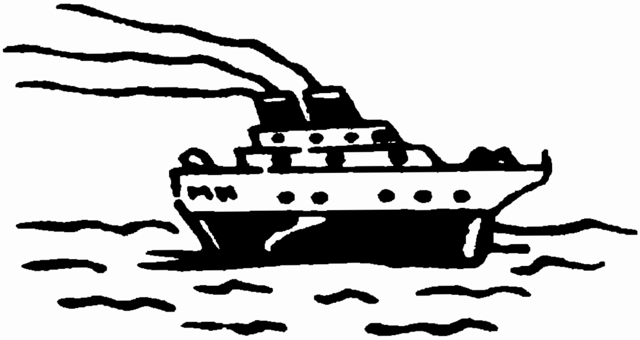

الفصل ٣٧

غرقت السفينة. أصدرت صوتاً أشبه بتجشؤ حديدي عملاق. بقبق الركام على سطح المياه لبعض الوقت ثم اختفى. كل شيء كان يصرخ: البحر، الريح، وقلبي. من قارب النجاة لمحت شيئاً في المياه.

صرخت: «ريتشارد باركر، أهذا أنت؟ لا أرى شيئاً. فقط لو يتوقف هذا المطر! ريتشارد باركر؟ ريتشارد باركر؟ بلى، هذا أنت!».

رأيت رأسه. كان يصارع الغرق.

«يا يسوع، يا مريم، يا محمد، ويا فيشنو، كم رائعة رؤيتك يا ريتشارد باركر! أرجوك لا تستسلم. تعال إلى القارب. أتسمع هذه الصفرة؟ تريييييي! تريييييي! ترييييييي! صحيح ما تسمعه.. إسبح.. اسبح! أنت سباح ماهر. إنها بضعة أمتار فحسب».

رآني. بدأ بالسباحة باتجاهي. بدا جزعاً، ضئيلاً وعاجزاً في خضم المياه التي تمور حوله.

«ريتشارد باركر، أتصدق ما حدث لنا؟ قل لي إنه حلم مزعج. قل إنه ليس حقيقياً. قل إنني لا أزال على سريري في التسمتسوم وإنني أحلم وسأصحو بعد قليل من هذا الكابوس. قل لي إنني ما زلت سعيداً. أمي، يا ملاكي الحارس، أين أنت؟ وأنت يا أبي الحبيب يا

دائم القلق؟ وأنت يا رافي، يا بطل طفولتي؟ احفظني يا فيشنو. احمني يا الله، خلصني أيها المسيح. لا أستطيع الاحتمال! تريييييي! تريييي! ترييييي!».

ليس من جروح في جسدي، لكنني لم أعرف في حياتي مثل هذا الوجع، مثل هذا الانشداد العصبي، مثل هذا الألم يعتصر قلبي.

لن ينجو. سيغرق. يتقدّم بصعوبة. فمه وأنفه يغوصان في المياه. فقط عيناه ثابتتين عليّ.

«ما الذي تفعله يا ريتشارد باركر؟ ألا تحب الحياة؟ استمر بالسباحة إذاً! تريييي! ترييييييي! تريييييي! ادفع برجليك. ادفع! ادفع! ادفع!».

لا يزال يصارع الغرق.

«وماذا عن عائلتي الأكبر ـ الزواحف والطيور والوحوش؟ هي أيضاً غرقت. كل ما له قيمة في حياتي قد دمر. بدون مقدمات، ولا تفسيرات؟ عليّ أن أعاني الجحيم دون أن تعلّل لي السماء الأسباب؟ ما جدوى العقل إذاً يا ريتشارد باركر؟ أوظيفته الوحيدة تدبير الأمور العملية فحسب، تأمين الطعام والثياب والمأوى؟ لماذا لا يقدم العقل أجوبة أكبر؟ ولماذا الأسئلة التي نطرحها تفوق الأجوبة دائماً ؟ لماذا الشبكة الكبيرة إذا كانت الأسماك قليلة إلى هذا الحدّ؟».

رأسه بالكاد يطفو. يرفع رأسه، ناظراً إلى السماء للمرة الأخيرة. ثمة طوق نجاة موثق بالمركب بحبل. أحمله وأرميه في اتجاهه.

«أترى طوق النجاة يا ريتشارد باركر؟ أتراه؟ تعلّق به! بئساً، سأحاول مرة أخرى. بئساً!».

كان بعيداً جداً. لكن منظر طوق النجاة وهو يحلق باتجاهه منحه أملاً. تنشّط وراح يضرب المياه ضربات عشوائية يائسة.

«هذا حسن! واحد، اثنان، واحد اثنان، واحد، اثنان. تنفس.. تنفّس. احذر الأمواج. تريييي! تريييي! تريييي!».

كان قلبي يرتجف برداً وحزناً، لكنه ليس وقت الصدمات التي تشل الحركة. شيء فيّ لم يرد التخلي عن الحياة، لم يرغب بالاستسلام، وأراد القتال حتى النهاية. من أين استمد هذا الجزء مني الشجاعة، لا أعرف.

«أليست مفارقة يا ريتشارد باركر؟ إننا في الجحيم ومع ذلك نخشى الفناء. أنظر كم أنت قريب! تريييي! تريييييي! تريييييييي!. هوراه، هوراه! لقد نجحت، ريتشارد باركر، نجحت. تعلق بطوق النجاة!».

رميت الطوق نحوه. سقط على مقربة منه. بآخر رمق لديه امتد إلى الأمام وتعلق به.

«تشبث به، سأقوم بجذبك. لا تفلته. أنت شدّ بعينيك وأنا أشد بيدي. خلال ثوان ستكون على القارب وسنكون معاً. لحظة. معاً؟ سنكون معاً. أتراني جننت؟».

أدركت لحظتها جنون ما أقدم عليه. رحت أجذب الحبل نحوي.

«اترك الطوق يا ريتشارد باركر! اتركه، قلت لك، لا أريدك هنا، أتفهم؟ إذهب إلى مكان آخر. دعني وشأني. اغرب عن وجهي. إغرق! إغرق!».

راح يركل بقوة بقوائمه. حملت مجذافاً، وجعلت أنكزه به، محاولاً إبعاده عن القارب. أخطأت الضربة وفقدت السيطرة على المجذاف، فسقط في الماء.

جلبت واحداً آخر. وضعته إلى مسند المجذاف في طوق النجاة محاولاً إبعاده عن القارب. كل ما فعلته هو أنني أدرت القارب قليلاً، جاعلاً أحد طرفيه أقرب إلى ريتشارد باركر.

سأضربه على رأسه. رفعت المجذاف في الهواء.

كان سريعاً جداً، تمكن من رفع نفسه إلى القارب.

«أوه، يا إلهي».

كان رافي محقاً. إنني الماعز التالي حقاً. أصبحت على متن قارب واحد مع نمر بنغالي عمره ثلاثة أعوام، مبلل، نصف غارق، يسعل ويرتجف. راح ريتشارد باركر يرتجف على المشمّع. التمعت عيناه حين لاقتا عيني، فيما أذناه هامدتان على صدغيه. ليس هناك من سلاح. رأسه كان بحجم طوق النجاة ولونه، إنما مع أسنان.

استدرت، دست على حمار الوحش، وقفزت في المياه.

الفصل ٣٨

لا أزال غير قادر على استيعاب ما حدث. طوال أيام شقّت السفينة طريقها بثبات، غير مكترثة بتحولات الطقس والمحيط. أشرقت الشمس، وعصفت الرياح، ونشأت التيارات المائية، صار الموج هضاباً تارة، وودياناً تارة أخرى، والسفينة غير عابئة بهذا كله، تتقدّم بثقة، بطيئة وهائلة كقارة.

كنت قد علّقت خريطة العالم التي اشتريتها خصيصاً من أجل الرحلة، على لوح فلّين، في حجرتي المشتركة مع رافي، وكنت كل صباح أستفسر من قمرة القيادة عن موقعنا وأعيّنه على الخريطة بدبوس

برتقالي الرأس. أبحرنا من «مادراس» عبر خليج البنغال، نزولاً عبر مضيق «ملاكّا»، التفافاً حول سنغافورة، وصعوداً إلى مانيلا. أحببت كل دقيقة من الرحلة. كان مثيراً أن نكون معاً على متن سفينة، كما شغل الاعتناء بالحيوانات حيزاً كبيراً من وقتنا، حتى كنا نأوي كل ليلة إلى أسرّتنا مرهقين حتى العظام. توقفنا ليومين في ميناء مانيلا، من أجل المؤونة، وإضافة بعض الحمولة، وإجراء الصيانة الروتينية للمحركات، مثلما قيل لنا. كنت معنياً بالجزأين الأولين من محطتنا تلك. فالمؤونة تضمنت طناً من الموز، أما «البضاعة» الجديدة فكناية عن أنثى شيمبانزي من الكونغو، كانت جزءاً من الصفقة التي أبرمها أبي. طن الموز لا بدّ من أن تصحبه ثلاثة أو أربعة باوندات من العناكب السوداء. أما الشيمبانزي فتشبه ابن عمها الغوريلا، لكنها أصغر حجماً وأكثر شراسة. أخذت الشيمبانزي ترتعد وتكشر كلما لمسها عنكبوت أسود كبير، على نحو ما نفعل أنا أو أنت، وإن كنا لا نطحن العنكبوت ببراجم أصابعنا على نحو ما فعلت هي. أثار الموز والشيمبانزي اهتمامي أكثر من تلك الآلات الصاخبة والغريبة التي كانت تهدر طوال الوقت في قعر السفينة، أما رافي فأمضى جل وقته هناك، متفرجاً على طاقم السفينة وهم يعملون. «هناك خطب ما في المحركات»، قال لي في إحدى المرات. أتكون الأمور ساءت خلال محاولة إصلاحها؟ لا أعرف. لا أظن أن أحداً سيعرف يوماً. يبقى الجواب لغزاً قابعاً على عمق آلاف الأقدام تحت الماء.

غادرنا مانيلا ودخلنا المحيط الهادئ. وفي اليوم الرابع، في منتصف الطريق إلى «ميدواي»، غرقت السفينة. اختفت في ثقب صغير على خارطتي. جبل انهار أمام ناظري، وتبدّد تحت رجلي. كل ما

رأيته بعد ذلك قيء سفينة تعاني عسر هضم. شعرت بالإعياء الشديد، بالصدمة، وبفراغ عظيم في داخلي، امتلأ وقتذاك بالصمت. ظل صدري يؤلمني أياماً بسبب الهلع والوجع.

أظن أنه حدث انفجار، لكن لا يمكنني الجزم بذلك، فقد حدث الأمر خلال نومي. أيقظني الدوي. لم تكن تسمتسوم بالسفينة المترفة، المصممة لراحة المسافرين، فكانت تصدر ضجيجاً هائلاً طوال الوقت، وبالتحديد بسبب انتظام مستوى الضجيج هذا كنا ننام كالأطفال، حيث تحول الضجيج إلى نوع آخر من السكون الذي لا يخترقه شيء، لا شخير رافي ولا تكلمي أثناء النوم. لذا فالانفجار، إذا كان قد وقع حقاً، لم يكن بالصوت الجديد، بقدر ما كان صوتاً غير اعتيادي. أجفلني الدوي، كما لو أن رافي فقع بالوناً في أذني. نظرت إلى ساعتي. كانت قرابة الرابعة والنصف فجراً. انحنيت ونظرت إلى السرير تحتي. كان رافي يغط في النوم.

ارتديت ملابسي ونزلت عن السرير. عادة أنام بعمق، ولم تكن لدي مشكلة باستئناف النوم، لكن لا أعرف ما الذي أيقظني تلك الليلة. كان سلوكاً يمكن أن يقوم به رافي. كان يحب كلمة «المناداة»؛ كان يمكن أن يقول إذا سمع هذا الدوي «المغامرة تنادي»، وكان ليمضي لكي يطوف خلسة في السفينة. عاد مستوى الضجيج إلى طبيعته، لكن بوقع مختلف ربما، مكتوم بعض الشيء.

هززته: «رافي، هناك صوت غريب، تعال لنستكشف الأمر».

نظر إلي ناعساً. أدار رأسه إلى الناحية الأخرى وغطاه بالشرشف. أوه، رافي.

فتحت باب الحجرة.

أذكر سيري في الرواق الذي لا يتغير شكله بين الليل والنهار. لكنني شعرت بالليل في داخلي. وقفت عند باب حجرة والديّ وفكرت لبرهة في أن أطرقه. أذكر أنني نظرت إلى الساعة وقررت ألا أفعل. فأبي لا يحب أن يوقظه أحد. قررت أن أصعد إلى سطح السفينة لأشاهد شروق الشمس، وربما شهباً قد يصادف مروره. جعلت أفكر بذلك، بالشهب، وأنا أصعد الأدراج من الطابق السفلي الثاني حيث تقع حجراتنا، وقد نسيت أمر ذلك الدوي الغريب.

فور فتحي الباب الثقيل المؤدي إلى ظهر المركب تبيّن لي حال الطقس. لا أعرف ما إذا كان يصنّف كعاصفة، فالمطر لم يكن شديداً، على الأقل ليس بغزارة الأمطار التي تصاحب الرياح الموسمية. وكان هناك ريح، أفترض أنه قادر على زعزعة المظلات على سطح السفينة، لكنه لم يمنعني من السير. كان البحرهائجاً، لكن بالنسبة إلى بحّار غرّ مثلي، فمشهد كهذا لا يعدو كونه مؤثراً ومفزعاً، رائعاً وخطراً. كانت الأمواج العملاقة ترتفع إلى سطح السفينة، لتنفجر رغوتها البيضاء، بعد أن تحملها الرياح، على جنب السفينة. لكنني رأيت مثل هذا في أيام أخرى، ولم تغرق السفينة. سفينة الشحن هي بنيان ضخم وثابت، إنجاز هندسي، وهي مصممة لكي تصمد في أقسى الظروف. طقس كهذا لن يغرقها بالتأكيد، وليس عليّ سوى أن أعود أدراجي وأقفل باب حجرتي ورائي حتى تصبح العاصفة بحكم غير الموجودة. لكنني مضيت قدماً. أمسكت بالدرابزين وواجهت الرياح. تلك كانت مغامرة.

«كندا، ها أنا آت»، صرخت وأنا أرتجف برداً بعد أن تبلل جسدي كله بالمياه. شعرت بالشجاعة تغمرني. كانت لا تزال عتمة، لكن

الضوء الذي بدأ يشق الأفق كاف ليتبيّن المرء طريقه. ضوء من الجحيم. تفرّجت على الطبيعة وهي تؤدي أحد أروع عروضها: المنصة ضخمة، البرق دراماتيكي، الكومبارس كثر، وميزانية المؤثرات الخاصة بلا حدود. ما كان يحدث أمامي هو استعراض من المياه والرياح، زلزال للحواس، حتى هوليوود لا يمكنها ابتكار مثله. لكنه زلزال لا يصل إلي. كنت أقف على أرض صلبة، أشبه بمشاهد سينمائي غارق في مقعده الوثير.

بدأ القلق يتسرب إلى نفسي حين نظرت إلى أحد قوارب النجاة على جسر قمرة القيادة، ووجدته قد أفلت من إحدى علاّقتيه وتدلى إلى أسفل. وعندها نظرت إلى يدي التي ابيضت براجمها لكثرة الشدّ، فانتبهت إلى أنني لا أحكم قبضتي على الدرابزين بسبب الريح، بل لأن السفينة صارت مائلة بحيث أنني لو أفلت يدي لانزلقت. لم يكن ميلاناً حاداً، لكنه كاف لمفاجأتي. نظرت ناحية البحر لأكتشف أن المشهد لم يعد ممتعاً. صار بوسعي، بسبب ميلان السفينة، أن أرى جانبها الضخم الأسود.

سرت قشعريرة باردة في جسدي. حسمت رأيي أخيراً بأن هذه عاصفة بالفعل، وأنه آن أوان العودة إلى بر الأمان. عجلت في خطواتي متمسكاً بالجدار وفتحت الباب.

في الداخل كانت السفينة تجيش بالأصوات الصاخبة، في صرير بنيوي عميق. تعثرت. لم أجرح. نهضت. قفزت بمساعدة الدرابزين على الدرج، متجاوزاً عند كل قفزة أربع درجات دفعة واحدة. وحين وصلت إلى الطابق الأول رأيت المياه، كثيرة إلى حدّ أنها سدّت عليّ الطريق، كانت تتفجر من الأسفل كحشد هائج من البشر. اختفت

الأدراج وراء عتمة مائية. لم أصدّق ما تراه عيني. ما الذي تفعله هذه المياه هنا؟ من أين أتت؟ تسمّرت برهة في مكاني، مرعوباً وغير مصدّق، وجاهلاً بما ينبغي أن تكون خطوتي التالية. في الأسفل كانت عائلتي.

عاودت الصعود. وصلت إلى ظهر المركب. لم يعد الطقس مسلياً على الإطلاق. تملكني الجزع، وقد بات الأمر الآن واضحاً وبسيطاً: السفينة تغرق. كان ثمة انحناء واضح يمتد من مقدّم السفينة إلى مؤخرها. نظرت إلى البحر. لم تبد المياه أبعد من ثمانية أقدام. السفينة تغرق حقاً. لم أستوعب ما يحدث. كان شيئاً لا يصدق كقمر تشتعل فيه النيران.

أين طاقم السفينة وربابنتها؟ ماذا يفعلون؟ عند مقدم السفينة لمحت ظلال بضع رجال يركضون. حسبت أنني رأيت بعض الحيوانات أيضاً، لكنني اعتبرت المنظر وهماً سببه المطر والظل. فقد كنا نبقي أبواب الحجرات التي نحتجز فيها الحيوانات مفتوحة حين يكون الطقس جيداً، لكن في كل الأحوال كانت تبقى الحيوانات في أقفاصها، فهي حيوانات خطرة. فوق، على جسر قمرة القيادة، حسبت أنني سمعت رجالاً يصرخون.

راحت السفينة ترتج وتضطرب وسمعت مجدداً صوت التجشؤ المعدني العملاق ذاك. ما كان ذاك الصوت؟ أكان صراخ ركاب السفينة، من بشر وحيوانات، وهم يحتجون بشكل جماعي على موتهم المحتوم؟ أكان صوت السفينة نفسها وهي تستسلم لمصيرها؟ وقعت. وقفت ثانية. نظرت مجدداً إلى البحر. كان يعلو، والأمواج تقترب. كنا نغرق بسرعة.

سمعت بوضوح زعيق قردة. شيء ما يهزّ سطح السفينة، ثور بري هندي، انبثق كانفجار من بين المطر وراح يعدو باتجاهي، مذعوراً، فاقداً السيطرة، مسعوراً. نظرت إليه، مذهولاً ومخبلاً. من بحق الله أطلقه من قفصه؟

ركضت باتجاه أدراج قمرة القيادة. هناك سأجد الربابنة، الوحيدين على السفينة الذين يجيدون الإنكليزية، سادة مصيرنا هنا، الذين من شأنهم تصحيح هذا الخلل. سيشرحون لي كل شيء. سيعتنون بي وبعائلتي. صعدت إلى الجسر الوسطي. لم يكن هناك أحد إلى جهة الميمنة. ركضت إلى الجهة الأمامية. رأيت ثلاثة من أفراد الطاقم. وقعت. نهضت ثانية. كانوا ينظرون إلى البحر. صرخت. التفتوا نحوي. نظروا إليّ ثم إلى بعضهم. قالوا بضع كلمات. اتجهوا نحوي بسرعة. شعرت بالامتنان والارتياح يملآنني. قلت: «شكراً لله أنني وجدتكم. ما الذي يجري؟ إنني خائف. ثمة مياه في قعر السفينة. أنا خائف على أهلي. لا أستطيع النزول إلى حجراتهم. أهذا طبيعي؟ أتعتقدون...».

قاطعني أحد الرجال، وضع سترة نجاة بين يدي وراح يصرخ بالصينية. لاحظت صفارة برتقالية تتدلى من سترة النجاة. راح الرجال يومئون برؤوسهم بقوة وهم ينظرون إلي،. وحين حملوني بأذرعهم القوية، لم أفكر بشيء. حسبت أنهم يساعدونني. كنت مليئاً بالثقة بهم بحيث شعرت بالامتنان لهم وهم يرفعونني في الهواء. فقط حين قذفوني إلى البحر بدأت تنتابني الشكوك.

الفصل ٣٩

جعلني المشمّع، ذلك القماش الذي تغطى به المراكب عادة، والذي كان ملفوفاً على نحو يغطي نصف قارب النجاة، أرتد إلى أعلى قبل أن أعاود السقوط عليه. كانت معجزة أنني لم أجرح. فقدت سترة النجاة، وبقيت الصافرة في يدي. كان قارب النجاة المعلق عند منتصف المسافة بين البحر وجسر قمرة القيادة، يتأرجح بشدة في العاصفة. نظرت إلى أعلى. كان إثنان من الرجال ينظران إليّ، وهما يشيران بأيديهما إلى قارب النجاة ويصرخان. لم أفهم ما الذي يريدانني أن أفعله. وحسبت أنهما سيقفزان بعدي. بدلاً من ذلك أنحيا برأسيهما بعيداً. بديا مرعوبين، ثم ظهر ذاك الكائن محلقاً في الهواء بسرعة حصان سباق. لسوء حظه لم يقع حمار الوحش، وهو ذكر يزن نحو ٥٠٠ باونداً، على المشمّع، بل على المقعد الأخير في قارب النجاة، الذي تحطم تحت ثقله، جاعلاً القارب يتأرجح بقوة. أطلق الحيوان صرخة غريبة. كنت لأتوقع صوتاً يشبه نهيق حمار، أو صهيل فرس، لكنه لم يكن شيئاً من هذا القبيل. كان نباحاً عنيفاً، «كوا . كوا»، ينمّ عن الألم الشديد، جاعلاً شفتيه تنفرجان على وسعيهما، عاكستين أسناناً صفراء ولعاباً زهرياً غامقاً. هوى القارب وارتطم بالمياه الهائجة.

الفصل ٤٠

لم يتبعني ريتشارد باركر حين قفزت في المياه. تمسكت بالمجذاف الذي قصدت استعماله كهراوة، وسعيت إلى طوق النجاة الذي كنت رميته لريتشارد باركر. أرعبني وجودي في تلك المياه

السوداء الباردة والهائجة. شعرت كما لو أنني في قعر بئر ينهار فوقي. ظلت المياه تلطمني، وتخز عيني، وتشدّني إلى الأسفل. انقطع نفسي، ولولا طوق النجاة لما صمدت دقيقة واحدة.

رأيت شيئاً مثلث الشكل على بعد ١٥ قدماً مني. زعنفة سمكة قرش. وخز رهيب، بارد وسائل، سرى في عمودي الفقري. سبحت بأقصى سرعة إلى أحد طرفي القارب، حيث الجزء المغطى بالمشمّع. رفعت نفسي إلى أعلى وألقيت نظرة سريعة إلى القارب فيما معظم جسدي لا يزال في المياه. لم ألمح ريتشارد باركر، لا على المقعد ولا على المشمّع. لا بدّ من أنه في قاع القارب. رفعت نفسي ثانية. كل ما استطعت رؤيته، لمحاً، عند الطرف الآخر، رأس حمار الوحش، وهو يتحرك. خارت ذراعاي. حين سقطت مجدداً في المياه رأيت زعنفة سمكة قرش أخرى تلتمع أمامي.

كان ثمة حبل نايلون قوي يربط العرى المعدنية التي على أطراف المشمّع البرتقالي بالعقافات على جانب القارب. وجدتني أصارع المياه العالية عند مقدّم القارب (الجؤجؤ)، الأفطس كأنف، حيث المشمّع غير مثبت بالإحكام نفسه، كما في أجزاء أخرى من القارب. رفعت المجذاف وأقحمته في تلك الفسحة المرتخية بين المشمّع وسطح القارب. أقحمته إلى أعمق مسافة ممكنة، فصار نصفه تحت المشمّع ونصفه الآخر ممدوداً إلى خارج القارب. رفعت نفسي ولففت رجلي على المجذاف. صرت ممدوداً إلى خارج القارب بنحو قدمين أو ثلاثة، ولم يحل ذلك دون أن ترتطم بي الموجات الكبيرة.

كنت وحيداً في عرض الباسيفيك، معلقاً بمجذاف، أمامي نمر شاب، وتحتي سمك القرش، ومن حولي العواصف الهادرة. لو أنني

أمعنت التفكير في وضعي ذاك لاستسلمت بالتأكيد، تاركاً المجذاف، على أمل أن أموت غرقاً قبل أن يلتهمني قرش. لكنني لا أذكر التفكير بأي من هذا خلال تلك الدقائق الأولى من الأمان النسبي. لم ألاحظ انبلاج الفجر حتى. بقيت معلقاً بالمجذاف، فقط بقيت معلقاً، وحده الله يعرف السبب.

بعد فترة استفدت من طوق النجاة. انتشلته من المياه ورحت أعالجه شيئاً فشيء حتى تمكنت من إدخاله في المجذاف، بحيث أحاطت حلقته بصدري، واصر بإمكاني التعلق بالمجذاف معتمداً على رجلي فقط. لو ظهر ريتشارد باركر، لوجدت صعوبة أكبر الآن في التخلص من المجذاف، لكن كل رعب في حينه. وفي الوقت الراهن، الباسيفيك أخطر من النمر.

الفصل ٤١

سمحت لي العناصرالمختلفة بالبقاء حياً. فلم يغرق القارب، وظل ريتشارد باركر متوارياً، وحام سمك القرش حولي دون أن يهاجمني، وارتطم بي الموج دون أن يقذفني في اليمّ.

رأيت السفينة وهي تختفي مصدرة الكثير من البقبقة. لمع ضوء ثم اختفى. رحت أبحث عن عائلتي، عن ناجين آخرين، عن قارب نجاة آخر، عن أي شيء يمدّني بالأمل. لا شيء سوى المطر، وموج المحيط الأسود العملاق، وحطام المأساة.

تبدّدت عتمة السماء. وتوقف المطر.

لم أعد أستطيع البقاء طويلاً في وضعيتي تلك. كنت أرتجف من البرد، وآلمتني رقبتي بسبب الشد الذي قمت به، كما آلمني ظهري من

انشداد طوق النجاة عليه. وكان عليّ أن أرتفع أكثر إذا ما أردت رؤية قوارب نجاة أخرى.

دفعت نفسي ببطء على المجذاف حتى لامست رجلي مقدم القارب. توخيّت في حراكي أقصى الحذر، لحدسي بأن ريتشارد باركر يقبع تحت المشمّع، مولياً ظهره لي، ومواجهاً حمار الوحش، الذي لا بد من أنه أجهز عليه. من بين حواسه يعتمد النمر أكثر ما يعتمد على نظره الثاقب، الذي يرصد أدق حركة، غير أنه يتمتع كذلك بسمع جيد، وبحاسة شم لا بأس بها، قياساً بحيوانات أخرى. فبالمقارنة معه أنا أصم وأعمى وعديم الشم. لكنه غير قادر حالياً على رؤيتي، وفي البلل الذي أنا فيه لا يمكنه على الأرجح اشتمامي، وفي خضم صفير الريح وهسيس البحر وارتطام الموج، فلن يتمكن من سماعي أيضاً. كانت لدي فرصة سانحة ما دمت حذراً وما دام لا يحدس بحضوري. لحظة يشعر بحضوري سيفترسني على الفور. هل بإمكانه أن يخترق المشمّع نحوي؟ تساءلت.

تنازع الخوف والمنطق الجواب. قال الخوف أجل. فهو مفترس قوي، ومخالبه حادة كسكين. اما المنطق فأجاب بالنفي. فالمشمّع ليس بورق جدران ياباني رقيق. لقد هويت عليه من مسافة عالية ولم يتمزق، وإذا كان يستطيع النمر تمزيقه بمخالبه ببعض الوقت والجهد، فإنه لا يستطيع النفاذ عبره كجني. وهو لا يراني، وما دام لا يراني فما من سبب يجعله يسعى إلى تمزيق المشمّع.

انزلقت على طول المجذاف. لففت ساقيّ عليالمجذاف وأسندت قدمي على حافة القارب. تحركت قليلاً حتى أصبحت رجلي في القارب. أبقيت عيني على المشمّع، متوقعاً في أي لحظة رؤية ريتشارد

باركر وهو ينهض ويتقدّم لافتراسي. لم تفارق جسدي ارتعاشات الخوف. وتحديداً حيث احتجت أكثر إلى الثبات، أي عند رجلي، كانت ذروة الارتجاف. كانت رجلاي كانتا تقرعان كالطبل على المشمّع، وهذا كل ما يحتاج إليه ريتشارد باركر ليحس بحضوري. تطاولت الرجفة إلى ذراعي، وهما كل ما يمكنني الاعتماد عليه لتجنب السقوط في الماء.

حين أصبح جزء كاف من جسدي في المركب قفزت إليه. ألقيت نظرة خلف المشمّع. وفوجئت بأن حمار الوحش لا يزال حياً. كان ممدداً عند مؤخر القارب (الكوثل)، حيث سقط من قبل، خامداً تماماً، سوى أن معدته تصعد وتهبط وعينيه تتحركان عاكستين الرعب. كان ممدداً على جنبه، قبالتي تماماً، رأسه ورقبته مستندين بشكل غريب إلى المقعد الجانبي. ثمة كسر في إحدى قائمتيه الخلفيتين، استنتجت ذلك من شكلها، فالعظم يخترق اللحم، والدم ينزف. لكن بدا وضع القائمتين الأماميتين طبيعياً. عدا عن هز رأسه ونباحه وخواره من وقت لآخر، ظل صامتاً.

إنه حيوان جميل. خطوط جلده المبللة تلتمع بأبيض متوهج وأسود كثيف. وعلى الرغم من القلق الذي يسيطر عليّ ويمنعني من أن أمعن النظر فيه، لم أستطع تجاهل جمال رأسه ولا التناسق الرائع في خطوط جسمه. وما أثار دهشتي أكثر من ذلك هو حقيقة أن ريتشارد باركر لم يفترسه بعد. في الأحوال الطبيعية كان ينبغي أن يكون أتم افتراسه. هذا ما تفعله الحيوانات المفترسة: تقتل فريستها. وفي الظرف الراهن، حيث يرزح ريتشارد باركر تحت ضغط نفسي هائل، فإن الخوف ينبغي أن يولّد لديه درجة استثنائية من العدائية. حمار الوحش يفترض أن يكون مذبوحاً الآن.

انكشف لي السبب بعد قليل. جمد الدم في عروقي للحظات، قبل أن يحل محله قدر من الارتياح. لمحت رأساً وراء المشمّع. نظر نحوي مباشرة، مرعوباً، وانسل وراء المشمّع، قبل أن يطل برأسه ثانية، ثم يختفي، ثم يظهر، ثم يختفى للمرة الأخيرة. كان رأس ضبع مخطّط. كنا نملك في حديقتنا ستة منها، أنثيين وأربعة ذكور، وكنا نشحنها إلى «منيسوتا». هذا الضبع ذكر، مثلما تدل أذنه اليمنى، الممزقة بشكل كبير، والتي يدل طرفها الملتئم على عراك قديم. الآن فهمت لماذا لم يفترس ريتشارد باركر حمار الوحش: لم يعد على متن القارب. لا يعقل وجود ضبع ونمر معاً في مكان صغير كهذا. لا بدّ من أنه انزلق عن المشمّع وغرق.

لكن كيف وصل الضبع إلى القارب؟ فالضباع على حدّ علمي لا تجيد السباحة. استنتجت أنه لا بدّ كان منذ البداية على متن القارب، مختبئاً تحت المشمّع، بحيث لم أره حين سقطت على المشمّع. أدركت شيئاً آخر: كان وجود الضبع هو سبب رمي أولئك البحارة لي إلى قارب النجاة. فهم لم يسعوا إلى إنقاذي. كان ذلك آخر همهم. بل استعملوني كطعم، آملين على الأرجح بأن يهاجمني الضبع وأنني بطريقة ما سألهيه عنهم، وأجعل المركب آمناً لهم، حتى لو كلفني ذلك حياتي. عرفت الآن لماذا كانوا يشيرون إلى المركب بذاك الإلحاح، قبل ظهور حمار الوحش.

لم يخطر لي يوماً بأن وجودي في مكان صغير كهذا مع ضبع مخطط سيكون خبراً جيداً، بل خبرين جيدين: فلولا هذا الضبع لما كان البحارة رموني إلى القارب ولكنت بقيت على السفينة وغرقت بالتأكيد؛ وإذا كان عليّ أن أتشارك المكان مع حيوان ضار، فمن

الأفضل أن يكون حيواناً كلبياً، على أن يكون هراً قوياً ورشيقاً كالنمر. تنهدت أقل تنهيدة ارتياح ممكنة. وانتقلت، كإجراء احتياطي، إلى المجذاف. جلست عليه، عند الحافة المدورة من طوق النجاة، رجلي اليمنى على بوز المركب، ورجلي اليمنى على حافته. كانت وضعية مريحة كفاية.

نظرت حولي. لا شيء سوى السماء والبحر. الأمر نفسه كما حين تقاذفت الأمواج القارب. حاكى البحر لبرهة ملامح البر، بتلاله ووديانه وسهوله. مشهديات متسارعة، حول العالم في ثمانين موجة، لكن مهما نظرت لم أر عائلتي. طفا الركام على اليابسة. لكن لا أمل. لا قوارب نجاة أخرى.

كان الطقس يتبدل بسرعة. وبدأ البحر الهائل يستقر على حركة ثابتة وهادئة، واستكان الموج، وتحولت الرياح إلى نسائم، وبدأت سحب بيضاء ناصعة وكبيرة تنتشر وسط زرقة السماء. كان فجر يوم رائع في المحيط الهادئ. جف قميصي بعض الشيء. تبدد الليل بسرعة تبدّد السفينة.

رحت أنتظر. أفكاري تتذبذب بسرعة، وهمي منصب على التفاصيل العملية المباشرة للبقاء على قيد الحياة، أو مشلولاً بالألم، أبكي بصمت، فاغر الفم ويداي على رأسي.

الفصل ٤٢

اقتربت تطفو على جزيرة من الموز تحوطها هالة من الضوء، الرائعة مريم العذراء. الشمس من ورائها، تضيء شعرها بلمعان مذهل.

صرخت: «أوه، أيتها الأم العظيمة المباركة، يا إلهة الخصوبة في بونديتشيري، يا سيدة الحليب والحب، يا ذراع الطمأنينة الممدود، يا حاضنة الباكين، ما الذي تفعلينه هنا؟ هل جئت لتشهدي على هذه المأساة؟ ليس من الصواب أن تلتقي العذوبة الرعب، أفضّل لو أنك تموتين فوراً. تملأني رؤيتك غبطة ومرارة. تدخلين الفرح والحزن إلى قلبي بمقدار واحد. الفرح لأنك معي الآن، والحزن لأن ذلك لن يكون لفترة طويلة. ما الذي تعرفينه عن البحر؟ لا شيء. ما الذي أعرفه عن البحر؟ لا شيء. بلا سائق، هذه الحافلة محكومة بالضياع، وحياتانا محكومتان بالفناء. فلتأت معي إذا كانت وجهتك النسيان، إنه محطتنا التالية. يمكننا الجلوس معاً. أمنحك إذا شئت المقعد الذي بجوار النافذة، وإن كان محزناً المنظر. أوه، كفى مراوبة. فلأقلها بوضوح: أحبك، أحبك، أحبك، أحبك، أحبك، أحبك. أرجوك وفّري عليّ العناكب».

إنها «عصير البرتقال»، أسميناها كذلك لأنها كثيرة اللعاب، سعلاتنا ونجمة حديقتنا، أم لسعلاتين ذكرين معافيين، التي تتقدم على كومة موز طافية محاطة بحشد من العناكب السوداء، التي تزحف حولها كمتعبّدين حاقدين. كتلة الموز كانت متماسكة بالشبكة النايلون التي أنزلت فيها إلى السفينة. وحين قفزت السعلاة إلى القارب، تشتت الموز. ارتخت الشبكة. دون تفكير، وفقط لأنها كانت على مرمى يدي، وعلى وشك أن تغرق، أمسكت بالشبكة وجلبتها إلى المركب، حركة عفوية اتضح في ما بعد أنها ستنقذ حياتي بطرق عدة؛ هذه الشبكة ستصبح من أثمن ممتلكاتي.

تفرق الموز. راحت العناكب تزحف بأقصى سرعة طلباً للنجاة،

لكن وضعها كان ميؤوساً منه. انهارت جزيرة الموز تحتها. غرقت كلها. عامَ المركب لبرهة وسط بحر من الموز.

التقطت الشبكة التي حسبت حينها أنها لن تفيدني بشي، لكن هل فكرت في التقاط الموز؟ لا، ولا واحدة حتى. راح الموز يتقشر بفعل المياه. خسارة عظمى ستثقل على كاهلي لاحقاً. بعد قليل وجدتني أصارع نوبات متتالية من الغيظ بسبب غبائي.

كانت «عصير البرتقال» مضطربة. حركاتها بطيئة ومترددة، وعيناها تعكسان شروداً عميقاً. كانت تعاني من صدمة حادة. ارتمت بسكون تام على المشمّع لدقائق عدة، قبل أن تمط جسدها أكثر وتهوي على أرض القارب. سمعت عواء الضبع.

الفصل ٤٣

آخر ما رأيته من السفينة بقعة زيت تلتمع على صفحة الماء.

كنت واثقاً من أنني لست وحدي. فلا يعقل ألا يثير اختفاء سفينة ضخمة مثل تسمتسوم انتباه أحد. لا بدّ من أنه ثمة الآن في طوكيو، وفي باناما، وفي مادراس، وفي هونولولو، وحتى في واينبيغ، إشارات حمراء تومض على لوحات المفاتيح، لا بدّ من أن أجراس إنذار كثيرة تلعلع، وعيوناً تتسع، وأنفاساً تتسارع: «يا إلهي! تسمتسوم غرقت!»، ثم أيد تسارع إلى التقاط سماعات الهواتف. ثم المزيد من الإشارات الحمراء، والمزيد من أجراس الإنذار. طيارون يهرعون إلى طائراتهم دون أن يتاح لهم الوقت حتى لعقد شرائط أحذيتهم. ربابنة يديرون دفاتهم حتى الدوخان. غواصات تهبط إلى أعماق المياه. قريباً نُنقذ. قريباً تلوح سفينة في الأفق. قريباً يتوافر سلاح يقتل الضبع

ويخلص حمار الوحش من عذاباته، وينقذ حياة «عصير البرتقال». سأصعد إلى السفينة وأجد في استقبالي عائلتي التي عثر عليها قبلي على متن قارب نجاة آخر. ليس عليّ إلا أن أضمن بقائي حياً بضع ساعات إضافية حتى تهتدي إلى مكاني سفينة الإنقاذ هذه.

لففت الشبكة وحشوتها في فتحة في المشمّع أملاً بأن تشكّل حاجزاً وإن صغيراً يحول دون أن يراني الضبع. بدت «عصير البرتقال» متخشبة، فقدّرت أنها الآن تحتضر بفعل الصدمة. كان الضبع هو ما يقلقني. كنت أسمع عوائه من وقت لآخر، ورحت آمل بأن يكون وجود حمار الوحش، وهو فريسة اعتيادية، والسعلاة، وهي فريسة غير تقليدية، كافياً لتحويل انتباهه عني.

أبقيت عيناً على الأفق، وعيناً على الطرف الآخر من القارب. باستثناء عواء الضبع، لم يصدر عن الحيوانين الآخرين أكثر من صوت احتكاك مخالبها بأرضية القارب، وأنينها المتقطع، وصراخها المكتوم. لم يكن ثمة ما يوحي بقرب نشوب معركة كبرى.

عند الضحى ظهر الضبع ثانية. خلال الدقائق التي سبقت ذلك علا عواؤه فصار أشبه بالزئير. قفز فوق حمار الوحش إلى مؤخر القارب، حيث يلتقي المقعدان الجانبيان ليشكّلا مقعداً مثلثاً. وجد نفسه في وضع مكشوف، فبدا متوتراً وهو ينظر إلى المياه التي تضطرب قريباً منه، مما جعله يخفض رأسه بسرعة وينزل إلى أرضية القارب، وينسلّ وراء حمار الوحش. كانت تلك بدورها مساحة ضيقة، بين ظهر حمار الوحش العريض، وحجيرات الطوفان الممتدة تحت المقاعد في القارب كله. بقي الضبع هناك لثانية قبل أن يعاود القفز إلى مؤخر القارب ثم من فوق حمار الوحش إلى مقعد الوسط، قبل أن يختفي

تحت المشمّع. لم تطل هذه الحركة السريعة أكثر من عشر ثوان، أصبح الضبع بعدها على مسافة لا تزيد عن خمسة أمتار مني. جمد الدم في عروقي. أما حمار الوحش، فرفع رأسه قليلاً ونبح.

كنت آمل بأن يبقى الضبع تحت المشمّع، حين في اللحظة عينها تقريباً قفز مجدداً من فوق حمار الوحش إلى مقعد الكوثل، حيث دار على نفسه دورات عدة، بحركة ملولة ومترددة، جعلتني أحار في أمر خطوته التالية. وجاء الجواب سريعاً: خفض رأسه وراح يعدو حول حمار الوحش في حركة دائرية، محولاً مقعد المؤخرة، والمقعدين الجانبيين، والمقعد الوسطي وراء المشمّع مباشرة، إلى حلبة مغلقة بمساحة ٢٥ قدماً. دار دورة، ثم اثنتين، فثلاث، فأربع، فخمس، حتى توقفت عن العدّ، دون أن يكف هو لحظة عن العواء. كانت ردة فعلي، مجدداً، بطيئة جداً. فلم يكن لي من حول ولا قوة سوى أن أقبع حيث أنا، متفرجاً. زاد الضبع من سرعته، ولم يكن بالحيوان الصغير: كان ذكراً ناضجاً يبدو بالحكم على شكله أنه يزن ١٤٠ باونداً، بحيث كان يؤدي انتقاله بين المقاعد إلى تأرجح القارب، في حين يُصدر ارتطام مخالبه بها دوياً حاداً. كل مرة كان ينطلق فيها من مؤخر القارب باتجاهي كانت تشدّ أعصابي، خشية من أن يبدّل حركته الدائرية ويمضي نحوي في خط مستقيم. من الواضح أن السعلاة، أينما كانت، لم تكن لتشكل عائقاً أمامه. وما المشمّع الملفوف، والشبكة التي دسستها فيه، إلا دفاعات واهية، يمكنه اختراقها بأدنى جهد ممكن. لكنه لم يبد مصمماً على ذلك؛ كل مرة يهبط فيها على المقعد الوسطي، أرى النصف العلوي من جسمه وهو يتحرك بسرعة على حافة المشمّع. لكن لا يمكن توقع سلوك الضبع الذي يمكن أن يقرر مهاجمتي على حين غرة.

بعد بضع الدورات وقف على مقعد الكوثل ثم جثم، منحدراً بنظراته إلى الأسفل، إلى ما تحت المشمّع. ثم رفع رأسه وراح يرمقني بنظرات ثابتة، نظرات الضبع النموذجية، الواضحة والمباشرة، التي تنم عن اهتمام ظاهر لا يكشف النوايا، فكّان مفتوحان، وأذنان كبيرتان مشنفتان، وعينان سوداوان ثاقبتان، ولولا الإجهاد الذي ينضح من كل خلايا جسمه، فقد بدا مثاراً إلى حد يجعل جلده يلتمع كالمحموم. أيقنت قرب نهايتي. لكنه لم يهاجم. بل عاد إلى حركته الدائرية.

حين يزمع حيوان ما على أمر ما، فإنه يثابر عليه طويلاً. طوال فترة الصباح ظل الضبع يعدو في دوائر عكس عقارب الساعة. بين فترة وأخرى كان يقف على مقعد الكوثل، وباستثناء ذلك كل قفزة كانت تماثل سابقاتها، سواء في سرعتها أم في علوّها أم في وقعها. أما نباحه فظلّ حاداً ومزعجاً إلى أقصى حدّ. وبعد مدة صارت مشاهدته مملة ومستنزفة للأعصاب بحيث أنني في النهاية حدت بنظري عنه، محاولاً أن أظل متيقظاً له بالنظر من زاوية عيني، وحتى حمار الوحش الذي كان في البداية يصهل كل مرة يمر الضبع من أمامه، غرق في حال من اللامبالاة.

غير أنه كل مرة كان يقف فيها الضبع على مقعد الكوثل كان قلبي ينخلع من مكانه، وبقدر ما أردت أن أركّز نظري على الأفق، حيث يكمن خلاصي المنتظر، لم أستطع منع نفسي من تجاهل هذا الوحش المسعور.

لست ممن يطلقون الأحكام الجائرة ضد أي حيوان، لكنها من الحقائق الجلية كم يزيد شكل الضبع المرقّط من سوء سمعته. فهو

دميم إلى حدّ لا يمكن تجاهله. رقبته العريضة وكتفاه العريضان اللذان يمتدّان إلى ظهره، تبدو نموذجاً أولياً تم التخلي عنه لزرافة، أما فراؤه الأهلب الخشن فيبدو أنه جمّع من بقايا عملية خلق ناقصة. لونه مزيج كالح من السمرة الضاربة إلى الصفرة، والأسود، والأصفر والرمادي، من دون أن يكون للخطوط المنتشرة على جلده ذلك التصميم الراقي الذي لجلد الفهد؛ فتبدو ألوانها أقرب إلى أعراض مرض جلدي، إلى آثار شكل خبيث من الجرب. رأسه ضخم، وجبهتة عالية، كجبهة دب، ويزيدها قباحة غرة الشعر المردودة إلى الخلف، وأذنين سخيفتين شبيهتين بأذني فأر، كبيرتين ومدورتين، ويحدث غالباً أن تكون إحداهما على الأقل مقضومة نتيجة لعراك ما. فمه مفتوح دائم اللهاث، وفتحتا أنفه واسعتان، وذيله ضامر وجامد، ومشيتة خمولة متثاقلة. وبالإجمال تجعله هذه العناصر المختلفة شبيهاً بالكلب، لكنه ليس كلباً قد يرغب أي كان في اقتنائه كحيوان أليف.

لم أنس كلمات أبي. ليست الضباع بالجبانة التي لا تأكل سوى الجيف مثلما هو شائع عنها. وإذا كانت «ناشيونال جيوغرافيك» تصورها كذلك، فلأنها تصورها نهاراً. أما يوم الضبع الفعلي فيبدأ عند بزوغ القمر، حيث يثبت غالباً أنه صياد فتاك. تهاجم الضباع ضمن مجموعات أي حيوان يمكنها مطاردته، وتروح معدتها تنفتح وهي في ذروة حركتها، أثناء مطاردتها فرائس مثل حمير الوحش، والنّو، وثيران الماء، وليس فقط الكهلة منها أو الواهنة، لكن الفتية أيضاً. والضبع مهاجم شرس، ينهض فوراً بعد تعرضه للركل والنطح، ولا يستسلم قط. وهو ذكي أيضاً؛ يعدّ كل حيوان يمكنه التحايل عليه وجعله يشرد بعيداً عن أمه فريسة جيدة بالنسبة إليه، ويعتبر «النو» الذي يبلغ من

العمر عشر دقائق طبقه المفضل، لكن الضباع تأكل أيضاً الأشبال وصغار أفراس البحر. وهي تروح تلتهم فريستها بحركة سريعة محمومة، فلا يبقى في غضون ربع ساعة من حمار الوحش إلا الجمجمة، التي غالباً ما تجرها معها إلى الوكر لكي تلهو بها صغار الضباع. لا شيء في بدن الفريسة يذهب سدى؛ حتى العشب الذي أهرق عليه الدم يؤكل. تنتفخ بطون الضباع بوضوح وهي تقضم شرائح كبيرة من الفريسة، وإذا كانت محظوظة، ووقعت على فريسة ضخمة، فإنها تملأ بطونها إلى حدّ تجد صعوبة في المشي بعدها. وما إن تنهي هضم الفريسة حتى تبصق ما لم يمكنها هضمه منها. الوحشية الاعتيادية أمر يحدث كثيراً خلال حمى الأكل؛ فإذ يسعى الضبع المتلهف إلى قضمة من حمار وحش، يحدث أن يقضم أنف أو أذن ضبع آخر في المجموعة، من دون أن يكون قصده الأذى الشخصي. وهو لا يشمئز من خطئه هذا. ففي غمرة مسراته يصعب أن يعكّر صفوه أي اشمئزاز.

وفي حقيقة الأمر تتسع مروحة ما يمكن أن يأكله الضبع، أو يحاول أكله على الأقل، إلى حدّ عجيب. فتراه يشرب من الماء حتى وهو يبول فيها. كما يستخدم البول لغرض آخر، حيث يعمد في الطقس الجاف والحار إلى الابتراد به، من خلال إفراغه مثانته على الأرض والاستحمام في خليط من البول والوحل. ولا تأنف الضباع من التهام غائط الحيوانات آكلة الأعشاب، بل تستمتع به. ويبقى سؤالاً بلا جواب ما الذي تأبى الضباع التهامه. فهي تأكل أولاد جنسها (ما يتبقى من تلك التي قضمت آذانها وأنوفها كمقبلات) بعد أن تموت، وبعد فترة تعفف عنها لا تتجاوز اليوم. حتى أنها تهاجم

الدراجات النارية، والمصابيح الضوئية، والعوادم، والمرايا الجانبية. حدود ما يلتهمه الضبع ليست قدرة معدته على الهضم، بل قوة فكه المذهلة.

هذا هو الحيوان الذي كان يعدو في دوائر أمامي. حيوان تتألم العين من مجرد النظر إليه، ويقشعر القلب لمجرد لمحه.

انتهى الأمر بطريقة نموذجية. وقف الضبع على الكوثل وجعل يخرّ خريراً عميقاً يقاطعه لهاثه الثقيل. تراجعتُ إلى أقصى المجذاف حتى بقيت أطراف رجلي فقط على القارب. سعل الضبع وراح يرفس الأرض بقوائمه. فجأة تقيأ وانتشر قيؤه وراء حمار الوحش. انتقل إلى بقعة القيء. بقي هناك، يرتجف، ويلتف حول نفسه. قبع هناك طوال اليوم. من وقت لآخر كانت تنم عن حمار الوحش أصواتاً تعكس إدراكه بحضور هذا المفترس وراءه، لكنه ظل ساكناً معظم الأحيان بلا حول ولا قوة، وبصمت حزين.

الفصل ٤٤

علت الشمس إلى سمت السماء، ثم بدأت تنحدر تدريجياً. أمضيت اليوم كله جاثماً على المجذاف، متحركاً فقط بالقدر الضروري للحفاظ على توازني. رحت أرنو بكياني كله نحو الأفق حيث ستظهر سفينة الإنقاذ. عشت حالة من السأم الكثيف. تلك الساعات الأولى ترتبط في ذاكرتي بصوت واحد، ليس مما يمكن أن يتوقعه المرء في مكان كهذا، ليس نباح الضبع، أو صوت البحر: بل طنين الحشرات. كان هناك حشرات على متن القارب، تظهر فجأة وتروح تحوم بكسل إلا حين تقترب من بعضها، حيث تحلق معاً في طيران لولبي سريع

وبطنين هائل. بعضها كان شجاعاً كفاية ليتقدّم نحوي، ويحلّق حولي. لا أعرف إذا كان مصدرها القارب، أو أحد الحيوانات، الضبع تحديداً، لكن أياً كان مصدرها، فإنها لم تبق طويلاً؛ ولم يعد لأي منها أثر في غضون يومين. أكل الضبع، القابع وراء حمار الوحش، عدداً منها. أما البعض الآخر فجرّته الريح على الأرجح إلى البحر، ربما كان القليل منها محظوظاً، فمات ميتة طبيعية.

تعاظم قلقي مع اقتراب المساء. كل ما يتعلق بنهاية النهار كان يخيفني. ففي الليل لن تراني سفينة الإنقاذ بسهولة. وفي الليل قد ينشط الضبع مجدداً وربما السعلاة أيضاً.

هبط الظلام. لا قمر في السماء. والغيوم تحجب النجوم، جاعلة الرؤية شبه معدومة. ابتعلت الظلمة كل شيء، البحر، والقارب، وحتى جسدي. كان البحر هادئاً والرياح ساكنة، لذا لم يكن بمقدوري أن أحدّد مكاني عبر الصوت. كنت عائماً في سواد صاف مجرد. أبقيت عيني ثابتتين إلى حيث أفترض أنه الأفق، بينما ظلت أذناي متيقظتين لسماع أي إشارة تصدر من الحيوانات. لم يخيل لي أنني سأبقى على قيد الحياة حتى الصباح.

خلال وقت ما من الليل بدأ الضبع يزمجر وحمار الوحش ينبح ويصرخ، وسمعت صوت طرق متكرر. ومن شدة الخوف ـ لن أخفي شيئاً هنا ـ بلت في بنطالي. لكن تلك الأصوات جاءت من الطرف الآخر من القارب. لم أحس بأي اهتزاز يؤشّر إلى حراكه. من الواضح أن الوحش الجهنمي بعيد عني. كما سمعت من مكان أقرب أصوات زفير وأنين ونخير وغيرها. كانت مجرد احتمال أن تهاجمني السعلاة يفوق قدرة أعصابي على الاحتمال، فتجاهلتها كان ثمة

أصوات أخرى تأتي من المياه، أصوات صفق زعانف وهسهسة تعلو وتخفت في اللحظة نفسها. صراع الحياة كان يجري هناك أيضاً.

مر الليل، دقيقة بطيئة تليها دقيقة بطيئة.

الفصل ٤٥

بدا البرد الذي يغمر كياني ملاحظة موضوعية لا تخصّني. انبلج الفجر بسرعة، مع أن نسب الضوء تراكمت ببطء شديد. أخذ لون السماء يتبدّل رويداً رويداً، قبل أن ينتشر الضوء، وينفتح مشهد البحر الساكن أمامي مثل كتاب ضخم. ومع أن الجو العام ظلّ يمنحني الإحساس بالليل، فقد حلّ النهار حقاً.

لكن كان عليّ انتظار ظهور الشمس في الأفق، واشتعالها كبرتقالة كهربائية، حتى أستمدّ بعض الدفء. ومع أولى أشعة الضوء انبعث الأمل مجدداً في داخلي، ومع ظهور الأشياء حولي واتخاذها لوناً، ازداد الأمل حتى صار يصدح في قلبي كأغنية. لكم كان الإحساس بالدفء رائعاً! ثمة أمل. لقد تجاوزت الأسوأ. صمدت خلال الليل. واليوم أنقذ. كان مجرد تفكيري بذلك، وحشد الكلمات في رأسي، يمدّني بالأمل. أمل يتغذّى على الأمل. وما إن برز خط الأفق جلياً، حتى رحت أمعن النظر فيه بشوق بالغ. النهار واضح من جديد والرؤية ممتازة. جعلت أتخيّل رافي يحييني أولاً ويمازحني: «ما الذي أراه؟» سيقول: «عثرت لنفسك على قارب نجاة كبير وملأته بالحيوانات؟ أتظن نفسك نوح أو شيء من هذا القبيل؟». أما أبي فلا بد من أن ذقنه قد نبتت وصار شعره أشعثاً. أمي ستنظر إلى السماء وتأخذني بين ذراعيها. رحت أتخيل عشرات النسخ، وأنوّع فيها، لما

سيكون عليه مشهد اللقاء في سفينة النجاة. ذلك الصباح سيتقوّس الأفق في اتجاه، وسيتقوّس فمي في اتجاه آخر، راسماً ابتسامة عريضة.

بقدر ما قد يبدو الأمر غريباً، مرّ وقت طويل نسبياً، وأنا غارق في تخيلاتي هذه، قبل أن انتبه لما يحدث في القارب. لقد هاجم الضبع حمار الوحش. فمه كان أحمر قانياً وهو يمضغ قطعة لحم. بحثت عيناي بطريقة آلية عن مكان الجرح في جسد حمار الوحش. تسارع لهاثي برعب.

كانت قائمته المكسورة قد انتزعت. بترها الضبع وجرها إلى الكوثل. عند جدعة الساق المبتورة يتدلى الجلد مرتخياً، والدم لا يزال يقطر منه. تحمّلت الضحية عذابها بأناة، وبلا احتجاج ظاهر، لكن صرير أسنانها البطيء والثابت كان يشير إلى مدى ألمها. شعرت بالصدمة والاشمئزاز والغضب تجيش في داخلي. كرهت الضبع إلى أقصى الحدود، وفكرت في فعل شيء ما لقتله، لكنني لم أفعل شيئاً. أما نقمتي فسرعان ما تبدّدت. ينبغي أن أكون صادقاً بهذا الشأن؛ لم يكن لدي فائض من الشفقة أنفقه على حمار الوحش، فحين تكون حياتك هي المهددة بالخطر، يتبلّد فيك حس التعاطف مع سواك، ويحل محله جوع اناني رهيب للعيش. أحزنتني عذاباته التي، بسبب ضخامة بنيته، لم تبد نهايتها وشيكة، لكن لم يكن ثمة ما يسعني القيام به. شعرت بالشفقة ومضيت قدماً. ليس هذا مما أفتخر به. أشعر بالندم لأنني كنت متحجّر القلب في هذا الشأن. لم أنس حمار الوحش المسكين ومقدار معاناته. ولا تمر صلاة من دون أن أفكر به.

لم تكن صدرت بعد أي إشارة من السعلاة. يمّمت نظري مجدداً صوب الأفق.

بعد الظهر نشطت الريح قليلاً ولاحظت أمراً بخصوص قارب النجاة: رغم حجمه ووزنه، كان يطفو خفيفاً على المياه، لأنه يحمل وزناً أقل بكثير من قدرته الاستيعابية، مما يجعل الريح تجرفه بسهولة. وحين تكون الأمواج صغيرة تكون النتيجة طرقاً خفيفاً على بدن القارب، أما الأمواج الكبيرة فتجعله يتأرجح ويتمايل من جهة إلى أخرى. هذه الحركة الارتجاجية المتقلبة كانت تشعرني بالدوار.

ربما إذا عدّلت وضعيتي لشعرت بالتحسن. تقدّمت من المجذاف إلى الجؤجؤ، وجلست مواجهاً الموج، وبقية القارب إلى يساري. بت على مسافة أقرب إلى الضبع، لكنه لم يكن يتحرك.

بينما كنت أتنفس بعمق محاولاً التغلب على الدوار لمحت السعلاة التي كنت أحسبها قبل ذلك بعيدة، قرب الجؤجؤ مثلاً، تحت المشمّع، على أبعد مسافة ممكنة من الضبع، لكنها لم تكن كذلك. كانت على المقعد الجانبي، عند حافة الدائرة التي حدّدها الضبع لحركته، وبالكاد أراها بسبب انتفاخ المشمّع الملفوف. رفعت رأسها إنشاً واحداً وصار بوسعي أن أراها.

تملكني الفضول. أردت رؤيتها بشكل أوضح. اتخذت رغم هزهزة القارب وضعية الركوع وأخفضت رأسي. رآني الضبع، لكنه لم يتحرك. أصبحت السعلاة في مدار نظري. كان الإنهاك بادياً عليها، وهي تتمسك بكلتا يديها بحافة القارب، ورأسها غائص بين كتفيها. كان فمها مفتوحاً ولسانها يرتعش، ولهاثها واضح. رغم وطأة المأساة، ورغم الدوار، لم أستطع منع نفسي من الضحك. كان كل شيء في مظهر السعلاة في تلك اللحظة يشير إلى شيء واحد: دوار البحر. لمعت في مخيلتي صورة جنس جديد من الحيوانات: السعلاة

البحرية الخضراء النادرة. عدت إلى وضعيتي السابقة. بدت السعلاة المسكينة مريضة على نحو إنساني جداً! إنه لمن أطرف الأشياء رؤية سمات إنسانية في الحيوانات، خصوصاً القردة والسعادين، حيث تسهل أكثر قراءة مثل هذه السمات. القردة هي المرايا الأوضح لنا في عالم الحيوان. لهذا فهي الأكثر شعبية في حدائق الحيوانات. ضحكت ثانية. وضعت يدي على صدري متفاجئاً من إحساسي هذا. يا إلهي. تلك الضحكة انفجرت في داخلي كبركان من السعادة. لم تبهجني السعلاة فحسب؛ بل خلّصتني أيضاً من الدوار. شعرت ببعض التحسن.

عدت إلى رصد الأفق، وقد تجدد فيّ الأمل.

إضافة إلى إصابتها بدوار البحر، كان ثمة شيئاً آخر لافتاً في السعلاة: لم تكن مصابة، وكانت تولي ظهرها للضبع، كما لو أنها تحس أنه يمكنها تجاهله من دون أن تكون عرضة للخطر. كانت البيئة الطبيعية على متن القارب فريدة بلا أدنى شك. حيث لا يمكن، في الاحوال الاعتيادية، أن تلتقي سعلاة ضبعاً، حيث لا ضباع في جزيرة بورنيو الإندونيسية، ولا سعالي في إفريقيا، وبالتالي يصعب التنبؤ بردة فعل كل منهما تجاه حضور الآخر. لكنه من غير المحتمل، بل من المستحيل، أنه حين تجتمع السعالي، التي تقتات بثمار الأشجار، والضباع، التي هي من أكلة اللحوم وتقطن السهول، يمكن أن تتحول جذرياً عن طبيعتها، إلى حدّ لا يعير أحدها اهتماماً بالآخر. من المؤكد أن الضبع سيعتبر السعلاة فريسة، فريسة يتذكرها لاحقاً وهو يفرز كريات شعرها العجيبة، ومع ذلك تظل ألذ مذاقاً من عادم سيارة، وبالتالي تستحق عناء البحث عنها بجوار الأشجار. أما السعلاة

فستتنبّه لطبيعة الضبع المفترسة، وستتوثب يقظة حين تقع ثمرة «دوريان» صدفة عن إحدى الأشجار. لكن الحياة تضمر المفاجآت باستمرار، وقد تتخذ الأمور مساراً مختلفاً. فإذا أمكن أن تتأقلم الماعز مع أفراس البحر، فما الذي يمنع سعلاة من العيش مع ضبع؟ سيكون فتحاً كبيراً في حديقة الحيوان. سترفع لافتة، يمكنني تخيّل مضمونها: «حضرات الزوار الأعزاء، لا تخافوا على السعلاة! إنها في أعلى الشجرة لأنها تعيش هناك، لا بسبب خوفها من الضباع المخطّطة. ارجعوا عند الغذاء، أو عند الغروب حين تعطش السعلاة، وسترونها تنزل عن الشجرة وتمشي على الأرض، من دون أن تتعرض لها الضباع بأي أذى». لا بدّ من أن أبي سيفتن بذلك.

لمحت قرابة العصر للمرة الأولى ما سيصبح لاحقاً صديقاً عزيزاً يعتمد عليه. سمعت خرمشة وطرطقة على بدن القارب، وبعد بضع ثوان، على مسافة قريبة جداً من القارب بحيث أنه كان يمكنني أن أنحني وألتقطها، ظهرت سلحفاة بحرية ضخمة، مجذفة بأيديها بكسل، رافعة رأسها فوق الماء. بدت لي في غاية الدمامة، ترسها المكسو بالحراشف بطول ثلاثة أقدام تقريباً ولونه بني مائل إلى الصفرة ومبقّع بالطحالب، أما وجهها فأخضر غامقاً يتوسطه منقار حاد، بلا شفتين، مع فتحتين صلبتين مكان المنخرين، وعينين سوداوين راحتا تحدقان فيّ. بدت بملامحها المتعجرفة الصارمة، أشبه رجل عجوز سيئ الطباع. لكن أكثر ما أثار استغرابي فيها هو مجرد رؤيتها هناك. بدا مشهدها نافراً قياساً إلى الأسماك الملساء الزلقة. ومع ذلك فهي التي كانت ضمن مجالها الطبيعي، وكنت أنا الغريب. عامت حول المركب لبضع دقائق.

قلت لها: «اذهبي وأخبري سفينة الإنقاذ أنني هنا. اذهبي. اذهبي». استدارت وغطست في المياه، بينما أيديها تشق الماء في ضربات متعاقبة.

الفصل ٤٦

الغيوم التي ملأت الأفق، بدلاً من سفينة الإنقاذ، وحقيقة أن النهار قد انقضى دون ظهور شيء، محيا ببطء الابتسامة عن محياي. لا أجد ما يدعوني إلى القول إن هذه الليلة أو تلك كانت الأسوأ في حياتي. فالليالي الرهيبة أكثر من أن أختار أياً منها على وجه التخصيص. ورغم ذلك، تمثُل ليلتي الثانية تلك في عرض البحر في ذاكرتي كواحدة من أفدح ليالي العذاب، وهي تختلف عن ليلتي الأولى، ليلة القلق والصقيع، في أن العذاب الذي عانيته خلالها كان أكثر تقليدية، يشوبه إحساس عميق بالانهيار التام، مصحوب بالبكاء والحزن والألم الروحي، وهي تختلف عن الليالي اللاحقة لها، بأنني كنت لا أزال أملك خلالها من الطاقة ما يجعلني أدرك بشكل كامل ما أمر به من مشاعر. تلك الليلة الرهيبة سبقها مساء رهيب أيضاً.

لاحظت سمك القرش يحوم حول القارب. بدأت الشمس بالانحدار نحو الأفق، الذي كسي بمزيج من البرتقالي والأحمر الداكن، في سيمفونية لونية باذخة، تتدفق فيها الألوان بشكل خرافي، غروب باسيفيكي رائع بالفعل، لكنه أهدر عليّ هدراً. سمك القرش كان من نوع الماكو ـ ذاك الرشيق منقط الخطم، الذي تبرز أنيابه الطويلة القاتلة بشكل ملحوظ. طول الواحد منها ستة أوسبعة أقدام، وقد يفوق ذلك.

جعلت أراقبها متوجساً. اقتربت كبراها من القارب بسرعة كما لو أنها ستهاجمه، فيما تشق زعنفتها سطح الماء، لكنها غطست كلياً قبيل الوصول إلى القارب وراحت تلمع زعنفتها تحت الماء بمهابة مخيفة. عاودت الظهور، من دون أنْ تقترب كثيراً، ثم أختفت مجدداً. استغرقت زيارة أسماك القرش الأخرى وقتاً أطول، حيث راحت تغوص بأعماق مختلفة، فيما بعضها يُرى بوضوح تحت الماء. كان هناك أسماك أخرى أيضاً، كبيرة وصغيرة، ملونة، ومختلفة الأشكال. ربما كنت أمضيت وقتاً أطول في تأملها لو لم يجذب انتباهي شيء آخر: السعلاة وقد أطلت برأسها مرة أخرى.

استدارت وألقت يدها على المشمّع بالطريقة نفسها التي يرخي فيها أي منا يده على ظهر الكرسي المجاور له في إشارة إلى الاسترخاء. لكن هذه لم تكن حالها. فعلى وجهها تعبير ينم بوضوح عن الحزن والكآبة، وهي تلتفت حولها، مديرة رأسها ببطء من جانب إلى آخر. فوراً فقدت السمات البشرية جانبها المسلي. كانت قد وضعت في حديقة الحيوانات ذكرين في الخامسة والثامنة، وكانا مصدر فخرها وفخرنا. كان بالتأكيد هذان الذكران في بالها وهي تبحث في المياه، محاكية من دون قصد ما كنت أفعله طوال الستة وثلاثين ساعة الماضية. لاحظت وجودي ولم تفعل شيئاً حيال الأمر. كانت حيوان آخر فقد كل شيء ومنذور للموت. اعتكر مزاجي.

اهتاج الضبع لمجرد لمحه السعلاة. لم يكن تحرك من مكانه طوال اليوم. وضع قائمتيه الأماميتين بجانب حمار الوحش وقضم بفكيه بعض الجلد. قضم بعنف، فتمزقت شريحة لحم من بطن حمار الوحش مثلما تُمزق ورقة الهدية، وتفجر الدم منه كنهر. نابحاً،

شاخراً، وصارخاً، انتفض حمار الوحش ليدافع عن نفسه. دفع قائمتيه الأماميتين وشبّ برأسه في محاولة لعض الضبع، لكنه لم يتمكن من بلوغه. هز قائمته الخلفية السليمة، مما لم يكن من شأنه سوى أن يفسّر مصدر الطرق الذي كنت أسمعه الليلة الفائتة. أثارت محاولات حمار الوحش للدفاع عن النفس الضبع فراح يعوي ويعض، مجرحاً بشدة بطن حمار الوحش، وحين لم يعد راضياً عما يمكنه الوصول إليه من وراء الحمار، تسلق الضبع إلى وركه، وجعل يقتلع أحشاءه.

لم يكن هناك منهجية في ما كان يفعله. قضم هنا، وهضم هناك، كما لو أنه مأخوذ بثراء ما هو أمامه. بعد التهامه نصف الكبد، بدأ يسحب إلى الخارج كيس المعدة الأبيض الشبيه بالبالون. لكنه كان ثقيلاً، وبما أن وركي حمار الوحش أعلى من معدته، وكون الدم زلقاً، بدأ الضبع ينزلق على ضحيته، غارزاً رأسه وكتفيه في أمعائها، صعوداً إلى ركبتي قائمتيها الأماميتين. أخرج الضبع نفسه، ليعاود الانزلاق مجدداً، مستقراً أخيراً على هذه الوضعية، نصفه إلى الداخل، ونصفه إلى الخارج. كان حمار الوحش يؤكل حياً من الداخل.

أخذ احتجاج حمار الوحش يتقلص تدريجياً. بدأ الدم يسيل من منخريه. مرة أو اثنتين شب برأسه إلى أعلى، كما لو أنه يناجي السماء، معبراً بالكامل عن قساوة تلك اللحظات.

لم تشاهد السعلاة هذه الأفعال بغير مبالاة. انتصبت بالكامل على المقعد. بدت بقائمتيها الصغيرتين بشكل نافر وبدنها الضخم، كثلاجة على عجلات. لكن مع ذراعيها العملاقتين المرفوعتين في الهواء بدا شكلها مهيباً. امتداد الذراعين كان أكبر من طولها ـ إحدى اليدين معلقة فوق المياه، والأخرى ممتدة على عرض القارب حتى الجهة

الأخرى تقريباً. مطّت شفتيها، مظهرة أنياباً هائلة وأخذت تجأر بقوة مذهلة بالنسبة إلى حيوان غالباً ما يكون هادئاً كزرافة. أفزعني صراخها بقدر ما أفزع الضبع الذي انكمش على نفسه وتراجع. لكن ليس لوقت طويل. بعد نظرات حادة إلى السعلاة، وقف شعر ظهره وكتفيه وانتصب ذيله. عاود تسلق حمار الوحش الميت. هناك، والدم ينقّط من فمه، أخذ يرد على السعلاة بصرخات مماثلة، بل وأعلى حدة. كان يبعدِ الحيوانان عن بعضيهما ثلاثة أقدام فقط. بذلا أقصى طاقتهما في الصراخ حتى صار بدنيهما يرتعشا. كان بوسعي أن أرى داخل فم الضبع. هواء الباسيفيك، الذي حتى ما قبل دقيقة، كان يحمل صفير البحر وهمسه، مشكلاً معزوفة طبيعية كان يمكن في ظروف أفضل اعتبارها مهدئة للأعصاب، امتلأ كله بالضوضاء، ضوضاء معركة يلعلع فيها الرصاص وتصم المدافع الآذان. بلغ زئير الضبع أعلى مدى يمكن أن يحتمله سمعي، أما جئير حمار الوحش فغطى الطبقة الأخفض، وفي مكان ما بينهما كنت أسمع عويل حمار الوحش المسكين. فاضت أذناي عن الحدّ، فلم يعد بوسعي احتمال أي صوت إضافي.

جعلت أرتعد فاقداً السيطرة على نفسي، وقد بتّ مقتنعاً بأن الضبع سينقض على السعلاة.

لم أكن لأتخيل أن الأمور ستسوء أكثر من ذلك، لكنها فعلت. بصق حمار الوحش بعض الدم إلى البحر، وما هي إلا ثوان حتى هز القارب قرع قوي، تلاه قرع آخر. احتشدت المياه حولنا بسمك القرش، الذي كان يبحث عن مصدر الدماء، عن الغذاء الذي بمتناول اليد، زعانف أذياله تلتمع في المياه، ورؤوسه تبرز من المياه. أخذ سمك القرش يضرب القارب بشكل متكرر، ولم أكن أخشى من أن يتمكن من قلب القارب، بل من أن يثقب بدنه ويغرقه.

مع كل ضربة كان الحيوانان ينقزا ويقفزا، لكنهما لم ينصرفا عن همهما الأساسي، أي الزئير في وجه بعضيهما. كنت واثقاً من أن هذه المباراة الصوتية ستتحول مبارزة جسدية. بدلاً من ذلك انتهى الأمر فجأة بعد بضع دقائق. حوّلت السعلاة مصدرة أصوات استنكار، رأسها إلى جهة أخرى، وأخفض الضبع أخفض وتراجع إلى وراء حمار الوحش المذبوح. سمك القرش، حين لم تعثر على شيء، توقفت عن الطرق على القارب، وغادرت في النهاية. حل الصمت أخيراً.

رائحة كريهة وحادة، خليط من الصدأ والغائط، ظلت معلقة في الهواء. الدماء المنتشرة في كل مكان، بدأت تتخثر متحولة إلى قشرة حمراء داكنة. ذبابة واحدة راحت تطن حول الدماء، كجرس ينذر بالجنون. لم يظهر شيء بعد ظهر ذلك اليوم، وها هو اليوم يشرف على نهايته. حين توارت الشمس وراء الأفق، لم يكن فقط النهار الذي مات، وحمار الوحش المسكين، لكن عائلتي أيضاً. فمع حلول ذلك الغروب الثاني، تحول إحساسي بعدم التصديق إلى ألم وأسى عميقين. لقد ماتوا: لم يعد بإمكاني الإنكار أكثر من ذلك. يا لها من حقيقة يعترف بها قلبك! أن تفقد أخاً يعني أن تفقد شخصاً يمكنك أن تشاركه تجربة أن تكبرا معاً، الذي يفترض أن يجلب لك ابنة عم، وأبناء وبنات أخت، كائنات تحتشد في شجرة حياتك وتمنحها أغصاناً جديدة. أن تفقد أبوك هو أن تفقد الشخص الذي تحتاج إلى نصحه وإرشاده، الذي يدعمك كما الجذع يدعم الأغصان. أما أن تفقد أمك، فأشبه بفقدان الشمس التي فوقك. إنه مثل خسارة... أنا آسف، أفضل ألا أكمل. تمددت على المشمّع، وأمضيت الليلة كلها باكياً ومنتحباً، دافناً وجهي بين كفي. أمضى الضبع معظم الليلة يأكل.

الفصل ٤٧

انبلج النهار رطباً وملبداً بالغيوم، الرياح دافئة، والسماء طبقة كثيفة من الغيوم الرمادية التي بدت ملاءات قطن قذرة ومنتفخة. لا يزال البحر يهدهد المركب صعوداً وهبوطاً في حركة ثابتة.

كان حمار الوحش لا يزال حياً. لم أصدق ما أراه. ثمة ثقب بطول قدمين في جسمه، ناسور يشبه بركان ثار حديثاً، أعضاؤه التي أكل نصفها تلمع بدأت تجف في الضوء، ومع ذلك لا تزال أعضاؤه الأساسية تنبض بالحياة، وإن بخفوت. اقتصرت حركته على رعشة في القائمة الخلفية، وعلى رمش العينين من وقت لآخر. أرعبني المشهد. لم أصدّق أنه يمكن أن يصاب كائن حي بجروح جسيمة كهذه ويظل حياً.

كان الضبع هائجاً. لم يرتح مثلما ينبغي أن يفعل. ربما كان السبب أنه أكل كميات كبيرة من اللحم، بحيث تمدّدت معدته. أما السعلاة التي لا يقلّ مزاجها اعتكاراً، فكانت تتململ في موضعها مكشرة عن أسنانها.

التزمت مكاني، مكوراً نفسي عند مقدّم القارب. كنت واهن الروح والجسد، خائفاً من أن أقع في المياه إذا ما حاولت موازنة المجذاف.

بحلول الظهر مات حمار الوحش. أصبحت عيناه زجاجيتين وما عادت تؤثر به انتهاكات الضبع المتلاحقة.

اندلعت المعركة عصراً، وكان سبقها توتر لا يحتمل. حرب الأصوات تصاعدت، وبلغت ذروتها فجأة. قفز الضبع على حمار الوحش، ومنه انقض على السعلاة.

أظن أنني أوضحت مدى خطورة الضبع. فكنت متأكداً من أن السعلاة ستموت من دون أن يتسنى لها الدفاع عن نفسها حتى، لكن يبدو أنني قللت من شأنها، من شأن عزيمتها.

رفعت ذراعها، وانهالت بها بقوة على الضبع. كان مشهداً صادماً، جعل قلبي يذوب حباً وإعجاباً بالسعلاة وخوفاً عليها في آن. هل ذكرت سابقاً أنها نشأت كحيوان أليف، قبل أن ينبذها مالكوها الأندونيسيون؟ قصتها شبيهة بقصة أي حيوان أليف: يُشترى حين يكون صغيراً وظريفاً. يسلي كثيراً مالكيه. ثم يروح يكبر حجماً وشهية. يتضح أنه غير مناسب للعيش المنزلي، وتزيد قوته البدنية المتنامية من صعوبة التعامل معه. ذات يوم تحاول الخادمة أن تأخذ الملاءة من مبيته لأنها تريد أن تغسلها، أو يأخذ الصبي، ممازحاً إياه، الطعام من يده، أو سوى ذلك من تفاصيل صغيرة، فيكشر الحيوان عن أنيابه ويزعق احتجاجاً ويدب الرعب في أوصال العائلة. في اليوم التالي يجد نفسه في «جيب» العائلة برفقة إخوته وأخواته البشر. تدخل المركبة إلى غابة، ثم تصل إلى مكان غريب ورائع، إلى فسحة داخل الغابة. بعد دقائق يبدأ الجيب بالهدير، ويرى الحيوان الأليف أولئك الذين عرفهم وأحبهم ينظرون إليه من النوافذ الخلفية، بينما يعدو مسرعاً في إثرهم. لقد هجروه. لا يفهم ما الذي جرى، يروح ينتظر عودتهم، محاولاً كبت الذعر النامي في داخله. لا يرجعون. تغرب الشمس. بسرعة يحبط الحيوان ويتخلى عن رغبة العيش. يموت من الجوع والعراء خلال الأيام التالية. أو تفترسه الكلاب.

كان يمكن أن يكون هذا مصير السعلاة، لو لم ينته بها المطاف في حديقة بونديتشيري. كانت لطيفة ومسالمة طوال حياتها. لدي ذكريات

من طفولتي عن يديها الضخمتين وهما تحيطان بي، فيما أصابعها، كل واحد منها بطول يدي، تداعب شعري. كانت أنثى تمارس غريزتها الأمومية. ومع انتقالها إلى طبيعتها الضارية بالكامل، صرت أراقبها عن بعد. حسبت أنني أعرفها جيداً إلى حد أن أتوقع كل حركة يمكن أن تأتي بها. حسبت أنني أعرف ليس فقط عاداتها، بل قدراتها أيضاً. انكشاف شراستها على ذاك النحو، وشجاعتها تلك، جعلاني أدرك أنني كنت مخطئاً، وأنني لا أعرف سوى ناحية من شخصيتها.

ضربت الضبع على رأسه، ويا لها من ضربة. ارتطم رأس الضبع بالمقعد الذي هوى إليه، مصدراً دوياً حاداً، وانفلشت قوائمه، بحيث حسبت أنه لا بد من أن المقعد أو فك الضبع أو كلاهما قد تحطم. نهض الضبع مجدداً في ثانية، وقد انتصبت كل شعرة في بدنه، ومثلها شعر رأسي، لكن عدائيته لم تعد ناشطة جداً الآن. انسحب. ابتهجت. دفاع السعلاة المؤثر أدخل السرور إلى قلبي.

لم يدم ذلك طويلاً.

ففي نهاية الأمر لا يمكن لسعلاة أنثى أن تهزم ضبعاً ذكراً. هذه هي الحقيقة العلمية البسيطة. ليكن معروفاً عند علماء الحيوان، أنه لو كانت السعلاة ذكراً، ولو بلغت قوتها حجم إحساسي، لكانت مسألة أخرى. كانت سمينة بفعل العيش في حديقة حيوان، ورغم أن وزنها يبلغ قرابة ١١٠ باوندات فإن أنثى السعلاة تبلغ نصف حجم الذكر. لكنها ليست مجرد مسألة وزن وقوة. السعلاة تتمتع بحماسة دفاعية من دون شك، لكن ما يهم هنا هو موقفها ومعرفتها. ما الذي تعرفه آكلة ثمار عن القتل؟ أين ستتعلم كيف تعض، وبأي شدة تعض، ولأي مدة؟ ربما تكون السعلاة أطول، ربما كان لها ذراعان قويان، وأنياب

طويلة، لكن إذا لم تكن تجيد استعمال هذه الأسلحة، ففائدتها قليلة. الضبع، بفكيه فقط، يمكنه التغلب عليها لأنه يعرف ما الذي يريده وكيف يحصل عليه.

هجم الضبع مجدداً. قفز على المقعد وقبض بفكيه على معصم السعلاة، قبل أن تتمكن من مهاجمته. ضربته على رأسه بيدها الأخرى، لكن الضربة جعلته يزمجر بشدة. حاولت أن تعضه، لكنه تفادى فكها. يا للأسف، كان دفاع السعلاة يفتقر إلى الدقة والانسجام، وساهم ذعرها في إضعافها. ترك الضبع المعصم وانقض بحركة خبيرة على حوصلتها.

غارقاً في الألم والرعب، شاهدت السعلاة تضرب الضبع دون تأثير وتشد شعره بينما يعض حوصلتها. ظل مشهدها حتى النهاية يذكر بالبشر: عبرت عيناها عن الذعر بطريقة إنسانية أيضاً. هزها الضبع بعنف. وقعا معاً عن المقعد إلى أرض القارب. سمعت الأصوات لكنني ما عدت رأيت شيئاً.

أنا التالي. بات هذا واضحاً بالنسبة إلي. وقفت بصعوبة. بالكاد استطعت الرؤية بسبب الدموع في عيني. لم أكن أبكي بسبب عائلتي أو بسبب موتي المحتوم. كنت أكثر تخديراً من أن أفكر في الأمرين. كنت أبكي بسبب تعبي الذي لا يطاق، قررت بأنه آن وقت الراحة.

مشيت على المشمّع، ومع أنه محكم الربط عند نهاية القارب، فقد كان مرتخياً عند الوسط: احتجت إلى ثلاث أو أربع خطوات متأرجحة مرهقة، وكان عليّ أن أتجاوز الشبكة والمشمّع الملفوف. وهذا الجهد واهتزاز القارب باستمرار، والوضع الذي كنت فيه، جعل من هذه الأمتار القليلة رحلة شاقة. حين استقرت رجلي أخيراًعلى

مقعد الوسط، كان لصلابته تأثيراً منشطاً عليّ، كما لو أنني أطأ أرضاً صلبة. وضعت رجلي الإثنتين على المقعد واستمتعت بوقفتي الثابتة. كنت أشعر بالدوخة، لكن بما أن اللحظة الأساسية في حياتي كانت آتية فإن هذه الدوخة زادت فقط من خوفي. سلاحي ضد الضبع كانتا يدي اللذين رفعتهما إلى مستوى صدري. نظر إليّ. فمه أحمر. السعلاة ممددة إلى جانبه، قبالة حمار الوحش، يداها منبسطتان وقوائمها القصيرة مطوية معاً ومقلوبة إلى جهة واحدة كمسيح مصلوب. ما عدا الرأس. كانت بلا رأس. كان جرح الرقبة لا يزال ينزف. كان منظراً مروعاً للعين ومدمراً للروح. في اللحظة التي كنت سأرمي بنفسي فيها على الضبع، مستجمعاً قواي للمعركة الأخيرة، نظرت إلى أسفل.

بين رجلي، تحت المقعد، لمحت رأس ريتشارد باركر. كان ضخماً. بدا بحجم كوكب جوبيتر بالنسبة إلى حواسي المعطلة. مخالبه كانت كمجموعة موسوعة بريتانيكا.

شقيت طريقي إلى مؤخر القارب، وانهرت.

أمضيت الليلة في حال من الهذيان. ظللت أفكر بأنني نمت وأنني استيقظت بعد أن روعني كابوس أرى فيه نمراً برتقالياً ضخماً.

الفصل ٤٨

سمّي ريتشارد باركر بهذا الاسم بسبب خطأ مكتبي. كان ثمة نمر يروع منطقة «خولنا»، قرب منطقة «ساندربانز»، في بنغلادش. كان قد خطف فتاة صغيرة. كل ما عثر عليه منها يد صغيرة اصطبغت راحتها بالحناء وعلى معصمها بعض الأساور البلاستيكية. كانت الضحية

السابعة في غضون شهرين، وكان الأمر يزداد سوءاً. الضحية السابقة كان رجلاً انقض عليه النمر في وضح النهار في الحقل، وجره إلى الغابة، حيث التهم جزءاً كبيراً من رأسه، ولحم يده اليمنى، وكل أحشائه. وجدت جثته معلقة على جذع شجرة. قام أهل القرية بالحراسة طوال الليل، آملين بمباغتة النمر وقتله، لكنه لم يظهر، مما حدا بمديرية الغابات إلى الاستعانة بصياد محترف. أقام هذا الأخير منصة صغيرة مخفية في شجرة بجوار النهر الذي حدث عنده اعتداءان. ربط الصياد شاة بعمود خشبي عند ضفة النهر، وراح ينتظر ليلة بعد ليلة. كان يفترض أن يكون النمر ذكراً عجوزاً، ضعيف الأنياب، غير قادر على صيد أي شيء سوى البشر. لكنه كان نمراً قوياً ذاك الذي ظهر أخيراً ذات ليلة. أنثى ومعها جروها. راحت الشاة تثغو، وللغرابة لم يعرها الجرو الذي لا يتجاوز الثلاثة أشهر أي اهتمام، بل ركض إلى مياه النهر، حيث جعل يشرب بنهم. تبعته امه. بين الجوع والعطش، فإن العطش أهم. ما إن روت الأم عطشها حتى عادت إلى الشاة لكي تشبع جوعها. كان الصياد يحمل بندقيتين: واحدة برصاص حقيقي، والأخرى بسهام منومة. لم تكن هذه النمر هي المفترسة التي يبحث عنها، لكنها قريبة جداً من مساكن القرويين ويمكن أن تشكل خطراً عليهم، خصوصاً أنه معها جرو.

صوّب البندقية المخدرة. أطلق السهم حين كانت النمرة بصدد الانقضاض على الشاة. النمرة تلوت وزمجرت وأخذت تعدو مبتعدة. لكن السهام المخدرة لا تجلب النوم بلطف كما لو أنها كوب شاي طيب، بل كزجاجة ليكور ثقيلة. تحركت النمرة بسرعة. نبّه الصياد عبر الجهاز اللاسلكي مساعديه الذين وجدوا النمرة على بعد مئتي

باردة من النهر، وكانت لا تزال واعية. قائمتاها الخلفيتان كانتا انهارتا، ولم يمكنها الاعتماد على الأماميتين للفرار. اقترب الرجال، حاولت الوقوف لكنها لم تستطع. استدارت نحوهم رافعة مخلباً معداً للقتل، مما جعلها تفقد توازنها. عثر على الجرو في أجمة قريبة، يموء بخوف. الصياد الذي كان اسمه ريتشارد باركر، حمله بيديه، وإذ تذكر كيف هرع إلى النهر ليشرب، أسماه «ثيرستي» (ظمآن). لكن من الواضح أن موظف الشحن في محطة «هوراه» للقطارات كان مشوش الذهن. فالأوراق التي تسلمناها مع الجرو أفادت بوضوح أن اسمه ريتشارد باركر، وأن الاسم الأول للصياد «ثيرستي» وأن اسم عائلته «أن غيفن» (غير معطى). ضحك أبي كثيراً جراء هذا الخلط، وعلق الاسم بريتشارد باركر.

لا أعرف ما إذا تمكّن «ثيرستي نان غيفن» بعدها من صيد النمر المنشود.

الفصل ٤٩

في الصباح كنت عاجزاً عن الحركة. سمّرني وهني إلى المشمّع. حتى التفكير كان مرهقاً. أخذت أحث نفسي على التفكير، وببطء قافلة جمال تعبر الصحراء، اجتمع بعض الأفكار معاً.

هذا اليوم كالذي سبقه، دافئ وملبد بالغيوم. الغيوم منخفضة، والهواء خفيف. هذه فكرة. القارب يتهادى بلطف، تلك فكرة أخرى.

بدأت أفكر في استمراريتي للمرة الأولى. لم أكن تناولت قطرة ماء أو طعام أو حظيت بدقيقة نوم خلال ثلاثة أيام. وإذ وجدت في هذا تفسيراً منطقياً لوهني، أمدني ذلك ببعض الزخم.

كان ريتشارد باركر لا يزال على متن القارب. في الحقيقة، كان تحتي مباشرة. غريب أن أمراً كهذا يحتاج إلى دليل لكي أتأكد من صحته، لكن بعد التفكير المتروي، وبعد تحليل ما جرى بقدر من العقلانية، خلصت إلى أن رؤيتي لريتشارد باركر لم تكن حلماً أو وهماً أو ذكرى باهتة، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنها شيء حقيقي وصلب شهدته في حال من الضعف والهيجان الجسدي بسبب الوهن.

كيف لم ألمح طوال يومين ونصف اليوم نمراً بنغالياً وزنه ٤٥٠ باونداً على مركب بطول ٢٦ قدماً، كان لغزاً عليّ أن أحاول حله فيما بعد، حين أستعيد بعض طاقتي. هذا يجعل من ريتشارد باركر أكبر متخفٍ، نسبياً، في تاريخ الإبحار، خصوصاً أن حجمه كان يحتل ثلث القارب.

قد تحسبني فقدت كل أملي في تلك اللحظات. وهذا صحيح. لكن نتيجة ليأسي هذا تنشطت وبدأت أحس بتحسن كبير. ألا نرى ذلك باستمرار في عالم الرياضة؟ حيث يبدأ لاعب كرة المضرب قوياً لكنه سرعان ما يفقد ثقته بلعبه، فيسيطر الخصم على اللعبة. لكن في النهاية، حين لا يعود لديه ما يخسره يسترخي مجدداً، ويروح يلعب بجسارة وبلا اكتراث، مجبراً خصمه على بذل جهد شاق للحصول على النقاط الأخيرة. وهذا ما حدث معي. فأن أصارع الضبع كان أمراً محتملاً وإن بعيداً، لكن ريتشارد باركر يفوقني قوة إلى حدّ أنه ليس عليّ أن أفكر بالموضوع. وجود نمر على القارب، يعني أن حياتي انتهت. بعد حسم هذا، لماذا لا أحاول فعل شيء بشأن هذا الجفاف في حلقي.

أظن أن هذا هو ما أنقذ حياتي تلك الصبيحة، أنني كنت حرفياً

أموت عطشاً. وبعد أن خطرت فكرة الماء على بالي فلم أعد قادراً على التفكير بسواها، كما لو أن الكلمة في حدّ ذاتها كانت مالحة وكلما فكرت فيها أكثر، يزداد تأثيرها فداحة. سمعت أن التعطش للهواء يتجاوز لجهة إلحاحيته التعطش إلى المياه. لكنه يستمر لبضع دقائق فقط، ويموت المرء بعدها. أما الظمأ فعذابه يطول: مات المسيح على الصليب مختنقاً، لكن شكواه الوحيدة كانت من الظمأ. إذا كان يمكن العطش أن يكون منهكاً إلى حدّ أنه حتى الرب تذمر منه، فتخيل وطأته على شخص عادي. كان كافياً ليثير جنوني. لم أعرف جحيماً جسمانياً أسوأ من ذاك المذاق العفن والعجيني في الفم، ذاك الضغط الذي لا يحتمل. كان النمر، بالمقارنة، لا شيء حقاً.

لذا وضعت جانباً كل مخاوفي من ريتشارد باركر وبلا أي خوف مضيت أبحث في المركب عن المياه العذبة.

انغرزت عصا الاستنباء في رأسي بقوة وتفجرت مياه البئر، حين تذكرت أنني كنت على متن قارب نجاة أصلي يفترض أن يكون مزوداً بالمؤن. بدا هذا افتراضاً منطقياً تماماً. أي ربان يخفق إلى حدّ أن يغفل تأمين سلامة ملاحيه؟ أي صانع سفن لا يفكر بإنفاق القليل من المال الإضافي من أجل الهدف النبيل لإنقاذ الأرواح؟ حسم الأمر. ثمة مياه على القارب. كل ما علي فعله العثور عليها.

مما عنى أنه عليّ التحرك.

تمكنت من بلوغ وسط القارب، إلى حافة المشمّع. كان زحفاً شاقاً. أحسست أنني أتسلق سفح بركان وأنني بصدد النظر عبر فوهته إلى الغليان. انبطحت. رفعت رأسي بحذر. لم أر ريتشارد باركر. كان الضبع مرئياً بوضوح وراء بقايا حمار الوحش. كان ينظر نحوي.

لم أعد أخشاه. كان يبعد عني أقل من عشرة أقدام، ومع ذلك ظلت نبضات قلبي ثابتة. حضور ريتشارد باركر كان له على الأقل هذه الناحية الإيجابية، فأن أخاف من هذا الكلب السخيف حين يكون هناك نمر، أشبه بالخوف من النثرات بينما الأشجار تتهاوى. تنامى حنقي من الضبع: «أيها الدميم»، تمتمت. السبب الوحيد الذي يمنعني من الوقوف وضربه بعصا لإخراجه من القارب هو افتقاري إلى القوة والعصا، لا إلى الجسارة.

هل أحس الضبع بشيء من سيادتي عليه؟ هل قال لنفسه «السوبر ألفا يراقبني، من الأفضل لي ألا أتحرك؟» لا أعرف. بأي حال لم يتحرك. في الواقع، أوحت لي الطريقة التي أحنى رأسه بها أنه يختبئ مني. لكن لا فائدة من الاختباء. سينال جزاءه العادل عما قريب.

فسّر لي حضور ريتشارد باركر سلوك الضبع الغريب هذا. بات واضحاً الآن سبب حصره نفسه في تلك المساحة الضيقة وراء حمار الوحش، ولماذا انتظر طويلاً قبل مهاجمة هذا الأخير. كان الخوف من المفترس الأعظم والخشية من لمس طعامه. السلام المؤقت بين السعلاة والضبع، وتأجيل افتراسي، كان كله بلا شك للسبب عينه: في وجه مفترس أقوى كالنمر، كلنا كنا فرائس، وسبل الافتراس الطبيعية هي التي تمت. بدا أن وجود النمر أنقذني من ضبع، مثل جيد بالتأكيد حول القفز من مقلاة إلى النار.

لكن الوحش الأعظم لم يكن يتصرف كوحش أعظم، إلى حدّ أن الضبع سمح لنفسه ببعض الحرية. سلبية ريتشارد باركر هذه على مدى الأيام الثلاثة الماضية تحتاج إلى تفسير. لم أجد سوى هذين التفسيرين: المخدّر ودوار البحر. أبي كان يخدر عدداً من الحيوانات

ليقلل من توترها خلال الرحلة. هل خدر ريتشارد باركر قبل فترة من غرق السفينة؟ هل زاد غرق السفينة، والضجيج المصاحب له، والوقوع في البحر والجهد الشاق للوصول إلى المركب، من تأثير المخدر؟ هل أضيف إلى ذلك دوار البحر؟ تلك كانت التفسيرات الوحيدة المنطقية التي استطعت الخروج بها.

كان آخر همي معرفة السبب. وحده الماء كان هاجسي.

رحت أبحث عن موضع المؤونة في القارب.

الفصل ٥٠

عمق القارب ثلاثة أقدام ونصف، وعرضه ثمانية أقدام، وطوله ستة وعشرين قدماً. طبعت هذه المعلومة بأحرف سوداء على أحد المقاعد الجانبية، كما ذكر أنه مصمم ليؤوي ما أقصاه اثنين وثلاثين شخصاً. أما كان رائعاً، مشاركة القارب مع هذا العدد الكبير؟ بدلاً من ذلك كنا ثلاثة فقط، وكان المكان مزدحماً بشكل لا يطاق. كان القارب متساوقاً هندسياً، دائري الشكل عند كل طرف بحيث يصعب التمييز بين الجؤجؤ والكوثل، إلا من خلال الدفة الصغيرة المثبتة عند الكوثل، أما الجؤجؤ، باستثناء المجذاف الذي جعلته يمتد منه، فمساحته بالغة الصغر. قشرة القارب التي من الألومنيوم ثبتت بالمسامير وطليت بالأبيض.

هذا من الخارج، أما من الداخل فلم يكن القارب واسعاً بقدر ما يوحي، بسبب المقاعد الجانبية والصناديق الطفوية. تمتد المقاعد الجانبية على طول القارب، وتشكّل لدى التقائها عند الجؤجؤ والكوثل مقاعد مثلثة الشكل. المقاعد الجانبية بعرض قدم ونصف القدم، أما

مقعدا الكوثل والجؤجؤ فهما بعمق ثلاثة أقدام، مما يجعل المساحة الشاغرة في القارب بطول عشرين قدماً وعرض ثلاثة أقدام، مما يؤمّن لريتشارد باركر مساحة قدرها مئة متر مربع، تقطعها بالعرض ثلاثة مقاعد، بما فيها ذاك الذي حطمه حمار الوحش. هذه المقاعد الثلاثة بعرض قدمين ومنفصلة عن بعضها بمسافة متساوية. وهي تعلو قدمين عن أرضية القارب ـ اللعبة التي كان يلعبها ريتشارد باركر قبلاً هي أن يضرب رأسه بسقف المقعد، إذا جاز القول، إذا ما كان تحته. أما تحت المشمّع، فكانت لديه مساحة إضافية من ١٢ انشاً، وهي المسافة بين حافة القارب التي تدعم المشمّع، والمقاعد، وكلها معاً يطول ثلاثة أقدام، بالكاد تكفيه للوقوف. وتتكوّن الأرضية من ألواح من الخشب المعالج، وتتعامد مع الصناديق. لذا، كان القارب دائرياً عند الطرفين والجانبين، أما من الداخل فكان مستطيلاً.

يبدو أن البرتقالي هو هو لون النجاة، لأن لون القارب من الداخل، وألوان المشمّع وستر النجاة وطوق النجاة والمجاذيف، كلها برتقالية، بما فيها الصفارات البلاستيكية.

كلمتا «تسمتسم» و«باناما» طبعتا بأحرف رومانية سوداء على جانبي الجؤجؤ.

صنع المشمّع من القماش المقوّى المعالج الذي يخشن ملمسه على الجلد بعد فترة. كان مفروداً حتى الوسط تقريباً، مغطياً أحد المقاعد الوسطية، حيث وكر ريتشارد باركر، أما المقعد الوسط في منتصف القارب فلا يغطيه المشمّع، وكذلك بطبيعة الحال المقعد الوسطي الثالث حيث بقايا حمار الوحش.

هناك ستة مساند للمجاذيف، تأتي عل شكل حرف «يو»

بالإنكليزية، مثبتة على حواف القارب، وخمسة مجاذيف، بعد أن خسرت واحداً خلال محاولتي التخلص من ريتشارد باركر. ثلاثة منها على أحد المقاعد الجانبية، وواحد على آخر، والأخير استعملته كحبل النجاة. شككت في جدوى تلك المجاذيف كوسيلة دفع. فالقارب ببنائه المتين وبنيته الثقيلة غير مخصص للسباق أو الإبحار، بقدر ما للطفو، وإن كنت أعتقد أنه لو كان هناك ٣٢ شخصاً ليجذفوا لكنا تمكنا من شق طريقنا قدماً.

لم ألحظ هذه التفاصيل وغيرها الكثير، فوراً. بل بالتدريج وبدافع الضرورة. كنت أجدني في أشد حالات العسر، مواجهاً مستقبلاً قاتماً، حين يظهر فجأة شيء صغير، تفصيل ما، ينير في عقلي ضوءاً جديداً، فلا يعود ذلك الشيء الصغير الذي كانه من قبل، بل أهم شيء في العالم، الشيء الذي من شأنه أن ينقذ حياتي. وقد حدث ذلك مراراً وتكراراً. كم صحيح أن الحاجة أم الاختراع.

الفصل ٥١

لكن في تلك المرة الأولى التي أمعنت فيها النظر في القارب لم أعثر على ما أصبو إليه. ولكم خاب أملي حين لم أتبيّن، إن بالنظر أو باللمس، على سطح الكوثل والمقاعد الجانبية، أي شق ينمّ عن احتواء باطنها على شيء، ومثلها جوانب خزانات الطوف. أما أرض القارب فملساء تماماً، فلا يمكن تخيل شيء تحتها. بدا أكيداً أنه ليس من خزانة أو صندوق أو أي حاوية أخرى، فقط أسطح برتقالية ملساء لا تنطوي على شيء.

تبخّر حسن تقديري لربابنة السفينة وصانعيها، وتبدّد معه أملي بالنجاة. وتفاقم ظمأي.

لكن، فجأة خطر لي خاطر: ماذا لو كانت المؤن في الطرف الآخر من القارب، عند مقدّم القارب، تحت المشمّع؟ استدرت وزحفت عائداً كسحلية. دسست المشمّع فوجدته محكم الربط. ربما لو تمكنت من فرده، لوجدت تحته خزانة المؤن. لكن هذا يعني الدخول إلى وكر ريتشارد باركر.

لا ريب في أن الظمأ أمدّني بالإرادة اللازمة، فسحبت المجذاف من تحت المشمّع، ووضعت طوق النجاة حول خصري، ثم انحنيت على الحافة وحررت، بصعوبة فائقة، الحبل الذي يربط المشمّع بإحدى العقافات. كان الأمر أسهل مع العقافتين التاليتين، وكذلك عند الجهة المقابلة من القارب. ارتخى المشمع ففردته قليلاً، وحصلت فوراً على المكافأة. فطرف الجؤجؤ ينتهي كالكوثل بمقعد. وفوقه ببضع إنشات فقط، كان يلمع كالألماس غطاء صندوق. رأيت الرسم الخارجي للغطاء، فراح قلبي يخفق بشدة. فردت المشمّع أكثر، ورحت أسترق النظر إلى ما تحته. كان غطاء الصندوق مثلثاً بعرض ثلاثة أقدام وطول قدمين. وبينما أنا على هذه الوضعية رأيت شيئاً برتقالياً حسبته النمر، فأجفلت راداً رأسي إلى الخلف، لكن هذا الشيء لم يتحرك. فنظرت ثانية. لم يكن نمراً. بل سترة نجاة. كان هناك عدد من ستر النجاة وراء وكر ريتشارد باركر.

سرت رعشة في جسدي. فمن بين ستر النجاة، كما لو من بين الأغصان، رأيت للمرة الأولى وبشكل جليّ ريتشارد باركر. كان ظهره بادياً بوضوح، أسمر ضارب للصفرة، مخططاً وضخماً. كان قاعياً على معدته مولياً ظهره للجؤجؤ، وباستثناء حركة تنفسه البادية عند بطنه كان ساكناً تماماً. رمشت بعيني غير مصدق كم هو قريب. كان

يفصلني عنه أقل من متر، بحيث يكفي أن أمدّ ذراعي لألسمه. لم يكن يفصل بيننا سوى المشمّع.

«احفظني يا رب!» لم أتضرع في حياتي بمثل ذاك الشغف أو ذاك السكون. تجمدت كلياً.

ما عدت أحتمل العطش، فأخفضت يدي وفتحت الغطاء بهدوء.

كنت أتيت على ذكر التفاصيل التي تنقذ الحياة. هذا كان واحداً منها: كان الغطاء يتصل بالخزانة بمفصلة على ارتفاع نحو إنشٍ من المقعد، مما يعني أنه حين يكون الغطاء مفتوحاً، يتحوّل إلى حاجز يسدّ ال١٢ إنشاً بين المشمّع والمقعد، وهي المسافة التي يمكن لريتشارد باركر الوصول إلي من خلالها، بعد إزاحة ستر النجاة. فتحت الغطاء حتى صار مستنداً بين المجذاف وحافة المشمّع. فلو قرر ريتشارد باركر مهاجمتي من الأسفل لكان عليه أن يضغط على الغطاء، وهذا من شأنه إنذاري بحيث أقفز فوراً في المياه. أما إذا أقبل من الجهة الأخرى، صاعداً إلى المشمّع، فسيمكنني من وضعيتي هذه أن أرصده باكراً، والقفز أيضاً إلى البحر. نظرت عندها إلى المياه. لم أر أي أسماك قرش.

كاد يغمى عليّ فرحاً وأنا أستكشف الكنوز التي داخل الخزانة. أوه، يا لمسرات الطعام المعلب، ذاك الذي ابتكره الإنسان! سعادة لا توصف هي خليط من الأمل والمفاجأة وعدم التصديق والحماسة والامتنان، تحولت كلها إلى إحساس واحد، لا ترقى إليه مجتمعة هدايا أعياد ميلادي، أو أعياد الميلاد أوالزواج، أو الديوالي، أو أي مناسبة أخرى. كنت دائخاً بالسعادة.

بتّ واثقاً من أنني سأجد المياه في هذه الخزانة، سواء أكانت معلبة

في عبوات زجاجة أم صفائح تنك أم علب كرتون. وبالفعل، نبيذ الحياة على قارب النجاة هذا، يقدم في صفائح صغيرة مذهّبة. «مياه شرب»، نُقش على الصفيحة بأحرف سوداء، تحتوي على ٥٠٠ ملليتر، جنباً إلى جنب اسم الشركة المصنّعة «أتش بي. فودز». كان هناك كدسات من هذه الصفائح، أكثر مما يمكن عدّه بنظرة واحدة.

سحبت بيد مرتجفة إحدى الصفائح. كانت باردة وثقيلة. خضضتها، فصنع الهواء الذي في داخلها صوتاً عميقاً «غلاب غلاب غلاب». إنني على وشك التحرر من هذا الظمأ الجحيمي. تسارع نبضي من الفكرة. لم يبق سوى أن أفتح العلبة.

جمدت. كيف سأفعل ذلك؟

إذا كان هناك صفيحة، فبالتأكيد هناك أداة ما لفتحها؟ نظرت إلى داخل الخزنة، ورحت أبحث بنفاد صبر بين محتوياتها الكثيرة. توقي الموجع إلى الشرب فعل فعله في. عليّ أن أشرب الآن، وإلا متّ. لم أعثر على الأداة المرجوة. لكن لا وقت للابتئاس. كان من الضروري التصرف. أيمكنني فتح الغطاء بأظافري؟ حاولت. لم أستطع. بأسناني؟ لم يكن الأمر يستحق المحاولة. نظرت إلى حافة القارب. عقافات المشمّع. قصيرة، وحادة وصلبة. ركعت على المقعد وانحنيت. حاملاً الصفيحة بيدي الإثنتين، ضغطتها على العقافة، وأحدثت فيها ثقباً صغيراً. فعلت ذلك ثانية، محدثاً ثقباً آخر إلى جوار الثقب الأول، ومن ثقب إلى آخر نجح الأمر. انبجست قطرة ماء. لحستها. أدرت العلبة إلى الجهة الأخرى لكي أفتح ثقباً آخر. قرّبت الصفيحة إلى وجهي. فتحت فمي. أملت الصفيحة.

ربما يمكن تخيل مشاعري، لكن يصعب وصفها. إلى حلقي الذي

يقرقر نزلت مياه نقية كريستالية رائعة. الحياة بصيغتها السائلة. شربت الصفيحة حتى القطرة الأخيرة، أتبعتها ب «آهههههه»، عميقة من قلبي. رميت الصفيحة إلى البحر، وجئت بأخرى. فتحتها بالطريقة نفسها، وبالسرعة نفسها تبدّد محتواها، لتستقر هي الأخرى في البحر، ثم فتحت الصفيحة التالية، والتالية. شربت أربع صفائح، ليترين كاملين من هذا الشراب الأروع على الإطلاق، قبل أن ألجم نفسي. قد تحسب أن إدخال المياه إلى جسدي الجاف بمثل تلك السرعة، قد يكون ضاراً. هراء. لم أشعر في حياتي كلها بأنني أفضل حالاً. تحسست جبيني! كان مبللاً بعرق نظيف طازج ومنعش. كل شيء في، حتى أصغر مسام جلدي، كان يحتفل.

ما أسرع ما شعرت بالتحسن. صار فمي رطباً وناعماً. نسيت سقف حلقي. استرخى جلدي، تجدد النشاط في مفاصلي، وعاد قلبي ينبض كطبل، فيما الدم يتدفق في شراييني كحشد سيارات تطلق أبواقها دفعة واحدة في حفل زفاف. عادت القوة والصلابة إلى عضلاتي، والصفاء إلى ذهني. صدقاً، شعرت أنني أنبعث من الموت. كان أمراً مجيداً. أقول لك، أن تسكر بالكحول لهو أمر مخز، لكن أن تسكرك المياه فهو أمر نبيل ونشواني. غمرني الإحساس بالنعمة والوفرة دقائق عدة.

إحساس فيزيائي بالفراغ. تحسّست بطني. ثمة فجوة واضحة. الطعام سيكون لطيفاً الآن. طبق «ماسلاي دوساي» مع «الشوتني» بجوز الهند... همممم! وأفضل من ذلك حتى: طبق «أوثابام»! همممم! أوه! قربت يدي إلى فمي - طبق «إيدلي»! مجرد التفكير في الكلمة أثار موجة من الألم داخل حلقي، وأسال اللعاب في فمي.

تكوّرت أصابع يدي اليمنى. امتدت وكادت تلامس كريات الأرز الشهية في مخيلتي. انغرزت فيها، وكوّرت كرة مغطسة بالمرق، قربتها إلى فمي.... مضغت... أوه.. كان ذلك مؤلماً جداً!

بحثت عن الطعام. وجدت علباً كرتونية تحمل اسم «سفن أوشنز ستاندرد إميرجنسي راتيون»، من صنع مدينة «برغن» النروجية. جاء الإفطار الذي ينبغي أن يعوض عن ٩ وجبات، ناهيك عن الحلويات التي جلبتها أمي معها، على شكل كتلة من نصف كيلو، كثيفة وصلبة، غلّفت بأكياس بلاستيكية فضية معقمة، طبعت عليها المعلومات ب ١٢ لغة. وذكر بالإنكليزية أن الحصة الواحدة منها تتكون من ١٨ قطعة بسكويت مقواة مصنوعة من الطحين الأبيض، ودهن الحيوانات، والغلوكوز، وأنه لا ينبغي تناول أكثر من ست قطع كل أربع وعشرين ساعة. للأسف أنه هناك دهن حيواني، لكن أخذاً في الاعتبار الظروف الاستثنائية فقد كان على الجانب النباتي فيّ أن يقبل بذلك.

على رأس الكتلة كلمة «انزع هنا للفتح» وبجواره سهم أسود يشير إلى حافة الغطاء البلاستيكي. انفتح الكيس، لأجد في داخله تسعة ألواح مستطيلة لفّت بورق مشمع. فتحت واحدة، فإذا هي مكونة من قطعتي بسكويت متساويتين. قضمت إحداهما. يا إلهي. من كان ليحسب ذلك؟ لم يخطر لي أبداً: لا بد من أن المطبخ النرويجي هو الأفضل في العالم. فذلك البسكويت كان طيباً بشكل مذهل، لا كثير الملوحة كثير الحلاوة، ويتفتت في الفم مصدراً صوتاً جميلاً، وإذ يمتزج باللعاب يصنع عجينة حبيبية يلتذ بها اللسان. أما حين نزل إلى حلقي، فلم تعلّق معدتي سوى بكلمة واحدة: هللويا!

اختفت الرزمة كلها في دقائق قليلة، وتطايرت أغلفتها في الريح. فكرت في فتح رزمة أخرى، لكنني تريثت. لا بأس في لجم النفس قليلاً. عملياً مع نصف كيلو من حصص الطوارئ في معدتي، أحسست بنفسي ثقيلاً نوعاً ما.

قررت أن أعرف بالضبط موجودات الكنز المفتوح أمامي. كانت الخزانة كبيرة، أكبر مما توحي به، فهي تمتد نزولاً إلى القعر، وعميقاً إلى داخل المقاعد الجانبية. أخفضت رجلي إلى الخزانة وجلست على حافتها، مسنداً ظهري إلى الجؤجؤ. عددت علب «المحيطات السبع». أكلت واحدة: بقي ٣١ واحدة. بحسب التعليمات فإن العلبة المكونة من نصف كيلو يفترض أن تكفي الناجي ثلاثة أيام. هذا يعني أنه لدي حصص طعام تكفيني ٣١ ضرب ٣ = ٩٣ يوماً! تقترح التعليمات أيضاً أن يكتفي كل ناج بنصف ليتر من المياه في اليوم. عددت صفائح الماء: ١٢٤. كل واحدة منها تتضمن نصف ليتر. إذاً لدي حصص ماء تكفيني ١٢٤ يوماً. لم يحدث أن حققت لي عملية حسابية كهذه مثل هذه السعادة.

ماذا هناك أيضاً؟ رحت أدخل يدي بحماسة إلى الخزانة، مخرجاً الغرض الثمين تلو الآخر. كل واحد، أياً يكن، كان يسرّني. كنت متعطشاً إلى الصحبة والتسلية، بحيث أن الانتباه الذي أوليته لكل من هذه الأغراض أشعرني أنه اهتمام خاص موجه لي. تمتمت مكرراً: «شكراً لك! شكرا! لك! شكراً لك».

الفصل ٥٢

أحصيت موجودات الخزانة بشكل شامل:

١٩٢ حبة دواء مضادة لدوار البحر

١٢٤ صفيحة مياه، كل منها يحتوي على ٥٠٠ ملليتر، المجموع ٦٢ ليتراً

٣٢ كيساً بلاستيكياً مخصصاً للقيء

٣١ علبة من الحصص الغذائية، كل منها ٥٠٠ غرام، أي ١٥ كيلو ونصف الكيلو

١٦ مخدة قطنية

١٢ مقطرة شمسية

١٠ ستر نجاة تتدلى من كل منها صفارة برتقالية

٦ أنبولات أفيون

٦ مصابيح يدوية

٥ مجاذيف قابلة للطفو

٤ إشارات ضوئية صاروخية

٣ أكياس بلاستيكية صلبة وشفافة، كل منها يتسع لخمسين ليتراً

٣ فتاحات علب

٣ أكواب زجاجية للشرب

٢ علب من أعواد الثقاب المضادة للمياه

٢ إشارة دخانية برتقالية قابلة للطفو

٢ دلو برتقالي متوسط الحجم

٢ دلو لدلق المياه من القارب

٢ حاوية بلاستيكية متعددة الاستعمالات ذات حواف بلاستيكية

٢ من الإسفنج الأصفر

٢ حبل اصطناعي، طول كل منهما ٥٠ متراً

٢ حبل غير قابلين للطفو غير محددي الطول، لكن كل واحد منهما على الأقل بطول ثلاثين متراً

٢ عدة صيد تتضمن عقافات وحبال وغطاسات

٢ خطاف مع عقافتين

٢ مرساة

٢ فأس صغير

٢ لاقط مطر

٢ قلم حبر مائي أسود

١ شبكة نايلون

١ طافية صلبة قطرها الداخلي ٤٠ سنتمتراً والخارجي ٨٠ سنتمتر

١ سكين صيد كبيرة ذات مسكة صلبة وشفرة حادة

١ عدة خياطة مع إبر مستقيمة ومعقوفة وخيط أبيض طويل

١ علبة إسعافات أولية في غطاء بلاستيكي مضاد للماء

١ مرآة إشارة

١ علبة سجائر صينية مفلترة

١ لوح من الشوكولا السوداء

١ كتيب نجاة

١ بوصلة

١ دفتر يوميات من ٩٨ صفحة مسطرة

١ صبي مع مجموعة كاملة من الثياب الخفيفة وفردة حذاء واحدة

١ ضبع مرقط

١ نمر بنغالي

١ قارب نجاة

١ محيط

١ رب

أكلت ربع لوح الشوكولا الكبير. تفحصت واحدة من لواقط المطر. تشبه مظلة مقلوبة مع كيس كبير وأنبوب مطاطي.

أحطت بذراعي طوق النجاة على خصري، أخفضت رأسي، وغرقت في النوم.

الفصل ٥٣

نمت طوال الصباح، وأيقظني القلق. فذلك الدفق من الغذاء والمياه والراحة الذي سرى في جسدي الواهن، مجدّداً الحياة فيّ، أمدّني أيضاً بالطاقة التي جعلتني أرى بوضوح مدى بؤس حالي. تنبّهت إلى حقيقة وجود ريتشارد باركر. ثمة نمر في القارب. عليّ أن أصدق ذلك. وعليّ أن أنقذ نفسي.

فكّرت في أن أقفز في المياه، وأن أسبح سعياً إلى اليابسة، لكنها فكرة بلا طائل. فأنا أبعُد مئات الأميال، إن لم يكن آلاف الأميال، عن اليابسة. ولن يكون بمقدوري قطعها سباحة، ولو مستعيناً بطوق

نجاة. فكيف آكل وأشرب؟ وكيف أتقي سمك القرش؟ وكيف أتدفأ؟ وأي اتجاه أسلك؟ إنها حقيقة أكيدة: مغادرة القارب تعني الموت الأكيد. لكن هل ستكون النتيجة مختلفة لو بقيت؟ سرعان ما سيسعى ريتشارد باركر، كأي نمر نموذجي، إلى افتراسي، وحين يفعل ذلك فلن ينذرني مسبقاً، بل سيباغتني من الخلف، وسيقبض بفكيه على رقبتي أو على حلقي، فتُشل حركتي كلياً، ثم ينبجس الدم. أو يمكنه أن يحطّم رقبتي بضربة من أحد مخالبه الضخمة.

«سأموت»، تمتمت بشفتين مرتعشتين.

فكرة الموت المحتم رهيبة في حدّ ذاتها، لكن الأسوأ منها بلا ريب أن تعيش منتظراً الموت، حيث تروح تستحضر بجلاء تام كل صور السعادة التي عشتها، وتلك التي كان يمكن أن تعيشها. تدرك فداحة الخسارة، فيسبب لك ذلك لوعة عميقة لا توازيها قوة السيارة التي على وشك أن تصدمك، أو المياه التي على وشك أن تغرقك. إحساس فادح حقاً. كلمات: أبي، أمي، رافي، الهند، واينيبج، أخذت تلسع فمي.

كنت قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام حين فرض صوت آخر نفسه على قلبي: «لا، لن أموت، أرفض ذلك، سأتجاوز هذا الكابوس، سأتغلب على المعوقات، مهما عظمت. لقد نجوت بأعجوبة حتى الآن، وسأحول الأعجوبة إلى نمط عيش يومي. سأبذل قصارى جهدي. أجل، ما دام الله معي، فلن أموت. آمين».

كشّرت بجدية تنمّ عن العزم. أقول بكل تواضع إنني اكتشفت، في تلك اللحظة، أنني أملك إرادة شرسة للعيش، وهذا ليس بالأمر الظاهر في تجربتي. بعضنا يتخلى عن الحياة بتنهيدة استسلام بسيطة. بعضنا

الآخر يكافح قليلاً، ثم يفقد الأمل. لكن بعضنا، وأنا منه، لا يستسلم أبداً. يظل يكافح ويكافح ويكافح. يكافح مهما كانت كلفة المعركة، ومهما عظمت الخسائر، وتضاءلت فرص النجاح. يقاتل حتى الرمق الأخير. وليس انطلاقاً من شجاعة شخصية، بل بدافع عضوي يجعله غير قادر على الاستسلام، وربما لا يكون السبب سوى نهم أحمق إلى الحياة.

بدأ ريتشارد باركر يهرّ في تلك اللحظة، كما لو أنه كان ينتظر أن أصبح منافساً كفؤاً له حتى يعلن عن حضوره. الخوف بلاطة ثقيلة جثمت على صدري.

«عجّل، عجّل»، رحت ألهث. عليّ أن أدبّر أمر نجاتي. ليس من ثانية أهدرها. أول ما ينبغي تأمينه هو مأوى آخر سوى القارب. فكّرت في المجذاف الذي كنت مددته قبلاً إلى خارج القارب، لكن بما أن المشمّع صار الآن مفروداً، فلم يعد من شيء أسند إليه المجذاف، وحتى لو تمكنت بطريقة ما من إعادته إلى وضعيته السابقة، فلست واثقاً من أنه سيقيني ريتشارد باركر، الذي يستطيع بقفزة أن يصل إلي. عليّ الخروج بحل آخر. راح ذهني يعمل بسرعة.

في النهاية أنشأت طوفاً. المجاذيف، إذا كنتَ تذكر، تطفو. ولدي ستر نجاة وطوق نجاة صلب. أدوات كافية لصنع طوف.

بأنفاس محبوسة أقفلت الخزانة، ومددت يدي تحت المشمّع لسحب المجاذيف الإضافية الموضوعة على المقعدين الجانبيين. رآني ريتشارد باركر. لمحته عبر ستر النجاة وهو يتململ في مكانه فيما أسحب بأقصى الحذر المجاذيف. لكنه لم يتحرك. سحبت تباعاً ثلاثة مجاذيف. الرابع كان أصلاً على المشمّع. عاودت فتح غطاء الخزانة، لكي أسدّ الفرجة بيني وبين ريتشارد باركر.

النتيجة أربعة مجاذيف، وضعتها على المشمّع حول طوق النجاة الذي صار الآن مربعاً.

صار الطوف شبيهاً بلعبة «إكس أو»، حيث الحرف «أو» في الوسط كحركة أولى.

ثم جاء الجزء الخطر، حيث عليّ سحب ستر النجاة من جوار ريتشارد باركر. تحول هرير هذا الأخير تحول الآن إلى زمجرة عميقة شقت الفضاء، فيما الضبع يرد بعواء حادّ ومتهدّج، في إشارة أكيدة إلى قرب نشوب المعركة.

لا خيار أمامي. عليّ أن أتصرف بسرعة. أقفلت الغطاء مجدداً، فباتت ستر النجاة على مرمى يدي، وبعضها ملتصق بريتشارد باركر. انفجر الضبع بالصراخ. مددت يدي إلى سترة النجاة الأقرب، وعانيت صعوبة في الإمساك بها، بسبب ارتجاف يدي. سحبتها أخيراً. بدا أن ريتشارد باركر لم يلاحظ. سحبت الثانية. والثالثة. انقطع نفسي وكاد يغمى عليّ من شدّة الخوف. قلت لنفسي إنه إذا ما تطلب الأمر، فيمكنني القفز من القارب مع ستر النجاة هذه. سحبت السترة الأخيرة. صار لدي أربع ستر.

جالساً على المشمّع رحت أمرّر المجاذيف الواحد بعد الآخر، عبر فتحات الذراعين في ستر النجاة، بحيث صارت هذه الأخيرة صلبة عند الزوايا الأربع من الطوق. وأحكمت إغلاق كل واحدة من الستر. وجدت أحد الحبال القابلة للطوف في الخزانة، فقطعته بالخنجر إلى أربعة أجزاء، ربطت بها المجاذيف الأربع عند محاور التقائها. آه، فقط لو كنت أملك بعض الخبرة في عقد الحبال! عند كل زاوية عقدت الحبل عشر عقد، ومع ذلك خشيت من إمكانية أن تنحلّ

المجاذيف. رحت أعمل بسرعة، لاعناً غبائي طوال الوقت. ثمة نمر مفترس على القارب، وقد انتظرت ثلاثة أيام وثلاث ليال قبل أن أهمّ إلى إنقاذ حياتي!

قطعت أربعة أجزاء أخرى من الحبل، وثبّت العقد عند اطراف الطوق الأربعة. مددت الحبل من ستر النجاة، إلى المجاذيف، إلى داخل طوق النجاة وخارجه، وحول الطوف كله، كإجراء وقائي آخر يعزّز من تماسكه.

الضبع يزمجر الآن بأعلى صوته.

بقيت خطوة أخيرة. جعلت أصلي «امنحني يا رب الوقت الكافي». ليس عليّ سوى أن أوثق ما تبقى من الحبل بالثقب عند حافة الكوثل، وأوثق طرفه الآخر بالطوف، وأكون قد نجوت.

توقف الضبع عن العواء وقلبي عن الارتجاف، قبل أن أرى ما سيجعله ينخلع من مكانه.

«يا يسوع، يا مريم العذراء، يا محمد، ويا فشنو!».

لن يبارح ذاكرتي ما حييت منظر ريتشارد باركر وهو يخرج أخيراً من تحت المشمّع. لم يكن يبعد أكثر من ١٥ قدماً مني. أوه، يا لضخامته التي تقول شيئاً واحداً: إنها نهاية الضبع، ونهايتي أيضاً. تسمّرت في مكاني. جعلتني خبرتي المستجدة بعراك الحيوانات على متن قارب نجاة أتوقع جلبة عظيمة. لكن ما حصل كان العكس تماماً. لم تمت الفريسة وهي تئن أو تنشج، بل بصمت كامل. قفز النمر كسهم ناري من تحت المشمّع على الضبع الذي كان قاعياً على المقعد الجانبي وراء مخلفات حمار الوحش. لم يبادر إلى القتال، بل انكمش

على الأرض، رافعاً مخلبه الأمامي في حركة دفاعية واهية. بدا الرعب على وجهه، بينما مخلب ريتشارد باركر الضخم ينقض على كتفيه، ويطبق بفكيه على رقبته، وعيناه الملتمعتان تتسعان إلى أقصاهما في اللحظة التي طحن فيها قصبته الهوائية. ارتعش جسد الضبع، وانطفأت عيناه. انتهى الأمر.

تركه ريتشارد باركر وراح يقرقر، قرقرة خافتة، وخاصة. أخذ يلهث، لاحساً فمه، وهو ينفض رأسه، ويشمشم الضبع الميت، ثم يرفع رأسه عالياً ويشمشم الهواء. ارتقى بحركة رشيقة مقعد الكوثل. وبدا واضحاً من تباعد قوائمه أنه غير مرتاح لهزهزة القارب. نظر إلى البحار المفتوحة، زمجر زمجرة خفيفة، ثم اشتم الهواء ثانية. أخذ ببطء يدير رأسه ويديره ويديره، دورة كاملة، حتى بات ينظر مباشرة إلي.

لو يسعني فقط وصف ما حدث بعد ذلك، لا مثلما رأيته، وهذا ربما أفلح فيه، بل مثلما أحسست به. رأيت ريتشارد باركر في إحدى أكثر وضعياته إثارة للرهبة في النفس: من الخلف، نصف متوثب، ورأسه مدار نحوي. كان ثمة في وقفته شيئاً من التموضع، كما لو أنه يقوم بعرض مقصود للفن والقوة. ويا له من فن، ويا لها من قوة: حضور ثقيل لا توازيه إلا رشاقته الكامنة. عضلات بارزة، وكفلان هزيلان، وفراء متهلهل. بدن برتقالي مائل إلى البني موشح بخطوط سوداء عمودية، تنسجم وبياض صدره، نزولاً إلى ظهره، وصولاً إلى الخواتم السوداء التي تبرقع ذيله الطويل. رأس ضخم مدوّر، ووجه مزين بشاربين كبيرين، ولحية جميلة، وسالفين أبيضين أخّاذين، طويلين على كثافة. أذنان صغيرتان مقوّستان وأنف عريض زهري عند

المنخرين، يتوهج بلون نحاسي. خطوط سوداء تتموج حول الوجه بكثافة وبلطف في آن، فتثير إليها انتباهاً أقل مما تثيره إلى الجزء الذي لا تغطيه، أي عند جذع الأنف، الذي يجعله شعاع الشمس ذهبياً مائلاً إلى الحمرة. أما البقع البيضاء فوق العينين، وعلى الوجنتين، وحول الفم، فبدت كالحركات الأخيرة في رقصة «كاثاكالي». النتيجة منحوتة تشبه أجنحة فراشة وتنضح بملامح غابرة وغامضة. ولكن حين التقت عيناه الكهرمانيتان بعيني، كانت نظراتهما حادة، وباردة، وإذ لا يقطعها رمش العينين فتأكيداً على أنها ليست عابرة أو ودودة، بقدر ما تتعمّد الإشارة إلى القوة ورباطة الجأش. أرعش أذنيه ثم أعادهما إلى شكلهما الطبيعي. أخذت إحدى شفتيه تعلو وتهبط، ليظهر وراءها أحد أكبر أنيابه الصفراء.

وقفت كل شعرة في بدني، صارخة بالهلع.

عندها ظهر الجرذ.

ظهر من العدم، ووقف على المقعد الجانبي، مضطرباً. بدا ريتشارد باركر مذهولاً بقدري. قفز الجرذ إلى المشمّع واتجه نحوي. تحت وطأة المفاجأة انزاحت رجلاي ووقعت على الخزانة، أخذ الجرذ يتقافز على الطوف، ثم قفز علي وتسلق إلى أعلى رأسي، بينما قوائمه الصغيرة تشدّ فروة رأسي، محاولة التشبّث بالحياة.

عينا ريتشارد باركر تبعتاه، وباتتا الآن مثبتتين على رأسي.

حرّك قائمتيه قليلاً فاكتملت استدارة رأسه. نزل عن المقعد. فبت أرى أعلى رأسه، وبعض ظهره وطرف ذيله الطويل الملتوي، وأذنيه المنسدلتين على الصدغين. ثلاث خطوات أصبح بعدها في وسط القارب. ليرتفع في الهواء، ويحطّ على المشمّع.

عشرة أقدام تفصله الآن عني. رأسه، صدره، بالغا الضخامة. أسنانه ـ كتيبة جيش كاملة داخل فم. إنه يستعد للقفز نحوي. إنني على وشك أن أموت. لكن انزلاقية المشمّع التي لا يألفها أزعجته. حاول التشبث. نظر إلى أعلى بتوتر ضاعفته هزهزة القارب. حملت الجرذ ورميته باتجاهه. ما زالت صورته ماثلة أمامي وهو يحلق في الهواء، ذيله المنتصب وقوائمه الممدودة، صفنه الصغير الهزيل، وشرجه المستدق، فتح ريتشارد باركر فمه واختفى الجرذ في داخله كطابة بايسبول احتواها قفاز لاقط الكرات. انشفط ذيل الجرذ بسرعة إلى الداخل كالمعكرونة في الفم.

بدا راضياً عن هذه التقدمة. تراجع وعاد إلى مكانه تحت المشمع. دبّت فيّ الحركة. فوثبت وفتحت مجدداً غطاء الخزانة الذي يفصلني عنه.

سمعت صوت اشتمام مرتفع، وصوت جسم يجرّ على الأرض. جعلت حركة الجرّ القارب يهتزّ بعض الشيء. بدأت أسمع صوت مضغ. استرقت النظر إلى وراء المشمّع. كان في وسط القارب، يلتهم الضبع بقضمات كبيرة. شعرت أنها فرصة لن تتكرر. مددت يدي وسحبت ما تبقى من ستر النجاة ـ ستة بالإجمال ـ والمجذاف الأخير. من شأن هذه أن تحسّن من وضع الطوف. شممت رائحة. لم تكن رائحة بول الهر الحادة. بل رائحة قيء. كان ثمة بقعة منه على أرض القارب. لا بد من أنها جاءت من ريتشارد باركر. إذاً، كان حقاً مصاباً بدوار البحر.

ربطت الحبل الطويل بالطوف. قارب النجاة والطوف باتا الآن معقودين معاً. ثم ربطت سترة نجاة بكل جانب من جوانب الطوف،

من الجهة الداخلية له. وضعت سترة نجاة أخرى في فتحة طوق النجاة لتكون بمثابة ممقعد، وحوّلت المجذاف الأخير إلى مستراح للرجل، مثبتاً إياه عند أحد أطراف الطوف، على بعد نحو قدمين من طوق النجاة، ورابطاً سترة النجاة الأخيرة به. كانت أصابعي ترتجف فيما أعمل. تفحصت مرة بعد مرة كل العقد التي ربطتها.

أبعدت الطوف عن القارب. إذا لسبب ما لم يطف، فهذا يعني أنني ميت لا محالة. طاف على صفحة المياه بشكل رائع. في الحقيقة ساهمت ستر النجاة في زيادة طوف المجاذيف وطوق النجاة. لكن ما إن لمس الطوف المياه، حتى غاص قلبي في مكانه، فقد تفرقت كل الأسماك من حوله، ما عدا أسماك القرش. كان هناك ثلاث أو أربع منها، سبحت إحداها تحت الطوف مباشرة.

زمجر ريتشارد باركر.

شعرت أنني سجين يرميه القراصنة عن منصة القفز..

قرّبت الطوف من القارب وانحنيت إلى الامام وأمسكته بيدي. من خلال «الشقوق»، في أرضية الطوف، أو على نحو أدق الصدوع المنفغرة ـ نظرت فوراً إلى أعماق المياه. سمعت زمجرة ريتشارد باركر ثانية. تمددت على الطوف منفرج الأطراف ولم أحرك ساكناً. توقعت أن ينقلب الطوف في أي لحظة، أو أن تهجم سمكة قرش بقوة وتنقض على ستر النجاة والمجاذيف. لم يحدث أي من الأمرين. غاص الطوف قليلاً في المياه وراح يتأرجح، فيما أطراف المجاذيف تغوص تحت الماء، لكنه ظل طافياً بثبات. اقتربت سمك القرش، لكنه لم يلمسه.

شعرت بشدة خفيفة، تسبب بدوران الطوف قليلاً. رفعت رأسي.

كان الحبل الذي يربط القارب بالطوف، وطوله أربعين قدماً، انشد إلى أقصاه، وصار مرتفعاً عن المياه. كان إحساسي الأول محبطاً للغاية. فقد أنشأت الطوف لكي أنقذ حياتي، والآن أشعر بالرغبة بالعودة إلى القارب. مسألة الطوف هذه خطرة أكثر من اللازم. يمكن أن تؤدي عضة سمكة قرش إلى قطع الحبل، أو أن تنفك إحدى العقد، أو أن تغمرني موجة كبيرة، وأضيع. مقارنة بالطوف، فإن قارب النجاة بدا جنة من الأمان والراحة.

انقلبت ببطء على ظهري. قعدت. ظل الطوف ثابتاً بشكل جيد حتى الآن. مستراح قدمي كان مريحاً. لكن الطوف برمته كان صغيراً جداً. لا أكثر من مكان للقعود. إنه أشبه بلعبة، بطوف مصغر، يمكن أن ينفع في بركة، لكن ليس في المحيط الهادئ. أمسكت الحبل وجذبته. كلما اقتربت من القارب، جذبت ببطء أكبر. حين صرت بجواره، سمعت صوت ريتشارد باركر. كان لا يزال يأكل.

مكثت متردداً لدقائق طويلة.

مكثت على الطوف. كانت خياراتي محدودة بين أن أمكث مع نمر أو أن أحوم بين سمك القرش. كنت على معرفة كافية بمدى خطر ريتشارد باركر. أما سمك القرش فلم يعبر حتى الآن عن خطره. تفحصت عقدة الحبل التي تربط الطوف بالقارب. أرخيت الحبل مجدداً حتى صرت على بعد ثلاثين قدماً تقريباً من القارب، وهي المسافة التي توازن بين خوفي من أن أكون قريباً جداً من ريتشارد باركر، وبعيداً جداً عن القارب.

شارف على نهايته. بدأت تمطر. كان الجو معتماً ودافئاً طوال اليوم. والآن انخفضت الحرارة، وكان انهمال المطر بارداً وثابتاً. من

حولي قطرات كبيرة من المياه العذبة تنقر بصوت عال صفحة الماء. سحبت الحبل ثانية. حين وصلت إلى القارب قرفصت على ركبتي وتمسكت بحافته ثم رفعت نفسي وتلصصت إلى الداخل. لم أرَ النمر.

هرعت نحو الخزانة. تناولت لاقطة مطر، وكيساً بلاستيكياً سعة خمسين ليتراً، ومخدة، وكتيب النجاة. أقفلت الخزانة بقوة. لم أعن ذلك، فقط أردت حماية أشيائي الثمينة من المطر ـ لكن الفتحة انزلقت من يدي المبللة. كانت غلطة فادحة. ففي حين أزال إغلاقي الخزانة الحاجز البصري بيني وبين ريتشارد باركر، كان الدوي كافياً للفت انتباهه نحوي. كان رابضاً على الضبع. أجفل. حيوانات كثيرة لا تحب إزعاجها أثناء تناولها الطعام. زمجر. تحفز كفاه. وراح ذيله يرتعش بطريقة كهربائية. وقعت إلى الوراء إلى الطوف، وأظن أنه الرعب بقدر ما هو الريح والتيار الذي وسع المسافة بين الطوف والقارب. أرخيت الحبل كله. توقعت أن يثب ريتشارد باركر إلى الأمام، محلقاً في الهواء، محاولاً الانقضاض عليّ. أبقيت عيني على القارب. كلما نظرت أكثر، وجدت التوقعات لا تحتمل.

لم يظهر.

في الوقت الذي كنت فتحت فيه لاقطة المطر فوق رأسي، واضعاً رجلي في الكيس البلاستيكي، كنت قد انتقعت حتى العظام. كما أن الشرشف تبلل حين وقعت في الطوف. تدثرت به مع ذلك.

هبط الليل. غرقت الأشياء في ظلمة دامسة. فقط صوت الانشداد الاعتيادي للحبل كان يؤكد لي أنني ما زلت مربوطاً بالقارب. البحر، الذي على بعد إنشات مني، والبعيد جداً عن عيني، كان يرتطم بالطوف. أصابع الماء جعلت تمتد عبر الشقوق وتبلّل مؤخرتي.

الفصل ٥٤

أمطرت طوال الليل، فجافاني النوم. كان صخب القطرات المتسارعة على لاقطة المطر أشبه بقرع الطبول، أما غبش الليل حولي، فازدحم بصوت أقرب إلى الهسهسة، كما لو أنني وسط عش هائل من الأفاعي الحانقة. فلا يكاد يجف قليلاً جزء مني، حتى يتبلّل جزء آخر، بفعل تبدّل اتجاهات الريح، التي تبدّل معها اتجاه المطر، وكذا الأمر بالنسبة إلى لاقطة المطر التي كلما حملتها في وضعية تجعلها تستوعب الأمطار المنهملة، أضطر إلى تعديلها لكي تتناسب واتجاه الريح. حاولت أن أبقي ولو جزءاً ضئيلاً من جسدي جافاً، بالتحديد عند الصدر، حيث خبأت دليل النجاة، لكن البلل شملني بالكامل. أمضيت الليلة بردان مرتجفاً، تؤرقني إلى ذلك كله الخشية من أن ينفصل الطوف عن القارب، وتنحل العقد التي تربطني به، أو أن يهاجمني قرش. فواظبت على تفحص العقد، محاولاً، وسط الظلام الدامس، استقراء حالها بكفي مثلما يقرأ الأعمى بلغة بريل.

اشتد المطر وهيجان البحر مع تقدم الليل. وأخذ الحبل المربوط بالقارب ينتخع بقوة أكبر، من حين لآخر، لكن ظل الطوف ثابتاً، متماشياً مع الموج، حين يغمره ويغمرني معه في شلالات متعاقبة. كانت مياه البحر أدفأ من المطر، ومع ذلك فقد تعاونا معاً على نقعي بالكامل.

على الأقل شربت. أجبرت نفسي على الشرب، حتى بعد أن ارتويت. لاقطة المطر أشبه بمظلة قلبتها الريح عكسياً، تجذب المطر إلى محورها، حيث هناك ثقب يتصل عبر أنبوب مطاطي بكيس بلاستيكي شفاف. في البداية كان طعم المياه مطاطياً، لكن سرعان ما شطف المطر اللاقطة، فصار الطعم جيداً.

لم يشغل بالي، خلال تلك الساعات الطويلة المعتمة الباردة، وحتى مع شدة المطر الخفي، وفوران البحر وهسهسته من حولي، سوى شيء واحد: ريتشارد باركر، الذي رحت أضع الخطة تلو الأخرى، في سبيل التخلص منه، والعودة إلى القارب.

الخطة رقم ١: ادفعه عن القارب. أي نفع في هذا؟ فحتى لو تمكنت من رمي حيوان شرس وزنه ٤٥٠ باونداً عن القارب، فإن النمور تجيد السباحة. في «ساندربانس» عرفت بأنها تستطيع السباحة خمسة أميال متواصلة. فإذا ما وجد غريمي نفسه فجأة خارج القارب، سيسبح بكل ببساطة، ويعود إلى المركب، ويجعلني أدفع ثمن خيانتي.

الخطة رقم ٢: أقتله بست إبر مورفين. لكن لم يكن لدي أدنى فكرة عن تأثيرها المحتمل عليه. أتراها كافية لقتله؟ وكيف سأتمكن بالضبط من حقنه بالمورفين؟ ربما يمكنني تخيل نفسي مفاجئاً إياه، لبرهة، على نحو ما صيدت أمه، لكن أن أفاجئه لوقت كاف يتيح لي حقنه بست إبر متتالية؟ فمستحيل. كل ما يمكنني الحصول عليه من خلال استفزازه بطعنة إبرة هو ضربة من كفه تطيح رأسي.

الخطة رقم ٣: أهاجمه بكل الأسلحة المتوافرة. أمر سخيف. لست بطرزان. لست سوى شخصاً ضعيفاً وهزيلاً ونباتياً. في الهند يتطلب قتل النمور إطلاق النار عليها عن ظهور الفيلة الضخمة. فما الذي يمكنني فعله هنا؟ أطلق صاروخاً دخانياً في وجهه؟ أهجم عليه حاملاً فأساً في كل يد وسكيناً بين أسناني؟ أجهز عليه بإبر الخياطة المستقيمة والملتوية؟ إذا ما تمكنت من نخزه فحسب فسيكون عملاً بطولياً. وفي المقابل سيمزقني عضواً عضواً، وطرفاً طرفاً. فإذا كان هناك ما هو أخطر من حيوان معاف، فهو الحيوان المجروح.

الخطة رقم ٤: أخنقه. لدي حبل. إذا ما بقيت على الجؤجؤ وتمكنت من جعل الحبل يلتف حول الكوثل وربطته حول عنقه، فسأجذب الحبل بينما هو يشدّ ليحاول الوصول إلي. وهكذا، في محاولته للوصول إلي، يخنق نفسه. خطة انتحارية ذكية.

الخطة رقم ٥: أسممه. أشعل النيران به. أكهربه. كيف؟ بماذا؟

الخطة رقم ٦: أطلق حرب استنزاف. كل ما علي فعله هو أن أدع قوانين الطبيعة تأخذ مجراها، وأكون نجوت. انتظره حتى يموت من تلقاء نفسه، وهذا لا يتطلب جهداً من ناحيتي. لدي مؤن تكفيني أشهراً. وما الذي لديه هو؟ فقط بضع حيوانات نافقة ستصبح قريباً غير نافعة للأكل. ما الذي سيأكله بعدها؟ والأفضل من ذلك: من أين سيحصل على مياه الشرب؟ ربما يصمد لأسابيع من دون طعام، لكن ليس من حيوان، مهما يكن قوياً، يمكنه الصمود فترات طويلة من دون مياه.

أمل متواضع ومض في داخلي، كشمعة في الليل. أصبح لدي خطة، وهي خطة جيدة. ويكفي أن أبقى حياً حتى تكون وضعت موضع التنفيذ.

الفصل ٥٥

ازدادت الأمور سوءاً مع حلول الفجر، عندما رأيت ما كنت أحس بوقعه فقط خلال الساعات الماضية، مشهد شلالات المطر وهي تنهمل عليّ من ذرى عالية، والأمواج المتتالية التي تغمرني.

متبلد العين والإحساس، ومرتجفاً من البرد بقيت ممسكاً اللاقطة بيد، وبالأخرى بالطوف. وانتظرت.

فجأة انقطع المطر. صفت السماء وانسحبت الأمواج مع الغيوم. كان التغير مفاجئاً وسريعاً وجذرياً بقدر تغيير البلدان على اليابسة. اختلف مشهد المحيط. علت الشمس السماء. استحالت المياه جلداً ناعماً يعكس الضوء بملايين المرايا.

إحساسي المتفاقم بالألم والإرهاق وتخشب جسمي بالكامل، حرمني الإحساس بالغبطة لبقائي حياً. رحت أكرر في عقلي كلمتي «الخطة السادسة، الخطة السادسة، الخطة السادسة»، كتعويذة منحتني بعض الراحة، مع أنني لم أستطع تذكر ماهية هذه الخطة. بدأ الدفء يتسلل إلى عظامي. أقفلت لاقطة المطر. غطيت نفسي بالملاءة وتكومت على جنبي بحيث لا تمسني الماء، وغرقت في النوم. لا أعرف كم من الوقت نمت. كان منتصف النهار حين استيقظت. كنت دافئاً. كانت الملاءة جفت تقريباً. كانت نوبة من النوم العميق. اعتمدت على مرفقي للقعود.

كل ما فيّ كان الفراغ والنهائي، بانوراما لا نهائية من الأزرق. لم يكن ثمة ما يعوّق نظري. صدمني الاتساع كلكمة في المعدة. فهويت إلى الوراء دائخاً. هذا الطوف نكتة. ليس إلا بضع عيدان وشوكة صغيرة مربوطة معاً بخيط. المياه تخترقه من كل شق. وأعماق البحر التي ترى من قاعدته تدوّخ طائراً. وهذا القارب، ليس بأفضل من نصف قشرة جوز هند، تتعلق بالمياه كأصابع متشبثة بحافة جرف، ليست إلا مسألة وقت حتى تشده الجاذبية إلى أسفل.

رأيت غريمي. أطل من حافة المركب وجعل ينظر في اتجاهي. الظهور المفاجئ لنمر له وقع آسر في أي بيئة كانت، لكنه كان أكثر رهبة هنا. حيث التناقض الذي لا يصدق بين فرائه البرتقالي اللامع

والمخطّط، والبياض الذي داخل المركب. بلغت حواسي المجهدة حدّ الشلل. على الرغم من اتساع المحيط حولنا، فقد بدا أن كل ما يفصل بيننا مجاز مائي بلا جدران ولا قضبان.

«الخطة السادسة، الخطة السادسة، الخطة السادسة»، جعلت أردّد بإلحاح. لكن ما هي الخطة السادسة؟ آه أجل. حرب الاستنزاف. لعبة الانتظار. السلبية. ترك الأمور تحدث من تلقائها. قوانين الطبيعة. الزمن الذي لا يردع، وتقلّص الموارد. هذه هي الخطة السادسة.

صيحة عصفت في رأسي: «أيها الغبي، أيها الأحمق البليد! الخطة السادسة هي الأسوأ على الإطلاق! ريتشارد باركر خائف الآن من البحر. إنه بمثابة قبره. لكن حين يفقده العطش والجوع صوابه، فسيتغلب على خوفه، وسيفعل كل ما بوسعه لكي يشبع حاجاته. سيحوّل هذا الحصن إلى جسر. سوف يسبح بأقصى طاقته حتى يبلغ الطوف والطعام الذي على متنه. أما بالنسبة إلى الماء، أنسيت أن نمور «ساندربانس» مشهورة بشربها المياه المالحة؟ أتحسب أنك تستطيع التفوق على كليتيه؟ أقول لك، إذا ما شننت حرب استنزاف، فأنت الذي سيخسر! ستموت! أهذا واضح؟».

الفصل ٥٦

أودّ قول شيء عن الخوف. إنه خصم الحياة الوحيد. وحده الخوف يمكن أن يهزم الحياة. إنه عدو ذكي وغدّار، لكم أعرف ذلك. إنه عدو لا يتمتع باللياقة، ولا يحترم قانوناً أو ميثاقاً، ولا يرحم. إنه ينقض على نقاط ضعفك، التي لا يجد صعوبة في رصدها. يبدأ دائماً من عقلك. في لحظة تكون شاعراً بالهدوء،

والتحكم بالنفس، والسعادة. ثم يأتي الشك متنكراً في هيئة شكوك صغيرة، ويتسلل إلى عقلك كجاسوس. الشك يلتقي باللاتصديق، واللاتصديق يحاول طرد الشك. لكن اللاتصديق هو جندي مشاة يفتقر إلى العتاد المناسب. الشك يقضي عليه بسهولة. يستحوذ عليك القلق. فيتقدّم العقل ليحارب عنك. تستعيد ثقتك بنفسك، لأن العقل مسلح بأحدث الأسلحة. لكن، لذهولك، ورغم التكتيكات المتفوقة وبعض الانتصارات التي حققتها، فسرعان ما يهزم عقلك. يتسلل الوهن إليك، تتذبذب. يتضخم قلقك إلى حدود مروعة.

ثم ينتقل الخوف إلى جسمك، المدرك سلفاً بأن هناك أمراً جللاً يجري. تحلق رئتاك كطائر، وتتلوى أمعاؤك كأفعى. الآن يموت لسانك كالأبوسوم، فيما يبدأ فكك بالاصطكاك. تصم أذناك. وتروح عضلاتك ترتعش كمصاب بالملاريا، وترتعد ركبتاك كما لو أنهما ترقصان. ينخطف قلبك بقوة، بينما ترتخي عضلتك العاصرة كثيراً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر أعضاء جسمك. كل عضو فيك يتداعى على طريقته. فقط عيناك تظلان تعملان جيداً. إنهما دائمتا التنبه إلى الخوف.

تتخذ قرارات متسرعة. تطرد آخر حليفين لك: الأمل والثقة. هكذا، تكون هزمت نفسك بنفسك. يكون الخوف، الذي ليس أكثر من تعبير، قد انتصر عليك.

يصعب الشرح بالكلمات. ذلك أن الخوف، الخوف الحقيقي، ذاك الذي يهز أساس وجودك، ذاك الذي يعتريك وأنت تواجه فناءك، يعشش في ذاكرتك، كالغرغرينا: يفسد كل شيء، بما في ذلك الكلمات التي تحاول وصفه. لذا عليك أن تكافح لكي تعبر عنه.

عليك أن تكافح لتجعل ضوء الكلمات يشع عليه. لأنك ما لم تفعل ذلك، ما لم تحول خوفك إلى عتمة لا تخشى فيها الكلمات، وتنجح ربما في نسيانها، فإنك تعرض نفسك إلى غارات أخرى من الخوف، لأنك منذ اللحظة الأولى لم تحارب حقاً الخصم الذي هزمك سلفاً.

الفصل ٥٧

لعلها من مفارقات قصتي هذه أنّ ما يرعبني هو نفسه ما يجلب إلي الطمأنينة، وما يشتّتني هو ما يجلو لي الهدف. هكذا، كان ريتشارد باركر من أدخل الراحة، أخيراً، إلى نفسي.

كان يرومني بنظراته، وبعد فترة لاحظت طبيعة النظرة. أعرف مغزى هذه النظرة. إنها نظرة حيوان مكتف ينظر من قفصه أو من وجره على نحو ما يروح واحدنا ينظر من طاولة مطعم بعد وجبة جيدة، حين يأتي وقت المحادثة ومراقبة الناس. من الواضح أن ريتشارد باركر أكل كفايته من الضبع وشرب حاجته من مياه المطر. لم تكن شفتاه تتحركان، ولا أسنانه تظهر، ولا يهدر أو يزمجر. كان ببساطة يرومني، يراقبني، بطريقة هادئة، لكن لا تنطوي على تهديد. ظل يهزّ أذنيه ورأسه، على نحو ما يفعل أبناء جنسه. بدا هراً منزلياً أليفاً، يزن ٤٥٠ باونداً.

أصدر من منخريه صوتاً يشبه الشخير. أصخت السمع. شخر ثانية. ذهلت. أتكون هذه «الزنخرة»؟

تصدر النمور مختلف الأصوات، كالزئير والزمجرمة والدمدمة والهرهرة، وأعلاها جميعاً هو على الأرجح ذلك الصوت العميق الذي يصدره من حلقه، خلال التزاوج، وهو كناية عن صرخة مجلجلة،

تصم الآذان كصاعقة إذا ما سمعت عن كثب. وحين يفاجأ النمر يصدر صوت «ووف»، صوت غاضب قصير وحاد يجعل رجليك تتأهبان للفرار، ما لم يسمرهما الخوف في مكانهما. أما حين يهاجم فيصدر زئيراً عميقاً مصحوباً بالحمحمة. أما تلك التي تستعملها النمور للتهديد فإنها مختلفة النغمة. والنمر يهسهس ويزمجر، وهما صوتان، وفقاً على الانفعال الذي أدّى إليهما، يشبهان إما أوراق الخريف وهي تخشخش على الأرض، لكنها أكثر رنيناً، وإما، حين يكون غضباً جامحاً، فأشبه بباب ضخم تفتح مفصلاته الصدئة على مهل - وفي الحالين فهما صوتان تقشعر لهما الأبدان. وتطلق النمور أصواتاً أخرى أيضاً. فهي تموء وتهر، وتخرخر، وإن ليس بقدر القطط الصغيرة صوتاً وإيقاعاً، وفقط خلال الشهيق. (فقط القطط الصغيرة تخرخر في الشهيق والزفير، وهي من السمات التي تميزها عن القطط الكبيرة. وسمة أخرى هي أن القطط الكبيرة تزأر. وهذا جيد، فلا بدّ من أن شعبية القطط المنزلية ستنخفض كثيراً إذا ما راحت تزأر كلما أزعجها أمر ما). والنمور تموء، بنغمة صوتية شبيهة بالقطط المنزلية، لكنها أعمق وأعلى، ولا تشجع المرء بطبيعة الحال على أن ينحني ويحملها. ويمكن للنمور أن تكون صامتة بشكل مطلق ومهيب.

تعرفت على كل هذه الأصوات خلال نشأتي، ما عدا صوت «الزنخرة» الذي أعرفه فقط من كلام أبي عنه. كان قرأ وصفاً له في أدبيات الحيوانات. لكنه سمعه مرة واحدة، خلال زيارة عمل إلى مشفى حديقة حيوانات «ميزو»، حين أطلقها نمر ذكر صغير يعالج من فقر الدم. الزنخرة هي أهدأ أصوات النمر، أشبه بهمس يعبر عن الود والنوايا غير العدائية.

عاود ريتشارد باركر إطلاق هذا الصوت، مديراً رأسه. بدا تماماً كما لو أنه يطرح عليّ سؤالاً.

نظرت إليه، وفي داخلي شعور مزدوج من الدهشة والخوف. لم يكن هناك تهديد مباشر، فهدأ تنفسي، وتوقف قلبي عن الطرق بقوة، وبدأت أستعيد إدراكي. عليّ أن أروضه. في تلك اللحظة أدركت الحاجة الماسة إلى ذلك. لم تكن مسألة إما هو وإما أنا، بل أنا وهو معاً. كنا، حرفياً ورمزياً، في القارب نفسه. نموت معاً أو نحيا معاً. ربما يقتل في حادث أو لسبب طبيعي بعد فترة قصيرة، لكن من الغباء الاعتماد على صدفة كهذه. والمرجح أن يحدث الأسوأ: المرور البسيط للزمن، الذي خلاله يصمد هذا الحيوان الصلب أكثر مني. فقط إذا ما روضته سيصبح ممكناً أن أتحايل عليه ليموت قبلي، إذا كان لا بدّ من أن نصل إلى هذه النهاية المحزنة.

سأطلعك على سر: جزء مني كان مسروراً بريتشارد باركر. جزء مني لم يرد إطلاقاً أن يموت، لأنه إذا مات فسأترك وحدي مع اليأس، وهو عدو أشرس من النمر بكثير. إذا ما بقيت لدي إرادة للعيش، فبفضله. لقد شغلني عن التفكير كثيراً بعائلتي وبوضعي المأساوي. ودفعني للتعلق بالحياة. كرهته على ذلك، وفي الوقت نفسه كنت ممتناً له. أنا ممتن له. إنها الحقيقة البسيطة: لولاه لما كنت اليوم حياً أحكي لك قصتي.

نظرت حولي. ألا يشكل هذا المكان الدائري الذي يحيطه خط الأفق من الجهات كافة، حلبة سيرك ممتازة؟ نظرت إلى البحر. أليس هذا مصدراً مثالياً لوجبات الطعام التي ستعلّمه إطاعة الأوامر؟ لاحظت صفارة تتدلى من إحدى الستر. ألا تشكل هذه سوطاً جيداً لتعليمه

النظام؟ ما الذي ينقص لترويضه؟ الوقت؟ قد تمر أسابيع قبل أن تعثر عليّ سفينة. لدي كل الوقت في العالم. العزم؟ لا شيء يمدّ المرء بالعزم أكثر من الحاجة الماسّة. الخبرة؟ ألست ابن مدير حديقة حيوانات؟ المكافأة؟ وهل من مكافأة أعظم من الحياة؟ هل من عقوبة أسوأ من الموت؟ نظرت إليه. تبدّد رعبي. بت مسيطراً على خوفي. النجاة على مرمى يدي.

لتدوي الأبواق، ولتقرع الطبول. وليبدأ العرض. وقفت. انتبه ريتشارد باركر. لم يكن التوازن سهلاً على الطوف. أخذت نفساً عميقاً ورحت أصرخ: «سيداتي وسادتي، أيها الصبيان والبنات، عجّلوا إلى مقاعدكم! عجّلوا، عجّلوا. لا ينبغي أن تتأخروا. اجلسوا في مقاعدكم، وافتحوا عيونكم وقلوبكم وتحضروا للعرض المذهل. ها هو، لتسليتكم وتعليمكم، لبهجتكم وتثقيفكم، العرض الذي انتظرتموه طوال حياتكم، أعظم عرض على الإطلاق! هل أنتم جاهزون لمشاهدته؟ أجل؟ حسناً إذن. إنها حيوانات قابلة للتكيف بشكل مدهش. لقد رأيتموها في الغابات المغطاة بالثلوج، وفي الأدغال الاستوائية. رأيتموها في الغابات الخفيضة، ورأيتموها في المستنقعات الكريهة. حقاً إنها قادرة على التأقلم أينما كان. لكنكم لم تروها أبداً حيث سترونها الآن! سيداتي وسادتي، أيها الصبيان والبنات، يكفي كلاماً، إنه لمن دواعي الشرف والسرور أن أقدم لكم: سيرك باي باتيل، الهندي الكندي، السيرك العابر للباسيفيك، السيررررررررررررك العائم!!! ترررررررررري! تررررررررري! ترررررري! ترررررررري! تررررررري! ترررررررري!».

أثّرت الصفرة في ريتشارد باركر. عند أول نفخة في الصافرة، انكمش وغمغم. ها! فليقفز إلى المياه إذا شاء! فليحاول!

«تــــــررررررررررري! تـــــــرررررررررري! تــــــررررررررري! ترررررررررري! ترررررررري! تررررررررري!».

زمجر وضرب الهواء بكفه. لكنه لم يقفز. ربما لم يكن خائفاً من البحر حين كان جائعاً وظمآناً، أما الآن فالخوف هو ما يمكنني الاعتماد عليه.

«ترررررررررري! ترررررررررري! ترررررررررري! ترررررررري! ترررررررري! تررررررررري!».

تراجع وانكمش في قاع المركب. التمرين الأول انتهى. كان نجاحاً ساحقاً. توقفت عن الصفير وتهالكت على الطوف، مرهقاً ومنقطع الأنفاس.

وهكذا، الخطة رقم سبعة: أبقه على قيد الحياة.

الفصل ٥٨

كانت صفحات دليل النجاة لا تزال مبللة، فأخذت أقلّبها بترو لكي لا أمزقها. تشير مقدمة الدليل الذي يضم طائفة من المعلومات العملية حول العيش في البحر بعد غرق السفينة، إلى أنه من وضع ضابط في البحرية الملكية البريطانية. وهو يتضمن إرشادات من قبيل:

اقرأ الإرشادات دائماً وبانتباه.

لا تشرب البول أو مياه البحر أو دم الطيور.

لا تأكل قنديل البحر، أو الأسماك ذات الشويكات الحادة أو المناقير الشبيهة بمناقير الببغاء، أو الأسماك التي تنتفخ كالبالون.

الضغط على عيني السمكة كفيل بشلّ حركتها.

يمكن الجسم البشري الصمود طويلاً. لكن إذا ما جرح أحدهم، فينبغي اتقاء العلاج العشوائي، التجاهل هو أسوأ طبيب، فيما النوم والراحة هما أفضل ممرضتين.

ينبغي رفع الرجلين إلى أعلى لمدة خمس دقائق على الأقل كل ساعة.

ينبغي تجنّب الإجهاد غير الضروري. لكن العقل الذي لا يعمل يميل إلى الغرق، لذا ينبغي إلهاءه بلعب الورق مثلاً أو «لعبة العشرين سؤالاً»، أو لعبة «أتجسس بعيني الصغيرة»، أوغيرها، كما أن الغناء الجماعي وسرد القصص من الأمور التي تساعد على رفع المعنويات.

المياه الخضراء أضحل من المياه الزرقاء.

ينبغي، خلال البحث عن اليابسة، عدم الانخداع بالغيوم البعيدة التي تشبه الجبال. إبحث عن اللون الأخضر. ولتجعل قدمك الدليل الوحيد على أنك تدوس اليابسة حقاً.

لا تسبح. فهذا يهدر الطاقة. وقد ينجرف القارب من دونك، ناهيك عن الكائنات البحرية الخطرة. إذا ما شعرت بالحر، فبلل ثيابك بدلاً من السباحة.

لا تبل في ثيابك. فالدفء الوقتي الذي ستشعر به لا يستحق مثل هذا الاستعجال.

غطّ نفسك، فالعري يقتل أسرع من الجوع والظمأ.

ما لم يفقد جسمك كمية فائضة من المياه بالتعرق، فإنه يستطيع الصمود حتى أربعة عشر يوماً من دون مياه. وقد يساعد مصّ زرّ على احتمال الظمأ.

السلاحف سهلة الصيد، وتشكل وجبات ممتازة، ويعدّ دمها شراباً صحياً لخلوه من الأملاح؛ لحمها طيب المذاق ومشبع؛ دهنها له استعمالات عدة؛ أما بيض السلاحف فيشكّل وجبة فعلية. عليك بتجنّب المنقار والأيدي.

لا تدع معنوياتك تنحط. فلتخف لكن إياك والاستسلام. وتذكر دائماً: المعنويات هي الأكثر أهمية. إذا ما كانت لديك إرادة العيش، فستعيش. حظاً طيباً!

كان هناك أيضاً شروحات موجزة تتركز حول فن وعلم الملاحة، ومنها مثلاً أن الأفق، حين يُرى من ارتفاع خمسة أقدام في يوم يكون البحر فيه ساكناً، فهذا يعني أنه يبعد نحو ميلين ونصف الميل.

لم تكن نصيحة عدم شرب ماء البول ضرورية بالنسبة إلي، فلا أحد يعاني في طفولته من لقب «بيسينغ» يمكن العثور عليه ميتاً وعلى شفتيه كوب من البول، حتى لو كان تائهاً في قلب المحيط الهادئ. أما الاقتراحات المتعلقة بالطعام فلم يكن من شأنها سوى أن تؤكّد لي جهل الإنكليز لمعنى كلمة طعام. وما عدا ذلك فإن الإرشادات تعد مفيدة حقاً.

أمر واحد لم يتطرق إليه الدليل: كيفية تأسيس علاقة «ألفا ـ أوميغا» مع حيوان مفترس على متن قارب نجاة.

كان عليّ أن أباشر بوضع برنامج تدريبي له، بحيث أرسخ في ذهنه فكرة أنني النمر الأعلى، وأن حدود منطقته هي الجزء الممتد في أرضية القارب، من مقعد الكوثل والمقعدين الجانبيين وصولاً إلى المقعد الوسطي. أما الجزء العلوي من المشمّع، ومنطقة الجؤجؤ، حتى المقعد الوسطي، فهذه منطقتي، ومحرم عليه كلياً الاقتراب منها.

ينبغي، لهذا الهدف، أن أبادر إلى صيد السمك. ففي حديقة الحيوانات يأكل الأسد أو النمر البالغ ما معدله عشرة باوندات من اللحم يومياً. ولن يمرّ وقت طويل حتى ينتهي ريتشارد باركر من تناول بقايا الحيوانات النافقة.

كان عليّ فعل العديد من الأمور. عليّ أن أجد وسيلة لكي أغطّي نفسي. إذا ما بقي ريتشارد باركر تحت المشمّع طوال الوقت، فذلك لسبب وجيه. فالتعرض المستمر للشمس والريح والمطر والبحر أمر مرهق، ليس للجسم فحسب، بل للعقل أيضاً. أليس وارداً في الدليل أن العراء المستمر يؤدي إلى الموت السريع؟ عليّ أن أخترع نوعاً من الظلة.

عليّ أن أربط الطوف بقارب النجاة بحبل ثان، في حال انقطع الأول أو انفك.

عليّ أن أحسّن الطوف، وأجعله مناسباً أكثر للعيش فيه بانتظار الانتقال إلى حيزي الخاص على متن القارب. على سبيل المثال علي أن أجد طريقة لكي لا أتبلّل وأنا على متنه. فقد بدأ جلدي يتغضّن وينكمش بسبب التعرض المستمر للمياه. هذا ينبغي تغييره. وعليّ أن أجد طريقة لتخزين الأشياء على الطوف.

عليّ أن أقطع الأمل من ظهور سفينة تنقذني. عليّ ألا أعتمد على المساعدة الخارجية. البقاء حياً ينبغي أن يبدأ بي. بحسب تجربتي، فإن أكبر خطأ قد يرتكبه التائه في البحر هو أن يتأمل كثيراً وأن يفعل قليلاً. النجاة تبدأ بإيلاء الانتباه للأشياء المباشرة والتي في متناول اليد. أما الانتظار على أمل بطال فذلك مساو لأن يهدر المرء عمره في الأحلام.

كان هناك الكثير مما يتعين عليّ فعله.

نظرت إلى الأفق الفارغ. الكثير من المياه. وأنا وحيد تماماً. وحيد بالمطلق.

انبجست الدموع حارة من عيني. دفنت وجهي في يدي وانتحبت. كان وضعي ميئوساً منه.

الفصل ٥٩

وحيداً أم لا، تائهاً في البحر أم لا، فقد كنت جائعاً وظمآناً. شددت الحبل وشعرت بعصلجة خفيفة، وحين خففت من قبضتي عليه ارتخى، وزادت المسافة بين القارب والطوف. فاستنتجت أن القارب ينجرف مع المياه بسرعة أكبر من الطوف، ويجر هذا الأخير معه. ملاحظة لم تعن لي شيئاً عندها. كان بالي مشغولاً بريتشارد باركر.

يظهر أنه لا يزال تحت المشمّع.

جذبت الطوف إلى القارب. وبينما أنا رابض على حافته، أستعدّ للقيام بغارة سريعة على الخزانة، تعاقبت سلسلة من الأمواج جعلته يهتز، ونبّهتني إلى أمر مهم. فحين صار الطوف بجوار القارب تبدّل اتجاهه، ولم يعد في وضعية متعامدة مع الأمواج، بل عرضية، مما جعله يتأرجح من جهة إلى أخرى، على ذاك النحو الذي يخضخض المعدة. وبدا السبب واضحاً: فحين يبتعد الطوف عن القارب يلعب دور المرساة، ويصير ثقالة تشده وتضع مقدمه بمواجهة الأمواج. لأن الأمواج والرياح الثابتة تكون عادة متعامدة مع بعضها. فإذا ما كان القارب مشدوداً بمرساة وقامت الرياح بدفعه، فسوف يميل إلى زاوية لا يعود يقاوم الريح عندها، بل يصير على خط واحد معها، متعامداً

مع الأمواج، مما يجعله يميل من الأمام إلى الوراء، وهذا أفضل بكثير من التأرجح من جانب إلى جانب. أما بوجود الطوف قرب القارب، فيزول مفعول المرساة، ولا يعود هناك ما يساعد على توجيه مقدّمه نحو الريح. وبالتالي يميل عرضياً، وتبدأ الأمواج بخضخضته.

هذا التفصيل الذي قد يبدو لك ثانوياً، كان من شأنه أن ينقذ حياتي، وهو ما لن يرضي ريتشارد باركر على الإطلاق.

كما لو أنه يثني على استنتاجي هذا سمعته يهرّ. كان هريراً خافتاً، مضطرب النبرة، يدل على الانزعاج. ربما يكون سباحاً جيداً، لكنه ليس بالملاح الجيد.

لا تزال أمامي فرصة.

خشية أن أصير مزهواً بقدرتي على التلاعب به، رأيت في تلك اللحظة ما من شأنه أن يذكرني بمن أواجه. يبدو أن ريتشارد باركر كان قطباً مغناطيسياً يجتذب الحياة إليه، كاريزماتي جداً إلى حدّ أن أشكالاً أخرى من الحياة لا تقاوم الاقتراب منه. كنت أهم بالصعود إلى الجؤجؤ حين سمعت أزيزاً، ورأيت شيئاً صغيراً يسقط في الماء قربي.

كان صرصاراً. طفا لثانية أو اثنتين قبل أن يبتلعه فم سمكة من تحت الماء. تلاه صرصار آخر وثالث، وعاشر. كل منها ابتلعته سمكة.

آخر أشكال الحياة الغريبة كانت تهجر القارب.

نظرت بحذر فوق حافة القارب، وأول ما رأيته، ممداً في ثنية المشمّع فوق مقعد الجؤجؤ، كان صرصاراً كبيراً، ربما رئيس العصابة. راقبته، باهتمام غريب. حين قرر أنه آن الأوان، فرد

جناحيه، وارتفع في الهواء، وحلق فوق القارب، كما لو أنه يتأكد من أنه لم يبق أحد على متنه، ثم قفز في الماء.

الآن بتنا اثنين. في خمسة أيام مُحي الجمهور المكوّن من حمار الوحش والسعلاة والضبع والجرذ والذباب والصراصير. وباستثناء البكتيريا والدود التي ربما لا تزال حية في بقايا الحيوانات، لم يعد على القارب سوى أنا وريتشارد باركر.

لم تكن بالفكرة المريحة.

صعدت إلى القارب وبصمت كامل فتحت الخزنة، متعمداً ألا أنظر تحت المشمّع مخافة أن النظر قد يكون مثل الجلبة التي قد تلفت انتباه ريتشارد باركر.

أزكمت أنفي رائحة بول مسكية، حادة جداً، شبيهة بالرائحة النموذجية التي تفوح من أقفاص القطط في حديقة حيوانات. النمور مناطقية إلى حدّ كبير، وببولها تعلم حدود منطقتها. هذه أخبار جيدة تأتي في إطار قذر: الرائحة تأتي مباشرة من تحت المشمّع. مما يعني أن ريتشارد باركر يحصر حقوقه المكانية بتلك المنطقة، وهو أمر واعد، فلو تمكنت من جعل الجزء العلوي من المشمّع ملكي، لتوافقنا معاً.

حبست أنفاسي، أخفضت رأسي وأملته جانباً لأنظر إلى ما وراء حافة الغطاء، حيث تجمّعت مياه الأمطار، على ارتفاع نحو أربعة إنشات تقريباً، لتشكّل بركة شرب خاصة بريتشارد باركر. كان يفعل بالضبط ما كنت فعلته لو كنت في مكانه في مثل ذاك القيظ: يبترد في الظل. كان قاعياً على الأرض، ووجهه بعيداً عني، قائمتاه الأماميتان منثنيتن إلى الخلف ومنبسطتين، أما القائمتان الخلفيتان فمرفوعتين إلى

الأعلى، ومعدته وأفخاذه ممددة على الأرض. بدت وضعيته سخيفة، لكن من دون شك مبهجة للنظر.

انصب اهتمامي مجدداً على مسألة البقاء حياً. فتحت علبة من حصص الغذاء وأكلت حصة اليوم، أي ثلث العلبة تقريباً. امتلأت معدتي بسرعة مذهلة. وكنت على وشك الشرب من جيب لاقطة المطر المتدلية على كتفي حين وقعت عيني على أكواب الشرب، وتذكرت بركة ريتشارد باركر. وخطر لي عندها: إذا لم يكن بوسعي أن أغرف منها بحرية مثلما يفعل هو، ألا يمكنني على الأقل أن أرتشف رشفة؟ فمؤونتي الخاصة من المياه لن تدوم إلى الأبد. حملت كوباً، وانحنيت إلى أسفل، فتحت الغطاء بالقدر الضروري وبيد مرتعشة غطست الكوب في البركة، على بعد نحو أربعة أقدام من قائمتي الحيوان الخلفيتين. بدت قائمتاه المقلوبتان المبللتان جزراً صحراوية تكسوها الأعشاب البحرية.

غرفت نحو ٥٠٠ مللميتر. كان لونها متغيراً وملطخاً بعض الشيء. هل تحتوي على بكتيريا قاتلة؟ لم أفكر بالأمر. كل ما كان يشغلني حاجتي إلى الماء. شربت الكوب حتى القطرة الأخيرة، شاعراً بالرضى التام.

الطبيعة تحب التوازن، لذا لم أفاجأ حين تقريباً على الفور شعرت بحاجة إلى التبول. تبولت في الكوب. أفرزت الكمية نفسها التي شربتها تواً، كما لو أنه لم تمر دقيقة بين تبولي واللحظة التي رحت أفكر فيها بالشرب من البركة. ترددت. فيما تلح عليّ الرغبة في الرشف مجدداً من الكوب. قاومت الإغراء. لكنه كان شاقاً. ملعونة سخرية القدر التي تجعل بولي يتراءى لي شهياً! لم أكن أعاني بعد من

الجفاف، لذا كان لون السائل خفيفاً، يلمع في الشمس، فيبدو ككوب من عصير البرتقال. وكانت طزاجته مضمونة، وهو ما لا يمكن قوله بالتأكيد عن المياه المعلبة. لكنني نجحت في المقاومة، وقررت الإستفادة من البول على نحو أفضل، ناثراً إياه على المشمّع وفوق فتحة الخزانة لكي أزعم حقي بها.

سرقت كوبين آخرين من المياه من ريتشارد باركر، من دون أن أتبوّل هذه المرة. شعرت بالانتعاش كنبتة ارتوت بعد جفاف.

الآن حان الوقت لكي أحسّن وضعي. اتجهت إلى الخزانة، وأتيت بحبل ثان ربطت به الطوف إلى القارب.

اكتشفت المقطرة الشمسية، ذلك الجهاز الذي يستخلص المياه العذبة من المياه المالحة، وهو يتكون من كوز شفاف قابل للنفخ مثبت على حجيرة دائرية قابلة للطفو، تحتل وسطها رقعة من المطّاط. أما طريقة عمله مثلما توضح الإرشادات، فهي أن تُصب مياه البحر على رقعة القماش السوداء، حتى تبخّرها الشمس، فتجتمع في أخدود داخل الكوز، ومنه تتقطّر خالية من الملح إلى جيب سفلي. ثمة في الخزانة إحدى عشرة مقطرة. قرأت الإرشادات بانتباه، مثلما يأمر دليل النجاة. ثم نفخت كل الاكواز وملأت الحجيرات بالكمية المحددة من مياه البحر. ثم ربطت القاطرات معاً في سلسلة، موثقاً أحد طرفيها بالطوف، والطرف الآخر بالقارب، مما يعني أنني لن أخسر أي من مقطراتي في حال انحلت إحدى العقد، بل إنني استعنت بحبل إضافي أوثقت به الطوف إلى القارب. بدا منظر المقطرات جميلاً، وهي طافية على المياه، لكنها بدت أيضاً بالغة الهشاشة، فشككت في نجاعتها.

تحوّل انتباهي بعدها إلى تحسين الطوف، فتفحصت كل عقدة

تحكم ربط أجزائه إلى بعضها. ثم قررت، بعد تفكّر، أن أحول المجذاف الخامس، الذي جعلته من قبل مستراحاً لقدمي، إلى نوع من الصاري. ففككته، واستعنت بالخنجر لأحدث في وسطه تقريباً ثلماً، أتبعته بثلاثة ثقوب أخرى في الجانب المسطح منه. ومع أن العمل أنجز ببطء، فقد أبقاني منشغل الفكر. حين انتهيت ثبّت المجذاف عامودياً في إحدى زوايا الطوف، فصار الجزء المسطح من المجذاف مرتفعاً في الهواء، والمقبض غاطساً في المياه. شددت الحبل في الثلم، لكي أحول دون انزلاق المجذاف إلى أسفل. ثم، لكي أضمن أن يبقى الصاري مستقيماً، ولكي أفسح مجالاً لإنشاء خيوط لتعليق الظلة والمؤونة، أدخلت حبالاً عبر الثقوب وربطتها بأطراف المجاذيف الأفقية. ربطت سترة النجاة التي كانت موصولة بمجذاف مستراح الرجل بقاعدة الصاري. وهذه ستلعب دوراً مزدوجاً: فهي ستؤمن قابلية إضافية على الطوفان لكي يحتمل الوزن العامودي للصاري، وستشكّل مقعداً أعلى بقليل لي.

فردت ملاءة على الخطوط، لكنها انزلقت. زاوية الخطوط كانت حادة جداً. طويت حافة الملاءة مرة، وأحدثت فيها ثقبين، وربطت الثقبين بخيط صنعته من أحد الحبال بالصاري. فردت الملاءة ثانية فصارت ظلة.

استغرق تعزيز الطوف معظم النهار. كان هناك الكثير من التفاصيل التي تتطلب عناية. وساهمت الحركة الدائمة للبحر، وإن كانت لطيفة، في إبطاء وتيرة العمل، وكان عليّ التنبه باستمرار لريتشارد باركر. لم تكن النتيجة سفينة شراعية. فما أسميته بالصاري يمتد بالكاد إنشات قليلة فوق رأسي. أما بالنسبة إلى «سطح المركب» فكان «كبيراً» بما

يكفي للقعود قرفصة. لكنني لم أتذمر. أصبح الطوف جديراً بالصمود أكثر في البحر، ويمكن أن ينقذني من ريتشارد باركر.

في الوقت الذي أنهيت فيه عملي، كان العصر شارف على الانتهاء. أخذت صفيحة ماء، فتاحة علب، أربع بسكويتات من حصص الغذاء وأربع ملاءات، وأقفلت الخزانة (بهدوء شديد هذه المرة)، ثم عدت إلى الطوف وأرخيت الحبل. ابتعد القارب. انشد الحبل الرئيسي، أما حبل الأمان، الذي جعلته متعمداً أطول، فبقي مرخياً. لففت الحبلين الآخرين حول كتفي وأسندت ظهري إلى الصاري، مستمتعاً بالارتفاع البسيط الذي كسبته من الجلوس على سترة النجاة الإضافية. كنت مرتفعاً عن المياه بقدر ما يمكن أن يرتفع شخص عن الأرض بجلوسه على وسادة سميكة، ومع ذلك أملت بألا أبتلّ كثيراً.

استمتعت بتناول وجبة الطعام وأنا أراقب الشمس تغيب في سماء صافية. لحظة من الاسترخاء، اتشحت السماء خلالها بلون خفيف مدهش، زادت من تألقه النجوم المتلألئة في الأزرق الغامق. هبت نسمات خفيفة دافئة، وأخذ البحر يموج بلطف، والمياه تتأرجح بسلاسة كأناس يرقصون في دائرة، ثم يجتمعون معاً، رافعين الأيدي، قبل أن يتفرقوا ويعاودوا الانضمام تكراراً.

أقعى ريتشارد باركر. فقط رأسه وجزء من كتفيه بانا من حافة المركب وهو ينظر في اتجاه البحر. «مرحباً، ريتشارد باركر!»، ولوحت له. فالتفت نحوي. شخر أو سعل، أي من الكلمتين غير دقيق. كانت «الزنخرة» ثانية. يا له من كائن مدهش. يا للسحنة النبيلة. كم تناسب نمراً ملكياً بنغالياً. عددت نفسي محظوظاً بشكل

من الأشكال. ماذا لو انتهى بي الأمر مع حيوان دميم الهيئة، كخنزير أميركي، أو نعامة، أو قطيع من الديكة الرومية؟ كانت ستكون صحبة متعبة بما لا يقاس.

سمعت طرطشة مياه. نظرت إلى المياه متلهفاً. كنت أحسبني وحيداً. السكون في الهواء، ألق الضوء، والإحساس النسبي بالأمان، كل هذا جعلني أحسب ذلك. في كل سلام هناك قدر من الصمت والعزلة، أليس كذلك؟ من الصعب أن تتخيل أن تكون في سلام في محطة أنفاق مزدحمة، أليس كذلك؟ إذاً، ما كانت هذه الجلبة الآتية من البحر؟

بنظرة واحدة اكتشفت أن البحر مدينة. تحتي تماماً، ومن حولي، ومن دون أن يخطر ذلك على بالي البتة، هناك شوارع ومستديرات وبولفارات وأوتوسترادات، تحتشد بالزحام البحري. في مياه كثيفة، وزجاجية، تلتمع فيها ملايين العوالق الحشيشية، هناك أسماك شبيهة بالشاحنات والحافلات والسيارات والدراجات الهوائية والمشاة، وتتسابق بسرعة جنونية، مطلقة العنان لأبواقها وصارخة في بعضها البعض. الأخضر هو اللون الطاغي. وعلى أعماق مختلفة من المياه، وبقدر ما يبلغ النظر، تبرز باستمرار فقاعات فوسفورية سرعان ما تختفي، تحدثها حركة الأسماك المسرعة. فما إن يختفي خيط فوسفوري حتى يظهر آخر، خطوط تأتي من كل الاتجاهات وتمضي في كل الاتجاهات. كانت مثل الصور الفوتوغرافية للمدن ليلاً، حيث ترى الخط الأحمر المتوهج المتصل لأضواء السيارات. سوى أنه هنا تمضي السيارات فوق وتحت بعضها كما لو أنها على تقاطعات مكدسة عشر طبقات فوق بعضها. وهنا السيارات لها ألوان لا تخطر على بال

ـ مثل أسماك الربّاك التي كان هناك ما لا يقل عن الخمسين منها تحت الطوف ـ تلتمع ألوانها الذهبية والزرقاء والخضراء. أسماك أخرى لم يمكنني التعرف على جنسها كانت صفراء وبنية وفضية وزرقاء وحمراء وزهرية وخضراء وبيضاء، ولها مختلف الأشكال: صلبة، ومبقعة، ومخططة. وحدها أسماك القرش تأبى بعناد أن تصطبغ بأي لون. لكن أياً يكن لون الآلية أو حجمها، فإنها تشترك بصفة ثابتة: السرعة الجنونية. رأيت اصطدامات عدة، كلها تشير إلى حوادث قاتلة على ما أخشى، وعدد من المركبات تجدها تحوم خارج السيطرة قبل أن تصطدم بالحواجز، صاعدة فوق سطح المياه ثم مطرطشة في نزولها في شلالات متلألئة. رحت أحدق في هذا الهرج والمرج المديني كشخص يشاهد المدينة من منطاد. كان عرضاً عجيباً وموحياً. لا بدّ من أن مشهد طوكيو يكون هكذا في ساعات الازدحام.

ثم انطفأت أضواء المدينة.

من على متن «التسمتسوم» كل ما رأيته كان الدلافين. افترضت أن المحيط الهادئ، باستثناء قطعان الأسماك العابرة، كان رقعة مائية مترامية الأطراف ومتناثرة. علمت منذ ذلك الوقت أن سفينة الشحن تبحر بسرعة كبيرة جداً بالنسبة إلى الأسماك. فأنت يمكن أن ترى الحياة البحرية من على متن سفينة كما يمكن أن ترى الحياة البرية في غابة من خلال سيارة تعبر الأوتوستراد بمحاذاة الغابة. الدلافين، وهي سباحة سريعة، تحوم حول القوارب والسفن تماماً كما تطارد الكلاب السيارات: تعدو وراءها حتى لا يعود بإمكانها اللحاق بها. إذا ما أردت رؤية الحياة البرية جيداً، فعليك أن تفعل ذلك سيراً على الأقدام، وبتمهل. الأمر سيان بالنسبة إلى البحر. ينبغي أن تعبر البحر

بسرعة المشي، على سبيل المجاز، لترى الثروات والأشياء الوفيرة التي فيه.

تمددت على جانبي. للمرة الأولى منذ خمسة أيام شعرت بقدر من الهدوء. في داخلي كان وميض أمل، استحقيته بعرق جبيني. غفوت.

الفصل ٦٠

أفقت مرة خلال الليل. أزحت الظلة ونظرت. القمر شعاع ناصع والسماء في غاية الصفاء. النجوم تتلألأ بقوة تجعل من العبث اعتبار الليلة مظلمة. البحر يمتد هادئاً، يستحم في ضوء خفيف حيي، مسرحية راقصة من اللونين الأسود والفضي تمتد بلا حدود من حولي. كان حجم الأشياء مذهلاً، حجم االهواء فوقي، وحجم المياه حولي وتحتي. تنازعني إحساس بالخوف والإثارة، شعرت أنني الحكيم «مركنديا» الذي سقط من فم «فيشنو» بينما كان الأخير نائماً، وبالتالي شاهد الكون كله، وكل ما هو كائن. قبل أن يموت الحكيم من هول ما رأى، استيقظ «فيشنو» وأعاده إلى فمه. للمرة الأولى لاحظت ـ كما سألاحظ تكراراً خلال محنتي، وبين عذاب وآخر ـ أن عذابي يحدث على مساحة هائلة. رأيت عذابي على حقيقته، محدوداً وتافهاً، وشعرت بالاستسلام. (كان عند طلوع النهار أن صرخت محتجاً: «لا! لا! لا! عذابي يهم حقاً. أريد أن أعيش! لا أستطيع منع نفسي من الخلط بين حياتي وحياة الكون. الحياة ثقب صغير، مدخل صغير جداً إلى الكون الأوسع، كيف يمكنني أن أتجنب النظر في هذا الملمح العابر للأشياء؟

هذا الثقب الصغير هو كل ما لدي!»). تمتمت بضع أدعية إسلامية وعدت إلى النوم.

الفصل ٦١

في الصباح التالي لم أكن مبللاً كثيراً وبدأت أشعر ببعض القوة تدبّ في أوصالي، على الرغم من الإجهاد الذي كنت أنوء تحته، والكمية القليلة من الطعام التي تناولتها خلال الأيام الفائتة.

كان الطقس صافياً، فقررت أن أجرب حظي في الصيد للمرة الأولى في حياتي. بعد أن أفطرت ثلاث بسكويتات وصفيحة مياه واحدة، قرأت ما يقوله دليل النجاة عن الموضوع، وواجهت أولى المشكلات: الطعم. فكرت فيها. هناك الحيوانات النافقة، لكن سرقة الطعام من تحت أنف نمر لم تكن بالفكرة السديدة، فهو لن يرى أن ما أفعله استثمار سيعود عليه بالنفع الكثير. قررت أن أستعمل الفردة الباقية من حذائي الجلدي، وكانت الأخرى سقطت من قدمي أثناء غرق السفينة.

زحفت إلى القارب وأحضرت من الخزانة إحدى صنارات الصيد، والخنجر ودلواً لوضع الصيد فيه. كان ريتشارد باركر ممدداً على جنبه. وتحرك ذيله حين جلست على الجؤجؤ، لكنه لم يرفع رأسه. أرخيت الطوف.

ربطت صنارة بطوافة ربطتها بخيط ثم أضفت بعض الأوزان، اخترت ثلاثة منها على شكل توربيدو. شرّحت حذائي إلى بضعة أجزاء، وهذا لم يكن بالعمل السهل نظراً إلى قساوة الجلد. علّقت بالصنارة رقعة جلد صغيرة ثم أنزلتها في المياه. الليلة الفائتة كانت الأسماك وافرة فتوقعت نجاحاً سهلاً.

لم أصطد ولا سمكة. الحذاء كله اختفى رقعة فرقعة، من دون أن

تعلق أي سمكة في الصنارة العارية، حتى لم يبق أمامي سوى النعل ولسان الحذاء، ومع إدراكي أن الشريط لن يشكل دودة مقنعة، استعملت اللسان، كله. ولم تكن بالفكرة السديدة. أحسست بجذبة خفيفة واعدة ثم عاد الخيط خفيفاً. كل ما سحبته كان الخيط. الآن، خسرت الطعم كله، ومعه الصنارة.

لم تصدمني هذه الخسارة. كان في العلبة صنارات أخرى، وخيوط وأوزان، إضافة إلى عدة صيد أخرى. ولم أكن أصطاد لنفسي حتى. فلدي الكثير من الطعام المخزن.

ومع ذلك، راح جزء من عقلي، ذلك الجزء الذي يقول ما لا نحب سماعه، يوبّخني بشدة: «الغباء له ثمن، عليك أن تكون أكثر حرصاً وحكمة في المرة التالية».

في وقت لاحق من ذلك الصباح ظهرت سلحفاة. صعدت مباشرة إلى الطوف. اقتربت مني إلى حدّ تستطيع لو أرادت أن تعض مؤخرتي، فشجعني ذلك على محاولة الإمساك بها، فانتظرت إلى أن استدارت وحاولت إمساكها من يديها الأماميتين، لكن ما إن لمستها حتى أجفلت بطريقة جعلتني أجفل بدوري، ثم عادت إلى المياه وسبحت مبتعدة.

الجزء نفسه من عقلي الذي وبخني على إخفاقي التام في الصيد وبخني ثانية: «ماذا تنوي أن تطعم النمر؟ لكم من الوقت برأيك سيظل يتغذى على ثلاثة حيوانات نافقة؟ هل عليّ أن أذكرك بأن النمور ليست من أكلة الجيف؟ بالتأكيد حين يضطر، فلن يأنف من أكل الجيف، لكن ألا تظن أنه قبل أن يحاول أكل حمار وحشي متعفن سيحاول أكل الفتى الهندي الطازج والشهي والمليء بالعصائر؟ وماذا عن المياه؟ أنت

تعرف جيداً أن النمور لا تطيق العطش. هل اشتممت تنفسه مؤخراً؟ إنه رهيب، وهذه إشارة سيئة. ربما كنت تأمل بأنه سيلعق مياه المحيط الهادئ فيجففها متيحاً لك الذهاب سيراً على الأقدام إلى أميركا؟ رائع حقاً. تلك القدرة المحدودة التي لدى النمور الساندربانية على طرح الملح. يأتي هذا من العيش في غابة بحرية على ما أظن. لكنها قدرة محدودة. ألا يقال إن شرب الكثير من المياه المالحة يجعل النمر آكلاً للحوم البشر؟ أوه، أنظر، «جئنا على سيرة القط»، ها هو ذا. إنه يتثاءب. يا للمغارة الهائلة. ربما تحظى اليوم بفرصة لزيارتها».

لسان ريتشارد باركر الذي بحجم ولون عبوة مياه مطاطية حارة، عاد إلى فمه الذي انغلق. بلع ريقه.

بقيت طوال اليوم أفزع نفسي بشدة. ولم أقترب من القارب. وعلى الرغم من تنبؤاتي المتشائمة فقد أمضى ريتشارد باركر الوقت هادئاً بما فيه الكفاية. لا يزال لديه مياه من رواسب المطر ولا يبدو جائعاً. لكنه أصدر أصواتاً مختلفة، هريراً ودمدمة وما شابههما من أصوات زادت من توتري. بقيت الأحجية بلا حلّ: لكي أصطاد أحتاج إلى طعم، ولكي أحصل على طعم عليّ أن أصطاد. ما الذي يمكنني فعله؟ أأستعمل أحد أصابع رجلي؟ أأقطع إحدى أذني؟

جاء الحل قبيل الغروب بقليل، بطريقة لم تكن لتخطر لي على بال. كنت قد صعدت إلى القارب، ورحت أبحث في الخزانة عن غرض ما، عن فكرة ما تساعدني على الصيد. كنت أبقيت الطوف على بعد ستة أقدام من القارب، متخيلاً أنني بقفزة وشدة للحبل يمكنني أن أنقذ حياتي من ريتشارد باركر. دفعني اليأس للقيام بمخاطرة كهذه.

لم أعثر على شيء، لا طعماً ولا فكرة جديدة، فجلست، لأكتشف أن ريتشارد باركر يحملق بي مباشرة. كان عند الجانب الآخر من القارب، حيث حمار الوحش، لكنه استدار إلى ناحيتي وأقعى كما لو أنه كان ينتظر بفارغ الصبر أن ألاحظه. كيف حدث أنني لم أسمعه يتحرك؟ أي وهم جعلني أحس أنني يمكن أن أفوقه ذكاء؟ فجأة تعرضت لضربة قوية على وجهي، جعلتني أصرخ وأغمض عيني. بسرعة غادرة قفز وضربني بكفه. كان وجهي سيقتلع بمخالبه، بهذه الطريقة الرهيبة سأموت. كان الألم شديداً إلى حدّ أنني لم أشعر بشيء. مباركة هي الصدمة. مبارك هذا الجزء فينا الذي يحمينا من التعرض للكثير من الألم والأسف. ثمة في قلب الحياة صندوق من الحيل. صرخت: «هيا يا ريتشارد باكر، فلتجهز علي، لكن أرجوك أياً كان ما عليك فعله، فلتفعله بسرعة».

كان يأخذ وقته. كان عند رجلي، يصدر أصواتاً. لا ريب في أنه اكتشف الخزانة ومحتوياتها. بعد ثوان فتحت عيني مذعوراً.

كانت سمكة. كان ثمة سمكة في الخزانة. كانت ترفرف كأي سمكة خرجت لتوها من الماء. كانت بطول ١٥ إنشاً ولها جناحان. سمكة طائرة. هزيلة ورمادية قاتمة، بجناحين جافين بلا ريش وعينين صفراوين مدورتين. كانت هذه السمكة الطائرة هي التي صفعتني على وجهي، لا ريتشارد باركر، الذي كان لا يزال على بعد ١٥ قدماً مني، متسائلاً بلا شك عما أفعله على متن القارب. لكنه رأى السمكة، وبدا الاهتمام جلياً على وجهه. بدا مستعداً للتحقق من الأمر.

انحنيت، التقطت السمكة ورميتها باتجاهه. هذه هي الطريقة لترويضه! حيث اختفى الجرذ ستختفي السمكة. لسوء الحظ السمكة

الطائرة طارت في الجو، فوق فم ريتشارد باركر المفتوح، ثم حطت في المياه. حدث ذلك بسرعة الضوء. أدار ريتشارد باركر رأسه وأطبق فمه، لكن السمكة كانت أسرع منه. بدا مذهولاً ومستاء. التفت إليّ مجدداً وكأنه يسألني «أين طعامي؟». تملكني الحزن والخوف. استدرت بقلب مرتجف آملاً أن أتمكن من القفز إلى الطوف قبل أن ينقض علي.

في اللحظة نفسها سمعت ذبذبة في الهواء، وارتطم بنا قطيع من السمك الطائر. كان شبيهاً بالجراد، ليس بسبب أعداده فقط؛ بل بسبب صفق أجنحته. دفعة واحدة انبثقت الأسماك من المياه بالعشرات، بعضها يرفرف في الهواء على ارتفاع مئات الياردات، والكثير منها يعاود الغطس في المياه على مقربة من القارب، وبعضها الآخر يقفز فوق القارب، ليرتطم مفرقعاً بداخله. كان العديد من الأسماك المحظوظة يرتد إلى المياه بعد أن يرتطم بالمشمّع، أما سيئة الحظ منها فتسقط مباشرة في القارب، حيث تروح تطرطق وتتلوى وترفرف، وبعضها يرتطم مباشرة بي وبريتشارد باركر. شعرت في تلك اللحظات أنني القديس سيباستيان، حيث ارتطام الأسماك بي أشبه بسهام تنغرز في لحمي. حاولت حماية نفسي بملاءة، ساعياً في الوقت نفسه إلى التقاط بعض الأسماك. أثخن جسدي بالندوب والجروح.

سرعان ما تبيّنت سبب هذا الهجوم الشرس: كانت الأسماك الطائرة تتعرض بدورها لهجوم من أسماك الدورادو، التي تفوقها حجماً، فلا تجد إلا القفز من المياه وسيلة للهرب. الدورادو لا يمكنها اللحاق بالأسماك الطائرة إلى الهواء لكنها سريعة جداً، ويمكنها

الإمساك بها قبل أن تحلق إذا كانت قريبة جداً منها. كان هناك أسماك قرش أيضاً هي أيضاً قفزت من المياه، مما كان له عواقب فتاكة بالنسبة إلى بعض الدورادو. هذه الفوضى المائية لم تدم طويلاً، لكن فيما كانت قائمة، كان البحر يغلي ويزبد، أسماك تقفز وفكوك تعمل بسرعة.

كان ريتشارد باركر أقوى مني في وجه هذه الأسماك، وأكثر فاعلية بكثير. راح يقفز ويسد طريق الأسماك مزدرداً ما أمكنه منها، فالتهم الكثير. كان عرضاً مدهشاً للسرعة والقوة. في الواقع لم تكن سرعة النمر هي المثيرة بقدر ما هي ثقته المطلقة، وانغماسه الكامل في اللحظة الراهنة، في خليط من التركيز والرشاقة، والحيلولة في الحاضر، التي من شأنها أن تثير حسد أفضل ممارسي اليوغا.

حين انتهى الأمر، كانت النتيجة، إلى جانب آلامي الجسدية، ست أسماك طائرة في الخزانة وعدد أكبر بكثير منها على أرض القارب. لففت بسرعة سمكة في الملاءة، جلبت فأساً وعدت إلى الطوف.

رحت أعمل بكثير من التروي، فخسارتي للصنارة ذلك الصباح لا تزال ماثلة في ذهني، ولم يكن ممكناً أن أسمح لنفسي بارتكاب غلطة أخرى. بحذر أخذت أخرج السمكة من الملاءة، ضاغطاً عليها، لكي أمنعها من القفز. وكلما اقتربت السمكة من الظهور، ازددت رهبة وقرفاً. ظهر رأسها. بالطريقة التي كنت أمسكها بها بدت آيس كريم بالسمك يمد رأسه من الكوز. فمها ينفتح وينغلق طلباً للمياه. أحسست بها وهي تصفق بأجنحتها على يدي. وضعت الدلو بالمقلوب وجعلت رأس السمكة عليه. رفعت الفأس عالياً.

مرات عدة هويت بالفأس لكن من دون أن أتمكن من إتمام الأمر.

قد تبدو عاطفة حساسة كهذه سخيفة نظراً إلى ما عشته خلال الأيام الأخيرة، لكن ما كنت بصدد القيام به ينتمي إلى منطق الحيوانات المفترسة، لا لي. أفترض أنني أتحمل مسؤولية جزئية عن موت الجرذ، لكن كل ما فعلته أنني رميته؛ كان ريتشارد باركر الذي قتله. حياة كاملة من النباتية المسالمة حالت بيني وبين أن أهوي بالفأس على رأس السمكة.

غطيت الرأس بالملاءة وأدرت الفأس إلى الجهة الأخرى، ولوحت مجدداً في الهواء. فكرة ضرب كائن حي ناعم بمطرقة كانت ببساطة تفوق احتمالي.

سأكسر عنقها، قررت. لففتها بإحكام في الملاءة. وبيدي الإثنتين بدأت ألويها. كلما ضغطت أكثر كافحت السمكة أكثر. تخيلت ما الذي يمكن أن أحس به لو كنت ملفوفاً بملاءة وأحدهم يحاول كسر عنقي. انتابني الذعر وتخليت عن الأمر مرات عدة. ومع ذلك كنت أعرف أنه ينبغي إتمام هذا العمل، وأنه كلما أطلت أكثر طال عذاب السمكة.

بينما الدموع تنهمر على خدي، أجبرت نفسي على إكمال ما بدأت به، حتى سمعت صوت فرقعة ولم أعد أشعر بمقاومة السمكة. فتحت ثنية الملاءة، ووجدتها ميتة. كانت مشقوقة إلى النصف والدم يسيل من جانب فمها.

بكيت من كل قلبي على هذه الروح المسكينة التي أزهقت. إنها أول كائن حي أقتله. أصبحت قاتلاً. كنت أشعر بالذنب كقايين. كنت في السادسة عشرة فتى مسالماً، مدمناً على الكتب والدين، والآن تلطخت يدي بالدماء. إنه لحمل ثقيل. كل حياة مقدسة. لم أنس أن أضيف هذه السمكة إلى صلواتي.

بعدها صار الأمر أسهل. الآن بما أنها ميتة، لم تعد السمكة الطائرة مختلفة عن تلك التي كنت أراها في أسواق بونديتشيري. تحولت إلى شيء آخر. قطعتها بالفأس إلى أجزاء ووضعتها في الدلو. خلال الساعات الميتة من النهار حاولت الصيد ثانية. في البداية لم يواتني حظ أفضل من حظي في الصباح. لكن النجاح بدا أقرب منالاً، فأخذت الأسماك تقضم الطعم بحماسة. ولما لاحظت أنها أسماك صغيرة على الصنارة أنزلت حبلي أعمق، بحيث لا تطال الطعم تلك الأسماك الصغيرة المتمركزة حول الطوف والقارب.

كان حين استعملت رأس السمكة الطائرة كطعم، وبثقالة واحدة فقط، وحين صرت أنزل الحبل في الماء وأخرجه بسرعة، جاعلاً الرأس يحوم قليلاً على سطح الماء، أن حظيت بصيدي الأول. كانت سمكة دورادو. أرخيت الخيط قليلاً لكي أتأكد من أنها ابتلعت الطعم، قبل أن أجذبه بقوة. انبثقت الدورادو من المياه، قاضمة الخيط بقوة شديدة حتى ظننت أنها ستوقعني عن الطوف. استجمعت قواي. انشدّ الخيط كثيراً. كان خيطاً جيداً فلم ينقطع. بدأت بجذب السمكة إلى الطوف. قاومت بكل قوتها، قافزة وغاطسة ومطرطشة. جرّح الخيط يدي، فلففت كلتا يدي بالملاءة. وقلبي يدق بشدة. كانت السمكة بقوة ثور. شككت في أنني سأتمكن من رفعها.

لاحظت أن كل الأسماك الأخرى اختفت من حول الطوف والقارب. لا بد من أنها لاحظت ورطة الدورادو. عجّلت. فكفاحها يمكن أن يجذب أسماك القرش. لكنها كافحت بمرارة. بدأ ذراعاي يؤلمانني، وكلما كنت أقربها من الطوف، تروح ترتطم به بقوة تجبرني على أن أرخي الحبل قليلاً.

نجحت أخيراً في رفعها إلى الطوف. طولها يتجاوز الثلاثة أقدام. الدلو لا يكفي لاحتوائها. سيكون بمثابة قبعة لها. ثبّتها بكل قوتي. قوتها العضلية هائلة، إلى حدّ أن ذيلها كان يتحرك تحتي ضارباً بالطوف. امتطيتها مثلما يمتطي الكاوبوي ثوراً هائجاً. كنت في مزاج وحشي وانتصاري. الدورادو سمكة رائعة الشكل، ضخمة ومليئة باللحم وملساء، مع جبهة عريضة تنم عن شخصية قوية، وزعنفة ظهر طويلة جداً تنتصب كعرف ديك، ومعطف من الحراشف الناعمة واللماعة. شعرت أنني أعرض القدر لضربة قوية بالاشتباك مع خصم وسيم كهذا. عبر هذه السمكة كنت أفجر غضبي ضد البحر، وضد الريح، وضد غرق السفن، وضد كل الظروف التي كانت تعمل ضدي. «شكراً لك أيها الرب كريشنا، شكراً لك!» صرخت. «مرة أنقذت العالم باتخاذك شكل سمكة، والآن تنقذني باتخاذك شكل سمكة. شكراً لك، شكراً لك!».

قتلها لم يكن بالمشكلة. كان يمكن أن أوفر على نفسي العناء، ففي نهاية الأمر هي من نصيب ريتشارد باركر ويمكنه قتلها بسهولة أكبر، لكنني أردت استعادة الصنارة من فمها. سرني وجود دورداو في نهاية خيطي، ربما كنت أقل فرحاً لو كانت نمراً. أنجزت الأمر مباشرة. حملت الفأس وضربت بعنف السمكة رأس من جهة المطرقة (ما زلت لا أملك الجرأة على استعمال جهة النصل). حدث في تلك اللحظات أحد أغرب الأمور: بدأت السمكة تطرطش كل أنواع الألوان في تسلسل سريع: الأزرق، الأخضر، الأحمر، المذهب، والأرجواني، أخذت تلتمع كالنيون على جلدها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. شعرت أنني أضرب قوس قزح حتى الموت. (علمت لاحقاً

أن الدورادو مشهورة بتقزحها اللوني عند الموت). أخيراً خمدت بلا حراك ولا إفرازات صبغية، وتمكنت من إنتزاع الصنارة، واستقطعت طعماً لي.

قد تفاجأ بأنني في فترة قصيرة كهذه انتقلت من التفجّع على قتلي السمكة الطائرة على ذلك النحو، إلى قتل الدورادو بمثل تلك الوحشية. يمكنني أن أعلّل ذلك بالقول إنني حزنت وخجلت من نفسي لاستغلالي سمكة أخطأت في الطيران فوجدت نفسها في المكان غير المناسب، أما المقاومة التي أبدتها سمكة الدورادو فقد جعلت منها منافساً كفؤاً وجعلتني ومتعطشاً لقتلها. لكن التفسير في الواقع يكمن في مكان آخر. إنه بسيط وفظ: يمكن أن يعتاد المرء يمكن على أي شيء، بما في ذلك القتل.

بزهو صياد قرّبت الطوف من القارب، حتى استقر إلى جانبه. بقيت منخفضاً، ورميت السمكة في القارب. أحدث وقوعها دوياً نبّه ريتشارد باركر. جعل يمضغها بعد أن شمّها مرة أو مرتين. أبعدت الطوف، من دون أن أنسى أن أصفّر بقوة مرات عدة، لكي أذكر ريتشارد باركر من الذي أمّن له هذا الطعام. نزلت لأجلب بعض البسكويتات وصفيحة مياه. كانت الأسماك الطائرة الخمس في الخزانة ميتة. قطعت أجنحتها، رامياً إياها بعيداً، ولففت الأسماك الملاءة.

خلال الوقت الذي نظفت فيه نفسي من الدماء، ونظفت فيه عدة الصيد، وتناولت عشائي، كان الليل قد حل. ظللت طبقة رفيعة من الغيوم النجوم والقمر، وكانت عتمة شديدة. كنت متعباً، لكن مثاراً بأحداث الساعات الماضية. كان إحساسي بالانشغال مرضياً للغاية، على الأقل لأنه أنساني محنتي. كان الصيد بالتأكيد وسيلة أفضل

لتمضية الوقت من الألعاب المسلية. أزمعت المحاولة من جديد مع طلوع شمس يوم غد.

غرقت في النوم، وعقلي مضاء بألوان الدورادو المتلألئة.

الفصل ٦٢

نمت نوماً متقطعاً تلك الليلة. قبل الشروق بقليل تخليت عن محاولة النوم ونهضت متكئاً على معصمي. نظرت بعيني نصف المغمضة إلى القارب لأرى النمر. كان مستيقظاً، يهدر ويهرهر ويمشي في القارب. كان مشهداً مؤثراً. خمّنت الموقف. لا يعقل أن يكون جائعاً، أوعلى الأقل ليس جائعاً بشكل فادح. أكان ظمئاً؟ لسانه يتدلى من فمه، لكن ليس كثيراً، ولم يكن يلهث. أسفل معدته وكفيه لا تزال مبللة. لكنه لم يكن يقطر ماء. ربما لم يعد هناك الكثير من المياه على القارب. قريباً سيعطش.

نظرت إلى السماء. الغيوم اختفت. وباستثناء بعض اللطخات الدخانية كانت السماء صافية. سيكون يوماً آخر حراً وبلا شتاء. البحر يتحرك ببلادة، كما لو أنه منهك من شدة الحر.

اتكأت على الصاري ورحت أفكر بمشكلتنا المشتركة. البسكويتات والصيد أمنا لنا الجزء الصلب من وجباتنا. كان الجزء السائل هو المشكلة. وقفت المشكلة عند ما هو متوافر بكثرة حولنا لكنه مالح. ربما يمكنني أن أخلط مياه البحر بالمياه العذبة، لكن علي أن أدبّر المزيد من المياه العذبة لكي أبدأ بها. لن تكفينا صفائح المياه إذا ما وزعتها بيننا، في الواقع كنت كارهاً مشاركة ريتشارد باركر بواحدة منها، وكان من الغباء الاعتماد على مياه الأمطار.

المقطرات الشمسية كانت الطريقة الوحيدة الممكنة للحصول على المياه الصالحة للشرب. نظرت إليها متشككاً. إنها هناك منذ يومين. لاحظت أن انتفاخ إحداها ضمر بعض الشيء. سحبتها لكي أتفحصها. نفخت الكوز. ومن دون أي أمل فعلي مددت يدي تحت الماء ورفعت جراب المقطرة المثبتة بالحجيرة. وقعت أصابعي على جراب سمين. موجة من الإثارة سرت في جسدي. سيطرت على نفسي. فقد تكون المياه المالحة تسربت إليه. فككت الجراب ومتبعاً التعليمات، أخفضته وهززت المقطرة بحيث يمكن أن تتسلل إليه أي مياه إضافية من تحت الكوز. أغلقت السدادتين الصغيرتين اللتين تقودان إلى الجراب، فصلت هذا الأخير ثم سحبته من المياه. كان مستطيل الشكل ومصنوعاً من البلاستيك الأصفر السميك والناعم، مع علامات قياس على جانبه. تذوقت الماء. كان خالياً من الملح.

«أيتها البقرة البحرية الرائعة!»، هتفت في المقطرة الشمسية، «لقد أنتجت حليباً! ويا له من حليب لذيذ. أستمحيك العذر، إنه مطاطي بعض الشيء، لكنني لا أتذمر. أنظري إليّ وأنا أشرب!».

أنهيت الجراب. كان فيه مقدار ليتر. بعد دقيقة من التنهد بعينين مغمضتين، أعدت ربط الجراب بالمقطرة. تفحصت المقطرات الأخرى. كل واحدة منها احتوت القدر نفسه من المياه. جمعت المياه العذبة، نحو ثمانية ليترات، في الدلو. فوراً أصبحت هذه البدع التكنولوجية قيمة عندي مثلما القطيع بالنسبة إلى المزارع، وقد بدت بالفعل، وهي طافية على هذا النحو المقوس، مثل أبقار ترعى في الحقل. ملأتها بمياه البحر مجدداً وتأكدت من نفخ أن الأكواز والحجيرات بالقدر المناسب من الهواء.

بعد إضافة القليل من ماء البحر إلى محتوى الدلو وضعته على المقعد الجانبي وراء المشمّع تماماً. تلصصت بحذر فوق الحافة. كان ريتشارد باركرمستلقياً على جنبه. رأيت وكره بالكامل. الحيوانات النافقة اجتمعت معاً، كومة متحللة. لاحظت قائمة أو اثنتين، بعض الأمعاء، بعض رأس، وعدد كبير من العظام. أجنحة الأسماك الطائرة كانت منثورة أيضاً في المكان.

قطعت سمكة طائرة وحشرت قطعة منها في المقعد الجانبي. بعد أن أحضرت من الخزانة حاجتي اليومية وصرت مستعداً للعودة إلى الطوف، وضعت قطعة سمك أخرى على المشمع أمام نظر ريتشارد باركر. وكان لها التأثير المطلوب. فبينما رحت أبتعد رأيته يتقدم إلى السمك. رأسه استدار ولاحظ السمكة الأخرى والشيء الجديد الموضوع قربها. نهض بالكامل. وضع رأسه الضخم فوق الدلو. خشيت أن يوقعه. لكنه لم يفعل. حشر وجهه داخل الدلو، وأخذ يلحس المياه. خلال وقت قصير بدأ الدلو يهتز ويصرصر فارغاً. حين رفع رأسه، حدقت في عينيه بعدائية ونفخت في الصافرة بضع مرات. توارى تحت المشمّع.

خطر لي أن القارب، بمرور كل يوم، يشبه أكثر فأكثر حظيرة حديقة حيوانات: ريتشارد باركر حظي بمنطقته المظللة للنوم والراحة، طعامه، مطله، والآن المياه.

صار الحر خانقاً. أمضيت اليوم كله تحت الظلة، متصيداً. يبدو أنني حظيت بحظ المبتدئين بتلك الدورادو، إذ لم أصطد شيئاً طوال النهار، ولا حتى عند الغروب، حيث الحياة البحرية تكون غزيرة. ظهرت سلحفاة، نوع مختلف عن تلك السابقة، سلحفاة بحرية

خضراء، ضخمة وملساء، لكن مثيرة للاهتمام كأي سلحفاة بحرية أخرى. لم أفعل شيئاً حيالها، لكنني بدأت أفكر بأنه يجدر بي فعل شيء.

الشيء الوحيد الجيد في كون اليوم حاراً جداً هو مشهد مقطرات الماء. كل كوز كان مغطى من الداخل بالبخار.

انقضى اليوم. حسبت أنه صباح اليوم التالي يكون قد مضى أسبوع منذ غرق «التسمتسوم».

الفصل ٦٣

بقيت عائلة روبرتسون على قيد الحياة في البحر ٣٨ يوماً. الكابتن بلاي من سفينة «ميوتيناس باونتي» الشهيرة صمد وزملاؤه ٤٧ يوماً. ستيفن غالاهان صمد ٧٦ يوماً. أوين تشايز، التي ألهمت قصته عن غرق سفينة «إيسيكس» لصيد الحيتان الكاتب هرمان ملفيل، صمد ٨٣ يوماً مع رفيقين آخرين، وقد بقي هذه المدة كلها في البحر باستثناء يومين أمضاهما على جزيرة غير مضيافة. عائلة بايلي صمدت ١١٨ يوماً. وقد سمعت عن ملاح كوري يدعى بون صمد في المحيط الهادئ ١٧٣ يوماً، وذلك في الخمسينات من القرن الماضي.

أنا صمدت ٢٢٧ يوماً. أكثر من سبعة أشهر.

أبقيت نفسي منشغلاً. هناك سر واحد لنجاتي: الانشغال. فسواء كنت على متن قارب أم طوف، فهناك دائماً ما تحتاج إلى فعله. يوم اعتيادي بالنسبة إلي، إذا كان يمكن قول ذلك عن تائه في البحر، كان يمضي على هذا النحو:

منذ الفجر وحتى منتصف الصباح:

الاستيقاظ

الصلاة

تقديم الفطور لريتشارد باركر

فحص الطوف والقارب بصورة عامة، مع إيلاء عناية خاصة للعقد والحبال والمقطّرات (نفخها، مسحها، ملأها بالمياه)

تناول الإفطار وتفحص مؤن الطعام

صيد السمك وتحضيره في حال صيده (انتزاع الأحشاء، تنظيفها، تعليق شرائح اللحم على الحبال لكي تجف)

منتصف الصباح حتى الظهر:

الصلاة

غذاء خفيف

الراحة والنشاطات المريحة (كتابة اليوميات، فحص الجراح والمرارات، فحص المعدات، العبث في محتويات الخزنة، مراقبة ريتشارد باركر ودراسته، إزالة عظام السلحفاة، إلخ)

نهاية بعد الظهر حتى بداية الغروب:

الصلاة

الصيد وتحضير الأسماك

الاعتناء بشرائح السمك الجافة (تقليبها، إزالة الأجزاء الفاسدة منها)

التحضير للعشاء

تقديم العشاء لي ولريتشارد باركر

الغروب

فحص عام للطوف والقارب (العقد والحبال مجدداً)

جمع وحفظ المياه من المقطرات الشمسية

تخزين كل الأطعمة وتحضير الأدوات للنوم (تحضير السرير، حفظ ضوء الإشارة في مكان جيد على الطوف، في حال ظهور سفينة، وتحضير لاقطة المطر في حال كان مطر)

الصلاة

ليلاً:

النوم

الصلاة

كانت الصباحات أفضل عادة من فترات بعد الظهر، حين فراغ الوقت يصير محسوساً.

أياً تكن الأحداث التي تطرأ تؤثر على هذا الروتين. هطول المطر، نهاراً أم ليلاً، يوقف كل الأشغال الأخرى، إذ مهما طال هطوله أكون حاملاً لاقطات المطر ومشغولاً في تخزين المياه. زيارة سلحفاة تشكّل أيضاً مقاطعة غير متوقعة للروتين. وريتشارد باركر بالطبع كان مصدر اضطراب دائم. ذلك أن الاعتناء به كان أولوية لا يمكنني الإغفال عنها للحظة. عدا عن الأكل والشرب والنوم، لم يكن لديه أي روتين، لكن في بعض الأوقات كان يخرج من وكره ويروح يتحرك ضمن حدود منطقته، مصدراً أصواتاً صاخبة. ومما يدعو إلى الإمتنان أنه كل مرة يفعل فيها ذلك فإن الشمس والبحر سرعان ما يتعبانه فيعود إلى تحت المشمّع، وإلى التمدد على جنبه من جديد، أو الانبطاح على معدته، ورأسه فوق قائمتيه الأماميتين المتشابكتين.

لكن هناك ما يتجاوز الضرورة الصرفة في علاقتي به. فقد أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أراقبه وهذا كان يلهيني. النمر حيوان مدهش باستمرار، لكنه يصبح أكثر إدهاشاً حين يكون رفيقك الوحيد.

في البداية كان انتظار سفينة من أهم مشاغلي. لكن بعد بضعة أسابيع، خمسة أو ستة، توقفت عن ذلك كلياً تقريباً.

وقد نجوت لأنني أعليت من شأن الغفلة. قصتي بدأت في ٢ تموز ١٩٧٧ وانتهت في الرابع عشر من شباط ١٩٧٨، لكن بينهما لم يكن هناك روزنامة. لم أعد الأيام أو الأسابيع أو الأشهر. الوقت وهم يجعلنا نصاب بالذعر فحسب. نسيت حتى مفهوم الزمن.

ما أذكره هو الأحداث الروتينية واللقاءات، علامات تنبعث هنا وهناك من محيط الزمن وتنطبع في ذاكرتي. رائحة صواريخ الإشارة التي لم تعد صالحة، والصلوات عند الفجر، وقتل السلاحف، والتكوين البيولوجي للطحالب، على سبيل المثال. والكثير غيرها. لكنني لا أعرف إذا كنت قادراً على ذكرها بانتظام. ذكرياتي تأتي مبعثرة.

الفصل ٦٤

تحللت ثيابي تحلّلت بفعل الشمس والملح. أولاً بدأت تتهلهل، ثم أخذت تتمزق حتى لم يبق منها شيء. لأشهر عشت عارياً إلا من الصافرة التي تتدلى من رقبتي بخيط.

بسبب انتقاعي طوال الوقت بالمياه بدأت تظهر على جلدي البثور. وكان حكّها بالصدفة مؤلماً إلى حدّ يجعلني أصرخ. بطبيعة الحال هذه البثور ظهرت في الأجزاء الأكثر تعرضاً للمياه من جسمي، وخصوصاً

على ظهري. وقد مرت أيام كنت أجد فيها صعوبة في الجلوس. الوقت والشمس كانا يشفيا الجروح، لكن ببطء، وكانت تظهر بثور جديدة حين لا أبقى جافاً.

الفصل ٦٥

أمضيت ساعات محاولاً فهم ما ذكر في الدليل حول الإبحار. كان ثمة الكثير من الشروحات الواضحة والبسيطة حول العيش في البحر، لكن يبدو أن مؤلف الدليل افترض معرفة أساسية بالإبحار. فالضائع في البحر بالنسبة إليه بحار مجرب يمكنه بوجود بوصلة وخريطة وآلة سدس، أن يدرك طبيعة مشكلته، وكيفية الخروج منها. والنتيجة نصائح من قبيل: «تذكر، الوقت هو المسافة. لا تنس أن تعبّئ ساعتك»، أو «خط العرض يمكن قياسه بالأصابع إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك». كان لدي ساعة لكنها مستقرة الآن في قاع المحيط الهادئ. فقدتها حين غرقت التسمتسوم. أما بالنسبة إلى خطي العرض والطول، فإن معرفتي البحرية كانت تنحصر بما يعيش في مياه البحار، لا بما يبحر على سطحه. الرياح والتيارات المائية كانت ألغازاً بالنسبة إلي. النجوم لم تعن لي شيئاً، لم يكن بمقدوري تسمية كوكبة واحدة. عائلتي عاشت على كوكب واحد فقط: الشمس. كنا ننام باكراً وننهض باكراً. نظرت في حياتي إلى عدد من الليالي المنجمة، حيث بلونين فقط وبأبسط الخطوط ترسم الطبيعة أعظم الصور، وكانت تنتابني أحاسيس العجب والصغر التي نشعر بها جميعاً، وأصبح لدي حس واضح بالاتجاه من المشهد، بالتأكيد، لكنني أعني ذلك بالمعنى الروحي، لا الجغرافي. لم تكن لدي أدنى فكرة كيف يمكن

استعمال سماء ليلية كخارطة طريق، ولم أعرف كيف يمكن أن تساعدني النجوم على العثور على طريقي إذا ما ظلّت تتحرك؟

كففت عن محاولة الاستنباط. أي معرفة قد أكتسبها لن ترجع عليّ بالفائدة. لم يكن لدي الوسائل اللازمة للسيطرة على اتجاهي، لا المحرك ولا الأشرعة ولا الدفة، فقط بعض المجاذيف التي لا تفيد بشيء مع عضلاتي الواهنة. فما جدوى رُسم طريق ما لم أكن قادراً على أن أسلكه؟ وحتى لو استطعت، فكيف أعرف أي اتجاه أسلك؟ غرباً، عودة من حيث جئت؟ شرقاً، إلى أميركا؟ شمالاً إلى آسيا؟ جنوباً إلى حيث الطرق البحرية؟ كل منها بدا خياراً جيداً وسيئاً بالقدر نفسه.

لذا تركت البحر يجرفني. الرياح والتيارات قررت اتجاهي. الوقت صار مسافة بالنسبة إلي على نحو ما هو لكل الفانين ـ سافرت عبر طريق الحياة ـ واستعملت أصابعي للقيام بأشياء أخرى عدا عن قياس خط العرض. اكتشفت لاحقاً أنني سافرت عبر طريق ضيقة، الخط الاستوائي الباسيفيكي يمضي بعكس التيار.

الفصل ٦٦

استعملت للصيد عدداً من الصنارات والثقالات التي تناسب أنواعاً مختلفة من الأسماك، من الكبرى التي تنفع للأعماق، إلى الصغيرة للصيد على سطح الماء. كانت نجاحاتي بطيئة، ولم يكن الجهد الذي أبذله يتناسب مع الغنيمة. الساعات طويلة، والأسماك صغيرة، وريتشارد باركر جائع أبداً.

ثبت أخيراً أن «الرمح» هو أداة الصيد الأهم. يتكون الرمح من

ثلاثة أجزاء: جزءآن أنبوبيان يشكلان جذعه ـ أحدهما له مسكة بلاستيكية مقولبة في نهايتها خاتم يربط الرمح بحبل ـ والجزء الثالث هو الرأس الذي يتكوّن من خطاف بطول إنشين، وإبرة حادة وطويلة وشائكة. حين تجمع أجزاؤه يصير طول الرمح خمسة أقدام، ومع ذلك يظل خفيفاً وثابتاً كسيف.

استعملته في البداية في المياه المفتوحة. كنت أنزله إلى عمق أربعة أقدام أو نحوها، واضعاً على طرفه أحياناً سمكة كطعم، وأروح أنتظر. انتظر لساعات، حتى يتخدّر جسمي ألماً. حين تصبح السمكة في الموضع المناسب، أجذب الرمح إلى أعلى بقوة وسرعة، وهو قرار ينبغي اتخاذه في جزء من الثانية. علمتني التجربة أن أضرب ضربتي حين تكون فرصتي في النجاح مؤاتية حقاً، لا أن أضرب عشوائياً، ذلك أن الأسماك تتعلم أيضاً من التجربة، ونادراً ما تقع مرتين في الشرك نفسه.

حين أكون محظوظاً، تعلق سمكة في الخطاف بطريقة تمكنني من رفعها إلى الطوف. لكن إذا ما أمسكت بسمكة كبيرة من بطنها أو من ذيلها، فغالباً ما تفرّ بحركة بسيطة. لذا، مع الأسماك الكبيرة كنت أصوب على منطقة البطن تحت الخياشيم والذيل الحوضي، لأن ردة فعل السمكة الغريزية حين تعلق هو أن تسبح إلى أعلى، في الاتجاه نفسه الذي أجذب فيه، محاولة الافلات من الخطاف. بالتالي قد يحدث أحياناً أن تكون السمكة بالكاد عالقة فتنطلق من المياه في وجهي. تعودت على ملمس الكائنات البحرية، وما عدت أشمئز منها. لم يعد هناك حاجة إلى استعمال الملاءة. السمكة التي تقفز من المياه تجد في مواجهتها فتى جائعاً بيدين صلبتين تواقتين للقبض عليها. وإذا

ما شعرت أن السمكة غير عالقة بشكل جيد أترك الخطاف، ذلك أنني ربطته بحبل إلى الطوف، وأمسك السمكة بيدي. أصابعي رغم الجروح فيها، كانت أكثر نباهة بكثير من الخطاف. مجاهدة السمكة عندها تكون سريعة وعنيفة. تلك الأسماك تكون زلقة ويائسة، وأنا مثلها يائس. فقط لو كان لي أذرع عدة مثل الآلهة دورغا ـ اثنتان للإمساك بالرمح، وأربعة للإمساك بالسمكة، واثنتان لاستعمال الفأسين. لكن كان علي تدبير أمري بذراعين فقط. أغرز أصابعي في عيني السمكة، أسدّ زعانفها، أطحن معدتها الطرية بركبتي، أعض على ذيلها بأسناني، أفعل كل ما هو ضروري للإمساك بها وتثبيتها حتى أصل إلى الفأس وأقطع رأسها.

مع الوقت والخبرة، صرت أمهر في الصيد، وأجرأ وأرشق. طورت غريزة القيام بالخطوات الضرورية.

زادت نجاحاتي بشكل ملحوظ حين بدأت باستعمال الشبكة. كشبكة صيد لم تكن ذات جدوى، فهي قاسية جداً وثقيلة، ومرتخية الخيوط. لكنها كانت ممتازة كشرك. وبرهنت أنها جذابة جداً للأسماك، خصوصاً حين بدأت الطحالب تنبت عليها، حيث جعلت منها الأسماك ضيقة النطاق حيها، أما السريعة منها، مثل الدورادو، فكانت أبطأ في زيارة هذه المنطقة الجديدة. لكن لا الأسماك المقيمة ولا تلك المرتحلة شكت مرة في أن ثمة خطافاً مخبئاً في الشبكة. كان ثمة أيام، قليلة للأسف، تمكنت فيها من الحصول على كل الأسماك التي أردت صيدها بالرمح. كنت في أوقات كهذه أتصيد أقل من حاجاتي أو قدراتي، لأنه لم يكن من متسع على القارب، أو على حبال الطوف، لتجفيف هذا العدد الهائل من الدورادو، والأسماك

الطائرة، وأسماك سليمان، وأسماك الأخفس والإسقمري، ناهيك عن أن معدتي لا تكفي لأكلها. كنت أحتفظ بما أمكنني وأرمي الباقي لريتشارد باركر. خلال أيام الوفرة هذه كنت أضع يدي على عدد هائل من الأسماك حتى يتلألأ جسمي بالحراشف. أصبحت تلك البقع الفضية اللمّاعة مثل «التيلاك»، تلك العلامات اللونية التي نضعها نحن الهندوس على جباهنا كرموز للمقدس. لو عثر عليّ البحارة في حالتي تلك فأنا واثق من أنهم سيحسبونني إلهاً سمكة في أعلى مملكته، ولما توقفوا لإنقاذي. تلك كانت أيام الخير، وكانت نادرة.

شكّلت السلاحف صيداً سهلاً بالتأكيد، مثلما يقول دليل النجاة. فتحتَ عنوان «الصيد والجمع»، تأتي تحت فئة «الجمع»، ومع أنها صلبة البنية كالدبابات، فهي ليست سباحة سريعة أو قوية، بحيث يمكن إمساك الواحدة منها بيد واحدة. لكن دليل النجاة لا يذكر أن السلحفاة التي نصيدها لا تصبح تلقائياً بحوزتنا، إذ تبقى أمامنا مهمة رفعها إلى المتن، وهي ليست بالمهمة السهلة على الإطلاق، خصوصاً إذا كانت السلحفاة تزن ١٣٠ باونداً. إنه جهد يحتاج إلى قوة «هانيمان». كنت أفعل ذلك بأن أحشر السلحفاة عند بدن القارب الخارجي، وأربطها بحبل من رقبتها، وحبل آخر أوثق به أيديها الأمامية والخلفية. ثم أروح أشدّ حتى تكاد يدي تنخلعان وأحس بأن رأسي سينفجر. أربط الحبل بعقافات المشمع عند الجهة الداخلية من الجؤجؤ؛ وكلما انحل قليلاً أعاود شده. إنشاً فإنشاً أسحب السلحفاة من المياه، وهو أمر يستغرق وقتاً. أذكر سلحفاة خضراء ظلت معلقة بجانب القارب ليومين، وطوال الوقت كانت تنتفض بجنون، وأيديها الطليقة تضرب الهواء. لحسن الحظ، في المرحلة الأخيرة، عند حافة

بدن القارب، يحدث أن تساعدني السلحفاة من دون أن تقصد. ففي محاولتها لتحرير أيديها الملتوية بشكل مؤلم، تقوم بالضغط عليها، وإذا ما شددت في اللحظة نفسها فإن جهدينا المتعارضين يندمجان معاً أحياناً فيتم الأمر بيسر: عندها وبحركة دراماتيكية تنقلب السلحفاة فوق الحافة وتنزلق على المشمع، أما أنا فأنقلب على ظهري، مرهقاً، لكن مبتهجاً.

تحتوي السلاحف البحرية الخضراء على لحم أكثر من سلاحف منقار الصقر، وترسها أرفع، لكنها أكبر حجماً، غالباً أكبر من أن يتمكن تائه في البحر مثلي من رفعها من المياه.

يا إلهي، أن أتذكر أنني نباتي ملتزم. أن أتذكر أنني حين كنت طفلاً كنت أرتعش حين أكسر موزة لأن الصوت بالنسبة إلي شبيه بكسر رقبة حيوان. لقد انحدرت إلى درجة من الوحشية ما كنت لأتخيلها.

الفصل ٦٧

صار أسفل الطوف مضافة لفيض من الكائنات البحرية، مثل الشبكة لكن أضيق مجالاً. بدأ الأمر مع الطحالب الخضراء الناعمة، التي انضمت إليها طحالب أشدّ وأغمق لوناً، ثم صارت أسمك، ثم ظهرت كائنات أخرى. وأول الضيوف كان الروبيان الصغير الشفاف الذي لا يتجاوز طوله النصف إنش. ثم ظهرت أسماك لا تزيد عنها طولاً، وتبدو كأنها موضوعة باستمرار تحت الأشعة السينية، بحيث يظهر داخلها واضحاً من وراء جلدها الشفاف. بعدها جاءت الديدان السوداء ذات العمود الفقاري الأبيض، واليرقانات الجيلاتينية الخضراء ذات الأطراف البدائية، والأسماك متعددة الألوان التي تبلغ إنشاً مع بطونها

الناتئة، وأخيراً السلاطعين البنية، من نصف إلى ثلاثة أرباع الإنش. جربتها كلها، بما في ذلك الطحالب، لكنني أنفت من تناول الدود. فقط السلاطعين لم يكن مذاقها مراً أو مالحاً، فكنت أنتظر ظهورها وأروح أزدردها الواحد بعد الآخر كالحلوى.

جذب السطح الخارجي للطوف بعض أشكال الحياة، على هيئة البرنقيلات، التي كنت أمص سوائلها. أما لحمها فأستعمله كطعم.

تعلقت بهذه الكائنات البحرية، وإن كانت تثقل الطوف بعض الشيء. فهي أمنت لي السلوان مثل ريتشارد باركر. أمضيت ساعات عدة فاعلاً لا شيء سوى التمدد على جنبي، واضعاً سترة نجاة خارج مكانها ببضع إنشات كستارة نافذة، حتى تتسنى لي الرؤية بوضوح. ما كنت أراه بالمقلوب، هو بلدة صغيرة، وهادئة، ومسالمة، يجوبها مواطنوها كالملائكة. المنظر كان مصدر راحة مرحب بها لأعصابي المهشمة.

الفصل ٦٨

تغير نمط نومي. فمع أنني كنت أستريح طوال الوقت، فإنه نادراً ما نمت ساعة واحدة متواصلة، حتى خلال الليل. لم تكن الحركة الدائمة للمحيط هي ما يقلقني، ولا الرياح؛ فهذه أمور تعتاد عليها مثلما تعتاد على مخدة غير مريحة. كان قلق البال والخوف ما يبقيانني يقظاً، على عكس ريتشارد باركر الذي أصبح بطلاً في النوم. كان معظم الوقت يستريح تحت المشمّع، ولا يخرج إلا في الأيام الهادئة حين لا تكون الشمس قاسية جداً، وأيضاً في الليالي الهادئة، حين لا يكون البحر مضطرباً. كان يحب التمدد على جنبه على مقعد الكوثل،

ومعدته تتدلى من حافة المقعد، وقوائمه الأمامية والخلفية، تتدلى من المقاعد الجانبية. كان أكبر من أن يحشر في مكان ضيق كهذا، لكنه كان ينجح في ذلك بأن يكوّر ظهره. حين يكون غافياً حقاً، يسند رأسه إلى قائمتيه الأماميتين، لكن حين يكون نومه مضطرباً، يفتح عينيه ويجول بهما حوله، ثم يدير رأسه ويلقيه على حافة القارب.

كانت وضعيته الأخرى المفضلة هي أن يقعي مولياً ظهره لي، مرخياً جزأه الخلفي على أرضية القارب، ونصفه الأمامي على المقعد، ودافناً رأسه في الكوثل وكفيه الأماميين إلى جوار رأسه، فيبدو كما لو أنه يقوم بالعدّ في لعبة غميضة. في هذه الوضعية يكون ساكناً جداً، ولا ينسى أن يرعش أذنيه من وقت لآخر إشارة إلى أنه ليس نائماً بالضرورة.

الفصل ٦٩

أحياناً كنت أتوهم حتى التصديق أن هناك ضوءاً يلوح في الأفق. فأطلق كل مرة صاروخ إشارة. وبعد أن نفدت الصواريخ، صرت أستعمل الإشارات اليدوية. أتراها أضواء سفن لم تتمكن من رؤيتي؟ أم أنها أضواء نجوم غاربة أو مشرقة تنعكس على صفحة الماء؟ أم أمواج تتكسر على صفحة الماء فيجعلها ضوء القمر والعزلة تبدو سراباً؟ اياً تكن الحالة، فكل مرة كانت بغير طائل. دائماً الإحساس المرير بالأمل ينهض ويخبو من جديد، حتى تخليت ومع الوقت عن فكرة أن سفينة ستأتي وتخلصني. إذا كان الأفق على بعد ميلين ونصف الميل في خط طولي من خمسة أقدام، فكم يبعد حين أكون قابعاً في طوفي وعيني لا تعلوان ثلاثة أميال عن المياه؟ ما نسبة الحظ

في أن تراني سفينة تعبر المحيط الهادئ الشاسع؟ لا، لا يمكنني الركون إلى البشر. كان عليّ بلوغ اليابسة، الأرض الصلبة والأكيدة.

أتذكر رائحة فراغات صواريخ الإشارة اليدوية. معادلة كيميائية عجيبة كانت تجعل رائحتها كالكمون. كانت رائحة مسكرة. كنت أشتم الفراغات البلاستيكية وتنبعث على الفور بونديتشيري حية في رأسي، راحة هائلة تعقب خيبة الأمل الناشئة عن فرصة خلاص زائفة. التجربة كانت قوية جداً، أشبه بالهلوسة. من رائحة واحدة تنتصب أمامي مدينة كاملة. (أما الآن، فحين أشتم الكمون أتذكر المحيط الهادئ وأراه).

كان ريتشارد باركر يجفل كلما أطلقت واحداً من صواريخ الإشارة. بؤبؤا عيناه المدوران والصغيران يثبتان على الضوء. كان ضوءاً ساطعاً بالنسبة إليّ، هالة صفراء في قلبها نقطة بيضاء تخطف البصر، مما يجبرني على أن أحول نظري عنها. كنت أمط يدي إلى أقصى مداها رافعاً الشعلة وملوحاً بها ببطء، وبعد نحو دقيقة أحس بالحرارة على ذراعي، فيما كل شيء حولي مضاء بطريقة غريبة. المياه حول الطوف، التي كانت قبل لحظات سوداء قاتمة، تبدو متوهجة بالأسماك.

الفصل ٧٠

كان ذبح سلحفاة عملاً شاقاً. أول سلحفاة ذبحتها كانت من نوع منقار الصقر. وكان دمها ما أغواني، ذلك «الشراب الصحي الطيب الخالي من الأملاح» الذي وعدني به دليل النجاة. إلى هذا الحد كنت ظمآناً. أمسكت صدفة السلحفاة وأحكمت قبضتي على إحدى يديها

الخلفيتينو قلبتها في المياه وسعيت إلى سحبها إلى الطوف، لكنها قاومت بشدة، مما جعلني غير قادر على التعامل معها وأنا على الطوف. إما أن أتركها أو أجرب حظي من على القارب. نظرت إلى القارب. كان يوماً حاراً وصافياً. كان ريتشارد باركر يتسامح حيال حضوري على الجؤجؤ في مثل تلك الأيام، حين يكون الهواء كالفرن، فيقبع تحت المشمّع حتى الغروب.

أمسكت بإحدى يدي السلحفاة الخلفيتين، وباليد الأخرى رميت الحبل إلى القارب، ولم يكن الصعود إليه بالأمر السهل. وحين نجحت أخيراً، رفعت السلحفاة في الهواء ورميتها على المشمّع. كما أملت لم تنم عن ريتشارد باركر سوى زمجرة أو اثنتين. لم يكن مستعداً لتعريض نفسه لمثل تلك الحرارة.

تحركت بسرعة. شعرت أنه ليس لدي وقت أهدره. عدت إلى دليل النجاة كما لو أنه كتاب وصفات طبخ. يأمر الدليل بأن توضع السلحفاة على ظهرها، ففعلت ذلك. ثم يفيد بأنه ينبغي «غرز سكين في الرقبة»، لقطع شرايينها. نظرت إلى السلحفاة. لم يكن هناك رقبة. لقد اختبأت السلحفاة في ترسها؛ وكل ما يظهر من رأسها كان عينيها ومنقارها، محاطة بدوائر من الجلد. أخذت تنظر إلي بالمقلوب نظرات ناقمة. حملت الخنجر وآملاً بدفعها إلى إبراز رأسها نخزت يداً أمامية. لكنها انكفأت أكثر إلى داخل الترس. قررت أن أفعل شيئاً أكثر مباشرة. وبثقة من فعل ذلك آلاف المرات، حشرت الخنجر إلى يمين رأس السلحفاة، وغرزت الشفرة عميقاً داخل ثنيات الجلد ولويتها. تراجعت السلحفاة أكثر، مفضلة الاتجاه الذي فيه النصل، ثم فجأة أطلقت رأسها إلى الأمام، فيما منقارها يحاول الانقضاض علي

بشراسة. قفزت إلى الخلف. الأيدي الأربعة خرجت وحاولت السلحفاة الفرار، جثمت على ظهرها، وهي تصفق بأيديها بقوة مميلة رأسها من جهة إلى أخرى. حملت الفأس وهويت به على رقبتها، محدثاً فيها جرحاً بليغاً. انبثق دم أحمر قان. أمسكت بالكوب وجمعت نحو ثلاثمائة ملليتر، ما يساوي مقدار صفيحة مياه. كان يمكنني الحصول على كمية أكبر، ربما على ليتر كامل، لكن منقارها كان حاداً ويداها الأماميتان طويلتين وقويتين، مع مخلبين في كل منهما. لم يكن للدم الذي جمعته أي رائحة خاصة. رشفت رشفة. كانت حيوانية وساخنة. من الصعب أن أتذكر الانطباع الأول، لكنني شربت الدماء حتى آخر نقطة.

فكرت في أن أنزع ترس البطن بالفأس، لكن ذلك كان أسهل بالخنجر الملتوي الرأس. وضعت رجلاً على مركز الترس، والثانية على اليدين اللتين لا تزالان تصفقان. كان الجلد عند جهة الرأس احيث ينتهي الترس سهل الجز، ما عدا حول الزعانف. أما الجز عند الأطراف حيث تلتقي الصدفتان، فكان بالغ الصعوبة، لا سيما وأن السلحفاة لم تتوقف عن الحراك. حين انتهيت من الأمر وجدتني منتقعاً بالعرق. نزعت بصعوبة ترس البطن، فأصدر صوتاً أشبه بالبقبقة. انكشفت الأعضاء الداخلية للسلحفاة، فبانت العضلات، والدهن، والدم، والأمعاء، والعظام. ومع ذلك ظلت السلحفاة تتحرك. قطعت العنق حتى العظام، ولم يحدث ذلك فرقاً. ظلت الأيدي تنتفض. فقمت، بضربتين من الفأس، بقطع رأسها نهائياً. لم تتوقف الأيدي. والأسوأ أن الرأس المقطوع ظل يتنفس طلباً للهواء وظلت العينان ترمشان. رميت الرأس في البحر. أما الأجزاء الحية الأخرى من

السلحفاة فرميتها إلى ريتشارد باركر. أصدر أصواتاً ينم عن تحركه. على الأرجح اشتم دم السلحفاة. فررت إلى الطوف.

راقبته باهتمام وهو يعبر بصوت مرتفع عن تقديره لهديتي غارقاً في فوضى من البهجة. كنت مستنزف القوى. بدا الجهد الذي بذلته في ذبح السلحفاة أقل بكثير من لكوب الدم الذي حصلت عليه.

بدأت أفكر جدياً في الطريقة التي سأتعامل بها منذ الآن مع ريتشارد باركر. هذا التسامح الذي يقابل به، في الأيام الحارة، صعودي إلى القارب، ربما يكون تعبيراً بسيطاً عن الكسل، وهو غير كاف على أي حال. لا يمكنني أن أستمر بالهرب منه. أحتاج إلى طريق آمنة إلى الخزانة وإلى المشمّع في أي وقت، ومهما كان حال الطقس. كانت الحقوق هي ما أحتاج إليه، تلك الحقوق التي تنتزع بالقوة.

آن الأوان لكي أفرض نفسي وأحدّد منطقتي الخاصة.

الفصل ٧١

أنصح أولئك الذي قد يجدون أنفسهم يوماً ما في محنة كالتي وجدت نفسي فيها، باعتماد هذا البرنامج:

١. اختر يوماً تكون فيه الأمواج منخفضة ومنتظمة. فأنت لا تريد أن ينقلب القارب.

٢. أنزل المرساة إلى الحدّ الأقصى لتجعل قاربك مريحاً وثابتاً قدر الإمكان. حضّر ملاذك الآمن بعيداً من القارب في حال احتجت إليه (كما سيحدث على الأغلب). وإذا استطعت استعن ببعض الأدوات للحماية الجسدية. كل شيء تقريباً يمكن أن يشكل درعاً. لف الثياب

أو الملاءات حول أطرافك سيشكّل حداً أدنى من الدرع. ٣. يأتي الآن الجزء الصعب: عليك أن تستحث الحيوان الذي يهدّدك. النمر، أو وحيد القرن، أو النعامة، أو الخنزير البري، أو الدب، أياً يكن نوع الحيوان، عليك أن تؤمّن له معزاته. أفضل طريقة لفعل هذا هي على الأرجح أن تذهب إلى حدود منطقتك وتقتحم على نحو مزعج المنطقة الحيادية بينكما. وهذا ما فعلته بالضبط. مضيت إلى حافة المشمّع وضربت بأخمص قدمي المقعد الوسطي بينما رحت أنفخ الصافرة بإلحاح. من المهم أن تصدر صوتاً ثابتاً ومستمراً يكون العلامة على عدائيتك. لكن عليك أن تكون حذراً. تريد أن تستفز الحيوان، لكن ليس أكثر من ذلك. لا تريده أن يهاجمك فوراً. فإذا ما فعل ليكن الله بعونك. ستتمزق إلى أشلاء، ستسحق، ستقطّع، والأرجح ستؤكل، وهذا ما لا تريده. تريد حيواناً مستاء، مغتاظاً، حائراً، منزعجاً، متضايقاً، متذمراً، لكن ليس متوحشاً. عليك ألا تخطو خطوة واحدة إلى داخل منطقته أياً تكن الظروف. أحصر عدائيتك في التحديق في عينيه وإصدار الصفير.

٤ . حين يستفز الحيوان، إعمل جاهداً على أن تجعله يقتحم منطقتك. والطريقة الجيدة لفعل ذلك تقوم بحسب تجربتي على التراجع ببطء إلى الخلف مع إصدار أصوات صاخبة. كن أكيداً من الحفاظ على التواصل البصري! وما إن يطأ الحيوان المنطقة المحايدة، أو حتى يبدو لك أنه سيفعل ذلك، حتى تكون أنجزت هدفك. لا تكن انتقائياً أو دقيقاً في ما يتعلق بأين يحط كفه حقاً. كن سريع التحدي. لا تنتظر التقدير، أسئ التقدير بأسرع ما أمكنك. الهدف هنا أن تجعل الحيوان يفهم أن جاره صارم بصورة استثنائية في ما يتعلق بالحدود.

٥. حين يطأ الحيوان منطقتك عليك أن تفرط في الغضب. سواء أكنت فررت إلى ملاذك الآمن أم تراجعت إلى الجهة الخلفية من منطقتك على القارب، إبدأ بالصفير بكل قوة ممكنة وبسرعة أنزل المرساة. هذان الحركتان فائقتا الأهمية. عليك ألا تتأخر في القيام بهما. وإذا ما كان بوسعك جعل قاربك متعارضاً مع الأمواج، باستعمال مجذاف على سبيل المثال، فافعل ذلك فوراً. كلما كان القارب بمواجهة الأمواج، كان ذلك أفضل.

٦. النفخ في الصافرة بصورة مستمرة أمر مرهق للتائه في البحر، لكن عليك ألا تتوانى عن فعل ذلك. فحيوانك المستثار عليه أن يربط بين الغثيان المستمر الذي يحس به وبين زعيق الصافرة. يمكنك أن تدفع الأمور قدماً بأن تقف في نهاية قاربك، وتؤرجحه برجليك. وأؤكد لك أنه مهما كنت خفيفاً، ففي مدة قصيرة ستجعل قاربك يرقص الروك أند رول مثل ألفس بريسلي. لا تنسى فقط أن تصفر طوال الوقت، وأذكرك بألا تقلب القارب.

٧. سيكون عليك الاستمرار في فعل ذلك حتى ترى فم الحيوان قد اخضر بسبب دوار البحر. عليك أن تسمعه يتقيأ ويحاول التقيؤ من دون جدوى. عليك أن تراه ممدداً في قعر القارب، مرتعش الأطراف، مقلوب العينين، ومصدراً صوت صرير مميت. وعليك ألا تكف طوال الوقت عن صم أذنيه بالصفرات المتتالية. إذا ما شعرت بالغثيان، فلا تهدر قيأك بطرحه في البحر، فهو يشكل حارساً حدودياً ممتازاً. تقيأ على حواف منطقتك.

٨. حين تشعر أن الغثيان استولى على الحيوان يمكنك التوقف. فالغثيان يأتي سريعاً لكنه يحتاج إلى وقت ليزول. عليك ألا تبالغ في

ما يخص ما وصلت إليه. لا أحد يموت من دوار البحر، لكن يمكنه أن يمتص الرغبة بالعيش. عند هذا الحدّ ارفع المرساة، حاول أن تظلّل الحيوان إذا ما انهار في الشمس مباشرة، واحرص على أن تؤمن له ما يكفيه من المياه حتى يتعافى. الجفاف خطر حقيقي في هذه المرحلة. عد إلى منطقتك ودع الحيوان بسلام. المياه والراحة والاسترخاء وثبات القارب، ستعيده إلى الحياة. ينبغي انتظار أن يتعافى الحيوان كلياً قبل القيام ثانية بالخطوات من ١ إلى ٨ ثانية.

٩. ينبغي تكرار ذلك حتى ينشأ في عقل الحيوان ذلك الرابط الراسخ بين صوت الصافرة ودوار البحر المهلك. بعد ذلك تصبح الصافرة وحدها كافية للرد على أي تجاوز قد يقوم به الحيوان. صفرة قوية واحدة وستراه فرّ عائداً إلى منطقته الآمنة. ما إن تصل إلى هذا المستوى من التدريب، فإن استعمال الصافرة ينبغي أن يكون عند الحالات الطارئة فقط.

الفصل ٧٢

لكي أحمي نفسي من أي هجوم محتمل من ريتشارد باركر أثناء تمريني له، صنعت درعاً من تروس السلاحف. أحدثت ثقباً في كل جانب من الترس ووصلتها بحبل. كان الدرع كان أثقل مما أحب، لكن الجنود لا يختارون زيهم الحربي.

في المرة الأولى التي اقتربت فيها من ريتشارد باركر واضعاً الدرع، شمّر عن أنيابه، أدار أذنيه دورة كاملة، زأر بقوة، وهجم. ارتفع كفه كاملاً في الهواء وحط على درعي. فقذفتني الضربة عن القارب. ارتطمت بالمياه متخلياً فوراً عن الدرع الذي ارتطم أثناء غرقه بقصبة

ساقي. ذعرت من ريتشارد باركر لكن أيضاً من وجودي في المياه. كان ثمة في ذهني ثمة سمكة قرش تقترب مني في تلك الثانية. سبحت نحو الطوف في ضربات مسعورة، الضربات عينها التي تجتذب أسماك القرش، لكن لحسن حظي لم تكن موجودة وقتذاك. وصلت إلى الطوف، أرخيت الحبل حتى نهايته وجلست لافاً يدي حول ركبتي ومخفضاً رأسي، محاولاً إخماد نيران الخوف التي تشتعل في داخلي. مر وقت طويل قبل أن يتوقف جسدي عن الارتجاف كلياً. بقيت على الطوف بقية ذاك اليوم والليل. لم آكل أو أشرب.

ما إن اصطدت سلحفاة أخرى حتى أعدت المحاولة. كان ترسها أصغر وأخف، فشكل درعاً أفضل. تقدمت مرة أخرى وجعلت أضرب برجلي المقعد الوسطي.

أتساءل ما إذا كان أولئك الذين يسمعون قصتي سيفهمون أن سلوكي لم يكن ناتجاً عن الجنون أو الرغبة في الانتحار لكنه نابع من الضرورة المحض. إما أن أروضه، أن أجعله يرى من هو الرقم واحد، ومن هو الرقم اثنين، أو أموت في اليوم الذي أضطر فيه إلى الصعود إلى القارب خلال إحدى العواصف، ويعترض على وجودي.

إذا ما كنت نجحت في أن أصبح مروض حيوانات في عرض البحر فذلك لأن ريتشارد باركر لم يرغب بمهاجمتي حقاً. فالنمور، وبالتأكيد سائر الحيوانات، لا تحبّذ العنف كوسيلة لتسوية الأمور. حين تتعارك الحيوانات، فبنية القتل وبإدراك منها بأنها يمكن أن تُقتل. فهي تدرك كلفة الصدام، ولديها لذلك نظام كامل من الإشارات التحذيرية المصممة لتفادي النزاع، وهي سريعة بالتراجع حين تشعر أنه يمكنها ذلك. نادراً ما يقوم نمر بمهاجمة حيوان مفترس آخر من دون

أن يحذره مسبقاً. سيعدو مسرعاً باتجاه الخصم، مع الكثير من الزئير والجلبة، لكن قبل أن يفوت الأوان سيتجمد النمر في مكانه، والوعيد يهدر عميقاً في حلقه. سيقوم بتقدير الوضع، فإذا ما ارتأى أنه ليس هناك تهديداً جدياً، سيرجع من حيث أتى، شاعراً أنه حقق غايته.

أوصل ريتشارد باركر ما يريد قوله لي أربع مرات. أربع مرات ضربني بكفه الأيمن وقذفني إلى البحر، وأربع مرات خسرت درعي. كنت أعيش أسوأ لحظات الرعب قبل وخلال وبعد كل محاولة، وأمضي وقتاً طويلاً وأنا أرتعد على الطوف، حتى صرت قادراً على قراءة الإشارات التي يرسلها لي. وجدت أنه بأذنيه، وعينيه، وشاربيه، وأسنانه، وذيله، وحلقه، يتكلم بلغة واضحة للغاية قائلاً لي ما ستكون خطوته التالية. تعلمت أن أتراجع قبل أن يرفع كفه في الهواء.

ثم أوصلت له رسالتي، واضعاً رجلي على حافة القارب، جاعلاً إياه يتأرجح، لغتي الوحيدة هي النفخ في الصافرة، بينما هو يئن ويلهث في قاع المركب.

ظل الدرع الخامس معي حتى نهاية الترويض.

الفصل ٧٣

كانت أمنيتي العظمى - عدا عن الخلاص - أن يكون بحوزتي كتاب. كتاب سميك فيه قصة لا تنتهي. قصة يمكنني أن أقرأها مراراً وتكراراً، بعينين جديدتين وفهم جديد كل مرة. يا للأسف، لم يكن هناك أي نقش على القارب. كنت «أرغونا» مغموماً على عربة معطوبة من دون كلمات «كريشنا». المرة الأولى التي رأيت فيها إنجيلاً على نضد سرير غرفة فندق في كندا، انفجرت بالبكاء. أرسلت تبرعاً إلى

الجمعية الجدعونية في اليوم التالي مباشرة، مع ملحوظة تحثها على توسيع نطاق نشاطها ليشمل كل الأمكنة التي يمكن أن يلقي عليها المسافرون رؤوسهم المتعبة، وليس فقط في الفنادق، وعليها أن توزع ليس الأناجيل فحسب لكن كتباً مقدسة أخرى أيضاً. لا يسعني التفكير في طريقة أفضل لنشر الإيمان. لا الموعظة المرعبة، ولا الإدانة الأخلاقية التي تمارسها الكنائس السيئة، ولا الضغط المعنوي، مجرد كتاب ينتظرك بهدوء ليرحب بك، بلطف قبلة طفلة صغيرة على الخدّ.

لو كان معي على الأقل رواية جيدة! لكن كان هناك فقط دليل النجاة، الذي لا بدّ من أنني قرأته آلاف المرات خلال فترة محنتي.

احتفظت بيومياتي التي يصعب قراءتها لأنني كتبتها بخط بالغ الصغر، خشية أن ينفد الورق. بدأت بالكتابة بعد أسبوع أو نحوه من غرق التسمتسوم. قبل ذلك كنت مشغولاً جداً ومشتتاً. الأوراق غير مرقمة أو مؤرخة. ما يصدمني الآن كيف تلتقط تلك الكلمات الزمن. أيام عدة، أسابيع عدة، تقبع على صفحة واحدة. كتبت عن أشياء اعتيادية: حول ما حدث لي وكيف أحسست تجاهه، حول ما اصطدته وما لم أصطده، حول المحيط والطقس، حول المشكلات والحلول، وحول ريتشارد باركر. أمور عملية جداً.

الفصل ٧٤

كيّفت ممارستي للطقوس الدينية مع الظروف ـ قداسات بلا كهنة و«دارشانات» بدون «مورتيش»، و«بوجا» مع لحم سلاحف بدلاً من «البارساد»، والصلاة من دون معرفة اتجاه مكة، وبعربية غير سليمة. كانت تريحني تلك الطقوس. لكنها كانت صعبة، أوه كم كانت

صعبة. الإيمان بالله هو انفتاح كامل، انفلات مطلق، ثقة عميقة، فعل حب حر، لكن أحياناً كان من شبه المستحيل أن أشعر بالحب. أحياناً كان قلبي يغرق بسرعة بالغضب، والإحباط والقلق، كنت أخشى أن يغرق إيماني في قاع المحيط الهادئ فلا يعود بإمكاني انتشاله.

في مثل تلك الأوقات كنت أحاول السمو بنفسي. كنت ألمس الطربان الذي صنعته بما تبقى من قميصي وأهتف: «هذه قبعة الله!».

أربّت على بنطالي وأهتف: «هذه كسوة الله!».

أشير إلى ريتشارد باركر وأهتف «هذا هر الله!».

أشير إلى القارب وأقول «هذا فلك الله!».

أفتح ذراعي وأصرخ: «هذه أرض الله الواسعة!».

أشير إلى السماء وأهتف: «هذه أذن الله!».

وبهذه الطريقة أذكر نفسي بالخلق وبمكاني فيه.

لكن قبعة الله كانت دائماً فضفاضة، وسروال الله كان مهلهلاً. وهر الله كان دائم الخطر. فلك الله كان سجناً، وأرض الله كانت تقتلني ببطء. أما أذن الله فيبدو أنها لا تسمعني. كان اليأس سواداً ثقيلاً لا يترك ضوءاً إلى الداخل أو الخارج. كان جحيماً يفوق التعبير عنه. أشكر الله على تجاوزي مثل تلك اللحظات الجحيمية. كانت تظهر فجأة مجموعة من الأسماك حول الشبكة أو أنتبه إلى عقدة تحتاج إلى إصلاح. أو أفكر في عائلتي، وكيف أنهم أعفوا من هذا العذاب الرهيب، فيبدأ السواد بالتزحزح وسرعان ما يختفي، ويبقى الله، نقطة لماعة من الضوء في قلبي. أستأنف الحب.

الفصل ٧٥

في اليوم الذي قدّرت أنه عيد الأم غنيت لها بأعلى صوتي: «عيد ميلاد سعيد».

الفصل ٧٦

اعتدت على تنظيف فضلات ريتشارد باركر. ما إن أحس أنه تغوط حتى أمضي إلى تنظيف برازه، وهي عملية تنطوي على مخاطرة، إذ يكون عليّ، من مكاني على المشمّع، أن ألكز برازه بالرمح والوصول إليه، وهي مهمة لم يكن بمقدوري التغاضي عنها، فالبراز يمكن أن يلوث بالجراثيم، هذا تفصيل ثانوي بالنسبة إلى حيوانات البراري إذ أنها نادراً ما تلبث بجوار روثها، ولديها غالباً علاقة حيادية بها؛ الحيوانات التي تستوطن الأشجار بالكاد ترى برازها وحيوانات الأرض تتغوط عادة وتمضي في طريقها. أما في حديقة الحيوانات فيختلف الأمر، حيث يمكن أن يؤدي ترك البراز في قفص حيوان إلى مرضه، إذ يشجعه وجودها قربه على أكلها، فالحيوانات تسعى إلى التهام كل ما يشبه الطعام. لهذا السبب ينبغي أن تبقيالأقفاص نظيفة، اهتماماً بصحة أمعاء الحيوانات بقدر ما بعيني الزوار وأنوفهم. لكن لم يكن همّي الحفاظ على سمعة عائلة باتيل ومعاييرها في إدارة حدائق الحيوانات، ففي غضون أسابيع بدأ ريتشارد باركر يعاني من الإمساك وصار لا يتبرز أكثر من مرة في الشهر، لذلك فإن رعايتي تلك بالكاد كانت ضرورية من الناحية الصحية. فعلت ذلك لسبب مختلف: فقد لاحظت في المرة الأولى التي تغوط فيها ريتشارد باركر في القارب أنه حاول أن يخفي الفضلات، ولم تفتني دلالة ذلك. أن يكشف برازه

شكلاً ورائحة يمكن أن تكون علامة على السيطرة الاجتماعية. وعلى العكس أن يخفيها أو أن يحاول ذلك كان إشارة على المبالاة، المبالاة لي.

أدركت أن ذلك يستفزه. بقي خفيضاً، رأسه إلى الوراء، وأذناه ملتصقتين بصدغيه، مصدراً من حلقه غرغرة صامتة. تعاملت مع الأمر بتنبه وتعمد استثنائيين، ليس فقط لكي أحافظ على حياتي لكن أيضاً لكي أعطيه الإشارة الصحيحة. وهذه كانت أن أحمل برازه بيدي، أورّوح أقلبه قليلاً، وأقربه من أنفي وأشتمه بصوت مسموع، ثم أحدق به بطريقة واضحة، ناظراً بعينين حادتين (بجزع، فقط لو كان يعرف) بما يكفي لكي أوتّره بشدة، لكن ليس إلى حدّ أن أستفزه. ومع كل مرة أحدق بها أنفخ في الصافرة. بفعل هذا، بنظراتي العدائية (إذ بالطبع، بالنسبة إلى كل الحيوانات، بما فيها الإنسان، التحديق هو سلوك عدائي)، وبإطلاقي الصافرة، التي يثير صوتها في ذهنه الكثير من المشاعر، أوضح له أنه من حقي، من حقي كسيد عليه، أن ألمس برازه وأن أشمه إذا ما أردت ذلك. وبالتالي لم يكن غرضي رعايته صحياً، بل التحكم به نفسياً، ونجح الأمر. لم يرد ريتشارد باركر على نظراتي المحدقة؛ وظلت نظراته عالقة في منتصف المسافة، لا باتجاهي مباشرة ولا بعيداً عني. أحسست بذلك مثلما أحسست ببرازه في يدي: السيادة تُصنع. هذا التمرين كان يستنزفني باستمرار، لكن النتيجة جاءت مرضية.

وما دمنا جئنا على ذكر الموضوع، فقد أصبت بالإمساك مثل ريتشارد باركر. كان السبب نوع غذائنا، حيث تقل السوائل ويكثر البروتين. بات التغوط بالنسبة إلي فعلاً شاقاً، وحدثاً طويلاً ومؤلماً

وكثير الروائح يتركني غارقاً بالعرق وبائساً من شدة الإرهاق، وهي تجربة أسوأ من الحمى.

الفصل ٧٧

مع تناقص الحصص الغذائية، خفّضت استهلاكي حتى صرت ألتزم تعليمات دليل النجاة حرفياً، ملزماً نفسي بقطعتي بسكويت كل ثماني ساعات. كنت دائم الجوع، ودائم التفكير في الطعام. وكلما أكلت أقل، تضخمت وجباتي المتخيلة، حتى صارت بحجم الهند: حساء دال بسعة «الغانغ». «الشابتيز» الحار بمساحة «راجاشان». كرات أرز بحجم «أتار باريش»، و«سامبرز» تكفي لإغراق «تاميل نادو» كلها، وآيس كريم بارتفاع الهملايا. صرت حالماً محترفاً: مكوّنات أطباقي اللذيذة كانت دائماً طازجة ووفيرة؛ الفرن أو المقلاة كانت دائماً على الحرارة المناسبة؛ نسب الأشياء كانت دائماً دقيقة؛ لا شيء يقلى أو يسلق أكثر من اللازم، لا شيء ساخناً أو بارداً أكثر من اللازم. كل وجبة ببساطة ممتازة، سوى أنها، ببساطة أيضاً، بعيدة عن متناول يدي.

تفاقمت شهيتي. وبينما كنت في البداية أنظف أحشاء الأسماك وأقشر جلدها باهتمام، صرت أكتفي بتنظيف القشرة الخارجية بسرعة قبل أن أبدأ بالتهامها بنشوة كاملة. أذكر بأن الأسماك الطائرة كانت لذيذة وطرية. الدورادو أحدّ مذاقاً وأغلظ لحماً. صرت آكل رؤوس الأسماك بدلاً من رميها لريتشارد باركر أو استعمالها كطعم، وكان أمراً عظيماً حين اكتشفت أنه يمكن امتصاص السائل الطازج ليس فقط من عيون الأسماك الكبيرة بل من أعمدتها الفقارية أيضاً. أصبحت

السلاحف التي كنت أشقها بالسكين بقسوة وأرميها لريتشارد باركر، طبقي المفضل.

يبدو من المستحيل تخيل أنه مرت عليّ أوقات اعتبرت فيها سلحفاة بحرية حية وجبة شهية متعددة الأنواع، لكنها كانت كذلك. فالشرايين تحتوي على سائل طيب ينبغي شربه فوراً، لأنه يتخثر في أقل من دقيقة. أما اللحم فلا تضاهيه روعة أفضل أنواع «الكوتاس» و«البوريال». أما بيض السلاحف أو دهنها فأطيب من أطيب هال ذقته في حياتي. أما خليط القلب والكبد والرئتين والأمعاء المنظفة المخلوطة ببقايا الأسماك، المنقعة كلها في الشحم الطبيعي ومصل الدم، فيشكل وعاء «تالي» من ذاك الذي تلحس أصابعك بعد تناوله. مع نهاية رحلتي صرت آكل جميع مكونات السلحفاة. وحتى في الطحلب الذي يغطي أحياناً تروس سلاحف منقار الصقر كنت أجد أحياناً سلاطعين صغيرة وبرنقيلات، وأياً كانت الأسماك التي في معدة السلحفاة فهي تصبح صالحة للأكل. أمضيت ساعات سارة طويلة قاضماً مفاصل يد سلحفاة أو ممتصاً لبّ عظامها. أما أصابعي فكانت فتلتقط باستمرار أجزاء الدهن الجاف واللحم الجاف وتبحث في النواحي الداخلية من التروس، باحثة عن الطعام بالطريقة الأوتوماتيكية للقردة.

أفادتني تروس السلاحف كثيراً، ومن دونها ما كنت تدبّرت أمري. فهي خدمتني ليس كدروع فقط بل كألواح تقطيع للأسماك وكأوعية لخلط الأطعمة. وحين دمرت العناصر الطبيعية الشراشف، وصلت عدداً منها ببعضها وصرت أتقي الشمس تحتها.

إنه لأمر مخيف، تلك العلاقة العضوية بين الشبع والمزاج الحسن.

الإثنان يأتيان معاً، فكلما توافر الطعام والشراب، كان المزاج حسناً. هشاشة رهيبة: ألا يكون ثمة ما يرسم الابتسامة على شفتي سوى لحم السلاحف.

حين انتهت آخر البسكويتات صار كل شيء صالحاً للأكل، أياً يكن طعمه. صار فمي يتقبّل كل شيء، ويهضمه، أكان شهياً، أم سيء المذاق، أم عادياً، المهم ألا يكون مالحاً. لا أزال حتى اليوم أعاني من نفور جسدي من الملح.

مرة حاولت أن آكل براز ريتشارد باركر. حدث ذلك في فترة مبكرة، حين لم يكن جسمي تآلف بعد مع الجوع، ومخيلتي لا تزال تبحث بضراوة عن الحلول. كنت وضعت مياهاً طازجة من المقطرة الشمسية في دلوه، وبعد أن شربها دفعة واحدة، اختفى تحت المشمّع، وعدت إلى الخزانة لكي أعتني بأمر ثانوي. كما كنت أفعل في تلك الأيام الأولى، رحت أراقبه من تحت المشمّع من وقت لآخر لأتأكد من أنه لا ينوي على شيء. في تلك المرة كان يقوم بشيء، كان يستعد للتغوط. كان رابضاً، مقوس الظهر، متأهب القائمتين الخلفيتين، ومنتصب الذيل. أدركت أن الخطر قليل. كان يقف في الاتجاه المعاكس لي ورأسه غير مرئي. إذا ما احترمت هدوءه وصمته فربما لا يلاحظ وجودي حتى. أحضرت كوباً ومددت يدي إلى الأمام في اللحظة المناسبة. وفي اللحظة التي صار فيها الكوب أسفل ذيله، انتفخ شرجه، وخرجت منه، كبالون علكة، كرة سوداء من البراز. سقطت مخشخشة في الكوب. لا بد من أن أولئك الذين لا يفهمون درجة عذابي سيعتبرونني تخليت عن آخر سماتي الإنسانية حين أقول إن ذاك الصوت كان لأذني أشبه بالرنين الموسيقي لخمس روبيات

تسقط في كوب شحاذ. شعرت بامتنان عميق تجاه ريتشارد باركر. سحبت الكوب. حملت الكرة بأصابعي. كانت بالغة السخونة، لكن الرائحة لم تكن بنافذة. كانت توازي حجماً كرة كبيرة من «الغولاب جامون»، لكنها ليست طرية مثلها، بل قاسية كصخرة.

أعدت الكرة إلى الكوب وأضفت بعض الماء. غطيت الكوب ووضعته جانباً. سال لعابي وأنا أنتظر. لم يعد بوسعي الانتظار، فوضعت الكرة في فمي. لم أتمكن من أكلها. كان الطعم لاذعاً، لكن ليس هذا السبب. كان استنتاج فمي بالأحرى، مباشر وواضح: لا شيء يؤكل فيها. كانت مسألة فضلات بحتة، من دون أي مغذيات. بصقتها وشعرت بالمرارة لخسارة المياه الثمينة. حملت الرمح ورحت أنظف بقية فضلات ريتشارد باركر، ثم رميتها إلى الأسماك.

بعد أسابيع قليلة بدأ جسدي يتراجع. بدأت رجلاي وركبتاي تهزلان، وصرت أجد صعوبة في الوقوف.

الفصل ٧٨

كان هناك سماوات عدة؛

السماء التي تجتاحها سحب بيضاء ضخمة، أسفلها مسطح ودائري، وأعلاها منتفخ. السماء الخالية كلياً من الغيوم، التي من شدة زرقتها ترهق الحواس. السماء الشبيهة بملاءة ثقيلة خانقة من الغيوم الرمادية التي لا تحمل مطراً. السماء المغمورة بعتمة خفيفة. السماء المنقطة بسحب بيضاء صغيرة. السماء المخططة بغيوم رفيعة عالية تبدو ككرات قطن ممطوطة. السماء السديمية الحليبية خالية الملامح. السماء المتكتلة بالغيوم الماطرة السوداء والعاصفة التي تمر من دون أن

تمطر. السماء المكسوة بعدد قليل من الغيوم المسطحة التي تبدو ككثبان رمل. السماء الصافية التي تتيح رؤية الشمس وهي تغرق في الأفق، حيث يمكن تمييز الحواف العمودية بين الضوء والظل بوضوح تام. السماء التي تتحول إلى ستارة سوداء تبدو بعيدة بفعل المطر المنهمل. السماء التي تتكون من طبقات عدة من الغيوم على مستويات مختلفة، بعضها سميك ومائل، وبعضها أشبه بالدخان. السماء السوداء التي تبصق المطر بصقاً. السماء التي ليست سوى الأمطار المنهملة في طوفان لا يتوقف.

كان هناك بحاراً عدة أيضاً. البحر الذي يزأر كالنمر. البحر الذي يهمس في أذنك كصديق يخبرك سراً، البحر الذي يخشخش كعملة معدنية في الجيب. البحر الذي يرعد كانهيارات ثلجية. البحر الذي يهسهس كورقة سنفرة على الخشب. البحر الذي يبدو كشخص يتقيأ. البحر الصامت كالموت.

وبين الإثنين، بين السماء والبحر، كانت الرياح كلها.

وكانت الليالي كلها، والأقمار كلها.

أن تكون تائهاً في البحر يعني أن تكون نقطة في وسط دائرة. مهما بدا أن الأشياء تتحول حولك، كأن ينتقل البحر من الهمس إلى الهدير الغاضب، والسماء من الأزرق الصافي إلى الأبيض المعمي إلى الأسود الفاحم، فإن الجغرافيا لا تتغير أبداً. تنظر دائماً إلى نصف قطر. محيط الدائرة هائل دائماً، والدوائر تتضاعف. أن تكون ضائعاً في البحر يعني أن تكون عالقاً في شبكة من الدوائر. تكون في مركز دائرة واحدة، بينما فوقك دائرتان متعارضتان تدوران. تؤلمك الشمس كحشد صاخب وعدواني يجعلك تسد أذنيك وتغمض عينيك،

ويدفعك إلى الاختباء. يؤلمك القمر حين يذكرك بعزلتك؛ تفتح عينيك على وسعيهما لتحاول قتل الوحشة. حين تنظر تتساءل أحياناً ما إذا في مركز عاصفة شمسية، أو في قلب البحر الساكن، ليس ثمة من ينظر مثلك، من هو مثلك عالق في الهندسة، ومثلك يكافح بخوف، وغضب، وجنون، ويأس ولامبالاة.

ما عدا ذلك أن تكون ضائعاً في البحر يعني أن تكون عالقاً في متناقضات قاتلة. حين يكون ضوء انكشاف البحر معمياً ومخيفاً. حين تولد العتمة فيك رهاب الاحتجاز في مكان ضيق. حين في النهار يخنقك القيظ وتتمنى البرد وتحلم بالآيس كريم وتصب المياه على جسمك. حين تصقع ليلاً وتتمنى الدفء وتحلم بالكاري الدافئة، وتدثر نفسك بالوسائد. حين يجففك الحر وترجو البلل. حين يغرقك المطر وتتمنى الجفاف. حين يكون هناك من الطعام ما يكفي لوليمة. حين لا يكون هناك طعام وتتضور جوعاً. حين يكون البحر مسطحاً وساكناً وتتمنى أن يتحرك. حين يرتفع البحر وتنكسر الدائرة التي تحجزك بتلال من المياه، تعاني من تلك الميزة الغريبة في البحار العالية، أجل، تعاني من الاختناق في الأمكنة المفتوحة، وتتمنى أن يعود البحر ساكناً. تحدث المتناقضات غالباً في اللحظة عينها، فحين تحمّصك الشمس، تكون واعياً في الوقت عينه أنها تجفف شرائح السمك واللحم المعلقة، وأن هذا مفيد لعمل المقطرات الشمسية. وعلى العكس حين تعوض مياه الأمطار نقص مؤونتك من المياه، تكون عارفاً أيضاً أن الرطوبة ستؤثر على الطعام الذي تجففه وأن بعضه سيفسد. حين ينتهي الطقس السيء وتدرك أنك نجوت من هجوم السماء وخيانة البحر، فسرعان ما سيزول ابتهاجك وستغضب لأن

مياهاً صالحة للشرب بهذه الوفرة هدرت في البحر، وتخشى أن يكون هذا آخر مطر ستراه، وأنك ستموت عطشاً قبل أن تهطل أي نقطة أخرى.

أسوأ المتناقضات هما الضجر والخوف. أحياناً تكون حياتك أشبه ببندول يتأرجح بحركة ثابتة وروتينية. البحر هادئ، والريح لا تصفر. والساعات تدوم إلى الأبد. تكون ضجران إلى حد تسقط في حالة من الخمول تشبه الغيبوبة. ثم يهيج البحر وتدخل في حال من السعار. مع ذلك لا يمكن الفصل تماماً بين هذا الثنائي المتناقض. ففي ضجرك هناك شيء من الرعب: تبكي؛ يملؤك الأسى، تصرخ؛ تجرح نفسك عمداً. وفي قلب الرعب تشعر أحياناً بالضجر، ويسيطر عليك شعور بالغرابة من كل ما يجري.

وحده الموت يرافقك دائماً، سواء أكنت ترجوه حين تكون الحياة آمنة وتافهة، أم تفر منه حين تكون حياتك مهددة وثمينة.

الحياة على متن قارب نجاة ليست بحياة. إنها أشبه بنهاية لعبة شطرنج، لعبة بقطع قليلة. العناصر بالغة البساطة، ومع ذلك أي مجازفة يمكن أن تكون قاتلة، وهذا مجهد جسدياً ومدمر معنوياً. عليك أن تجري تعديلات إذا ما كنت تريد النجاة. الكثير يصبح مستهلكاً. تحصل على سعادتك حيث يمكن. تصل إلى نقطة تكون فيها في قاع الجحيم، ومع ذلك تجلس متكاتفاً وابتسامة تعلو وجهك، شاعراً أنك أكثر الناس حظاً على وجه البسيطة. لماذا؟ لأنه ثمة عند قدميك سمكة صغيرة ميتة.

الفصل ٧٩

كان يظهر سمك القرش بصورة يومية، خصوصاً القرش الأزرق وقرش الماكو، ومن حين لآخر القرش الأوقياني أبيض المنقار، ومرة واحدة رأيت القرش النمرالمهيب. كان يظهرغالباً في فترتي الفجر والغروب، ولا يشكّل تهديداً جدياً. أحياناً كان أحدها يطرق القارب بذيله، ولا أحسب ذلك من قبيل مصادفة (فكائنات بحرية أخرى، مثل السلاحف وسمك الدورادو كانت تفعل ذلك أيضاً)، بل إنها طريقة ما لتحديد طبيعة القارب. كانت تكفي ضربة قوية بالبليطة على خطم القرش لإبعاده. لكن المشكلة الوحيدة في هذه الأسماك هو أنها تجعل الوجود في المياه خطراً، كالتسلل إلى عقار رفعت عند مدخله لافتة: «احذرالكلاب». عدا ذلك صرت شديد الإعجاب بها. كانت كأصدقاء قدامى مستائين لا يعترفون أنهم يحبونني لكنهم لا يتوانون عن زيارتي. القرش الأزرق هو الأصغر حجماً، إذ لا يتجاوز الأربعة أو الخمسة أقدام، وهو الأوسم أيضاً، أملس ورفيع، يتميز بفكه صغير وخياشيمه الصغيرة أيضاً، ظهوره لازوردي وبطنه ناصع البياض كالثلج، ويتحوّل لونه إلى الأسود والرمادي حين يكون تحت الماء، لكن عند اقترابه من سطح الماء يلتمع بوضوح مفاجئ.

قرش الماكو كان أضخم وله يكشر عن أسنان مخيفة، لكنه جميل اللون هو الآخر، أزرق سماوي يتلألأ بشكل رائع تحت الشمس. أما «الوايت تيبس» الأوقياني فهو غالباً أقصر من الماكو، الذي قد يصل إلى ١٢ قدماً، لكنه أعرض بكثير، وله زعنفة ظهر ضخمة ترتفع فوق سطح المياه كراية حرب، وهو يتحرك بسرعة فلا تستطيع العين لحاقه بسهولة. إلى ذلك كان لونه غامقاً، نوعاً من البني المائل إلى

الرمادي، أما أطراف زعانفه البيضاء المرقشة فليس ثمة ما يميزها بشكل خاص.

اصطدت عدداً من سمك القرش الصغير، الأزرق غالباً، والقليل من الماكو. كل مرة يكون ذلك بعد الغروب مباشرة، عند تلاشي ضوء النهار، وكنت ألتقطه بيدي العاريتين حين يقترب من القارب.

أول قرش اصطدته كان الأكبر، ماكو يفوق طوله الأربعة أقدام. كان قد اقترب من القارب مرات عدة، حتى التقطته أخيراً من ذيله. جلده القاسي جعل الإمساك به سهلاً، وإذ رحت أجذبه إلى القارب قفز في الهواء هازاً يدي بعنف. وسط ذعري وسروري ارتفع القرش في الهواء وهو يطرطش ماء، وللحظة لم أدر ما ينبغي علي فعله. القرش كان أصغر مني، أكنت غولياث متهوراً هنا؟ أليس عليّ أن أتركه؟ بينما كنت ألتف وأتأرجح ساقطاً على المشمّع، رميت الماكو نحو الكوثل، فسقط مباشرة في منطقة ريتشارد باركر. ارتطم بقوة وبدأ يخبط. جفل ريتشارد باركر. هاجم فوراً.

بدأت معركة ملحمية. يمكنني أن أسجّل هنا لفائدة علماء الحيوان التالي: لن يحاول نمر مهاجمة قرش بفكيه بل سيضربه بكفيه الأماميين. بدأ ريتشارد باركر بضرب القرش بكفيه ضربات قوية تكفي الواحدة منها، إذا ما تعرض لها بشري، لسحق عظامه. كان واضحاً من حركة القرش الذي يتلوى ضارباً بذيله وثاغراً فمه أنه لم يكن مسروراً بما يتعرض له.

ربما لأن ريتشارد باركر لم يواجه من قبل سمكة مفترسة فقد حصل ما نبّهني إلى أنه ليس كاملاً، وأنه على الرغم من غريزته الحاضرة يمكن أن يخطئ. ففي لحظة ما وضع كفه اليسرى في فم

الماكو الذي أطبق فكيه عليه، فارتد ريتشارد باركرعلى قائمتيه الخلفيتين. ترنح القرش قليلاً لكنه لم يفلت كف النمر. وقع ريتشارد باركر، وهو يزأر بأعلى صوته. شعرت بهواء سخن يهب على جسدي. الهواء اهتز بشكل مرئي، كالحرارة التي تنبعث من الطريق في يوم حار. يمكنني أن أتخيل أنه في مكان بعيد، على بعد ١٥٠ ميلاً، ثمة مراقب سفن أجفل فجأة وأبلغ لاحقاً عن أغرب شيء رآه في حياته، أنه ظن أنه سمع زئير هر يأتي من أحد الاتجاهات. بعد مرور أيام كانت تلك الصرخة لا تزال ترن في أحشائي. لكن القرش أصم، كما هو معروف عنه. لذا بينما أنا، الذي لا أفكر في لمس كف نمر، ناهيك عن محاولة ابتلاعه، تلقيت في وجهي زئيراً بركانياً وارتجفت وارتعدت خوفاً، لم يصل إلى أسماع القرش سوى الذبذبات.

استدار ريتشارد باركر وضرب رأس القرش بكفه الأمامية الطليقة وراح يعضه بفكيه، بينما قائمتيه الخلفيتين تخرمشان ظهره وبطنه. ظل القرش قابضاً على كفه، خط دفاعه وهجومه الوحيد، وراح يضرب بذيله. تلوى القرش والنمر وتشقلبا على الأرض. بجهد عظيم تمكنت من السيطرة بعض الشيء على جسدي لكي أصل إلى الطوف وأبتعد عن القارب. ابتعد الطوف. رأيت لمعات من البرتقالي والأزرق الغامق، من الفراء والجلد، فيما القارب يتأرجح من جهة إلى أخرى. كانت زمجرة ريتشارد باركر مرعبة.

أخيراً توقف القارب عن الحركة. بعد بضع دقائق أقعى ريتشارد باركر، وهو يلعق كفه اليسرى.

في الأيام التي تلت ذلك أمضى وقتاً طويلاً وهو يعتني بقوائمه

الأربع. جلد القرش مغطى بالبالردينات التي تجعله قاسياً كورقة زجاج. لا شك في أنه جرح نفسه خلال معركته معه، لكن لم يبد الجرح فادحاً، فهو لم يفقد إصبعاً أو مخلباً. أما بالنسبة إلى الماكو، باستثناء أطراف الذيل ومنطقة الفم، التي لم تلمس على الإطلاق، فكان نصف مأكول، شرائح من اللحم الرمادي الأحمر ومن الأعضاء الداخلية، كانت منثورة هنا وهناك.

تمكنت من صيد بعض سمك القرش بالرمح، لكن لخيبة أملي عظامها الفقارية لا تحتوي على السوائل، لكن كان لحمها على الأقل طيباً وغير زنخ، ولم تكن قسوته مشكلة بالنسبة إلي بعد تناولي الكثير من الطعام الناعم.

بعدها صرت أسعى لصيد أسماك القرش الأصغر، وصرت أقتلها بنفسي. وجدت أن قتلها طعناً بالسكين ثم بالفأس كان أسرع وأقل إجهاداً.

الفصل ٨٠

من بين كل أسماك الدورادو أذكر واحدة بشكل خاص. كان صباح يوم غائم باكر، وكنا في وسط عاصفة من الأسماك الطائرة. كان ريتشارد باركر منهمكاً بافتراسها، بينما كنت أضع درع السلحفاة لكي أتقي طعناتها. كنت أحمل رمحاً في طرفه شبكة معلقة في العراء، آملاً بصيد السمك بهذه الطريقة، لكن حظي لم يكن جيداً. أزّت قرب أذني سمكة طائرة، تبعتها دورادو كانت تلاحقها لكنها فرت منها ومن شبكتي أما الدورادو فارتطمت بحافة القارب مصْدرة دوياً حاداً، وجاعلة القارب يهتز قبل أن تسقط في الماء تاركة لطخة من دمها على

المشمع. تحركت بسرعة. انخفضت تحت الأسماك الطائرة ومددت يدي وحملت الدورادو إلى القارب قبل أن تصل إليها سمكة قرش. كانت ميتة أو على وشك أن تموت، وتصدر كل أنواع الألوان. يا للصيد الثمين! يا للصيد الثمين! لا بد من أنها تزن نحو أربعين باونداً. يمكنها أن تطعم قبيلة. السائل الذي يمكن استحلابه من عينيها وعمودها الفقري يمكن أن يروي صحراء.

للأسف، رأس ريتشارد باركر الضخم التفت نحوي. أحسست بذلك من زاوية عيني. السمكات الطائرة كانت لا تزال تأتي، لكنه لم يعد مهتماً بها؛ أصبحت السمكة التي في يدي مركز اهتمامه الآن. كان يبعد عني ثمانية أقدام. فمه نصف مفتوح، وجناح سمكة يتدلى منه. تقوس ظهره، وتمعج كفله، والتوى ذيله. كان الأمر واضحاً: إنه يربض استعداداً لمهاجمتي. كان فات أوان الفرار، بل وأوان النفخ بالصافرة. لقد أذنت ساعتي.

لكن طفح الكيل. كنت عانيت كثيراً من خوفي منه وكنت جائعاً جداً.

وهكذا، في لحظة جنون سبّبها جوعي، ولأن حاجتي إلى الأكل تفوق حاجتي إلى البقاء على قيد الحياة، ومن دون أي وسيلة دفاعية، نظرت مباشرة في عيني ريتشارد باركر. فجأة تضاءلت شراسته أمام قوة نظراتي. رحت أحدق في عينيه بتحدّ، ثم أشحنا نظراتنا عن بعضنا. أي مدير حديقة حيوانات سيقول لك أن النمر، وبالطبع أي هر، لن يهاجم في وجه تحديقة مباشرة لكنه سينتظر أن يدير الغزال أو آكل النمل أو الثور البري عينيه. لكن معرفة ذلك وتطبيقه أمران مختلفان (وهي معرفة غير نافعة إذا ما كنت تأمل بأن تثبت بنظراتك أكثر من

قط). لثانيتين، ربما ثلاث ثوان، جرت بيني وبينه معركة ذهنية رائعة على المكانة والسلطة، ولم يكن يحتاج إلى أكثر من وثبة ليصل إليّ. لكنني ثابرت على التحديق.

لحس ريتشارد باركر أنفه، أصدر أنيناً خافتاً وابتعد. وبغضب عض سمكة طائرة. لقد ربحت. لم أصدق ذلك وأنا أحمل الدورادو وأتجه إلى الطوف. بعدها بفترة وجيزة رميت له قطعة كبيرة منها.

شعرت منذ ذلك اليوم أن سيادتي عليه لم تعد موضع شك، وصرت أمضي وقتاً أطول على القارب، أولاً على الجؤجؤ، ثم مع اكتسابي مزيداً من الثقة على المشمّع الأكثر راحة. ظللت أهابه، لكن عند الضرورة فقط. لم يعد يشكّل مجرد وجوده مشكلة بالنسبة إلي. يمكن المرء التعود على أي شيء، ألم أقل ذلك من قبل؟ أليس هذا ما يقوله كل الناجين؟

أولاً تمددت على المشمّع ملقياً رأسي على الطرف المنتفخ منه، وبما أن طرفي القارب أعلى من وسطه، فقد سهّل ذلك عليّ مراقبة ريتشارد باركر.

لاحقاً استدرت إلى الجهة الأخرى، واضعاً رأسي على المقعد الوسطي، مولياً ظهري لريتشارد باركر ومنطقته. بهذه الوضعية كنت أبعد بقليل من حافة القارب، وأقل عرضة للريح وطرطشة الأمواج.

الفصل ٨١

أعرف أنه يصعب تصديق قصة نجاتي، فأنا نفسي أكاد لا أصدّق أنني تمكنت من الصمود كل ذلك الوقت، خصوصاً بصحبة نمر مفترس. هناك تفسير آخر لعدم مهاجمته لي، عدا عن كونه وجد نفسه

في بيئة لم يألفها وغير قادر على التحرّك ضمنها بسهولة، وهو أنني كنت مصدر الطعام والمياه بالنسبة إليه. فهو في نهاية الأمر نشأ في حديقة حيوانات، وتعوّد على أن تقدم له احتياجاته من دون أن يقوم بأي جهد. صحيح، أنه حين تمطر ويتحول القارب كله إلى لاقطة أمطار، يكون مدركاً مصدر المياه، كذلك حين يأتي قطيع من الأسماك الطائرة، حيث يتقلّص دوري أيضاً. لكن هذا لا يغير شيئاً في حقيقة أنه حين ينظر لا يرى أدغالاً يمكنه الصيد فيها، ولا نهراً يمكنه الشرب منه بحرية. وأنا كنت من يؤمن له بشكل أساسي الطعام والمياه العذبة. كان دوري في حياته واضحاً وعجائبياً، وقد منحني قوة بالنسبة إليه. الدليل: بقيت حياً يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع. الدليل: لم يهاجمني، حتى حين كنت أنام على المشمّع. الدليل الأوضح: أنني هنا لأخبر هذه القصة.

الفصل ٨٢

خزّنت مياه الأمطار والمياه التي جمعتها بالمقطرة الشمسية في الأكياس البلاستيكية الثلاثة التي يسع الواحد منها خمسين ليتراً، ختمتها بالحبال، ووضعتها في الخزانة بعيداً عن نظر ريتشارد باركر. تلك الأكياس البلاستيكية ما كانت لتكون أثمن بالنسبة لي لو أنها احتوت الذهب والسفير والروبلات والألماس. كنت دائم القلق عليها. وأسوأ ما كان يخطر على بالي أن أفتح الخزانة يوماً لأرى المياه وقد أهرقت على نحو ما. وتجنباً لوقوع كارثة كهذه، لففتها ببطانيات لكي أحول دون احتكاكها بالسطح المعدني الداخلي للقارب، ولم أحرّكها إلا قليلاً لكي لا تبلى وتتمزق مع الوقت. لكنني كنت قلقاً بشأن

أعناق الأكياس. ألن يؤدي الحبل إلى تمزقها تدريجياً؟ وكيف سأختم الأكياس إذا ما تمزقت أعناقها؟

حين تكون الأمور على ما يرام، حين يكون المطر مدراراً، والأكياس ممتلئة، كنت أملأ الأكواب، والدلوين البلاستيكيين، والحاويتين البلاستيكتين، والأكواب الثلاثة وصفائح المياه الفارغة (التي احتفظت بها كغرض ثمين)، وأيضاً الأكياس البلاستيكية المخصصة للقيء، التي ختمتها عبر عقد طرفها. بعدها، إذا كان المطر لا يزال مستمراً، أستعمل نفسي كحاوية. أضع نهاية أنبوب لاقطة المطر في أنفي وأشرب وأشرب وأشرب.

كنت دائماً أضيف نسبة قليلة من المياه المالحة إلى مياه ريتشارد باركر، وأزيدها حين يتوقف المطر، وأزيدها أكثر في أوقات الجفاف. لمرات قليلة، في الأيام الأولى، غطّس وجهه من حافة المركب في مياه البحر وحاول شربها، ثم توقف عن ذلك.

ومع ذلك كنا نادراً ما نكون مكتفين. ندرة المياه العذبة كانت مصدر القلق والعذاب الوحيد خلال رحلتنا.

أياً يكن الصيد كان ريتشارد باركر ينال حصة الأسد، على سبيل المجاز طبعاً. لم يكن لي خيار في هذه المسألة. كان ينتبه فوراً حين أصطاد قرشاً أو دورادو أو سلحفاة، وعلي أن أقدم له حصته بسرعة وبسخاء. أعتقد أنني حققت الرقم القياسي العالمي في شق تروس السلاحف. أما الأسماك فكنت أقطعها وهي لا تزال حية. وإذا ما صرت لا أميز إلى هذه الدرجة ما آكله، فذلك ليس بسبب الجوع فحسب، بل الاستعجال. أحياناً لا يكون لدي الوقت لكي أتأمل ملياً في الصيد. إما أن يذهب إلى معدتي في تلك اللحظة، أو أخسره

لصالح ريتشارد باركر، الذي يكون بدأ يضرب الأرض والهواء بكفيه معبراً عن نفاد صبره. كانت إشارة واضحة بالنسبة إلي عن الدرك الذي هبطت إليه حين لاحظت ذات يوم أنني آكل كالحيوان، وأن مضغي الصاخب والمسعور للطعام لا يختلف إطلاقاً عن طريقة مضغ ريتشارد باركر.

الفصل ٨٣

هبّت العاصفة بالتدرّج بعد ظهر ذات يوم. بدت الغيوم تغدو متسربلة أمام هبوب الرياح. وكان للبحر الحصة الأساس في المعمعة، آخذاً في علو وهبوط سريعين، تنخطف من شدتهما القلوب. فحرصت، والعاصفة لا تزال في مراحلها الأولى، على سحب المقطرات الشمسية والشبكة، وعلى إنزال المرساتين بالكامل، وفي طولين مختلفين، حتى لا تعلق إحداهما بالأخرى.

لكن يا له من مشهد ذاك الذي وجدتني في خضمه. فما كنت قد رأيته من أمواج حتى ذلك الحين كان مجرد تلال صغيرة، أما تلك الأمواج فجبال حقيقية، عملاقة وشاهقة إلى حدّ أن القارب لم يبرح سفوحها أو يستقر لحظة على صفحة الماء. فكيف إذاً بالطوف المسكين الذي وقع بلا مقاومة في قبضة الأمواج العملاقة التي أخذت تتقاذفه في كل اتجاه.

كان القارب، في رحلته إلى اعالي الموج، يتعلق بالمرساتين مثلما يتعلق متسلق جبال بالحبال، وهناك، عند ذروة الموجة، يخوض في رغوة بيضاء كالثلج، ويغرق في شظايا عملاقة من الضوء والرغوة، التي تدفعه بقوة إلى الامام. أنا واثق من أن المشهد، على هذه

الحال، بدا جلياً عن بعد أميال. ثم تأتي الخطوة التالي، حيث تتزعزع الجبال، وتنخسف المياه تحتنا، ليصبح القارب في غضون ثانية في قعر واد مظلم، تنهمل فوقه آلاف الأطنان من المياه التي تروح تحوم بنا. ثم يبدأ الامر مجدداً. تعاود المياه النهوض، وينشد حبلا الراسيتين حتى أقصاهما، ونبدأ من جديد رحلة التزحلق على الموج.

أدت المرساتان عملهما بامتياز، فحالتا دون انقلاب القارب، وكانت النتيجة مع صعود كل موجة وانخسافها انفجار من الزبد والمياه. ثم هجمت موجة شرسة كادت تقتلعنا وتجرنا معها، فاختفى مقدّم القارب تحت الماء، وبالكاد تمكنت من التعلق به وهو يغرق. سمعت ريتشارد باركر يزمجر، وأحسست أصابع الموت تدنو مني.

وفيما نحن نغوص مع الموجة العملاقة، قفزت نحو المشمّع وفردته إلى مؤخر القارب، مغطياً به ريتشارد باركر. وإذا ما كان النمر احتج على تجاوزي حد منطقته فإنني لم أسمع ذلك. عملت بسرعة آلة خياطة كهربائية محاولاً ربط المشمّع بحافتي القارب. علا القارب مجدداً، وقذفه الموج إلى الأمام، فجاهدت للحفاظ على توازني. صار القارب كله الآن مغطى بالمشمّع. حشرت نفسي بين المقعد الجانبي والمشمّع وجذبت حافته فوق رأسي. لم تكن بالمساحة الكبيرة، فبين حافة المركب والمقعد ١٢ إنشاً فقط، والمقاعد الجانبية بعرض قدم ونصف القدم. لكنني لم أكن متهوراً، حتى في وجه الموت، بحيث أنتقل إلى أرض القارب. بقي هناك أربعة عقافات ينبغي أن أوثق المشمّع بها. مددت يدي حشراً عبر الفتحة ورحت أعالج الحبل. ومع ربط كل خطافة، وانشداد المشمّع أكثر، يصبح ربط التالية أصعب. نجحت في ربط أول اثنتين، وبقيت الأخريين.

أخذ القارب يندفع بلا توقف إلى الأمام، بانحدار يتجاوز الثلاثين درجة. تمكنت من ربط الحبل بالعقافة الثالثة، وكان هذا أفضل ما يمكنني فعله، فهذا عمل ليس مفترضاً القيام به من داخل القارب بل من خارجه. تمسكت بقوة بالحبل، لكي لا أنزلق على طول القارب كله. صمد القارب بسلاسة خلال ميلان بزاوية ٤٥ درجة.

لا بد من أن زاوية انحدارنا بلغت ٦٠ درجة حين ارتفع القارب إلى ذروة الموجة، مخترقاً إياها من جانب إلى آخر، وعلى الرغم من أن القدر الأقل من حمولة الموجة من المياه ارتطم بنا، فقد شعرت أن أحدهم يلكمني على وجهي بقبضة عملاقة. ثم انحدر القارب فجأة إلى الأمام وصار كل شيء معكوساً: صرت عند الطرف الآخر من القارب، عند ريتشارد باركر تماماً. لم أحس به ولا كانت لدي فكرة عن مكانه، فقد كانت عتمة دامسة تحت المشمّع.

لبقية ذاك النهار وامتداداً إلى الليل، بقينا نصعد ونهبط، نصعد ونهبط، حتى صارت الحركة رتيبة، حل مكانها البلادة والاستسلام الكليين. تعلقت بحبل المشمّع بيد وبحافة مقعد المقدمة باليد الأخرى، بينما جسدي منبطح بتلك الوضعية على المقعد الجانبي، والمياه تنهمر دخولاً وخروجاً، كان المشمّع يعصرني عصراً، وكنت أرتجف من البرد، وجرحت في أمكنة عدة من جسدي بعظام ودروع السلاحف. ظلت العاصفة تهدر بثبات، ومثلها ريتشارد باركر.

لاحظت خلال الليل أن العاصفة توقفت. عدنا نطفو بشكل طبيعي. من خلال مزق في المشمّع لمحت السماء، كانت منجمة وبلا غيوم. فككت المشمّع واضطجعت عليه.

أدركت فجراً أن الطوف قد دمّر. كل ما بقي منه مجذافان مربوطان

إلى سترة نجاة. شعرت كصاحب بيت يتفرّج على آخر قطعة من بيته وهي تحترق. أمعنت النظر في الأفق. لم أر شيئاً. طوف نجاتي، بلدتي البحرية الصغيرة، اختفى، وقد دمّر ذلك معنوياتي، وإن عزّاني بعض الشيء أن المرساتين وبشكل عجائبي لم يفقدا، وظلا ممسكين بالقارب بإخلاص.

كان القارب في حال مزرية. فالمشمّع تمزق من نواح عدة، وبعض التمزقات تسبب بها على الأرجح ريتشارد باركر. معظم طعامنا ضاع، إما انطرح في البحر أو أفسدته المياه التي غمرته. كان كل جسمي يؤلمني وكان ثمة جرح غائر في فخذي، يبيض ويتورم. الحمد لله أن أكياس المياه ظلت متماسكة، فقد ملأت الشبكة والمقطرات الشمسية، المساحة الشاغرة وحالت دون تزحزح الأكياس كثيرا.

شعرت بالإرهاق والإحباط. فككت المشمّع عند الكوثل. كان ريتشارد باركر صامتاً إلى حدّ أنني تساءلت ما إذا كان غرق. لم يكن قد غرق. فحين لففت المشمّع وأعدته إلى المقعد الوسطي وصل إليه ضوء النهار، فتحرك وزمجر. نهض من بركة المياه وأقعى على مقعد الكوثل. رحت بخيط وإبرة أرتق التمزقات في المشمّع.

لاحقاً ربطت أحد الدلاء بحبل وجعلت أفرغ القارب، بينما ريتشارد باركر يتفرج عليّ بضجر. كان النهار حاراً فعملت ببطء. واحدة من حمولات الدلو جلبت إلي شيئاً كنت حسبتني أضعته. تأملت في راحة يدي آخر ما من شأنه أن يحول بيني وبين الموت: آخر صافرة برتقالية.

الفصل ٨٤

تدثّرت ببطانية واضطجعت على المشمّع، أنام وأحلم، وأستيقظ وأحلم، وبصورة عامة أمرر الوقت. النسيم ثابت، ومن وقت لآخر يبلل رذاذ موجة القارب. توارى ريتشارد باركر تحت المشمّع، فهو لا يحب البلل أو اهتزاز القارب. لكن السماء زرقاء، والهواء دافئ، وحركة البحر عادية. استيقظت على عصف مياه. فتحت عيني وإذا بالمياه تنهمل عليّ من عل. نظرت ثانية، فوجدت السماء لا تزال صافية. ثم كان عصف آخر، إلى يساري، لكنه لم يكن بقوة الأول. زمجر ريتشارد باركر بعنف. المزيد من المياه انهمل علي، محمّلاً برائحة زنخة.

أول ما رأيته كان بدناً أسود ضخماً يشق المياه، واحتجت إلى بضع ثوان لكي أتبيّن الأمر. كانت عيناً، عين حوت ضخمة، تنظر نحوي مباشرة.

خرج ريتشارد باركر من تحت المشمّع، وكأنه استشعر الخطر القادم، وراح يزمجر. أمال الحوت عينه قليلاً ناظراً إليه. حدق لثلاثين ثانية أو نحوها قبل أن يعاود الغطس بسلاسة. خشيت أن يطيح القارب بذيله، لكنه نزل مباشرة إلى الأعماق واختفى في المياه الزرقاء الغامقة. ذيله كان هلالاً مدوراً ضخماً يخبو.

اظن أنه كان يسعى إلى التزاوج. لا بد من أنه قرر أن حجمي لا يناسبه، كما يبدو أنه لي زوج.

رأينا في السابق بعض الحيتان لكن كانت هذه المرة الأولى التي نرى فيها واحداً عن هذا القرب. كنت أستشعر بحضور الحيتان من

حركة المياه. أحياناً كانت تظهر بمجموعات من ثلاث أو أربع وتحوم قريباً من القارب كأرخبيل من الجزر البركانية، ودائماً كان حضورها يرفع من معنوياتي. كنت مقتنعاً بأنها تفهم وضعي، وأروح أتخيل أنها تجري في ما بينها الأحاديث حولي: «إنه الضائع في البحر ومعه الهر الذي أخبرني عنه بامفو. يا للفتى المسكين. آمل أن يكون لديه ما يكفي من العوالق... عليّ أن أخبر مامفو وتومفو وستيمفو عنه. هل يا ترى هناك سفينة قريبة يمكن أن أخبرها بشأنه. ستكون أمه مسرورة جداً لرؤيته ثانية. وداعاً، أيها الفتى، سأحاول مساعدتك. اسمي بيمفو». وهكذا، عبر القيل والقال، صار كل حوت في المحيط الهادئ يعرف بأمري، وكنت أنقذت منذ زمن طويل لو لم يلجأ بيمفو إلى سفينة يابانية قام بحارتها بغدره وصيده، وهو المصير نفسه الذي واجهه لامفو على يد بحارة سفينة نروجية. صيد الحيتان هو جريمة شائنة.

كانت الدلافين أيضاً تزورنا باستمرار أيضاً. إحدى المجموعات بقيت معنا يوماً وليلة كاملين. كانت جذلة جداً. بدت بالطريقة التي تسبح وتغوص فيها تحت القارب لا تهدف إلا إلى التسلية المحض. حاولت صيد واحد منها، لكن ولا واحد اقترب بما فيه الكفاية من الرمح. وحتى إذا ما اقترب أحدها فهذه حيوانات ضخمة جداً وسريعة جداً. فتخليتُ عن الفكرة ورحت أستمتع بالفرجة عليها فحسب.

رأيت ستة طيور طوال الرحلة. اعتبرت كل واحد منها ملاكاً يزف لي قرب اليابسة. لكنها كانت طيوراً بحرية يمكنها أن تقطع المحيط من دون الحاجة إلى الأجنحة. كنت أتفرج عليها وهي تأتي وتغادر بألم وحسد وإشفاق على النفس.

إثنان منهما كانا من فصيل القطرس. حلق كل واحد منهما على مسافة عالية من دون أن يلحظ وجودنا. كان حضورهما خرافياً ومستعصياً على الفهم.

مرة وعلى بعد مسافة قصيرة من القارب، مر بخفة طائرا نوء، قافزين بقوائمهما الرفيعة على المياه. هما أيضاً لم يلاحظا وجودي، وتركاني مشدوهاً بالقدر نفسه.

أخيراً انتبه إلى القارب طائر جلم قصير الذيل. حام حولنا مدة، وهبط في النهاية. أخرج قائمتيه، وطوى جناحيه وحط على الماء بخفة فلينة، وأخذ يرمقني بفضول. بسرعة لقمت الصنارة بطعم سمكة طائرة ورميته باتجاهه. لم أضع أي ثقالات على الخيط وعانيت صعوبة في تقريبه من الطائر. عند المحاولة الثالثة حرّك قائمتيه باتجاه الطعم الغائص، وغطس رأسه تحت الماء لكي يصل إليه. خفق قلبي من شدّة الإثارة. أبقيت الصنارة في الماء، وحين جذبته صاح الطائر صيحة عالية وتقيأ ما ابتلعه تواً. قبل أن أحاول مرة أخرى، فرد جناحيه ورفع نفسه في الهواء وبدأ بالابتعاد.

كنت أفضل حظاً مع طائر أهيش ظهر من العدم فجأة، واتجه صوبنا، فارداً جناحيه بعرض يفوق الثلاثة أقدام. حط على حافة القارب وصار بمتناول يدي. عيناه المدورتان نظرتا نحوي، نظرة جدية ومندهشة. كان طائراً كبيراً ناصع البياض، إلا أن جناحيه أسودان عند طرفيهما وحوافهما الخلفية. رأسه الكبير المنتفخ يتقدّمه منقار رفيع جداً أصفر برتقالي، أما العينان الحمراوان وراء القناع الأسود فتجعلانه أشبه بلص انتهى تواً من ليلة عمل طويلة. وحدها القوائم البنية الشبكية الأطول من بدنه تثير الإعجاب في تكوينه. كان جسوراً، فلبث

دقائق عدة وهو ينظف ريشه بمنقاره، وحين انتهى، انتصب واقفاً، ليظهر بكامل مهابته: طائرة رائعة التصميم. حين قدمت له قضمة من لحم الدورادو نقرها بسرور من يدي.

كسرت عنقه بأن لويت رأسه إلى الخلف، وإحدى يدي ترفع منقاره إلى أعلى، فيما الأخرى تقبض على الرقبة. كان ريشه شديد الالتصاق بجلده بحيث أنني حين نتفت ريشه أخذ ينسلخ الجلد معه ـ لم أكن أعذّب الطائر، كنت أمزقه. ضخامة بنيته لم تترجم وزناً كبيراً، فبالنسبة إلى حجمه كانت كمية اللحم مخيبة للآمال، فقط القليل منه عند الصدر، وكان أقسى من لحم الدورادو، لكن المذاق لم يكن مختلفاً بالنسبة إلي. في معدته، إلى جانب قضمة الدورادو التي أطعمته إياها تواً، وجدت ثلاث سمكات صغيرة. بعد تنظيفها من العصائر الهضمية، أكلتها. أكلت قلب الطائر، وكبده ورئتيه، وازدردت عينيه ولسانه مستعيناً بالمياه على ذلك. حطمت رأسه واستخلصت دماغه الصغير. أكلت شباك قائمتيه. ما بقي منه في النهاية كان الجلد والعظم والريش الذي رميته لريتشارد باركر.

ظل الريش يتطاير لبضعة أيام من وكر النمر إلى البحر، وما حط منه على المياه ابتلعته الأسماك.

لم يعلن أي طائر دنو اليابسة.

الفصل ٨٥

كان برق. أعتمت السماء واستحال النهار ليلاً. انهمر المطر بغزارة يصاحبه دوي رعد بعيد. حسبت أن الأمر سيبقى كذلك، لكن هبت ريح، مشرذمة المطر في كافة الاتجاهات. وبعدها مباشرة شق لهب

أبيض كبد السماء، وثقبت صاعقة صفحة الماء. وقعت بعيداً عن القارب، لكن تأثيرها كان بالغ الوضوح. جذور الصاعقة البيضاء وهي تخترق الماء بدت شجرة سماوية ضخمة تنتصب في قلب المحيط. لم أتخيل في حياتي شيئاً كهذا: برق يقصف البحر. كان الدوي هائلاً، ولمعان الضوء يبهر العيون.

التفت ناحية ريتشارد باركر وقلت له: «أنظر، ريتشارد باركر، إنه البرق». كان ممدداً على أرضية القارب، فارداً أطرافه وبدنه يرتجف بوضوح.

كان التأثير عليّ معاكساً تماماً. شعرت بأن ثمة ما يخرق نمط حياتي المضجر ويضعني في حال من العجب والإثارة.

فجأة ضربت صاعقة أخرى الماء على مسافة أقرب منا بكثير. ربما كانت تستهدفنا: كنا ننحدر من سفح موجة عملاقة حين ضربت الصاعقة ذروتها، محدثة انفجاراً من الهواء والمياه الحارين. لثانيتين، ربما لثلاث ثوان، أخذت ترقص في السماء شظية كريستالية بالغة الضخامة، وهمية، ومع ذلك قوية جداً. قرع عشرة آلاف آلة ترومبيت وعشرين ألف طبل، لم يكن ليصدر صخباً كتلك الصاعقة. صار البحر أبيض واختفت كل الألوان الأخرى. كل شيء إما كان ضوءاً أبيض صافياً أو ظلاً أسود صافياً. لم يبد أن الضوء يضيء بقدر ما يشتعل. ثم بالسرعة التي لمعت فيها الصاعقة اختفت، وإن ظل رذاذ المطر ساخناً. تحول الموج أسود وهو يتدحرج بغير مبالاة.

كنت مذهولاً، مصعوقاً، تقريباً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن غير خائف.

«المجد لله، خالق كل الأكوان، العطوف، الرحوم، خالق يوم

الدين!». تمتمت، وصرخت مخاطباً ريتشارد باركر: «كف عن الارتجاف! إنها معجزة. هذا انفجار الألوهة.. هذا.. هذا...». لم أستطع أن أعبر بالكلمات عن ذاك الشيء الواسع والمذهل. كنت محتبس النفس والكلمات. اضطجعت على المشمّع، فارداً يدي ورجلي. أصقعني المطر حتى العظام. لكنني كنت أبتسم. أتذكر ذلك اللقاء مع الصدمة الكهربائية والحروق من الدرجة الثالثة، كواحدة من المرات القليلة خلال محنتي التي شعرت فيها بسعادة أصلية.

يسهل، في لحظات العجب، تجنب التفكير على نطاق ضيق، والتسلي بأفكار بحجم الكون، التي تجمع معاً الدوي والرنين، السميك والرفيع، القريب والبعيد.

الفصل ٨٦

«ريتشارد باركر، سفينة!».

تسنى لي أن أطلق مرة هذه الصرخة المجيدة. غمرتني السعادة، وحل الفرح محل الأسى والإحباط وكل ما كنت قد كابدته حتى تلك اللحظة بدا كأنه لم يكن.

«لقد نجحنا! لقد نجونا! أتفهم يا ريتشارد باركر؟ لقد أنقذنا! ها، ها، ها، ها!».

حاولت التحكم بنفسي، لكن الأفكار كانت تتسارع في رأسي: ماذا لو مرت السفينة بعيداً عنا ولم ترنا؟ هل أطلق صاروخ إشارة؟ هراء!

«إنها آتية في اتجاهنا مباشرة، رينتشارد باركر! أوه، شكراً لك أيها الرب غانيشا، مبارك أنت في كل تمظهراتك، الله ـ براهمان!».

يستحيل ألا ترانا. أمن سعادة تفوق سعادة الخلاص؟ الجواب، صدقني، هو لا. وقفت على رجلي، للمرة الأولى منذ وقت طويل أبذل مثل هذا الجهد.

«أتصدق يا ريتشارد باركر؟ الناس، الطعام، والسرير. عادت لنا الحياة ثانية. أوه، يا لها من نعمة!».

اقتربت السفينة أكثر. بدت كأنها ناقلة نفط. شكل مقدّمها صار جلياً. الخلاص يرتدي ثوباً من المعدن الأسود والحواف البيضاء.

«لكن ماذا لو. . .؟».

لم أجرؤ على لفظ تلك الكلمات. لكن ألا يعقل أن يكون أبي وأمي ورافي على قيد الحياة؟ التسمتسوم كان فيها عدد من قوارب النجاة. ربما وصلوا إلى كندا منذ أسابيع وينتظرون بفارغ الصبر سماع أخبار عني. ربما كنت الوحيد الذي لم يعثر عليه بين الحطام.

«يا إلهي، كم هي ضخمة ناقلات النفط!».

كانت أشبه بجبل يتقدّم نحونا.

«ربما هم الآن في وينيبيغ. أتساءل كيف هو بيتنا. أتظن يا ريتشارد باركر أن البيوت الكندية تنطوي على باحات داخلية على النمط التاميلي؟ على الأرجح لا. أعتقد أنها تمتلئ بالثلج شتاء. خسارة. ليس هناك سلام مثل السلام الذي تسبغه عليك باحة بيت داخلية في يوم مشمس. ترى أي نوع من التوابل تنبت في مانيتوبا؟».

صارت السفينة قريبة جداً. من الأفضل أن يبدأ الملاحون بإيقاف السفينة.

«أجل، أي بهارات. . .؟ أوه، يا إلهي!».

أدركت أن السفينة ببساطة لا تمضي في اتجاهنا فحسب، بل تتقدّم مباشرة نحونا. راح مقدم السفينة وهو جدار معدني ضخم، يكبر أكثر كل ثانية مكوناً في سبيله موجة هائلة تتقدم صوبنا. أحس ريتشارد بارك أخيراً بالقوة الماحقة الآتية. التفت وأطلق صوت «ووف! ووف!»، لكن ليس على طريقة كلب، بل نمر: قوية، مخيفة، تناسب الموقف تماماً.

«ريتشارد باركر، ستسحقنا! ما الذي سنفعله؟ بسرعة، بسرعة، صاروخ إشارة! لا! ينبغي أن أجذف.. هاك! هامف! هامف! هامف! هامف! هامف! هام...».

قذفتنا الموجة إلى أعلى. ربض ريتشارد باركر، وانتصب شعر بدنه. القارب انزلق عن ظهر الموجة مبتعداً عن الناقلة مسافة لا تزيد عن القدمين.

مضت السفينة بمحاذاتنا لمسافة ميل تقريباً، ميل من جدار واد أسود، من حصن بدون حارس يرانا، ونحن نغرق في الخندق المائي. أطلقت صاروخ إشارة، لكنن صوبت خطأ، وبدلاً من أن يخترق الحصن وينفجر في وجه القبطان، ارتد على جانب السفينة ومضى مباشرة إلى البحر، حيث انطفأ فوراً. نفخت في صافرتي بكل ما أوتيت من قوة. وصرخت ملء رئتي. بلا فائدة.

محركاتها تهدر بصوت يصم الآذان ومراوحها تطحن بقوة تحت المياه. تجاوزتنا السفينة وتركتنا نتأرجح في حركة ارتدادية عقب مرورها. بعد أسابيع كثيرة لم أكن أسمع خلالها سوى الأصوات الطبيعية، كانت تلك الأصوات الآلية غريبة ومذهلة إلى حدّ أدخلتني معها في صمت غريب.

في أقل من عشرين دقيقة صارت السفينة التي تزن ثلاثمائة ألف طن نقطة في الأفق. حين نظرت إليه، كان ريتشارد باركر لا يزال ينظر في اتجاهها. بعد بضع ثوان أشاح بنظره أيضاً والتقت نظراتنا لبرهة وجيزة. نظراتي عبرت عن الشوق، والأذى، والعذاب، والوحدة. كل ما كان يعيه هو أن شيئاً شاقاً وهائلاً قد حدث، شيء يفوق قدرته على الفهم. لم ير أنه كان الخلاص ذاك الذي فاتنا. كل ما فهمه أن هذا الألفا، هذا النمر الغريب الذي يصعب التنبؤ بتصرفاته، كان متحمساً جداً. غط مجدداً في النوم. تعليقه الوحيد على الحدث كان «مياو» خافتة.

«أحبك!» خرجت هذه الكلمة نقية ومطلقة. إحساس غامر ملأ صدري. «حقاً أحبك يا ريتشارد باركر. إذا لم أحبك الآن، فلا أعرف ما الذي أنا فاعله. لا أظن أنني سأنجح. لا، لن أنجح. سأموت من اليأس. لا تستسلم، يا ريتشارد باركر، لا تستسلم. سأوصلك إلى اليابسة، أعدك، أعدك!».

الفصل ٨٧

الاختناق، اختناق ناعم، كان من الوسائل المفضلة لدي للهروب مما أنا فيه. كنت أستعمل رقعة قماش قطعتها من بقايا ملاءة، وكنت أسميها سجادة أحلامي؛ أبللها بمياه البحر وأعصرها، ثم أتمدد على المشمّع وأضعها على وجهي. سرعان ما أحس بدوار يبدأ خفيفاً ثم يتصاعد، وهذا ليس صعباً بالنسبة إلى شخص في مثل وهني. لكنه نوع خاص من الدوار. كانت تخترق رأسي أكثر الأحلام والرؤى والأفكار والأحاسيس والذكريات استثنائية، ولا يعود للزمن أي وجود.

حين تنسدل أخيراً سجادة الأحلام عن وجهي، أعود إلى كامل وعيي، سعيداً بأنني مررت القليل من الوقت. جفاف الرقعة كان دليلاً جزئياً على انقضاء بعض الزمن. لكن الأهم من ذلك كان الإحساس بأن الأشياء صارت مختلفة، وأن اللحظة الراهنة مختلفة عن اللحظة الراهنة التي انقضت.

الفصل ٨٨

وصلنا ذات يوم إلى كومة قمامة طافية. في البداية التمعت المياه ببقع من الزيت، ثم تلتها قمامة صناعية ومنزلية: كانت بشكل رئيسي نفاية بلاستيكية مختلفة الأشكال والألوان، لكن أيضاً أجزاء مبعثرة من علب البيرة، وزجاجات النبيذ الفارغة، وقطع الملابس، وقطع الحبال، المزنّرة كلها برغوة صفراء. تقدم القارب نحوها. نظرت لأرى إذا ما كان هناك أي شيء قد يكون مفيداً. انتشلت زجاجة نبيذ فارغة. ارتطم القارب بثلاجة بلا محرك. كانت طافية وبابها إلى السماء. مددت يدي، أمسكت المقبض وفتحت الباب. فاحت منه رائحة مقرفة إلى حدّ بدا أنها تلوّن الهواء. واضعاً يدي على فمي بحثت في البراد. كان هناك بقعاً، وعصائر سوداء، وكمية من الخضروات المتعفنة، وزجاجة حليب فاسد إلى حدّ أنه تحول إلى اللون الأخضر، وبقايا حيوان ميت مشوهة إلى حدّ أنني لم أتمكن من معرفة جنسه. لكن بالحكم على حجمه أعتقد أنه حمل. في الثلاجة المغلقة والرطبة أخذت الرائحة وقتها لتتطور، لتتخمر، لتصير مريرة. اخترقت الرائحة رأسي ودوختني، وجعلت معدتي تضطرب، ورجلي ترتجفان. ولحسن الحظ سرعان ما ملأت مياه البحر البراد المفتوح الذي غرق، لتتمدد في مكانه الفراغ الأوساخ الأخرى.

تركنا القمامة وراءنا. ولوقت طويل، حين كانت تهب الرياح من ذاك الاتجاه، كنت أشم تلك الرائحة. احتاج البحر إلى يوم ليغسل بقع الزيت عن جوانب القارب.

وضعت رسالة في الزجاجة: «سفينة الشحن اليابانية تسمتسم، التي ترفع علم باناما، غرقت في الثاني من تموز، في الباسيفيك، بعد أربعة أيام من الإبحار من مانيلا. أنا على قارب نجاة. اسمي باي باتيل. لدي بعض الطعام، وبعض المياه، لكن النمر البنغالي يمثّل مشكلة فعلية. أرجوكم أعلموا العائلة في وينيبيغ، كندا. أكون ممتناً لأي مساعدة ممكنة. شكراً». وضعت الفلينة ثانية وغطيتها بقطعة بلاستيك، وربطتها بعنق الزجاجة بخيط نايلون، وعقدته بشدة. رميت الزجاجة في المياه.

الفصل ٨٩

لم يبق شيء على حاله. كل شيء سفعته الشمس وغير الطقس أحواله. القارب، والطوف (قبل أن يُدمّر)، والمشمّع، ولاقطات المطر، والأكياس البلاستيكية، والحبال، والملاءات، والشبكة، كل ذلك تمزق، وتصدع، وتهلهل، وجف، وتعفن، وحال لونه. ما كان برتقالياً صار برتقالياً مبيضاً. ما كان ناعماً صار خشناً. ما كان خشناً صار ناعماً. ما كان حاداً صار مثلوماً. ما كان مجتمعاً صار أشلاء. ولم يفد في التخفيف من ذلك حكّ الأشياء بجلد الأسماك ودهن السلاحف، مثلما كنت أفعل. أخذ الملح يلتهم كل شيء بأفواهه المليون الجائعة. أما الشمس فحمّصت كل شيء، وأبقت ريتشارد باركر في خضوع جزئي، وجلت العوالق عن الهياكل العظمية وبيضت

لونها، وأحرقت ملابسي وكادت تحرق جلدي، رغم سمرته، لو لم أحمه بالملاءات ودروع السلاحف. كنت حين يكون الحر لا يحتمل أدلق مياه البحر على جسمي بالدلو؛ أحياناً كانت المياه تكون سخنة إلى حد أنها تنزل على جسمي كالحساء. الشمس تولت أيضاً أمر كل الروائح. لا أذكر رائحتي. أذكر فقط رائحة صواريخ الإشارة اليدوية المستعملة. كانت رائحتها كالكمون، هل ذكرت هذا من قبل؟ لا أذكر رائحة ريتشارد باركر حتى.

كنا نفنى ببطء. كنا كائنين ثدييين هزيلين، نتضور جوعاً ونتحمّص تحت الشمس. فقد فراء ريتشارد باركر بريقه، وبعضه سقط عن كتفيه وكفليه. وخسر الكثير من الوزن، حتى أصبح هيكلاً عظمياً في كيس متهلهل من الفراء الباهت. أنا أيضاً ذبلت، امتصت الرطوبة كل شيء في، وصارت عظامي ظاهرة بوضوح.

بدأت أحاكي ريتشارد باركر في النوم ساعات طويلة. لم يكن نوماً سليماً، بل حال من نصف الوعي لا يمكن التمييز فيها بين أحلم اليقظة والواقع. لجأت كثيراً إلى رقعة الأحلام.

ها هي الصفحات الأخيرة من يومياتي:

اليوم رأيت حوتاً أكبر من أي واحد رأيته حتى الآن. وحش بدائي بطول عشرين قدماً. مخطط. حوت نمر، خطر جداً. أخذ يحوم حولنا. وخشيت أن يهاجم. بعد أن نجوت من نمر، حسبتني سأموت على يد نمر من نوع آخر. لم يهاجم. ابتعد. الطقس غائم، لكن لا مطر.

لا مطر. فقط الصباح الرمادي، والدلافين. حاولت صيد واحد بالرمح. لم أقو على الوقوف. ريتشارد باركر معتكر المزاج، وأنا في

غاية الهزال، إذا ما هاجمني فلن أستطيع الدفاع عن نفسي. ببساطة ليس لدي القوة لأنفخ بالصافرة.

يوم هادئ شديد الحرّ. الشمس تقصف بلا رحمة. أشعر أن دماغي يغلي داخل رأسي. شعور رهيب.

جسد وروح مغلوبان. سأموت عما قريب. ريتشارد باركر يتنفس لكنه لا يتحرك. سيموت هو الآخر. لن يقتلني.

الخلاص. ساعة من المطر اللذيذ الثقيل. ملأت فمي، ملأت العلب والأكياس ملأت جسدي حتى ما عاد يحتمل نقطة إضافية. تركت جسدي ينتقع لكي أزيل عنه الملح. زحفت لأرى ريتشارد باركر. لا يتفاعل. بدنه مكور، وذيله نائم، وفراؤه متكتل بفعل البلل. يبدو أصغر حجماً وهو مبلل. هيكل عظمي. لمسته للمرة الأولى، لأرى ما إذا مات. ليس ميتاً. لا يزال جسده حاراً. مذهل عند اللمس. حتى وهو في هذه الحالة، صلب، عضلي، وحي. لمسته فارتعش بدنه كما لو أنني بعوضة. تزحزح رأسه المخضب بالمياه. من الأفضل ان يشرب على أن يغرق. إشارة أخرى جيدة: حرك ذيله. رميت قطعاً من لحم السلاحف قرب أنفه. لا شيء. أخيراً نهض بشكل نصفي، ليشرب. شرب وشرب. أكل. من دون أن ينهض كلياً. أمضى ساعة وهو يلحس جسده. ثم نام.

لا رجاء. اليوم أموت.

سأموت اليوم.

سأموت.

كان هذا آخر ما كتبته. استمريت بعد ذلك بالعيش، لكن دون أن

أدون شيئاً. أترى هذه الخطوط اللولبية على هوامش الصفحة؟ كنت أحسب أن الورق سينفد مني، لكنها كانت الأقلام التي نفدت.

الفصل ٩٠

قلت، ملوحاً بيدي أمام وجهه: «ما الخطب يا ريتشارد باركر؟ أعميت؟».

كان منذ يوم أو اثنين يفرك عينيه ويموء بصوت مغموم، لكنني لم أتوقف عند الأمر. فالآلام والأوجاع كانت وجبتنا الأوفر. اصطدت سمكة دورادو. لم نكن أكلنا شيئاً منذ ثلاثة أيام. أمس صعدت سلحفاة إلى القارب، لكنني كنت أضعف من أن أجرها إلى المتن. قطعت السمكة إلى نصفين. كان ريتشارد باركر ينظر في اتجاهي. رميت له حصته. توقعت أن يلتقطها بفمه، لكنها ارتطمت بوجهه الخالي من الملامح. انحنى. بعد الشم يساراً ويميناً، عثر على السمكة وبدأ يلتهمها. صرنا نأكل ببطء الآن.

حدقت في عينيه. لم تبدوا مختلفتين عن أي يوم آخر. ربما كان هناك المزيد من الفراغ في الزوايا الداخلية، لكن لا شيء دراماتيكياً، بالتأكيد ليس بقدر مأساوية مظهره ككل.

أدركت أن الجواب كامن في فعل النظر نفسه. أخذت أنظر إلى عينيه كما لو أنني طبيب عيون، بينما نظراته فارغة. فقط هر بري أعمى لا يتجاوب مع تحديقة كهذه.

شعرت بالإشفاق على ريتشارد باركر، وأيقنت أن نهايتنا باتت وشيكة.

بدأت، في اليوم التالي، أحس وخزاً في عيني. فركت وفركت،

لكن اللسعة لم تزل. على العكس تماماً: زادت، وعلى عكس ريتشارد باركر، بدأت عيناي تنزان قيحاً. ثم حلت العتمة. في البداية كانت بقعة سوداء صغيرة، ثم امتدت لتصير لطخة شملت بصري كله. كل ما تمكنت من رؤيته من الشمس صباح اليوم التالي كان ضوءاً باهتاً أعلى عيني اليسرى، كنافذة صغيرة شاهقة العلو. ظهراً، صار كل شيء أسود.

تشبثت بالحياة. كنت مسعوراً. كان الحر جحيمياً. كنت ضعيفاً فلا أستطيع الوقوف على قدمي، وصارت شفتاي قاسيتين ومتشققتين، وفمي جافاً وعجينياً، مكسو بلعاب لزج سيئ المذاق والرائحة معاً. احترق جلدي، ولم يعد الألم يبرح عضلاتي الواهنة. انتفت أطرافي، ولا سيما رجلي، وصارت تؤلمني باستمرار. كنت جائعاً ومرة أخرى لا طعام. بالنسبة إلى المياه ريتشارد باركر كان يستهلك الكثير بحيث لم يتبق لي أكثر من خمس ملاعق في اليوم. لكن هذا الألم الجسدي لم يكن شيئاً قياساً بالعذاب المعنوي الذي كان عليّ تحمله.

يمكن أن أعين يوم عميت بأنه اليوم الذي بدأ فيه عذابي الأقصى. لا أستطيع أن أحدد لك متى في مسار الرحلة حدث هذا، فالزمن، كما أسلفت، لم تعد له أهمية. لا بد من أن هذا حدث بين اليوم المئة والمئتين. كنت أكيداً من أنني لن أصمد يوماً إضافياً.

عند الصباح التالي لم أعد أخشى الموت، وبدأت أتحضر له.

توصلت إلى الإستنتاج المحزن بأنه لم يعد بوسعي الاعتناء بريتشارد باركر، لقد أخفقت في مهمتي. كنت حزيناً لموته المحتوم أكثر مما لموتي. لكن محطماً ومستنزف القوى مثلما كنت، لم يكن بوسعي فعل شيء له.

كان يحدث ذلك بسرعة. وهن قاتل سيطر عليّ. سأكون ميتاً عند العصر. ولكي أجعل رحيلي أقل وطأة قررت أن أطفئ ظمأي الذي تحملته طويلاً. شربت قدر ما أمكنني، وحلمت لو أتمتع بقضمة طعام أخيرة، لكن كان واضحاً أن هذا لن يحدث. اضطجعت على المشمّع. أغمضت عيني ورحت أنتظر أن تفيض روحي من تلقائها، تمتمت: «وداعاً، ريتشارد باركر. آسف لأنني خذلتك. فعلت كل ما في وسعي. وداعاً. أبي العزيز، أمي الغالية، الحبيب رافي، تحياتي. إبنكم المحب آت لملاقاتكم. لم تمض ساعة من دون أن أفكر بكم. ساعة أراكم ستكون الأجمل في حياتي. والآن أترك أمري في يدي الله، الذي هو الحب، والذي أحبه».

سمعت صوتاً: «أمن أحد هنا؟».

كم مذهل ما يمكن تسمعه في فراغ عقلك المحتضر حين تكون وحيداً. صوت بلا شكل ولا رائحة. أن تكون أعمى هو أن تسمع بطريقة أخرى.

الصوت مجدداً: «أمن أحد هناك؟».

استنتجت أنني جننت، حقيقة محزنة لكن صحيحة. البؤس يحب الصحبة، والجنون يلبي النداء.

«أمن أحد هناك؟»، جاء الصوت مرة أخرى، ملحاً.

وضوح جنوني كان مدهشاً. الصوت كان له جرسه الخاص، ثقيل، وبارد على نحو غريب. قررت أن أتماشى مع الأمر.

«بالطبع ثمة أحد هنا»، رددت: «دائماً ثمة أحد، وإلا فمن الذي يطرح السؤال؟».

«كنت آمل بأن أجد شخصاً آخر».

«ما الذي تعنيه، شخص آخر؟ أتدرك أين أنت؟ إذا لم تكن سعيداً بخيالاتك هذه، فاختر غيرها. هناك الكثير من الخيالات التي يمكنك أن تنتقي منها».

هممم. الخيالات، ألن يكون جيداً تخيل ثمار التين الآن؟

«إذن، ليس من أحد، أليس كذلك؟».

«هس... إنني أحلم بالتين».

«التين! ألديك تين؟ أرجوك أيمكنني الحصول على حبة؟ أتوسل إليك. فقط حبة صغيرة. إنني أتضور جوعاً».

«ليس لدي واحدة فحسب، بل شجرة كاملة».

«شجرة كاملة من التين! أوه أرجوك، أيمكن أن تعطيني بعضها؟ إنني..».

اختفى الصوت أو أياً يكن تأثير الريح الذي خلقه.

«إنها سمينة وثقيلة وزكية الرائحة»، تابعت: «غصون الشجرة منحنية من ثقلها. لا بد من أنه هناك ثلاثمائة حبة تين في هذه الشجرة».

صمت.

ثم عاد الصوت: «لنتحدث عن الطعام...».

«يا لها من فكرة جيدة».

«ما الذي كنت ستأكله لو كان بإمكانك الاختيار؟».

«سؤال ممتاز. كنت اخترت بوفيه ممتازاً. كنت بدأت بالأرز مع السامبار، إضافة إلى رز الدال الأسود والرز باللبن و...».

«أما أنا فسأختار. . .».

«لم أنه كلامي بعد. ومع الأرز سأختار السامبار بالبهارات وقطع البصل الصغيرة والسامبار مع. . .».

«أي شيء آخر؟».

«سأصل إليه، سأتناول أيضاً الساغو النباتي والكورما النباتي وماسالا البطاطا والفادي، والماسالا دوساي واللانتيل لاسام الحرة و. . .».

«فهمت».

«إنتظر. . والبوريال المحشو بالبيض واليام كوتو بجوز الهند ورز الإدلي والفاداي والباجي النباتي. . .».

«هذا يبدو. . .».

«هل ذكرت الشوتني؟ الشوتني بجوز الهند والشوتني بالنعناع والفلفل الأخضر المكبوس وكبيس الكشمش. كلها تقدم مع النان، والبوداموس، والباراتاس، والبوريس بالطبع».

«إنه شيء. .».

«والسلطات! سلطة المانغا والأوكرا، وسلطة الكاكامبر. وللتحلية ألموند بپاسام، وكعكة جاغاري، وتوفي الفستق وبورفي جوز الهند، وآيس كريم بالفانيلا، مع صلصة شوكولاته ساخنة».

«أهذا كل شيء؟».

«سأنهي هذه الوجبة بعشرة ليترات من المياه الباردة والنظيفة وفنجان قهوة».

«تبدو وجبة ممتازة».

«وهي كذلك».

«قل لي، ما هي كوكتو اليام بجوز الهند».

«ليست أقل من الجنة، هذه هي باختصار. لكي تحضّرها تحتاج إلى اليام، وجوز الهند المقشّر، والخردل الأخضر، وبودرة البهارات، والبهار الأسود البري، والزنجبيل البري، وبذور الكمون، وبعض زيت جوز الهند. تقلي على نار خفيفة جوز الهند حتى تصير بنية ذهبية...».

«هل لي أن أقترح شيئاً؟».

«ماذا؟».

«بدلاً من يام الكوتو بجوز الهند، لماذا لا تقلي لسان عجل بصلصة الخردل؟».

«هذا يبدو غير نباتي».

«وهو كذلك. ثم هناك الكرش».

«الكرش؟ أكلت لسان الحيوان المسكين والآن تريد أن تأكل كرشه؟».

«أجل! أحلم بالكروش على طريقة مدينة (كن) ـ سخنة ـ مع البنكرياس».

«الخبز الحلو؟ هذا يبدو أفضل. ما هو البنكرياس؟».

«البنكرياس يصنع من بنكرياس العجل الصغير».

«البنكرياس!».

«يطهى على مهل مع صلصة الفطر، إنه شهي بكل بساطة».

من أين تأتي هذه الوصفات اللحومية المقرفة؟ هل مضيت في الجنون إلى هذا الحدّ؟ يا للرياح الرهيبة التي أجدني عالقاً فيها؟ هل انجرف القارب عائداً إلى القمامة؟

«ماذا ستكون الإهانة التالية؟»

«دماغ العجل مقلي بالزبدة!».

«عدنا إلى الرأس إذاً؟».

«سوفليه الدماغ!».

«أشعر بالغثيان. أهناك شيء تأبى أن تأكله؟».

«أضحي بحياتي لقاء حساء ذيل الثور، أو لقاء خنزير محشو بالأرز، أو لقاء الصلصات، الأبريكوت، والرايزنز. لقاء كبد بالزبدة، مع حساء الخردل والبرسلي. لقاء أرنب مقلي منقع بالنبيذ الأحمر. لقاء صلصات كبد الدجاج. لقاء باتيه البورك والكبد مع الفيل. لقاء الضفادع. آه، فقط لو الضفادع!».

«هذا لا يحتمل».

خبا الصوت. أخذت أرتجف من الغثيان. جنون العقل كان أمراً، لكن ليس من الإنصاف أن يتجه نحو المعدة.

أدركت فجأة ما الذي يجري.

«أتأكل لحم عجل نيء ؟»، سألت.

«بالطبع! أحب ستيك التارتار».

«أتأكل الدم المتخثر لخنزير ميت؟».

«كل يوم، مع صلصة التفاح!».

«أتأكل أي شيء حيواني، آخر الفضلات؟».

«لحم الخنزير المفروم، مع الصلصة! أرضى بطبق من الفضلات!».

«ماذا عن الجزر؟ أتأكل جزرة نيئة؟».

لا جواب.

«أسمعتني؟ هل تأكل الجزر؟».

«سمعتك. لأكون صادقاً معك، إذا كان لي الخيار، فلن أفعل. معدتي لا تحبذ هذا النوع من الأطعمة. أجدها غير لذيذة!».

ضحكت. تيقنت عندها. لم أكن أسمع أصواتاً. لم أجن. كان ريتشارد باركر الذي يحدّثني! النذل آكل اللحوم. أمضينا معاً كل هذا الوقت، وقد اختار الساعة الأخيرة قبل موتنا ليتكلم. أسعدتني المحادثة، وملأتني بفضول جامح، من ذلك النوع الذي يعاني منه نجوم السينما مع المعجبين.

«أشعر بالفضول، قل لي، أقتلت إنساناً في حياتك؟».

شككت بالأمر. الحيوانات آكلة البشر بين الحيوانات نادرة بندرة المجرمين بين البشر، وريتشارد باركر ألقي القبض عليه وهو لا يزال شبلاً. لكن من يقول إن أمه قبل أن يطعنها ثيرستي، لم تنقض على كائن بشري؟

«يا له من سؤال» أجاب ريتشارد باركر.

«يبدو منطقياً».

«أحقاً؟».

«أجل».

«لماذا؟».

«لديك سمعة».

«أحقاً؟».

«بالطبع، هل أنت أعمى عن هذه الحقيقة؟».

«أجل».

«حسناً، دعني أوضح لك ما لا تراه بوضوح: لديك هذه السمعة. إذاً، هل قتلت إنساناً؟».

صمت.

«إذاً، أجبني».

«أجل».

«أوه! هذا يجعل بدني يقشعر. كم واحداً؟».

«اثنين».

«قتلت رجلين؟».

«لا، رجلاً وامرأة».

«في الوقت عينه؟».

«لا، الرجل أولاً، ثم المرأة».

«أيها الوحش! أراهن أنك وجدت في ذلك متعة كبرى. لا بد من أنك وجدت صرخاتهما ومجاهدتهما للتخلص منك مسلية».

«ليس حقاً».

«أكان مذاقهما طيباً؟».

«تقصد إذا كانا شهيين؟».

«أجل. لا تكن بليداً إلى هذا الحدّ أكانا شهيين؟».

«لا، لم يكونا كذلك».

«هذا ما ظننته. سمعت أن اللحم البشري غيرمحبذ عند الحيوان. لماذا قتلتهما إذاً؟».

«الحاجة».

«حاجة وحش. هل ندمت؟».

«كان إما هما وإما أنا».

«إنها الحاجة معبراً عنها بأبسط أشكالها اللاأخلاقية. لكن هل تندم الآن؟».

«كان ذلك ابن لحظته. كان ظرفياً».

«الغريزة. إنها تسمى الغريزة. ومع ذلك أجبني عن سؤالي، هل تندم الآن؟».

«لا أفكر في الأمر».

«هذا هو بالضبط تعريف الحيوان. وهذا ما أنت عليه».

«وما أنت؟».

«إنسان، وسأجعلك تدرك ذلك».

«يا للتبجح».

«إنها الحقيقة».

«إذاً، أنت من يرمي الحجر الأول، أليس كذلك؟».

«هل تناولت مرة الأوثابام؟».

«لا، لكن أخبرني عنها، ما هي الأوباثام؟».

«إنها طيبة جداً».

«تبدو شهية. أخبرني المزيد عنها».

«الأوثابام تصنع غالباً من مخيض فضلات الطعام، لكن نادراً ما يتم الثناء على طعام بعد الانتهاء منه مثلها».

«أحسّ طعمها على لساني».

غفوت، أو بالأحرى دخلت في هذيان الاحتضار.

لكن شيئاً كان يضايقني، لا أستطيع تحديده. أياً كان فقد كان يقلق احتضاري.

عرفت السبب. عرفت سبب انزعاجي.

«عذراً؟».

«أجل؟» جاء صوت ريتشارد واهناً.

«لماذا لديك لكنة غريبة؟».

«ليس لدي لكنة. أنت الذي لديه لكنة غريبة».

«لا، ليس لدي لكنة، أنت الذي تلفظ حرف «ذي» بلكنة غريبة».

«ألفظ «ذي» مثلما تلفظ. أما أنت فترخّم كلامك حين تتكلم. لديك لكنة هندية».

«تتكلم كما لو أن لسانك منشار والكلمات الإنكليزية مصنوعة من الخشب. لديك لكنة فرنسية».

كان ذلك غير منطقي على الإطلاق. ريتشارد باركر ولد في بنغلادش ونشأ في تاميل نادو، لماذا لديه لكنة فرنسية إذن؟ بالتأكيد، بونديتشيري كانت في السابق مستعمرة فرنسية، لكن لا أحد يمكنه أن

يتخيل أن حيوانات الحديقة كانت تتردد على الرابطة الفرنسية في شارع «دوما».

كان ذلك محيزاً للغاية. غرقت مجدداً في ما يشبه النوم.

استيقظت متنهداً. أحدهم كان هناك! هذا الصوت الذي أسمعه لم يكن الريح ولا لكنة حيوان يتكلم. إنه شخص آخر! راح قلبي يخفق بقوة، والدم يتدفق للمرة الأخيرة في جسدي المنهك. حاولت أن أصفّي ذهني.

«مجرد صدى على ما أخشى» سمعته يقول بصوت شديد الخفوت.

«إنتظر إنني هنا»، صرخت.

«صدى بحري...».

«لا، إنه أنا!».

«فقط لو ينتهي هذا!».

«يا صديقي!».

«إنني أموت...».

«إبق، إبق!».

بالكاد كنت أسمعه.

صرخت.

صرخ.

كان ذلك يفوق احتمالي. سأجن.

خطرت لي فكرة.

«إسمي»، لفظت الكلمات بآخر أنفاسي «بيسين موليتور باتيل. الصدى لا يخلق إسماً؟ أتسمعني؟ أنا بيسين موليتور باتيل، يعرفني الجميع باسم باي باتيل!».

«ماذا؟ أمن أحد هناك؟».

«ماذا؟ أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ أرجوك، هل لديك أي طعام؟ أي شيء. لم يبق لدي طعام. لم آكل شيئاً منذ أيام. يجب أن آكل شيئاً. سأكون ممتناً لو أمكنك الاستغناء عن أي شيء. أتوسل إليك».

«لكن أنا أيضاً لا أملك طعاماً»، أجبت، فزعاً: «لم آكل شيئاً منذ أيام أيضاً. كنت آمل أن يكون معك طعام. ألديك مياه. مؤونتي شحيحة جداً».

«لا، ليس لدي. ليس لديك أي طعام؟ ولا أي شيء؟».

«ولا شيء».

حل صمت. صمت ثقيل.

«أين أنت؟»، سألت.

«أنا هنا»، أجاب.

«لكن أين؟ لا أستطيع أن أراك».

«لماذا لا تستطيع أن تراني؟».

«لأنني عميت».

«ماذا؟»، صرخ.

«لقد عميت. لا أرى سوى العتمة. أرمش فلا أرى شيئاً. خلال

اليومين الماضيين اعتمدت على جلدي لقياس الوقت، لتمييز الليل عن النهار».

سمعت عويلاً رهيباً.

«ماذا؟ ما الأمر يا صديقي؟»، سألته.

ظل ينتحب.

«أجبني أرجوك. ما الأمر. أنا أعمى، وليس لدينا طعام أو شراب، لكن لدينا بعضنا. هذا أمر مهم، أمر قيم. إذاً، ما الأمر يا أخي العزيز؟».

«أنا أعمى أيضاً!».

«ماذا؟».

«أرمش فلا أرى شيئاً، مثلما تقول».

أخذ ينتحب مجدداً. شلت حواسي. لقد التقيت أعمى آخر على متن قارب نجاة آخر في المحيط!

«لكن كيف يمكن أن تكون أعمى؟»، تمتمت.

«للسبب نفسه على الأرجح. بسبب شحّ الغذاء وهزال الحواس».

انهار كلانا. هو ينتحب وأنا أنشج. كان ذاك يفوق الاحتمال، يفوق الاحتمال حقاً.

«لدي قصة»، قلت بعد فترة.

«قصة؟».

«أجل».

«ما فائدة القصة؟ إنني جائع».

«إنها قصة عن الطعام».

«الكلمات لا تحتوى على وحدات حرارية».

«أطلب الطعام حيث يكون».

«هذه فكرة جيدة».

صمت. صمت يثير الجوع.

«أين أنت؟»، سألني.

«هنا، وأنت؟».

«هنا».

سمعت طرطشة مياه سببها ارتطام مجذاف بالماء. مددت يدي إلى أحد المجاذيف التي أنقذتها من حطام الطوف. تحسست بيدي وعثرت على أول مسند مجذاف ووضعت المجذاف فيه. سحبت المقبض. لم يكن لدي قوة. لكنني جذفت بكل قوتي.

«لنسمع قصتك» قال، لاهثاً.

«كان يا ما كان كان هناك موزة راحت تكبر حتى صارت كبيرة، صلبة وصفراء وذات فوح. ثم سقطت على الأرض وجاء شخص والتهمها».

توقف عن التجذيف، «يا لها من قصة رائعة!».

«شكراً لك».

«عيناي تطفران بالدموع».

«هناك عنصر آخر في القصة»، قلت.

«ما هو؟».

«سقطت الموزة سقطت على الأرض وجاء شخص والتهمها، وبعد ذلك شعر هذا الشخص بأنه أفضل حالاً».

«قصة تقطع الأنفاس!»، هتف.

«شكراً لك».

صمت.

«لكن ليس لديك أي موز؟».

«لا، السعلاة ألهتني عنه».

«ماذا؟».

«إنها قصة طويلة».

«ألديك معجون أسنان؟».

«لا».

«إنه شهي مع السمك. ماذا عن السجائر؟».

«أكلتها».

«أكلتها؟».

«لا يزال لدي الفلترات، يمكنك الحصول عليها إذا شئت».

«الفلترات؟ ماذا أفعل بفلتر من دون تبغ؟ كيف أمكنك أكل السجائر؟».

«ما الذي كنت سأفعله بها، فأنا لا أدخن».

«كان عليك أن تحتفظ بها لمقايضتها».

«مقاضيتها؟ مع من؟».

«معي!».

«يا أخي حين أكلتها كنت وحيداً على القارب في عرض المحيط».

«إذاً؟».

«إذاً، فرصة أن ألتقي أحداً أقايضه السجائر لم تبد لي فكرة جلية إلى هذا الحدّ».

«عليك أن تخطط قدماً، أيها الفتى الغبي! الآن لم يعد لديك ما تقايض به».

«لكن حتى لو كان معي، فبماذا أقايضه؟ ما الذي تملكه ويمكن أن أقايضك به؟».

«الذي جزمة».

«جزمة؟».

«أجل، جزمة جلد جيدة».

«ما الذي يمكن أن أفعله بجزمة في قارب في عرض المحيط؟ أتظن أنني أمارس الهرولة في أوقات فراغي؟».

«يمكنك أن تأكلها!».

«آكل جزمة؟ يا لها من فكرة».

«أكلت السجائر، فما الذي يمنعك من أكل حذاء؟».

«الفكرة مقرفة.. حذاء من هو على أي حال؟».

«أنى لي أن أعرف؟».

«أتقترح علي أن آكل حذاء شخص غريب كلياً؟».

«أي فرق في هذا؟».

«أنا مصدوم. جزمة! ضع جانباً حقيقة أنني هندوسي وأننا نحن

الهندوس نعتبر الأبقار مقدسة، فإن أكل جزمة جلدية يوازي بالنسبة إلي أن آكل كل الأوساخ التي تفرزها القدم، إضافة إلى كل الأوساخ التي يمكن أن تكون داست عليها».

«إذاً، لا تريد الجزمة».

«دعني أراها أولاً».

«لا».

«ماذا؟ أتتوقع مني أن أشترى منك سمكاً في البحر؟».

«كلانا أعمى، أذكرك بذلك».

«صف لي هذه الجزمة إذن! أي بائع فاشل أنت؟ لا عجب في افتقارك إلى الزبائن».

«هذا صحيح، أنا كذلك».

«حسناً، الجزمة؟».

«إنها جلدية».

«أي نوع من الجلد؟».

«النوع العادي».

«ما يعني؟».

«حذاء مع لسان وشريط ونعل داخلي. النوع العادي».

«ما لونه؟».

«أسود».

«ما حاله؟».

«بال. الجلد ناعم وطري، جميل عند اللمس».

«والرائحة؟».

«رائحة جلد فواحة ودافئة».

«علي أن أقر، علي أن أقر، أنه يبدو جذاباً!».

«يمكنك نسيان أمره».

«لماذا؟».

صمت.

«ألن تجيب يا أخي؟».

«ليس من حذاء».

«لا حذاء؟».

«لا».

«هذا يحزنني».

«لقد أكلته».

«أكلت الجزمة؟».

«أجل».

«أكان طعمها جيداً؟».

«لا، أكان طعم السجائر طيباً؟».

«لا، لم أستطع إنهاءها».

«كان يا ما كان موزة كبرت حتى صارت كبيرة وصلبة وصفراء وفواحة. ثم وقعت على الأرض وجاء شخص وأكلها وأحس أنه أفضل حالاً».

«آسف، آسف على كل ما قلته وفعلته، إنني شخص بلا قيمة»، انفجر صارخاً.

«ما الذي تعنيه؟ أنت أغلى وأهم شخص على الأرض. تعال يا أخي، لنكن معاً، ولنولم على صحبة واحدنا للآخر».

«أجل!».

ليس المحيط الهادئ بالمكان المناسب للمجذفين خصوصاً إذا كانوا واهنين وعمياناً، وقوارب نجاتهم كبيرة وثقيلة والرياح لا تساعدهم. كان قريباً، ثم بعيداً، إلى يساري، ثم إلى يميني، أمامي، ثم ورائي. لكننا نجحنا أخيراً. التقى قاربانا بضربة أطيب من سلحفاة. رمى لي حبلاً وجذبت قاربه نحو قاربي. فتحت ذراعي لأحتضنه. كانت عيناي تطفران بالدمع وكنت أبتسم. كان أمامي مباشرة، حضوره يشع مخترقاً عماي.

«أخي العزيز»، همست.

«أنا هنا»، أجاب.

سمعت زئيراً خافتاً.

«أخي، هناك شيء نسيت أن أذكره لك».

حط عليّ بثقله. وقعنا على المشمّع، وعلى المقعد الوسطي. امتدت يداه إلى رقبتي.

«أخي»، قلت بصعوبة بسبب ثقله عليّ، «قلبي معك، لكن عليّ أن ألح عليك بأن ننتقل إلى مكان آخر من قاربي المتواضع».

«أنت محق في هذا.. قلبك معي!»، قال، «وكبدك ولحمك!».

أمكنني أن أحس به وهو ينتقل من المشمّع إلى المقعد الوسطي ويخفض رجله إلى أرضية القارب».

«لا يا أخي، لا تفعل! لسنا..».

حاولت صده. للأسف كان قد فات الأوان. قبل أن أنطق بكلمة كنت وحيداً ثانية. سمعت صوت قوائم ريتشارد باركر تسير على الأرض بشكل يكاد يكون غير مسموع، وفي اللحظة التالي صرخ أخي العزيز كما لم أسمع إنساناً يصرخ من قبل. ارتخت قبضته.

هذا كان الثمن الفادح لريتشارد باركر. منحني حياة، حياتي، لكن على حساب حياة أخرى. مزق لحم الرجل وكسر عظامه. رائحة الدم ملأت أنفي. في تلك اللحظة مات شيء ما فيّ، ولم يعد بعدها إلى الحياة.

الفصل ٩١

صعدت إلى قاربه، ورحت أتحسّسه محاولاً استكشاف محتوياته. اكتشفت أنه كذب علي. فقد كان لديه بعض لحم سلحفاة، ورأس سمكة دورادو، وبعض فتات البسكويت، وكان لديه بعض الماء أيضاً. كل هذا ذهب مباشرة إلى فمي. عدت إلى قاربي وأبعدته عن قاربه.

لعل موجات البكاء التي استولت عليّ عادت بالنفع على عيني. فصارت النافذة الصغيرة أعلى مجال بصري ثغرة، ومع مداومتي على غسل عيني بمياه البحر، أخذت النافذة تزداد اتساعاً. عاد إلي بصري في غضون يومين.

منظر جسده مذبوحاً وممزقاً في القارب جعلني أتمنى لو بقيت أعمى. كان ريتشارد باركر التهم لحمه بشراسة بما في ذلك وجهه، بحيث لم تعد تظهر ملامحه. جسده منزوع الأحشاء، مع قفصه الصدري المهشم، جعله يبدو نسخة مصغرة عن القارب، ومثله كان غارقاً في الدماء.

اعترف أنني استعملت لحم إحدى ذراعيه كطعم. سأعترف أكثر أنني، بسبب بحاجتي القصوى والجنون الذي دفعت إليه، أكلت بعض لحمه، أعني شذرات صغيرة، من تلك التي أردت استعمالها كطعم، والتي بعد أن جفت بالشمس بدت كأي لحم عادي. ازدردتها من دون أن أميز طعمها. عليك أن تفهم كم كان عذابي لا يحتمل، وهو كان ميتاً أصلاً. توقفت عن أكل لحمه ما إن اصطدت سمكة.

أصلي لروحه كل يوم.

الفصل ٩٢

كثر لن يصدقوا على الأرجح هذا الجزء من قصتي. فق قمت، في سياق رحلتي، بكشف نباتي فريد.

كنت أفقت من إغفاءة قصيرة على المشمّع، وانقلبت على جنبي الآخر، محاولاً بذل أقل جهد ممكن. وحين لمحت على مسافة قريبة مني ما يشبه الأشجار لم أعر الأمر اهتماماً، معتبراً أنه ليس إلا وهماً بصرياً سببته حال النعاس التي لا أزال فيها، وأنه سيزول ما إن أرمش بعيني.

لم تختف الأشجار، بل تحولت إلى دغل، ولم يساهم ذلك في تبديد شكوكي، وإن شعرت ببعض البهجة لكون نظري يرواغني على هذا النحو الباذخ. كانت الأشجار رائعة، لم أر مثيلاً لها من قبل. كانت باهتة اللحاء، غير أن أغصانها المتناسقة مثقلة بالأوراق الخضراء اللازوردية اللمّاعة.

رمشت بضع مرات، متوقعاً أن يلعب جفني دور قطاعة الخشب. لكن الأشجار لم تهو.

نظرت إلى أسفل، وشعرت بالرضى وخيبة الأمل في آن مما رأيت. كانت الجزيرة بلا تربة. ليس أن الأشجار تنتصب في المياه، بل داخل كتلة نباتية كثيفة، تلمع بخضرة كثيفة كالأوراق. من سمع يوماً بأرض بلا تربة؟ بأشجار تنمو من النبات فقط؟ أحسست بالرضى لأن بيئة كهذه تؤكد أنني محق، وأن هذه الجزيرة ليست إلا سراباً، بقدر ما خاب أملي لأنني حرمت من فرصة الهبوط على جزيرة.

بقيت الأشجار، وبقيت أتأملها. كانت رؤية اللون الأخضر بعد كل ذاك الأزرق، بمثابة الموسيقى لأذني. الأخضر لون جميل، وهو لون الإسلام، اللون المفضل عندي.

دفعت الامواج القارب بلطف إلى شاطئ الجزيرة الوهمية. ربما ليس دقيقاً أن أسميه شاطئاً، إذ لا رمل فيه ولا حصى، ولا حتى موجاً فعلياً، فالأمواج التي ترتطم بالجزيرة تذوب بكل بساطة في مسامها. الجزيرة لها حرف بطول ثلاثمائة ياردة تقريباً، يمتد نحو أربعين ياردة منها في مياه المحيط، قبل أن يختفي، ليشكّل بالتأكيد أصغر لسان قاري معروف.

لم أعتد السراب فحسب، بل أطلقت له العنان، وحين لامس القارب الجزيرة، لم أتزحزح من مكاني خشية أن أستيقظ من الحلم. بدت الجزيرة قائمة على الحشائش البحرية المعقدة والمتشابكة، التي يزيد قطرها كثافة عن إصبعين مجتمعين. يا لها من جزيرة خيالية، رحت أفكر.

بعد بضع دقائق، زحفت من المشمّع إلى حافة القارب. «إبحث عن الخضرة»، يقول دليل النجاة. حسناً هذه هي الخضرة. في الواقع إنها جنة كلوروفية.. خضرة مسكرة.

«قدمك هي أفضل حكم على اليابسة»، يقول الدليل. الجزيرة كانت بمتناول رجلي. أن أجرب، ويخيب أملي، أو ألا اجرب وأستمر بالحلم، تلك هي المسألة.

قررت أن أجرب. نظرت حولي لأتأكد من عدم وجود أسماك قرش، ثم انقلبت على معدتي، ومتمسكاً بالمشمّع، أخفضت رجلي ببطء، حتى لامست المياه. كانت باردة بشكل منعش. كان العشب يلتمع على بعد مسافة قصيرة. مددت رجلي أكثر، متوقعاً انفجار فقاعة الوهم في أي لحظة.

لم تنفجر. غاصت رجلي في مياه نقية واصطدمت بأرضية مطاطية طرية إنما ثابت. وضعت مزيداً من ثقلي. لم يزل الوهم. أرخيت وزني كله على رجلي. لم أغرق. ومع ذلك لم أصدق.

أخيراً، كان أنفي الذي حكم بأنها اليابسة حقاً، معلناً أن ما أشمه ليس إلا رائحة نباتية نضرة وغامرة. تنهدت عميقاً. بعد أشهر من الروائح البحرية، كانت هذه الرائحة النباتية مسكرة. عندها فقط صدقت، والشيء الوحيد الذي غرق كان عقلي؛ عقلي ترنح، ومثله رجلاي.

«يا إلهي، يا إلهي!»، رحت أنشج.

وقعت عن القارب.

أمدني ارتطامي بالأرض الثابتة والمياه الباردة بالقوة لكي أتقدّم نحو الجزيرة. رحت أتمتم شكراً لله وانهرت مجدداً.

لكن لم يكن بوسعي المكوث جامداً. كنت أغلي حماسة. حاولت الوقوف على رجلي. تسارع تدفق الدم في رأسي. اهتزت الأرض

تحتي، واستولت عليّ دوخة معمية. شعرت أنه سيغمى علي. تحاملت على نفسي. لم يكن بوسعي إلا اللهاث. نجحت أخيراً في الوقوف.

«ريتشارد باركر! إنها اليابسة! إنها اليابسة! لقد نجونا!» رحت أصرخ.

نفذت رائحة النبات إلى حواسي، وكان اخضرارها قوياً إلى حدّ أنني شعرت بالطاقة تعود مجدداً إلى جسدي بمجرد النظر إليها.

ما هي هذه الحشائش البحرية أنبوبية الشكل، شديدة التشابك؟ أتصلح للأكل؟ بدت خليطاً من الطحالب البحرية، لكنها أقسى من تلك العادية، وحين تحسستها بيدي كانت رطبة. جذبت العشب بيدي، فانقصم بلا جهد يذكر. في مقطعه العرضي يتكون هذا الطحلب من جدارين متراكزين: الجدار الخارجي الرطب، الصلب قليلاً، وشديد الخضرة، والداخلي الذي بين الجدار الخارجي ولب الطحلب. كان الانقسام في الأنبوبين الناتجين مسطحاً جداً: الأنبوب المركزي أبيض اللون، بينما ذاك الذي يحيط به تزداد خضرته لدى اقترابه من الجدار الداخلي. اشتممت الطحلب. رائحته حيادية لا تشبه الراوائح النباتية المعهودة. لحسته. اكتشفت أنه مبلل بالمياه العذبة. تسارع نبض قلبي.

قضمت قضمة منه. مذاق مروع. كان الأنبوب الداخلي شديد الملوحة، أما الخارجي فلم يكن صالحاً للأكل فحسب، بل طيب المذاق. بدأ فمي يرتعش مثل أصابع تقلب في صفحات معجم، محاولة العثور على كلمة منسية منذ زمن سحيق. عثرت عليها، وأغمضت عيني وأنا أستمتع بسماعها: «العذوبة». ليس كما في كلمة

«لذيذ»، بل كما في كلمة «سكري». الأسماك والسلاحف جيدة من نواح عدة، لكنها ليست أبداً سكرية. كان ثمة في الطحلب طعم سكري خفيف يتجاوز في طيبته حتى سائل أشجار القيقب هنا في كندا. أقرب ما يمكنني مقارنته به هو الكستناء المائي.

سال لعابي، وأنا أجمع الطحلب بكلتا يدي، مجبراً فمي على التحرك بسرعة وقوة لم يألفهما منذ زمن طويل. اقتلعت كميات من الطحلب المحيط بي حتى لم يعد حولي سوى المياه.

على بعد مئتي قدم مني كانت تنتصب شجرة مفردة. كانت الشجرة الوحيدة المنحدرة من ذلك الحرف الممتد من قاع المحيط الذي بدا طويلاً نسبياً. أقول «الحرف»، علماً أن الكلمة قد تعطي انطباعاً خاطئاً عن مدى علو الارتفاع عن الشاطئ. الجزيرة كانت واطئة، كما قلت. كان الارتفاع خفيفاً لا يتجاوز خمسين أو ستين قدماً. لكن في الحالة التي كنت فيها، فإن هذا الارتفاع بدا شاهقاً كالجبل. الشجرة كانت مغرية للغاية. لاحظت الظل الذي تكوّنه. حاولت الوقوف ثانية. نجحت في أن أقرفص، لكن ما إن حاولت الوقوف حتى انتابني دوار واختل توازني. وحتى لو لم أقع، فإن رجلي ما عاد فيهما أي قوة. لكن إرادتي كانت قوية. صممت على المضي قدماً. زحفت، جررت نفسي، بطريقة تشبه القفز الخفيف، وصولاً إلى الشجرة.

لم أعرف في حياتي فرحة توازي تلك التي عرفتها حين دخلت في ظل تلك الشجرة المضيء والمنقط، وسمعت صوت الريح الجاف وهو يحفحف أوراقها. لم تكن الشجرة بكبر أو بطول الأشجار الأخرى على اليابسة، وكونها على الجهة الخطأ من الحرف، وبالتالي أكثر عرضة للعناصر الطبيعية، فقد كانت ضامرة بعض الشيء وغير نامية

بشكل منتظم مثل رفيقاتها. لكنها كانت شجرة، والشجرة شيء مبارك النظر إليه خصوصاً حين تكون تائهاً في البحر لمثل تلك الفترة الطويلة. غنيت لمجد تلك الشجرة، لصفائها الصلب، ولجمالها المتمهل. أوه، لو أكون مثلها، متجذراً في الأرض، وكل يد فيّ مرفوعة إلى السماء. بكيت.

فيما قلبي يمجد الله، كان عقلي يحاول فهم أعماله. كانت الشجرة تنشأ بالفعل من الطحلب. لم يكن هناك أي أثر للتربة. إما أنه هناك تربة أعمق، أو أن هذا الجنس من الأشجار هو مثال مذهل عن النبات الطفيلي أو المؤاكل. كان جذعها بعرض صدر رجل، ولحاؤها أخضر رمادياً، رفيعاً وناعماً، وطرياً إلى حدّ أنه يمكنني أن أطبع عليه بصمات أصابعي، أما أوراقها قلبية الشكل فكبيرة وواسعة، وتنتهي عند نقطة واحدة. أعلى الشجرة مستدير بالكامل كأشجار المانغا، ، لكنها لم تكن مانغا. رائحتها شبيهة بشجرة القراص، لكنها لم تكن كذلك أيضاً. ولا المنغروفية. لا تشبه أي شجرة رأيتها في حياتي. كل ما أعرفه أنها كانت رائعة وخضراء ومليئة بالأوراق.

سمعت هريراً. التفت. كان ريتشارد باركر يراقبني ويراقب الجزيرة من القارب. بدا خائفاً من مغادرة القارب. أخيراً، بعد كثير من الزمجرة والخطو المتذبذب، قفز من القارب. قربت الصافرة البرتقالية من فمي تحسباً، لكنه لم يكن يضمر عدائية، كان كل همه أن يوازن نفسه على تلك الأرض المتزعزعة. راح يزحف بأطراف مرتعشة مثل شبل حديث الولاد. بعدها تقدّم إلى الحرف، على مسافة كافية مني، ثم اختفى داخل الجزيرة.

أمضيت النهار آكلاً الطحلب، محاولاً الوقوف، وبصورة عامة،

غارقاً في النعمة. شعرت بالقرف حين أجهدت نفسي إلى هذا الحدّ. وظللت أشعر أن الأرض تحتي تتحرك وأنني سأقع، حتى وأنا واقف دون حراك.

بدأت عند العصر أقلق بشأن ريتشارد باركر. الآن وقد تغير المشهد وتبدلت الحدود التي تفصل بيننا، لم أعد واثقاً من أنه سينصاع لأوامري.

متردداً، وبهدف الوصول إلى الأمان، زحفت عائداً إلى القارب. ربما يتخذ ريتشارد باركر من الجزيرة مقراً جديداً، لكن الجؤجؤ والمشمّع لا يزالان منطقتي. بحثت عن شيء أوثق به القارب إلى الجزيرة، فلم أجد سوى الطحلب. حللت المشكلة أخيراً بأن غرزت مجذافاً عميقاً في الطحلب بعد أن ربطت القارب إليه.

زحفت على المشمّع. كنت منهكاً بعد هضم هذا الكمّ من الطعام، وكانت أعصابي مهتاجة بفعل هذا الحدث المفاجئ. مع انتهاء النهار، أذكر بشكل غامض ريتشارد باركر وهو يزمجر بعيداً، لكن النوم استولى علي.

ليلاً، أيقظني اضطراب غريب في معدتي. حسبت أنه مغص، وأنني سممت نفسي بالطحالب. سمعت جلبة. نظرت. كان ريتشارد باركر على المتن. لا بدّ من أنه عاد خلال نومي. كان يموء ويلحس كفه. حيرني أمر رجوعه لكنني لم أنشغل به، فالمغص كان يتفاقم، حتى صرت أتلوّى ألماً، وأرتجف، قبل أن تأخذ تلك العملية الاعتيادية، بالنسبة إلى الجميع، لكن المنسية بالنسبة إلي منذ زمن طويل، مجراها: التغوّط. كانت عملية مؤلمة جداً، لكن بعدها دخلت في أعمق نوم وأكثره إنعاشاً منذ الليلة التي سبقت غرق التسمتسوم.

حين أفقت صباحاً شعرت بأنني أكثر حيوية. زحفت بنشاط لى الشجرة المنفردة. أولمت لعيني بمنظرها، وقدّمت لمعدتي إفطاراً دسماً من الطحالب.

مجدداً، تردّد ريتشارد باركر طويلاً قبل أن يقفز من القارب. وحين فعل، عند منتصف الصباح، كان شديد التوتر، حتى أنه عاود القفز إلى القارب. هسهس وضرب الهواء بكفه. كان ذلك مثيراً للفضول. لم تكن لدي فكرة عما يفعله. يبدو أنه تجاوز توتره بعد ذلك، فتقدم بعدها بخطى واثقة، واختفى مجدداً داخل الجزيرة.

في ذلك اليوم حاولت الوقوف مستنداً إلى الشجرة. شعرت بدوخة، ولم أستطع من وقف إحساسي بأن الأرض تتزحزح تحتي إلا بأن أغمض عيني وأتمسك أكثر بالشجرة. حاولت أن أمشي، فوقعت قبل أن أخطو خطوتي الأولى، لكنني لم أتأذ. فالطحلب الذي يكسو الأرض كلها يجعل من الجزيرة مكاناً مثالياً لتعلم المشي من جديد.

في اليوم التالي، بعد ليلة أخرى من الراحة على القارب، الذي مرة أخرى عاد ريتشارد باركر إليه، استعدت قدرتي على المشي. بعد أن وقعت نحو ست مرات، تمكنت من الوصول إلى الشجرة. كنت أحس بقوتي تزداد ساعة بساعة. مددت يدي مستعيناً بالرمح وجذبت غصناً من الشجرة. نزعت بعض الأوراق. كانت ناعمة وخالية من الإفرازات الشمعية، لكنها مرة المذاق.

كان تفسيري لعودة ريتشارد باركر المستمرة إلى القارب أنه كان متعلقاً بمكانه فيه.

رأيته يرجع ذاك المساء، عند غروب الشمس. كنت قد أعدت ربط القارب بالمجذاف المنغرز. كنت على الجؤجؤ، أتأكد من أن الحبل

مربوط بشكل جيد عند الكوثل. ظهر فجأة. في البداية لم ألحظ حضوره. هذا الحيوان الرائع الذي يقفز بكل حيوية لا يمكن أن يكون النمر الواهن نفسه الذي رافقني في ساعات الشؤم؟ لكنه كان هو. كان ريتشارد باركر وكان منطلقاً في اتجاهي. بدا عازماً على شيء ما. عظام رقبته الصلبة ترتفع إلى ما فوق رأسه المنخفض. فراؤه وعضلاته تتحرك مع كل خطوة. كان بوسعي سماع طرق خطوه الثقيل على الأرض.

قرأت مرة أن هناك نوعين من الخوف لا يمكن الاعتياد عليهما: ردة الفعل الجافلة عند سماع جلبة مفاجئة، والدوخة المفاجئة. أود إضافة خوف ثالث، وهو الهجوم الخاطف والسريع لوحش مفترس.

بيدين مرتعشتين تناولت الصافرة. حين صار على بعد خمسة وعشرين قدماً من القارب نفخت بكل قوتي. صرخة حادة ثقبت الهواء، وأحدثت التأثير المطلوب. زمجر ريتشارد باركر، وبدا أنه يستعد لهجوم جديد. نفخت الصافرة مرة أخرى. جعل يراوح مكانه بطريقة غريبة، مزمجراً بقوة. نفخت مرة ثالثة. انتصبت كل شعرة في بدنه، فيما كفاه مستنفران بالكامل. كان في حالة هيجان قصوى. خشيت أن الجدار الدفاعي الذي تشكله الصافرة سيتهاوى وأنه سيهاجمني.

بدلاً من ذلك، فعل ريتشارد باركر أكثر الأمور غرابة: قفز في البحر. فعل آخر ما يمكن أن أتوقعه منه في تلك اللحظة. شق طريقه بقوة سابحاً نحو الكوثل. فكرت في أن أصفر مرة أخرى، لكن بدلاً منذ لك فتحت غطاء الخزانة وجلست، مرتداً إلى حرمة منطقتي.

تقدم إلى الكوثل والمياه تقطر منه، جاعلاً طرفي من القارب يرتفع

قليلاً. توازن على الحافة وعلى مقعد الكوثل لثانية، محاولاً تخمين مكاني. أحسست بثقل في قلبي. لم أحسب انني سأتمكن من النفخ في الصافرة مرة أخرى. نظرت إليه ببهوت. نزل إلى أرضية القارب واختفى تحت المشمّع. لمحت طرفه من حواف باب الخزانة. استلقيت على المشمّع، بعيداً من نظره، لكن فوقه مباشرة. شعرت بحاجة ملحة لأن أفرد جناحي وأحلق بعيداً.

هدأت. أجبرت نفسي على أن أتذكر أن هذا كان وضعي منذ فترة طويلة، أن أعيش مع نمر حي.

مع هدوء تنفسي، جاءني النوم.

أيقظني شيء ما خلال الليل، ومتناسياً خوفي، نظرت ناحية ريتشارد باركر. كان نائماً: يرتجف ويئن في نومه. كان أنينه الذي أيقظني.

في الصباح، كالعادة، انطلق إلى داخل الجزيرة.

أزمعت على استكشاف الجزيرة ما إن أستعيد قواي. بدت كبيرة حقاً، إذا كان يمكن الحكم من خط الشاطئ، فهو يمتد يساراً ويميناً، ويبدو مائلاً عند الجانبين، لتبدو الجزيرة على قدر لا بأس به من الاتساع. أمضيت النهار وأنا أمشي وأقع، محاولاً تنشيط رجلي. وعند كل سقوط كنت أتناول وجبة كاملة من الطحالب.

عاد ريتشارد باركر آخر النهار، أبكر بقليل من اليوم السابق. حافظت على هدوئي ولم أنفخ في الصافرة. وصل إلى حافة المياه وبقفزة كبيرة واحدة أصبح في القارب، ودخل إلى منطقته من دون المرور بمنطقتي، جاعلاً القارب يميل إلى جهة واحدة. كانت عودته إلى هيئته الأصلية المهيبة مخيفة حقاً.

مضيت في الصباح التالي، بعد ذهاب ريتشارد باركر بوقت طويل، لأستكشف الجزيرة. وصلت بسهولة إلى قمة الحرف. لو كانت رجلي أضعف لكانتا انهارتا حين رأيت ما رأيته وراء الحرف.

كانت الجزيرة كلها مكسوة بالطحلب، وليس حوافها فقط، لتشكل سهلاً واسعاً في قلبه غابة خضراء. وحول الجزيرة انتشرت مئات البرك المائية المتساوية الحجم، وقد توزعت الأشجار بالتساوي بينها، مما يعطي انطباعاً أكيداً بأن الجزيرة تتبع تصميماً هندسياً معيناً.

لكن كانت «الميركات» أكثر ما أثار ذهولي. رأيت في نظرة واحدة ما أقدّره بتحفظ مئات آلاف منها. كانت تحجب الأرض تحتها. وحين ظهرت لها عند قمة الحرف بدت جميعاً تلتفت نحوي، باندهاش، كدجاج في مزرعة.

لم يكن لدينا ميركات في حديقة بونديتشيري. لكنني قرأت عنها في الكتب والأدبيات المتعلقة بالحيوانات. الميركات هو حيوان ثديي جنوب إفريقي من فصيل النمس؛ بكلام آخر حيوان جحوري من أكلة اللحوم، له أربعة قوائم قصيرة تنتهي كل منها بكف صغيرة فيها أربعة أصابع، يبلغ القدم طولاً والباوندين وزناً عند البلوغ، ويجعله هزال جسمه شبيهاً بابن عرس، وله خطم منقط، وعينان جاحظتان في مقدم وجهه، وذيل بطول ثمانية أقدام تقريباً. فراؤه بني خفيف مائل إلى الرمادي وتوشح ظهره خطوط بنية أو سوداء، بينما طرف ذيله، وأذناه والدوائر المميزة التي تحيط بعينيه، فسوداء. إنه حيوان رشيق وجميل، ينشط نهاراً ويتحرك في جماعات، ويتغذى في بيئته المحلية ـ صحراء «كالهاري» في جنوب إفريقيا ـ من بين أشياء كثيرة، على العقارب، التي هو محصن بالكامل ضد سمها. ويمتاز الميركات بقدرته على

الانتصاب بشكل كامل على أطراف كفيه الخلفيين، موازناً نفسه، كالحامل ثلاثي القوائم، بذيله. غالباً ما تحتشد الميركات في مجموعات كل منها تتخذ بقعة واحدة من الأرض وتروح تنظر في الاتجاه عينه، مثل حشد من الركاب ينتظرون وصول الحافلة. التعبير الجاد على وجوهها، والطريقة التي تتدلى فيها قوائمها الأمامية وهي منتصبة، يجعلانها تبدو كأطفال يتموضعون بطريقة واعية أمام الكاميرا، أو مرضى يتعرون في عيادة طبيب، محاولين عبثاً تغطية أعضائهم التناسلية.

كان هذا ما رأيته في نظرة واحدة، مئات آلاف الميركات، أكثر، مليوناً، تلتفت نحوي بانتباه، كما لو أنها تقول «أجل، سيدي؟». أذكرك أن طول الميركات يصل كحد أقصى إلى ١٨ إنشاً، فلم تكن ضخامة تلك الكائنات ما يخطف الأنفاس بل عددها. جمدت في مكاني، عاجزاً عن النطق. إذا ما سبّب حضوري تجفيل هذا العدد الهائل من الميركات ودفعها إلى الفرار فستعم فوضى لا توصف. لكن سرعان ما فتر اهتمامها بي. فعادت بعد بضع ثوان إلى ما كانت تفعله قبل ظهوري، وهو إما قضم الطحالب أو التحديق في البرك المائية. وقد ذكرني هذا المشهد الهائل من الكائنات المنحنية في الوقت نفسه بمشهد المصلين في المسجد.

بدت غير خائفة مني. وحين نزلت عن الحرف، لم تفر أي منها أو تعر وجودي أدنى اهتمام. ولو أردت للمست واحداً منها، بل لحملت واحداً. لكنني لم أفعل. مشيت ببساطة بين ما هو بالتأكيد أكبر مستعمرة ميركات في العالم، وكانت تلك من أغرب تجارب حياتي وأروعها. كان هناك ضوضاء ملحاحة في الجو، ناشئة عن

أصواتها الجماعية وهي تصىء، وتسقسق، وتنبح. جلبة فريدة، أحياناً تتحول صخباً، أشبه بحشد من الطيور يحوم حولي، ثم يخبو بسرعة حين تصمت مجموعة من الميركات، في الوقت الذي تندلع فيه جلبة مجموعة أخرى.

هل لا تخشاني لأنه ينبغي أن أكون أنا من يخشاها؟ عبر السؤال خاطري، لكن سرعان ما تبين لي أنها غير مؤذية. فلكي أقترب من إحدى البرك، التي يحتشد حولها الميركات بكثافة، اضطررت إلى أن أزيح بعضها برجلي لكي لا أدوس عليه، فلم تتعامل مع هذا على أنه اعتداء، بل أفسحت لي في المجال مثل حشد بشري طيب. شعرت بدفء فرائها يلامس ركبتي وأنا أنظر إلى تلك البركة.

كل البرك كانت دائرية ولها الحجم نفسه، بقطر أربعين قدماً تقريباً. توقعت أن أرى مياهاً ضحلة، لكنها كانت عميقة لا يُرى قاعها. وبقدر ما أمكن نظري الوصول في عمقها رأيت أن جوانبها تتكون من الطحالب الخضراء، فتأكد لي أن الطحالب أساسية في تكوين الجزيرة.

لم أر ما يفسر لي فضول الميركات تجاه البرك، وكان يمكن أن أتخلى عن حل اللغز لو لم تنقطع الضوضاء فجأة عند إحدى البرك، حيث راحت الميركات تتقافز باهتياج شديد. ثم فجأة، أخذت تندفع بالمئات إلى البركة، مما أدى إلى الكثير من الازدحام والتدافع. كان الهيجان جماعياً، وحتى الميركات الصغيرة جعلت تشق طريقها إلى المياه، من دون أن تصدها أمهاتها. حدقت غير مصدق. لم تكن ميركات صحراء «كالهاري» النموذجية، فتلك لا تتصرف كالضفادع. هذه الميركات بالتأكيد فصيل منها، لكنها تتميز عنها بطرق مفاجئة وخلابة.

اتجهت بخطى حذرة إلى البركة، لأرى الميركات تسبح، تسبح حقاً، ثم تخرج من البركة جالبة الأسماك بالمئات، وليست بالأسماك الصغيرة، بل بعضها كان من نوع الدورادو، التي تجعل الميركات تبدو قزمة وهي تحملها. بدا غير مفهوم بالنسبة إلي كيف تتمكن من صيد سمكة كهذه.

وبينما الميركات تسحب الأسماك من البركة، كأنها تحضر لوجبة جماعية، لاحظت شيئاً مثيراً للاهتمام: كل سمكة، بلا استثناء، كانت ميتة أصلاً. ميتة وطازجة. كانت الميركات تجلب إلى الشاطئ أسماكاً ميتة لم تقم هي بقتلها.

انحنيت عند البركة، مزيحاً بضع ميركات متحمسة ومبللة. لمست المياه. كانت أبرد مما توقعت. كان هناك تيار يجلب ماء مصقعاً من الأسفل. حملت بكفي بعض المياه وقربتها من فمي ورشفتها.

كانت مياهاً عذبة. هذا يفسر سبب موت الأسماك، إذ بالتأكيد ضع سمكة بحرية في مياه باردة فسوف تنتفخ بسرعة وتموت. لكن ما الذي تفعله هذه الأسماك في بركة مياه عذبة؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ذهبت إلى بركة أخرى، شاقاً طريقي بين الميركات. كانت أيضاً عذبة. بركة أخرى، سيان، والأمر نفسه مع بركة رابعة.

كانت كلها برك مياه عذبة. من أين جاءت هذه الكميات من المياه العذبة، تساءلت. كان الجواب واضحاً: من الطحالب. الطحالب بشكل طبيعي ومستمر تفصل مياه البحر، ولهذا السبب فإن صلبها كان مالحاً، بينما طبقتها الخارجية مبللة بالمياه العذبة: كانت تحلّب المياه المالحة. لم أسأل نفسي لماذا يفعل الطحلب هذا، أو كيف أو إلى أين يذهب الملح. توقف عقلي عن طرح أسئلة كهذه. ببساطة

ضحكت وقفزت في إحدى البرك. وجدت من الصعوبة البقاء في الماء؛ كنت لا أزال واهناً، وكان لدي القليل من الدهن الذي يمكن أن يساعدني على أن أطفو. تعلقت بحافة البركة. تأثير الاستحمام في مياه نظيفة ونقية وخالية من الملح كان أكثر مما يمكنني وصفه بالكلمات. بعد فترة طويلة كتلك في عرض البحر، أصبح جلدي شبيهاً بجلد حيوان وشعري طويلاً جداً، وسلكياً. شعرت أن روحي حتى أفسدها الملح. إذاً، تحت نظرات آلاف الميركات نقعت نفسي في مياه البركة تاركاً كل نقطة ملح تزول عن جسدي.

نظرت الميركات في اتجاه آخر. فعلت ذلك كما لو أنها رجل واحد ينظر في اتجاه معين في الوقت نفسه. جذبت نفسي إلى أعلى لأرى ما الذي يحدث. كان ريتشارد باركر. لقد أكد لي ما شككت به، أن هذه الميركات عاشت طوال قرون من دون حيوانات تفترسها بحيث أن مفهوم الفرار، ذلك الخوف الغريزي، استؤصل جينياً منها. كان يتحرك بينها، مفجراً ممراً من الجريمة والفوضى، قاتلاً الميركات الواحد بعد الآخر، والدم يقطر من فمه، أما الميركات، فأخذت تتقافز في مكانها، كما لو أنها تقول «إنه دوري! إنه دوري!». رأيت هذا المشهد مراراً بعد ذلك. لا شيء يلهي الميركات عن قضم الطحالب والتحديق في البرك، سواء تسلل ريتشارد باركر على طريقة النمور قبل أن يهجم عليها في عاصفة من الزمجرة، أم اقتحم فجأة، لم تكن لتتحرك. الخنوع هو الذي يحكم.

قتل ريتشارد باركر ما يفوق حاجته. قتل ميركات لم يأكلها. عند الحيوان الحاجة إلى القتل مختلفة عن الحاجة إلى الأكل. أن يعيش حيوان زمناً طويلاً من دون فريسة، ويجد أمامه فجأة هذا العدد منها، فمن الطبيعي أن تنبعث فيه غريزة الصيد بتلك القوة.

كان بعيداً. لم يكن ثمة خطر علي. أقله في الوقت الراهن.

الصباح التالي بعد ذهابه، نظفت القارب. كان بحاجة ملحة إلى التنظيف. لن أصف ما يبدو عليه تراكم الهياكل العظمية البشرية والحيوانية، المخلوط بعدد لا يحصى من بقايا السلاحف والأسماك. طرحت القذارة في البحر، ولم أجرؤ على الدوس على أرضية القارب خشية أن أخلّف أثراً على وجودي في منطقة ريتشارد باركر، لذا كان ينبغي كالعادة إنجاز الأمر بالرمح من على المشمّع أو من حافة القارب، وأنا واقف في المياه. ما لم أستطع تنظيفه بالرمح هو تلك الروائح والمواد اللزجة، فغسلتها بدلاء من الماء.

تلك الليلة دخل إلى جحره الجديد النظيف من دون تعليق. في فكه عدد من الميركات الميتة، التي جعل يلتهمها طوال الليل.

أمضيت الأيام التالية أشرب وآكل وأستحم وأراقب الميركات، وأمشي وأركض وأستريح وأستعيد قواي. صار ركضي رشيقاً وخفيفاً. شفي جلدي، ولم أعد احس بتلك الآلام المبرحة. ببساطة، عدت إلى الحياة.

استكشفت الجزيرة. حاولت الدوران حولها لكنني استسلمت. أقدر أنها كانت بقطر تقريبي يصل إلى ستة أو سبعة أميال، مما يعني أن محيطها الدائري يبلغ حوالى عشرين ميلاً. ما رأيته خلال رحلاتي الاستكشافية تلك هو أن ملامح الجزيرة لا تتبدل بين ناحية وأخرى. الأخضر الفاقع نفسه في كل مكان، الحرف نفسه، الانحدار نفسه من الحرف إلى المياه، تبدل المشهد بالنمط نفسه، مع بروز شجرة رفيعة هنا أو هناك. أما استكشاف الشاطئ فقد قادني إلى كشف استثنائي: الطحلب، وبالتالي الجزيرة نفسها، يختلف في العلو والكثافة اعتماداً

على حال الطقس. في أيام القيظ، تتشابك الطحالب بقوة وكثافة فيزداد علو الجزيرة؛ ويصبح الحرف أكثر انحداراً وارتفاعاً. ولم يكن ذلك يحدث بسرعة إذ ينبغي أن يدوم الحر أياماً عدة ليحصل هذا التحول. أعتقد أن الأمر له صلة بحفظ المياه، بتعريض سطح الطحلب أقل لأشعة الشمس.

الظاهرة العكسية، وهو تراخي الجزيرة، كان يحدث أسرع، وبشكل أكثر جذرية، ولسبب أوضح. ففي أوقات البرد والمطر وارتفاع منسوب مياه المحيط يهبط الحرف، ويصبح أكثر امتداداً، ويصبح الطحلب على امتداد الشاطئ رخواً إلى حدّ تعلق به الرجلان.

عصفت بالجزيرة عاصفة كبرى، صرت واثقاً من بعدها أنه يمكنني الصمود بوجه أعتى الأعاصير. كان من الرائع القعود على غصن شجرة والتفرج على الموجات العملاقة تنقضّ على الجزيرة، موحية بأنها ستطيح الحرف، قبل أن تضمحل عند قاعدته. كانت الجزيرة بهذا المعنى تتبع مبدأ غاندي في اللاعنف: تقاوم بألا تقاوم. كل موجة تمتصها الجزيرة، ولا تترك منها إلا بعض الزبد. ترتجف الأرض قليلاً وتضطرب المياه في البرك، وينتهي الأمر. كان المشهد الأغرب هو مشهد الموجات التي بعد أن تختفي في الجزيرة تعاود النشوء عند الطرف الآخر وتمضي في طريقها كأنه لم يعترضها شيء. أما الميركات فلم يكن من شأن أي عاصفة ثنيها عما تقوم به.

كانت الجزيرة مقفرة كلياً. لم أر أي شكل من أشكال الحياة الأخرى. لا ذباب، ولا نحل، لا حشرات ولا طيور، لا قوارض، ولا دود، لا أفاعي، ولا عقارب؛ ولا أي أنواع أخرى من الأشجار، لا أعشاب، ولا أزهار، لا أسماك مختلفة، ولا أعشاب برية، لا

سلاطعين، ولا «كراي فيش»، لا مرجان، لا فقاعات، ولا صخور. باستثناء الميركات ليس هناك أي حياة غريبة على الجزيرة، عضوية كانت أم غير عضوية. لا شيء سوى الطحلب الأخضر اللماع والأشجار الخضراء اللماعة.

لم تكن الأشجار طفيليات. اكتشفت هذا ذات يوم عندما أكلت الكثير من الطحلب عند جذع شجرة صغيرة تعرت جذورها. رأيت أن الجذور لا تنبت بشكل مستقل عن الطحلب، بل تنضم إليه، وتصبح وإياه واحداً. مما يعني أن هذه الأشجار إما تعيش نوعاً من العلاقة التكافيلة مع الطحالب، ويستفيد الطرفان منها، أو أبسط من ذلك، أنها جزء أساسي من الطحالب. أظن أن الحالة الثانية هي الأصح كون الأشجار لا تحمل ثماراً أو أزهاراً. أشك في أن عضواً مستقلاً، أياً يكن مقدار التكافل، يمكن أن يكف عن جعل امتداد مهم كهذا نتاجاً له. أما شهية الأوراق للشمس، مثلما تشهد وفرتها، وخضرتها الفائقة، فتوحي أن الأشجار تضطلع بوظيفة جمع الطاقة. لكنه مجرد تخمين.

هناك ملاحظة أخيرة أود أن أسجلها، وهي قائمة على الحدس أكثر مما على الدليل الحسي: أن الجزيرة ليست جزيرة بالمعنى التقليدي للكلمة، بل إنها عضو يطفو بحرية، كرة من الطحلب هائلة الحجم، وأن البرك تنفتح بطريقة ما على المحيط، مما يفسر حضور الدورادو وغيرها من الأسماك التي تعيش في البحار المفتوحة.

كل هذا يتطلب دراسة اعمق لكنني للأسف فقدت عينة الطحلب التي أخذتها معي.

مثلي، عاد ريتشارد باركر إلى الحياة. زاد وزنه من الميركات التي راح يحشو نفسه بها، كما عادت النضارة إلى فرائه، واستعاد نظرته

الصحية الثاقبة. ظل يعود إلى القارب عند نهاية النهار، وظللت أحرص على أن أكون هناك قبله، معلماً بغزارة منطقتي بالبول بحيث لا ينسى من هو ومن أنا. كان يغادر عند بزوغ الفجر ويمضي بعيداً في الجزيرة، أما أنا، بعد إدراكي أن الجزيرة هي نفسها في كل النواحي، فقد التزمت بقعة واحدة. قلما كنت أراه خلال النهار، وكان يوترني ذلك أحياناً، خصوصاً حين رأيت كيف تترك مخالبه، حين يثب على الأشجار، آثاراً واضحة على اللحاء، ومن وقت لآخر كنت أسمع زئيره الهائل الذي تقشعر له الأبدان. ولم يقلقني احتمال أنه كان يبحث عن أنثى ليتزاوج معها، بل إن ذلك يعني أنه كان مرتاحاً كفاية على الجزيرة بحيث بدأ يفكر في التناسل، لكنني بدأت أخشى أنه، في وضعه الجديد، لن يتسامح مع وجود ذكر آخر في منطقته، منطقته الليلية خصوصاً، لا سيما وأن صرخاته الدائمة المنادية على الأنثى بقيت بلا جواب.

ذات يوم كنت أتنزه في الغابة، حين مررت بشجرة، ووجدتني فجأة في مواجهته. أجفل كلانا. هسهس ووقف على قائمتيه الخلفيتين، مستعداً للانقضاض علي. شلتني الصدمة فلم أتحرك. بعد برهة وقف على قوائمه الأربع ومضى مبتعداً. حين خطا ثلاث أو أربع خطوات، استدار وعاود الوقوف على قائمتيه، مزمجراً هذه المرة. بقيت واقفاً كتمثال. مشى بضع خطوات أخرى وكرر التهديد مرة ثالثة، وبعد أن شعر بأنني لا أشكل تهديداً مضى مبتعداً. ما إن التقطت أنفاسي وتوقفت عن الارتجاف، حتى قربت الصافرة من فمي ورحت أعدو خلفه. كان قد ابتعد مسافة جيدة، لكنه لا يزال على مرأى النظر. ركضت بكل قوتي. استدار، رآني، ربض ثم هجم.

نفخت في الصافرة، متمنياً أن يمضي صوتها بعيداً مثل صرخة نمر وحيد.

تلك الليلة بينما كان يرتاح على بعد قدمين مني في القارب، استنتجت أنه ينبغي أن أخطو داخل حلبة السيرك ثانية.

الصعوبة الكبرى في تدريب الحيوانات هو أنها تتحرك إما وفقاً للغريزة أو الروتين. ومع ذلك يظل ممكناً إنشاء صلات جديدة في عقل الحيوان لا تكون غريزية أو قائمة على التقليد، بالتالي يمكن أن نطبع في عقل الحيوان تلك الصلة الاصطناعية التي تفيد بأنه إذا قام بحركة معينة، لنقل تدحرج، فإنه سيحظى بوجبة، وهذا يمكن إنجازه فقط عبر التكرار الذي من شأنه أن يشلّ العقل. إنها عملية بطيئة تعتمد على الحظ بقدر ما على الجهد الشاق، خصوصاً حين يكون الحيوان بالغاً. في سياق محاولتي الجديدة هذه نفخت في الصافرة حتى تأذت رئتي. وآلاف المرات صرخت «هيب! هيب! هيب!»، وهي الكلمة التي تعني، بلغة النمر، «إفعل!». كما قدّمت له مئات الميركات التي كنت أتمنى أن آكلها بنفسي.

ليس ترويض النمر سهلاً، فهو أقل مرونة من من حيوانات أخرى تدرب عادة في السيرك وحديقة الحيوانات، مثل أسد البحر والشيمبانزي. لكنني لا أريد أن أعزو كل الفضل لي في ما تمكنت من إنجازه مع ريتشارد باركر. من حسن حظي أنه لم يكن فقط نمراً صغيراً بل مرناً أيضاً، حيوان أوميغا. خشيت من أن تجعله الظروف الجديدة على الجزيرة وتوافر الطعام والماء بهذه الكثرة وتلك المساحة المفتوحة أقل استجابة لي، لكن أعصابه بقيت مشدودة. كنت أعرفه بما يكفي لأدرك ذلك. ليلاً على القارب كان يضج مضطرباً، وعزوت

التوتر إلى هذه البيئة الجديدة، فأي تغيير، حتى لو كان إيجابياً، يقلق الحيوان. وأياً كان السبب، فقد ظل، بفعل الضغط الذي كان يرزح تحته، يظهر استعداداً للطاعة؛ أكثر من ذلك، كان يعبّر عن الحاجة إلى الطاعة.

دربته على القفز عبر حلقة صنعتها من الأغصان. كان تمريناً بسيطاً مكونا مّن أربع قفزات، كل قفزة تكسبه قطعة ميركات. أولاً كنت أحمل الحلقة عند نهاية يدي اليسرى، على علو نحو ثلاثة أقدام عن الأرض، وحين ينهي القفزة أحمل الحلقة بيدي اليمنى وظهري له وآمره بأن يعود ويقفز عبرها ثانية. أما للقفزة الثالثة، فأركع على الأرض وأضع الحلقة فوق رأسي. كانت تجربة مدمرة للأعصاب أن أراه منطلقاً في اتجاهي. وكل مرة كنت أخاف من أنه يمكن أن يقفز عليّ مباشرة، لكن والحمد لله، كان يقفز كل مرة داخل الحلقة. بعدها أنهض وأدحرج الحلقة كعجلة، ويفترض به أن يتبعها ويقفز عبرها مرة أخيرة قبل أن تقع. لم يكن يجيد هذا الجزء أبداً، إما لأنني كنت أخفق في قذف الحلقة بالشكل المناسب وإما لأنه يعدو نحوها بطريقة بلهاء. لكنه على الأقل كان يركض وراءها، مما يعني أنه يتبعد عني. وكان دائماً يندهش حين تقع الحلقة، ناظراً إليها كما لو كانت حيواناً آخر يركض معه ثم انهار فجاة. فيبقى قربها، ويروح يشمّها. عندها أرمي له آخر حصة من الطعام وأبتعد.

تخليت تدريجياً عن القارب. بدا عبثياً أن أمضي ليالي في مكان كهذا مع حيوان له احتياجاته المكانية، حين يكون بوسعي الحصول على الجزيرة كلها. قررت أنه أكثر أماناً أن أنام فوق شجرة. عادة ريتشارد باركر بالنوم في القارب لم تكن قانوناً بالنسبة إلي. ولن يكون

جيداً أن أكون خارج بقعتي على القارب، نائماً بلا دفاع على الأرض، حين يحدث ولو مرة أن يقرر التجول ليلاً.

لذا غادرت القارب ذات يوم آخذاً معي الشبكة، وحبلاً وبعض الملاءات. بحثت عن شجرة مناسبة عند حافة الغابة ورميت بالحبل على غصن منخفض. صارت لياقتي البدنية تسمح لي بأن أرفع نفسي إلى أعلى وأن أتسلق الشجرة. وجدت غصنين صلبين على مستوى واحد، فربطت الشبكة بينهما. عدت عند نهاية النهار.

كنت قد أنهيت طوي الملاءات لكي أصنع فرشتي حين لاحظت جلبة بين الميركات. أزحت بعض الأغصان لكي أرى بصورة أفضل. كانت الميركات تهجر البرك، والسهل كله، وتتجه بسرعة إلى الغابة. أمة كاملة من الميركات تتحرك، ظهورها منحنية وقوائمها بالكاد ظاهرة. تساءلت أي مفاجئة أخرى تخفيها هذه الحيوانات حين لاحظت بجزع أن المجموعة التي عند البركة الأقرب مني، كانت قد حاصرت الشجرة وبدأت تتسلقها. أخذ الجذع يختفي تدريجياً تحت موجة من الميركات، التي حسبت أنها آتية لمهاجمتي، وأن هذا هو سبب نوم ريتشارد باركر في القارب: خلال النهار تكون الميركات غير مؤذية، ولكن ليلاً تحت تأثير هيبتها الجماعية، تسحق عدوها بغير رحمة. اجتاحني الخوف والغضب في آن. أيعقل أن أتمكن من النجاة خلال تلك المدة على متن قارب مع نمر يزن ٤٥٠ باونداً، لكي أموت على شجرة على أيدي ميركات يزن الواحد منها باوندين، بدا لي ذلك مأساوي وغير منصف وسخيف.

لم تقصد الأذى. انتشرت فوق، وحولي، وتحتي، واستقرت على كل الأغصان التي انحنت تحت ثقلها. وحتى أنها استولت على

سريري، وفعلت المجموعات الأخرى الأمر نفسه حيال كل الأشجار الأخرى. تحولت الغابة كلها إلى اللون البني، كما لو أن الخريف هبط عليها دفعة واحدة. خلال هذه العملية كانت الميركات تصدر ضوضاء أشد من ضوضاء قافلة من الفيلة.

صار السهل، بعدها، عارياً.

انتقلت من منامة خاصة مع نمر إلى منامة عامة مع حشد من الميركات، هل سيصدقني أحد حين أقول إن الحياة تتحول بطرق لا يتخيلها العقل؟ رحت أدفع الميركات بمنكبي لكي أحصل على فسحة في سريري الخاص. لكنها حشرت نفسها بي. لم يبق أي إنش شاغر على الشجرة.

استقرت الميركات وتوقفت عن إصدار الأصوات. هبط الصمت على الشجرة. غفونا.

استيقظت عند الفجر مغطى من رأسي إلى أخمص قدمي بملاءة من الفراء الحي. بعض صغار الميركات اكتشفت الأجزاء الأكثر دفئاً في جسدي، وشكل بعضها شالاً ضيقاً حول عنقي، لا بد من أن تلك التي استقرت قرب رأسي هي أمها، بينما حشرت أخريات نفسها بين فخذي.

أخلت الميركات الشجرة بالطريقة نفسها التي اجتاحتها فيها، وسيان مع كل شجرة. اكتظ السهل مجدداً بها، وعاد صخبها النهاري يملأ الهواء. بدت الشجرة فارغة. وشعرت بنفسي فارغاً، بعض الشيء. أحببت تجربة النوم معها.

صرت أنام في الشجرة كل يوم. جلبت من القارب بعض الأشياء

المفيدة وصنعت بها لنفسي سريراً مريحاً أعلى الشجرة. اعتدت على الخربشات غير المتعمدة من الميركات وهي تتسلقني. الشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو أن بعض الحيوانات التي تستقر على الغصون الأعلى كان يتبرز أحياناً علي.

ذات ليلة أيقظتني الميركات. كانت ترتجف وتتذبذب بسرعة. استويت ونظرت في الاتجاه الذي كانت تنظر إليه. كانت السماء صافية والقمر مكتملاً، والأرض بلا لون. كان كل شيء يومض بطريقة غريبة في ظلال من الأسود والرمادي والأبيض. كانت البركة. خيوط فضية تتحرك فيها، منبثقة من الأسفل وكاسرة سطح المياه الأسود.

إنها الأسماك، الأسماك الميتة. تطفو من أسفل، حتى امتلأت البركة بها، فصار سطحها فضياً. وكان واضحاً ومن الطريقة التي ظلت تضطرب بها صفحة الماء، أن المزيد من الأسماك الميتة كان يصعد من أسفل.

مع الوقت ظهرت سمكة قرش ميتة، اهتاجت الميركات، وجعلت تزعق كالطيور الاستوائية. وانتقلت الهستيريا إلى الأشجار الأخرى. كان صوتاً يصم الآذان. تساءلت ما إذا كنت سأراها تنزل إلى البركة وتسحب السمكة إلى الشجرة.

ولا ميركات نزلت إلى البركة. ولا واحدة منها حتى قامت بالخطوات الأولى للنزول عن الشجرة. اكتفت بهذا التعبير الصاخب عن إحباطها.

أقلقني ذلك. ثمة ما يثير جزع الميركات من هذه الأسماك الميتة.

اضطجعت ثانية وبذلت جهداً لكي أعود إلى النوم ثانية. عند أول

ضوء أفقت على هرجها ومرجها وهي تهبط من الشجرة. نظرت، متثائباً ومتبعجاً، إلى البركة التي كانت مصدر ذاك القلق والهيجان الليلة الماضية. كانت فارغة أو تقريباً فارغة. ومن الواضح أن هذا لم يكن من عمل الميركات التي الآن تغطس لكي تحصل على ما تبقى.

حيرني اختفاء الأسماك. أكنت أنظر إلى البركة الخطأ؟ لا، بالتأكيد، هذه هي. كنت واثقاً من أنها ليست الميركات التي فرّغتها، إذ بالكاد يمكن تخيلها وهي تخرج قرشاً من الماء، عدا عن حمله على ظهورها والاختفاء به. أيكون ريتشارد باركر؟ جزئياً ممكن، لكنه لا يمكن أن يفرّغ بركة كاملة في ليلة واحدة.

كان لغزاً كاملاً. مهما حدقت في البركة وجدرانها الخضراء العميقة، فلم يفسر ذلك لي ما حدث للأسماك. الليلة التالية نظرت، لكن لا أسماك جديدة ظهرت في البركة.

الجواب على اللغز جاء لاحقاً، من أعماق الغابة.

كانت الأشجار عند مركز الغابة أكبر وأكثر قرباً من بعضها، وكانت جذوعها واضحة عند الأسفل، أما في الأعلى فكانت كثيفة إلى حد أنها تحجب السماء. كانت متقاربة إلى حدّ أن أغصانها تتشابك في بعضها، حتى يصعب معرفة أين تبدأ شجرة وتنتهي أخرى. لاحظت أن جذوعها نظيفة وناعمة، وليس عليها أي من تلك العلامات الصغيرة التي لا تحصى التي تظهر على لحاء الأشجار من أثر تسلق الميركات لها. خمنت السبب بسهولة: كان بوسع الميركات الانتقال من شجرة إلى شجرة من دون الحاجة إلى تسلقها. وجدت كدليل على هذا، أشجاراً عدة في قطر قلب الغابة التي صار لحاؤها عملياً ممزقاً. كانت تلك الأشجار بلا شك بوابات الميركات إلى المدينة الشجرية، وبالتالي لم تكن تحتاج إلى تسلق سواها.

هناك عثرت على تلك الشجرة. لم تكن الأكبر في الغابة، ولا تتميز كثيراً عن سواها، سوى أن غصونها أطول نوعاً ما. كانت لتشكل بقعة ممتازة يمكن رؤية الميركات من خلالها أو مراقبتها ليلاً.

يمكنني أن أخبرك بالضبط في أي يوم عثرت على هذه الشجرة. كان ذلك قبل يوم واحد فقط من مغادرتي الجزيرة.

لفتت هذه الشجرة نظري بالتحديد لأنها بدت تحمل ثماراً. بينما لا يحمل سائر الأشجار سوى الأوراق الخضراء، كانت هذه الشجرة تحمل ثماراً سوداء غريبة، وكانت أغصانها ملتوية بطريقة غريبة أيضاً. نظرت إليها. جزيرة بأكملها مغطاة بالاشجار العارية إلا شجرة واحدة، ولم تكن الشجرة كلها تحمل الثمار حتى، بل جزءاً صغيراً منها. ظننت أنني أمام المعادل الشجري لملكة النحل، وتساءلت ما إذا هذه الطحالب ستتوقف عن إدهاشي بعجائبها النباتية.

أردت أن أتذوق الثمار، لكن الشجرة كانت عالية جداً. لذا عدت إلى القارب وجلبت حبلاً. إذا كانت الطحالب لذيذة الطعم، فما سيكون حال الثمار؟

ربطت الحبل حول غصن واطئ في الشجرة ثم رحت أتسلقها غصناً فغصناً وصولاً إلى الثمرة الغالية.

فوق، عن كثب، كانت الثمار خضراء باهتة. كانت بحجم البرتقال وشكله. كل واحدة كان يلتف حولها عدد من الأماليد كأنما بغرض حمايتها. وإذ اقتربت أكثر، تبيّنت هدفاً آخر لهذه الأماليد: الدعم. فالثمرة لم تكن لها سويقة واحدة، بل العشرات، المتشابكة مع الأماليد. لا بدّ من أن هذه الثمرة ثقيلة وممتلئة بالعصير، فكرت. واقتربت أكثر.

مددت يدي وأمسكت بواحدة. بدا مخيباً للآمال كم هي خفيفة. بالكاد كان لها وزن. خلصتها من كل السويقات وسحبتها.

استويت على أحد الأغصان، مسنداً ظهري إلى جذع الشجرة. فوقي سقف متحرك من الأوراق الخضراء. حولي، بقدر ما يمكنني أن أراها، معلقة في الهواء، كانت الطرقات الملتوية والمتعرجة لهذه المدينة المعلقة. نسيم عليل سرى بين الأشجار. تفحصت الثمرة.

آه، أتمنى لو لم تأت تلك اللحظة! لولاها لعشت لسنوات، بل لبقية حياتي، على تلك الشجرة. لا شيء، كنت أظن، يمكن أن يجبرني على العودة إلى المحيط ومعاناة الحرمان الذي عانيته، ولا سبب يمكن أن يجعلني أغادر الجزيرة. ألم أعثر فيها على حاجاتي الجسدية؟ ألا يوجد هنا من المياه العذبة ما يكفيني طوال حياتي؟ أليس هناك طحلب أكثر مما يمكنني أكله؟ وحين أريد التنويع أليس هناك أسماكاً وميركات أكثر مما أشتهي؟ إذا ما طفت الجزيرة وتحركت ألن تتجه بي في الاتجاه الصحيح؟ ألن يتضح أنها سفينة نباتية تعيدني إلى اليابسة؟ في الأثناء أليس هناك تلك الميركات الرائعة لتسليني؟ أوليس ريتشارد باركر بحاجة إلى تدريبات لتحسين قفزته الرابعة؟ لم تخطر لي فكرة مغادرة الجزيرة منذ وطأتها. وقد مضت أسابيع عدة الآن، لا أستطيع تحديدها بالضبط، وكانت مرشحة للزيادة. كنت واثقاً من ذلك.

كم كنت مخطئاً.

إذا كانت تلك الثمرة تحتوي على بذرة فهي بذرة رحيلي.

لم تكن الثمرة ثمرة حقاً. كانت تراكماً كثيفاً من الأوراق الملتصقة كروياً ببعضها. قمت بنزعها. وبعد طبقات قليلة وصلت إلى أوراق بلا

جذوع وملتصقة بشكل خفيف بالكرة. استعنت بأظافري لكي أنزعها من حوافها، ورحت أقشرها طبقة بعد أخرى كأوراق بصلة. كان بوسعي ببساطة أن أمزق «الثمرة» ـ لا زلت أسميها كذلك لافتقاري إلى كلمة أفضل ـ لكنني اخترت أن أشبع فضولي على مهل.

تقلصت من حجم برتقالة إلى حجم ثمرة مندرين. امتلأ حجري والأغصان التي تحته بقشور الأوراق الرفيعة الناعمة.

أصبحت الآن بحجم ثمرة رامبوتان.

لا أزال أصاب بالقشعريرة حين أفكر بها.

بحجم حبة كرز.

ثم بانت أخيراً لؤلؤة غريبة في قلب المحارة الخضراء.

سن بشرية.

لكي أكون أدق، ضرس. سطحه ملطخ بالأخضر وفيه ثقوب.

إحساسي بالرعب جاء بطيئاً. كان لدي الوقت لكي أقشر ثمرة أخرى.

كل ثمرة احتوت على سن.

مرة ناب.

ومرة قبطاحن.

ومرة قاطع.

ومرة ضرس.

اثنان وثلاثون سناً. عدد أسنان الإنسان. ولا واحد ناقص.

استوعبت الأمر.

لم أصرخ. احسب أن الرعب الصوتي موجود فقط في الأفلام. ببساطة، هبطت من الشجرة مرتعداً.

تعذبت طوال اليوم، وأنا أفكر في الخيارات المتاحة أمامي. كانت كلها سيئة.

تلك الليلة، في السرير على شجرتي المعتادة، اختبرت ما توصلت إليه من استنتاجات بشأن تلك الشجرة. حملت ميركات ورميته عن الغصن.

أصدر صريراً وهو يسقط في الهواء. وما إن لامست قوائمه الأرض،حتى عاد من فوره إلى الشجرة.

عاد إلى البقعة نفسها، وأخذ يلعق كفيه بشراسة. بدا مضطرباً، وكان لهاثه ثقيلاً.

كان يمكنني أن أترك الأمر عند هذا الحدّ. لكنني أردت أن أعرف بنفسي. نزلت وأمسكت بالحبل. كنت قد جعلت فيه عقداً لكي يسهل عملية تسلقي. حين وصلت إلى قاع الشجرة، أبقيت رجلي على علو إنش عن الأرض. ترددت.

ثم تركت نفسي.

في البداية لم أشعر بشيء. ثم فجأة شعرت بألم في قدمي. صرخت. حسبتني سأقع أرضاً. نجحت في الإمساك بالحبل ورفع نفسي إلى الشجرة مجدداً. رحت بشكل مسعور أفرك أسفل قدمي بجذع الشجرة. ساعدني ذلك، لكن ليس بما فيه الكفاية. عدت إلى جذعي. غطست رجلي في الدلو المليء بالماء قرب سريري. مسحتهما بالأوراق. أخذت السكين وقتلت اثنين من الميركات

وحاولت أن أسكن الألم بدمها وبأمعائها. وظلت قدمي تحرقني. ظلت تحرقني طوال الليل. لم أستطع النوم، من الألم والقلق معاً.

كانت الجزيرة آكلة لحوم البشر. هذا يفسر اختفاء الأسماك من البركة. الجزيرة تستدرج أسماك البحر المالح إلى قنواتها، كيف، لا أعرف: ربما تأكل الأسماك تلك الطحالب مثلي وعندها تعلق. أم أنها تضيع طريقها؟ أم يقفل المسرب المؤدي إلى البحر من دونها؟ أم أن المياه تتغير إلى حد يفوت معه الأوان حين تدرك الأسماك ذلك؟ أياً تكن الحالة، فهي تجد نفسها عالقة في المياه العذبة وتموت. بعضها يطفو إلى سطح البرك، ليغذي الميركات. ليلاً، في عملية كيميائية لا أعرفها لكن من الواضح أن الشمس توقفها، تصير الطحالب المفترسة أسيدية وتمتلئ البرك بالأسيد الذي يهضم الأسماك. لهذا السبب يرجع ريتشارد باركر إلى القارب كل ليلة. لهذا السبب تنام الميركات في الأشجار. لهذا السبب لا يوجد على الجزيرة أي شيء آخر سوى الطحالب.

وهذا يفسر أمر السن. لا بدّ من أن مسكيناً تائهاً وصل إلى هذه الشواطئ الرهيبة قبلي. كم أمضى، أو أمضت، من الوقت هنا؟ أسابيع؟ أشهر؟ سنوات؟ كم من الساعات في هذه المدينة النباتية بصحبة الميركات؟ كم من حلم بحياة سعيدة أفسد؟ كم من أمل تبدد؟ كم من الأحاديث المختزنة التي ماتت من دون أن تقال؟ كم من الوحدة تحمل؟ كم من اليأس؟ وبعد ذلك كله، ما الذي بقي؟ كيف يظهر هذا كله؟

لا شيء سوى بعض الأسنان الأشبه بفكة في جيب. لا بد من أن الشخص مات على الشجرة. أكان المرض؟ الجرح؟ الإحباط؟ إلى كم

من الوقت تحتاج روح مكسورة لكي تقتل جسداً يتمتع بالطعام والمياه والمأوى؟ كانت الأشجار مفترسة أيضاً، لكن مستوى الأسيد فيها أقل بكثير، مما يجعلها آمنة كفاية لكي يبيت فيها المرء ليلته ثم يغادر، لكن ما إن توقف جسد هذا الشخص عن الحراك يوماً، فلا بد من أن الشجرة التفت حوله وابتلعت جسده، هاضمة بالتدريج عظامه. مع الوقت حتى الأسنان ستختفي.

رحت أنظر بمرارة إلى الطحالب. استبدل، في قلبي، الوعد المشع الذي توفره نهاراً بخيانتها ليلاً.

رحت اتمتم: «لم يبق سوى الأسنان! الأسنان!».

عند الصباح اتخذت القرار الصعب. فضلت أن أموت باحثاً عن أبناء جنسي على أن أعيش نصف حياة وحيدة من الراحة الجسدية والموت الروحي على هذه الجزيرة القاتلة. خزنت مياهاً عذبة وشربت كجمل. أكلت الطحالب طوال اليوم حتى لم تعد معدتي تستوعب المزيد. قتلت وسلخت من الميركات ما يمكن أن تحتمله الخزانة وأرضية القارب، كما جلبت كميات من الأسماك الميتة من البرك. بالبليطة قطعت طحالب كثيرة وربطتها بحبل ربطته بالقارب.

لم يكن بإمكاني ترك ريتشارد باركر. أن أتركه يعني أن أقتله. لم يكن ليصمد ليلة واحدة. وحيداً على قاربي عند الغروب سأكون عارفاً أنه يحترق حياً. أو أنه رمى نفسه في البحر، حيث سيغرق. انتظرت عودته. عرفت أنه لن يتأخر.

حين أصبح في القارب، انطلقت. أبقانا التيار لبضع ساعات على مقربة من الجزيرة. أزعجني هدير البحر. وما عدت معتاداً على الحركة المرتجة للقارب. مضت الليلة ببطء.

وعند الصباح التالي كانت اختفت الجزيرة، ومعها الطحالب، التي أذابت الحبل بأسيدها.

كان البحر ثقيلاً، والسماء رمادية.

الفصل ٩٣

سئمت حالي. . لكن الحياة رفضت أن تغادرني. بقية هذه القصة ليست سوى المزيد من الحزن والوجع والصبر.

العالي يستدعي المنخفض والمنخفض يستدعي العالي. أقول لك، إذا ما كنت في مثل حالتي الرهيبة كنت ستسمو بأفكارك أيضاً. كلما ازداد انحطاط حالك، تاق عقلك إلى السمو. كان بديهياً أنني، في حالي اليائسة تلك، في عذاباتي تلك، بقيت ألجأ إلى الله.

الفصل ٩٤

حين وصلنا إلى اليابسة، المكسيك على وجه الدقة، كنت واهناً إلى حدّ أنني لم أكن أملك القوة لكي أشعر بالسعادة، سعادة الخلاص الذي لطالما حلمت به. عانينا صعوبة كبرى في بلوغ اليابسة، وكاد القارب ينقلب بنا مرات عدة. أنزلت ما بقي من المراسي لكي أجعل القارب متعامداً مع الأمواج، وجعلت أرفعها كلما ارتفع الموج. بهذه الطريقة وصلنا إلى الشاطئ. كان ذلك خطيراً. لكن في اللحظة المناسبة التقطتنا موجة وحملتنا مسافة طويلة، متجاوزين جدران المياه العالية، رفعت المراسي للمرة الأخيرة ودفعنا الموج لبقية الطريق. أخيراً احتك القارب بالرمل مصدراً صوت خشخشة خفيفة.

بقيت في القارب. خشيت أن أغادره. خفت وقد بتّ على حافة

الخلاص أن أغرق في سنتيمترات من المياه. نظرت امامي لكي أتبيّن المسافة التي عليّ أن أقطعها، وتلك النظرة كانت الأخيرة التي أرى فيها ريتشارد باركر، إذ في تلك اللحظة المحددة قفز من فوقي. رأيت جسده المتحفز بشكل لا يوصف يمتد في الهواء فوقي، مثل قوس قزح. حط في المياه، قائمتاه الخلفيتان متصلبتان، وذيله مرفوع، ومن هناك، بلغ الشاطئ بوثبات قليلة. مضى يساراً، وقوائمه تنغرز في الرمل المبلل، لكنه غير رأيه ودار حول نفسه إلى الاتجاه الآخر. مر من أمامي مباشرة في سبيله يميناً. لم ينظر إلي. ركض نحو مئة ياردة على الشاطئ قبل أن يلتفت. كانت مشيته خرقاء وغير متناسقة. وقع بضع مرات. وقف عند حافة الدغل. كنت متأكداً من أنه سينظر نحوي، سينظر إلي، سيبسط أذنيه، سيغرغر، وبهذه الطريقة سينهي علاقتنا. لم يفعل شيئاً من هذا القبيل. فقط نظر نظرة ثابتة إلى الدغل. ثم قام رفيق محنتي، ذلك الكائن الرهيب، القوي، الذي ساعدني على البقاء حياً، بالمضي قدماً، واختفى كلياً من حياتي.

كافحت لكي أصل إلى الشاطئ، حيث وقعت على الرمل. نظرت حولي. كنت وحيداً حقاً، يتيماً ليس من عائلتي فحسب، بل من ريتشارد باركر أيضاً، وتقريباً، فكرت، يتيم من الله أيضاً. بالطبع لم أكن كذلك. كان ذاك الشاطئ، شديد النعومة، الواسع والصلب يشبه خد الله، وكان ثمة في مكان ما عينان تلتمعان بالرضى، وفم يبتسم لبلوغي شاطئ الأمان.

بعد بضع ساعات عثر علي شخص من أبناء جنسي. رجع وعاد مع مجموعة. كانوا ستة أو سبعة. تقدموا مني وأيديهم تغطي أنوفهم وأفواههم ولم أعرف أن السبب رائحتي. تحدثوا إلي بلغة غريبة.

جذبوا القارب إلى الرمل. حملوني بعيداً. أخذوا من يدي قطعة لحم السلحفاة الوحيدة التي أحضرتها معي من القارب، ورموها بعيداً.

بكيت كطفل. ليس لأنني تمكنت من تجاوز محنتي. ولا بسبب وجود أولئك الإخوة والأخوات حولي، مع أنه كان مؤثراً للغاية. كنت أبكي لأن ريتشارد باركر تركني على ذاك النحو. يا لها من طريقة فظيعة للوداع. أنا شخص يؤمن بالشكل، بانسجام النظام. ، بأنه علينا، حيث نستطيع أن نسبغ على الأشياء شكلاً له معنى. أتساءل على سبيل المثال، أيمكنك أن تروي قصتي في مئة فصل بالضبط، بلا زيادة ولا نقصان؟ سأقول لك، ما أكرهه في اسمي، باي، هو الطريقة التي تستمر فيها الأرقام إلى ما لا نهاية. من المهم في الحياة أن تختم الأشياء بطريقة صحيحة. عندها فقط يمكنك التخلي عنها. وإلا ستكون بقيت بصحبة كلمات كان ينبغي أن تقلها ولم تفعل، ويظل قلبك مثقلاً بالندم. ذلك الوداع يؤلمني حتى اليوم. أتمنى فقط لو أنني نظرت إليه نظرة أخيرة في القارب، بحيث أستفزه قليلاً، بحيث أبقى في فكره. أتمنى لو أنني قلت له وقتذاك، أجل أعرف، للنمر، ومع ذلك، أتمنى لو أنني قلت له: «لقد انتهى الأمر يا ريتشارد باركر. . لقد نجونا. أتصدق ذلك؟ أنا مدين لك، ولا يسعني التعبير عن امتناني. ما كنت لأستمر من دونك. أود أن أقول لك بشكل رسمي: ريتشارد باركر، شكراً لك. شكراً لك لأنك أنقذت حياتي. والآن إذهب حيث عليك الذهاب. لقد عرفت الحرية الضيقة في حديقة الحيوانات طوال حياتك. والآن ستعرف حرية الأدغال. أتمنى لك الأفضل. إحذر البشر. ليسوا بأصدقاء لك. لكن أرجو أن تتذكرني كصديق. لن أنساك، هذا مؤكد. ستكون دائماً معي، في قلبي. ما

هذا الصوت؟ آه، إنه قاربنا وقد لمس الرمل. وداعاً إذاً. ريتشارد باركر، وداعاً، وليكن الرب معك».

أخذني الأشخاص الذين عثروا عليّ إلى قريتهم، وهناك حممتني النسوة وفركنني بقوة جعلتني أتساءل ما إذا كن يعرفن أنني أسمر بالولادة وليس صبياً أبيض وسخاً. حاولت أن أشرح لهن ذلك، فأومأن برؤوسهن وابتسمن وواظبن على فركي كما لو أنني سطح سفينة. ظننت أنهن سيسلخنني حياً. ثم قمن بإطعامي. ما إن بدأت بالأكل حتى لم يعد بمقدوري التوقف. ظننت أنني لن أكف يوماً عن أن أكون جائعاً.

في اليوم التالي جاءت سيارة شرطة وأخذتني إلى المستشفى، وهناك تنتهي قصتي.

غمرني أولئك الذين أنقذوني بكرمهم. أناس فقراء أعطوني الثياب والطعام. أطباء وممرضات اعتنوا بي كما لو أنني طفل حديث الولادة. شرّع لي المسؤولون المكسيكيون والكنديون كل الأبواب من شواطئ المكسيك إلى منزل أمي بالتبني إلى صفوف جامعة تورونتو. كان هناك فقط رواق واحد سهل علي عبوره. إلى كل هؤلاء الناس أتوجه بشكري القلبي الخاص.

الجزء الثالث

مستشفى بنيتو خواريز، تومالتان، المكسيك

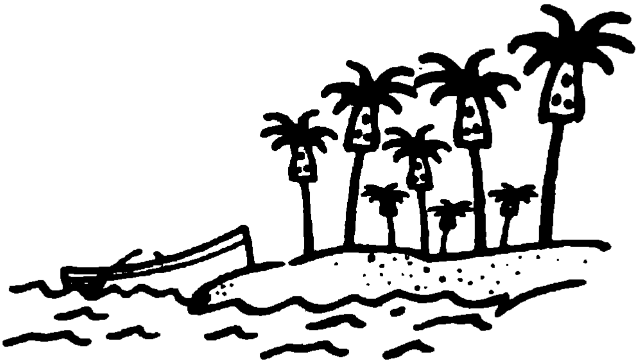

الفصل ٩٥

أخبرني السيد توموهيرو أوكاماتو، من قسم الشؤون البحرية في وزارة النقل اليابانية، وهو متقاعد الآن، أنه ذهب وزميله الذي يصغره سناً في ذلك الوقت، السيد أتسورو تشيبا، إلى لونغ بيتش، كاليفورنيا، الميناء البحري الرئيسي في غرب أميركا، قرب لوس أنجلس، لإنجاز عمل لا صلة له بقضيتي، وهناك علما أنه عُثر على ناج وحيد من السفينة اليابانية تسمتسم، التي اختفت بلا أثر في مياه المحيط الهادئ الدولية قبل عدة أشهر، وأن هذا الناجي شوهد قرب بلدة تومالتان الصغيرة، على الساحل المكسيكي. وقد كلفا بناء على ذلك بالذهاب إلى هناك والاتصال بالناجي ليريا إذا كان بالإمكان معرفة أي معلومات تتعلق بمصير تلك السفينة. اشتريا خريطة للمكسيك وبحثا فيها عن موقع بلدة تومالتان. لسوء حظيهما، عثرا على بلدة ساحلية صغيرة تدعى توماتان مطبوعة بأحرف صغيرة في إحدى ثنيات الخارطة. كان السيد أوكاموتو مقتنعاً بأنه قرأ تومالتان. وبما أنها كانت تبعد أقل من نصف المسافة إلى باجا، كاليفورنيا، فقد قررا بأن أسرع طريقة للوصول إلى هناك هي بالسيارة.

انطلقا بالسيارة المستأجرة. حين وصلا إلى توماتان، التي تبعد نحو ثمانمئة كيلومتر إلى جنوب لونغ بيتش، واكتشفا أنها ليست تومالتان، قرر السيد أوكاموتو أن يتابعا طريقهما إلى سانتا روزاليا،

التي تبعد مئتي كيلو متر إضافية إلى الجنوب، حيث استقلا المعدية وعبرا خليج كاليفورنيا إلى غوايماس. كانت المعدية بطيئة فتأخرت في الوصول. ومن غوايماس استغرقت الرحلة ألفاً وثلاثمئة كيلومتر للوصول إلى تومالتان. كانت الطرقات سيئة، وثقبت إحدى عجلات السيارة، ثم تعطلت السيارة وقام الميكانيكي الذي أصلحها بسرقة قطع منها ووضع أخرى مستعملة مكانها. وقد اضطرا لاحقاً إلى دفع كلفة ذلك إلى شركة الإيجار. كما أن السيارة تعطلت مرة ثانية خلال الرحلة. الميكانيكي الثاني بالغ في أجرته. اعترف السيد أوكاموتو لي أنهما كانا بالغي التعب حين وصلا إلى مستشفى بنيتو خواريز في تومالتان، التي ليست على الإطلاق في باجا كاليفورنيا لكن تبعد مئة كيلومتر إلى جنوب بويرتو فالارتا، في ولاية جاليسكو، التي على الارتفاع نفسه لمكسيكو سيتي. استغرقت رحلتهما ٤١ ساعة بلا انقطاع. «عملنا بجهد»، كتب السيد أوكاموتو.

هو والسيد تشيبا تحدثا إلى بيسين موليتور باتيل، بالإنكليزية، إلى ما يقرب من ثلاث ساعات، وسجلا المحادثة. ما يلي هو مقتطفات من مسودة الحوار الصوتي. أنا ممتن للسيد أوكاموتو الذي وفر لي نسخة عن التسجيل، وعن تقريره النهائي. للتوضيح أشير، حيث لا يكون ذلك واضحاً، إلى من يتحدث في الحوار. أما العبارات المطبوعة بخط مختلف فنطقت باليابانية، وقمت أنا بترجمتها.

الفصل ٩٦

«مرحباً سيد باتيل. اسمي تومو هيرو أوكاموتو. أنا من القسم البحري في وزارة النقل اليابانية. هذا مساعدي أتسورو تشيبا. جئنا

لكي نقابلك بشأن غرق السفينة تسمتسم التي كنتَ من ركابها. هل يمكن التحدث إليك الآن؟».

«أجل، بالطبع».

«شكراً لك، هذا من لطفك البالغ. الآن أتسورو، أنت جديد على هذا، لذا كن متيقظاً وتعلم».

«أجل، سيد أوكاموتو».

«هل آلة التسجيل شغالة؟».

«أجل».

«حسناً. أوه كم أنني متعب. من أجل السجل اليوم هو التاسع عشر من شباط ١٩٧٨. رقم ملف القضية ٢٥٠٦٦٣، وهي تتعلق باختفاء سفينة الشحن تسمتسوم. هل أنت مرتاح سيد باتيل؟».

«أجل، شكراً على سؤالك، وأنتما؟».

«إننا مرتاحان جداً».

«أجئتما من اليابان؟».

«كنا في لونغ بيتش، بكاليفورنيا، وجئنا بالسيارة إلى هنا».

«أكانت رحلتكما موفقة؟».

«كانت رائعة».

«كانت رحلتي مريعة».

«أجل، تحدثنا مع الشرطة قبل أن نأتي إلى هنا، ورأينا قارب النجاة».

«أشعر ببعض الجوع».

«أترغب تناول كعكة؟».

«أوه، أجل».

«تفضل».

«شكراً لك».

«على الرحب والسعة. والآن سيد باتيل، نتساءل ما إذا كان يمكنك أن تخبرنا بما حصل معك، بأكبر قدر ممكن من التفاصيل».

«أجل، يسعدني ذلك».

الفصل ٩٧

القصة.

الفصل ٩٨

السيد أوكاموتو: «قصة مثيرة للاهتمام».

السيد تشيبا: «يا لها من قصة».

«**يحسبنا غبيين.** سيد باتيل، نود أن نأخذ استراحة قصيرة، ثم نعود لك، موافق؟».

«هذا حسن. سأتناول في الأثناء كعكة أخرى».

«أجل بالطبع».

السيد تشيبا: **لديه الكثير منها ولم يأكله بعد.. إنها هناك تحت الشرشف».**

السيد أوكاموتو: «**أعطه كعكة أخرى فحسب، علينا أن نسايره.** سنعود بعد دقائق قليلة».

الفصل ٩٩

السيد أوكاموتو: «سيد باتيل، نحن لا نصدق قصتك».

«عذراً، هذه الحلوى طيبة لكنها تتفتت بسرعة. يدهشني هذا الكلام، لمَ لا تصدقان قصتي؟».

«ليست منطقية».

«ما الذي تعنيه؟».

«الموز لا يعوم».

«عذراً؟».

ذكرتَ إن السعلاة كانت تطفو على جزيرة من الموز.

«هذا صحيح».

«الموز لا يعوم».

«بلى، إنه يعوم».

«إنه أثقل من أن يعوم».

«بل يعوم. هاك، جرب واحدة بنفسك. لدي موزتان هنا».

السيد تشيبا: «من أين جاء بهاتين الموزتين، ما الذي يخفيه أيضاً تحت الشرشف؟».

السيد أوكاموتو: «اللعنة. لا، لا ضرورة إلى ذلك».

«ثمة مغسلة هناك».

«لا بأس».

«إنني أصرّ. املأ هذه المغسلة بالمياه، ضع هذه الموزة فيها، وسنرى من منا على حق».

«نود الانتقال إلى شيء آخر».

«إنني أصر».

[صمت]

السيد تشيبا: «ماذا سنفعل؟».

«السيد أوكاموتو: «أشعر أنه سيكون يوماً طويلاً آخر».

[صوت كرسي يزاح إلى الوراء. ثم صوت مياه بعيدة تتدفق من صنبور]

باي باتيل: «ما الذي يحدث؟ لا يمكنني أن أرى من هنا».

السيد أوكاموتو (صوت بعيد): «إنني أملأ المغسلة».

«هل وضعت الموز في الماء؟».

(صوت بعيد): «لا».

«والآن؟».

(صوت بعيد): «وضعتها».

«وما النتيجة؟».

[صمت]

السيد تشيبا: «هل تطفو؟».

(صوت بعيد): «إنها تطفو».

«إذاً، هل تطفو؟».

(صوت بعيد): «إنها تطفو».

«ألم أقل لك؟».

السيد أوكاموتو: «بلى، بلى، لكن تخيل كمية الموز التي يمكنها حمل سعلاة!».

«لقد حملها الموز. كان يزن نحو طن. لا أزال أشعر بالإعياء كلما فكرت بهذه الكمية من الموز تعوم بعيداً وتفسد في الوقت الذي كان يمكنني الاستفادة منها».

«يا للخسارة.. والآن فيما يتعلق...».

«هل يمكنني أن أستعيد موزتي، رجاء؟».

السيد تشيبا: **«سأحضرها»**.

[صوت كرسي يزاح إلى الوراء]

(صوت بعيد): **«أنظر إلى هذا، إنها تطفو حقاً»**.

السيد أوكاموتو: «ماذا عن جزيرة الطحالب تلك التي تقول إنك وصلت إليها؟».

السيد تشيبا: «هاك الموزة».

باي باتيل: شكراً لك، أجل ماذا كنت تقول؟».

«آسف على قول ذلك بهذه الفظاظة، لا نقصد أن نجرح مشاعرك، لكن لست تتوقع منا أن نصدقك، أليس كذلك؟ أشجار مفترسة؟ طحالب تأكل الأسماك وتنتج المياه العذبة؟ وحيوانات مائية تتسلق الأشجار؟ هذه الأشياء غير موجودة؟».

«فقط لأنك لم ترها؟».

«هذا صحيح. نحن نصدق ما نراه».

«وهكذا فعل كولومبوس. ماذا تفعل إذاً حين تكون في الظلمة؟».

«الجزيرة التي تتحدث عنها مستحيلة الوجود نباتياً؟»

«هذا ما قالته الذبابة قبل أن تقع في الشرك».

«لماذا لم يبلغ أحد آخر هذه الجزيرة؟».

«إنه محيط كبير تعبره سفن مشغولة. أنا عبرته ببطء، مراقباً كثيراً».

«أي عالم لن يصدق هذه القصة».

«هؤلاء العلماء أنفسهم الذين لم يصدقوا كوبرنيكوس وداروين. هل توقف العلماء عن استكشاف نباتات جديدة؟ في غابات الأمازون مثلاً؟».

«لا نباتات تناقض قوانين الطبيعة».

«التي تعرفها أنت جيداً».

«أعرفها بما يكفي لأميز الممكن من المستحيل».

السيد تشيبا: «لدي عم يعرف الكثير عن عالم النباتات. يعيش في الريف بجوار هيتا ـ غان. إنه معلم بونساي».

باي باتيل: «ما هو؟».

«معلم بونساي. كما تعرف البونساي هي الأشجار الصغيرة».

«تعني شجيرة».

«لا، أعني أشجاراً. البونساي هي أشجار صغيرة. أقل من قدمين طولاً. يمكنك حملها بذراعيك. يمكن أن تعمر كثيراً. عمي يملك واحدة عمرها أكثر من ثلاثمائة سنة».

«أشجار عمرها ثلاثة قرون وطولها قدمان ويمكنك حملها بيديك؟».

«أجل، إنها أشجار دقيقة جداً. تتطلب الكثير من العناية».

«من سمع بوجود أشجار كهذه؟ إنها مستحيلة الوجود نباتياً».

«لكنني أؤكد لك أنها موجودة، سيد باتيل، عمي...».

«أنا أصدق ما تراه عيني».

السيد أوكاموتو: » لحظة من فضلك. أتسورو مع احترامي لعمك الذي يعيش في الريف بجوار هيتا غان، نحن لسنا هنا لنتحدث كلاماً فارغاً عن النبات».

«إنني أحاول المساعدة ليس إلا».

«أتأكل أشجار عمك اللحوم؟».

«لا أظن ذلك».

«هل عضتك مرة إحدى تلك الأشجار؟».

«لا».

«في هذه الحال فإن أشجار عمك لا تساعدنا. أين كنا؟»

باي باتيل: «كنا نتحدث عن الأشجار الطويلة، كاملة الحجم، المتجذرة بالأرض، التي كنت أخبرك عنها».

«لنضعها جانباً في الوقت الحالي».

«قد يكون ذلك صعباً. فأنا لم أجرب اقتلاعها وحملها».

«أنت رجل مضحك، سيد باتيل. ها! ها! ها!».

با ي باتيل: «ها! ها! ها!».

السيد تشيبا: «ها! ها! ها! ليست بالنكتة المضحكة إلى هذا الحدّ».

«السيد أوكاموتو: «استمر بالضحك فحسب. ها! ها! ها!».

السيد تشيبا: «ها! ها! ها!».

السيد أوكاموتو: «الآن بالنسبة إلى النمر، لسنا أكيدين من وجوده أيضاً».

«ما الذي تعنيه؟».

«نجد صعوبة في تصديق قصته».

«أتجدانها مستحيلة؟».

«بالضبط».

«لا أعرف كيف نجوت».

«لا بد من أن ذلك كان مجهداً».

«سأتناول قطعة كعك أخرى».

«لم يتبق أي منها».

«ماذا في ذاك الكيس؟».

«لا شيء».

«أيمكن أن أرى؟».

السيد تشيبا: «ها قد قضي على غذائنا».

السيد أوكاموتو: «بالعودة إلى النمر..».

باي باتيل: «قصة فظيعة. سندويتشات شهية».

السيد أوكاموتو: «أجل، تبدو شهية».

«السيد تشيبا: «إنني جائع. لم يعثر على أثر له. هذا يصعب تصديقه بعض الشيء، أليس كذلك؟ ليس هناك نمور في الأميركيتين.

إذا كان هناك من نمر بري طليق فهل تظن أن البوليس لم يسمع بالأمر حتى الآن؟».

«عليّ ان أخبرك عن النمر الأسود الذي هرب من حديقة حيوانات زيوريخ في منتصف الشتاء».

«سيد باتيل، النمر حيوان بري خطير جداً. كيف يمكن أن تعيش معه على متن قارب؟ إنه أمر..».

«ما لا تدركه هو أننا جنس غريب على الحيوانات البرية. إنها تخشانا. إنها تتحاشانا قدر الإمكان. لقد احتاج الأمر إلى قرون لكي نروض بعض الحيوانات لتصير منزلية، لكن معظم الحيوانات لا يمكنه التخلص من خوفه، وأشك أنه سيفعل يوماً. حين تقاتلنا الحيوانات البرية فهذا نابع من يأسها المطلق. تقاتل حين تشعر أنه ليس هناك طريقة أخرى، وأن القتال هو الملاذ الأخير».

«لكن على متن قارب؟ بالله عليك، سيد باتيل، من الصعب جداً التصديق!».

«يصعب تصديقه؟ ما الذي تعرفه عما يصعب تصديقه؟ تريد قصة لا تصدق؟ سأروي لك واحدة. إنها سرية بين رعاة حدائق الحيوانات الهنود، يحكى أنه في العام ١٩٧١ في (بارا) فرّ دب قطبي من حديقة كالكوتا، ولم يسمع عنه ثانية، لم تعثر عليه الشرطة ولا الصيادون ولم يلمحه أيَ شخص كان. هناك اعتقاد شائع بأنه يعيش بحرية على ضفاف نهر هاغلي. إحذرا أيها السيدان إذا ما زرتما كالكوتا يوماً: إذا كانت أنفاسكما تعبق بالسوشي فستدفعان ثمناً باهظاً! والآن، إذا ما أخذتما مدينة طوكيو وخضضتماها، فستفاجآن بالحيوانات التي ستنهمر منها: الذئاب، البوا، الفهود، تنانين الكومودو، التماسيح، النعام،

البابون.. وغيرها من الحيوانات التي ستنهمر بأعداد لا تحصى. لا شك عندي في أن أفراس البحر والزرافات تعيش في طوكيو منذ قرون دون أن يراها أحد. عليكما أن تقارنا ذات يوم بين الأشياء التي تعلق أسفل حذائيكما والأشياء التي يمكن أن ترونها في أقفاص حديقة حيوانات طوكيو - ثم ابحثا! وتتوقعان أن تعثرا على نمر في أدغال مكسيكية! إنه لأمر مضحك، أمر مضحك فحسب. ها! ها! ها!».

«قد يكون هناك زرافات وأفراس نهر في طوكيو ودب قطبي يعيش طليقاً في كالكوتا.، لكننا لا نصدق ببساطة أنه كان هناك نمر يعيش على قاربك».

«يا لجهل أبناء المدن الكبرى! تقبل بأن تكون مدينتك محتوية على كل حيوانات جنة عدن، ولا تصدق وجود نمر بنغالي على متن قارب!».

«سيد باتيل، إهدأ رجاء».

«إذا كنت تجد صعوبة في تصديق مسألة كهذه، فما نفع حياتك؟ أليس صعباً تصديق الحب؟».

«سيد باتيل...».

«لا تستهزأ بي بتهذيبك هذا! الحب يصعب تصديقه، اسأل أي عاشق. الحياة يصعب تصديقها، اسأل أي عالم. الله يصعب تصديقه، اسأل أي مؤمن. ما مشكلتك مع الأمور التي يصعب تصديقها؟».

«نحن نحاول أن نكون منطقيين فحسب».

«وأنا كذلك! لقد استعملت عقلي كل لحظة. العقل ممتاز

للحصول على الطعام والثياب والمأوى. العقل هو أفضل أداة على الإطلاق. لا شيء يهزم العقل في محاولة اتقاء خطر نمر، لكن كن عقلانياً حصراً، وتكون تخاطر كثيراً بقذف المياه في مياه الحمام».

«إهدأ سيد باتيل، إهدأ».

السيد تشيبا: **«مياه الحمام؟ لماذا يتحدث عن مياه الحمام؟»**.

«كيف تريدني أن أهدأ؟ كان عليك أن ترى ريتشارد باركر!».

«أجل، أجل».

«ضخم. أسنان بهذا الحجم. كفان كالسيوف المعقوفة!».

السيد تشيبا: **«ما هي السيوف المعقوفة؟»**.

السيد أوكاموتو: **«سيد تشيبا، بدلاً من أن تطرح أسئلة لغوية غبية، لماذا لا تحاول أن تكون مفيداً؟ هذا الصبي قوي جداً. افعل شيئاً!»**.

سيد تشيبا: «أنظر، لوح شوكولاته!».

باي باتيل: «رائع!».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: **كما لو أنه لم يسرق كل غذائنا. قريباً يطالب بالتمبورا!»**.

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «إننا نضيع هدف هذا التحقيق. نحن هنا بسبب غرق سفينة شحن. أنت الناجي الوحيد، وقد كنت مجرد راكب، ولا تتحمل أي مسؤولية عما جرى. نحن...».

«الشوكولاته جيدة جداً».

«نحن لا نسعى إلى اتهامك بأي جرم، أنت ضحية بريئة لمأساة بحرية. نحن نحاول فقط أن نحدد لماذا وكيف غرقت التسمتسوم. فكرنا أنه يمكن أن تفيدنا في ذلك، سيد باتيل».

[صمت]

«سيد باتيل؟».

[صمت]

باي باتيل: «النمور موجودة، وقوارب النجاة موجودة، والمحيطات موجودة. لأن الأمور الثلاثة لا تجتمع معاً في تجربتك الضيقة المحدودة لا يعني أنها مستحيلة. الحقيقة البسيطة هي أن غرق التسمتسوم جمعها معاً».

[صمت]

السيد أوكاموتو: «ماذا عن ذاك الرجل الفرنسي؟».

«ماذا بشأنه؟».

«رجلان ضريران في قاربي نجاة منفصلين في وسط المحيط الهادئ، مصادفة كهذه يستبعد حدوثها، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«نجدها غير منطقية».

«وهكذا الفوز باليانصيب، ومع ذلك أحدهم يفوز باستمرار».

«نجدها مستحيلة التصديق».

«وأنا أيضاً».

«عرفت أنه كان ينبغي أن نأخذ اليوم إجازة. تحدثتما عن الطعام؟».

«أجل».

«يعرف الكثير عن الطعام».

«إذا كنت تسميه طعاماً».

«الطباخ على التسمتسوم كان فرنسياً».

«هناك فرنسيون في أرجاء العالم كله».

«ربما الفرنسي الذي التقيته هو الطباخ».

«ربما. أنى لي أن أعرف؟ لم أره إطلاقاً. كنت أعمى. ثم التهمه ريتشارد باركر حياً».

«كم مناسب هذا!».

«على الإطلاق. كان شيئاً رهيباً ومقرفاً. على فكرة، كيف تفسر وجود عظام الميركات في القارب؟».

«أجل، ثمة عظام حيوان صغير..».

«أكثر من حيوان واحد!».

«... عظام حيوانات صغيرة عدة عثر عليها في القارب.. لا بدّ من أن مصدرها السفينة».

«لم يكن لدينا ميركات في حديقة الحيوانات».

«ليس لدينا دليل على أنها عظام ميركات».

السيد تشيبا: «ربما كانت عظام موز! ها! ها! ها! ها! ها! ها!».

«أتسورو، إخرس».

«آسف جداً سيد أوكاموتو. إنه الإرهاق».

«إنك تسيء إلى عملنا».

«آسف جداً سيد أوكاموتو».

السيد أوكاموتو: «يمكن أن تكون عظام حيوان صغير آخر».

«كانت ميركات».

«يمكن أن يكون النمس».

«النموس لم تلق طلباً للبيع. فأبقيناها في الهند».

«ربما تكون نشأت في السفينة مثل الجرذان. لا تنسى أن النمس شائع في الهند».

«النمس كحيوان أليف على السفينة؟».

«لم لا؟».

«وسبح العديد منها في الباسيفيك العاصف، وصولاً إلى القارب؟ هذا يصعب تصديقه بعض الشيء، أليس كذلك؟».

«تصديقه أقل صعوبة من بعض الأشياء التي سمعناها خلال الساعتين الأخيرتين. ربما كانت النموس على متن قارب النجاة أصلاً، كالجرذ الذي ذكرته».

«مذهل ببساطة عدد الحيوانات على متن ذاك القارب».

«مذهل ببساطة».

«أدغال حقيقية».

«أجل».

«تلك العظام هي عظام ميركات. لم لا تكلف خبيراً بفحصها؟».

«لم يبق الكثير منها، وليس لها رؤوس».

«استعملتها كطعم».

«أشك في أن خبيراً يمكن أن يميز إذا كانت عظام ميركات أو نمس».

«فلتلجأ إلى عالم حيوانات شرعي».

«حسناً، سيد باتيل، أنت تفوز. لا يمكننا أن نشرح وجود عظام ميركات، إذا كانت عظام ميركات، على القارب. لكن هذا ليس همنا هنا. نحن هنا لأن شركة شحن يابانية تملكها شركة أويكا للشحن، وترفع علم باناما، غرقت في المحيط الهادئ».

«هذا أمر لم أنسه للحظة. لقد فقدت كل عائلتي».

«نحن آسفان لذلك».

«ليس بقدري».

[صمت طويل]

السيد تشيبا: «**ماذا سنفعل الآن؟**».

السيد أوكاموتو: «**لا أعرف**».

باي باتيل: «أتريدان حلوى؟».

السيد أوكاموتو: «أجل، سيكون هذا لطيفاً».

«السيد تشيبا: «شكراً لك».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «إنه يوم جميل».

باي باتيل: «أجل، مشمس».

[صمت طويل]

باي باتيل» أهذه زيارتكما الأولى إلى المكسيك؟».

السيد أوكاموتو: «أجل».

«وأنا أيضاً».

[صمت طويل]

باي باتيل: «إذاً، لم تعجبكما قصتي؟».

السيد أوكاموتو: «لا، لقد أحببناها كثيراً، أليس كذلك أتسورو؟ سنتذكرها لزمن طويل جداً».

«السيد تشيبا: «سنفعل».

[صمت]

السيد أوكاموتو: «لكن لهدف التحقيق نود أن نعرف ما الذي حدث حقاً».

«ما حدث حقاً؟».

«أجل».

«إذاً، تريدان قصة أخرى؟»

«آه، لا.. نريد معرفة ما حدث حقاً».

«أليس إخبار شيء ما يصبح دائماً قصة؟».

«ربما بالإنكليزية، لكن في اليابان القصة يكون فيها دائماً عنصر متخيل. نحن لا نريد أي ابتداع. نريد الوقائع المباشرة، كما يقال في الإنكليزية».

«أليس استعمال الكلمات لإخبار شيء ما، سواء أكانت هذه الكلمات إنكليزية أم يابانية، أمر فيه اختراع أساساً؟ أليس النظر في هذا العالم أمر فيه اختراع؟».

«هممم».

«العالم ليس كما هو، بل كما نفهمه أليس كذلك؟ وفي فهم شيء ما نضيف شيئاً إليه، أليس كذلك؟ ألا يجعل هذا من الحياة قصة؟».

«ها! ها! ها! أنت ذكي جداً سيد باتيل».

«السيد تشيبا: «عما يتحدث؟».

«ليس لدي أي فكرة».

باي باتيل: «أتريدان كلمات تعكس الواقع؟».

«أجل».

«كلمات لا تتناقض والواقع؟».

«بالضبط».

«لكن النمور لا تناقض الواقع».

«أوه، أرجوك، لا مزيد من النمور».

«أعرف ما تريدان. تريدان قصة لا تفاجئكما. قصة تؤكد لكما ما تعرفانه سلفاً. لا تجعلكما تنظران أبعد أو أعلى، أو بطريقة مختلفة. تريدان قصة مسطحة. قصة جامدة. تريدان واقعاً جافاً».

«آجل».

«تريدان قصة بلا حيوانات».

«أجل!».

«بدون نمور أو سعالي».

«هذا صحيح».

«بدون ضباع أو حمير وحش».

«بدونها».

«بدون ميركات أو نموس».

«لا نريدها».

«بدون زرافات أو أفراس نهر».

«سنغطي آذاننا بأصابعنا».

«أنا محق إذاً. تريدان قصة بلا حيوانات».

«نريد قصة بلا حيوانات تفسر لنا غرق التسمتسوم».

«أمهلاني دقيقة لو سمحتما».

«بالطبع. أظن أننا سنصل أخيراً إلى مكان ما. لنأمل أن يتكلم بعض المنطق».

[صمت طويل]

«إليكما قصة أخرى».

«جيد».

«غرقت السفينة. أصدرت صوتاً كتجشؤ معدني عملاق. طفت الأشياء على سطح الماء مصدرة فقاعات ثم اختفت. وجدت نفسي في مياه المحيط الهادئ. سبحت نحو قارب النجاة. كانت السباحة الأصعب في حياتي. أحسست أنني لا أتقدم، وظللت أبتلع المياه. كنت أرتجف من الصقيع، وكان الوهن يسيطر علي بسرعة. ما كنت لأنجو لولا الطباخ الذي رمى إليّ طافية وسحبني إلى القارب. صعدت إلى القارب وانهرت.

«كنا أربعة ناجين. أمي تعلقت ببعض الموز ووصلت إلى القارب. كان الطباخ سبقنا إليه وكذلك البحار.

«راح الطباخ يأكل الذباب. لم يكن انتهى يومنا الأول على متن القارب، وكان لدينا من الطعام والشراب ما يكفينا لأسابيع، وكان لدينا عدة الصيد والمقطرات الشمسية؛ لم يكن لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنه لن يتم إنقاذنا قريباً. ومع ذلك راح يلتقط الذباب ويأكله بنهم. وقع فوراً في رهاب الجوع. كان ينادينا بالحمقى والأغبياء لأننا لم ننضم إليه في وليمته هذه. شعرنا بالإهانة والقرف، لكننا لم نظهر له ذلك. كنا شديدي التهذيب في التعامل معه. كان غريباً وأجنبياً. أمي ابتسمت وهزت رأسها ورفعت يدها رافضة دعواته. كان رجلاً مقرفاً. كان فمه شبيهاً بكومة قمامة. أكل الجرذ أيضاً. قطعه وجففه في الشمس. سأكون صادقاً معكما، أكلت منه قطعة صغيرة، صغيرة جداً، من دون أن تراني أمي. كنت جائعاً للغاية. كان رجلاً فظاً، ومنافقاً، وحاد الطباع.

«كان البحار شاباً. كان يكبرني سناً، على الأرجح في بداية عشريناته، وقد كسر رجله أثناء قفزه من السفينة، وحوله الألم طفلاً. كان رائعاً. لم يكن لديه شعر على وجهه الذي كان واضح المعالم ونقياً. ملامحه، وجه عريض، وأنف أفطح، وعينان ضيقتان، بدت أنيقة جداً. شعرت أنه يشبه إمبراطوراً صينياً. كان عذابه رهيباً. لم يكن يجيد الإنكليزية، فلم نفهم كلمة مما قاله، لا «بلى»، ولا «مرحباً» ولا شكراً حتى. كان يتكلم الصينية فقط. كانت أمي، حين يبكي، تضع رأسه في حجرها، وأمسك أنا يديه. كان شيئاً محزناً للغاية. تعذب كثيراً ولم نتمكن من فعل شيء له.

«كانت رجله اليمنى مكسورة عند الفخذ، وعظامها بارزة من اللحم. كان يصرخ ألماً. وضعنا رجله بأفضل وضعية ممكنة وأعنّاه

على الشرب والأكل، لكن رجله التهبت، مع أننا كنا نجففها يومياً من القيح، فقد ساءت حالتها. صارت سوداء ومنتفخة.

«كانت تلك فكرة الطباخ. كان فظاً، فسيطر علينا. قال لنا هامساً بأن السواد سينتشر وأن الشاب لن ينجو إلا إذا بترنا الرجل، وبما أنها مكسورة أساساً عند الفخذ فلن يحتاج الأمر إلى أكثر من قطع اللحم وربط عصبة لوقف النزيف. لا يزال فحيحه الشرير يتردد في رأسي. قال إنه سيفعل ذلك لكي ينقذ حياة البحار، لكن علينا نحن أن نخبره بذلك. ستكون الصدمة المخدر الوحيد. أمسكت وأمي بذراعيه بينما قعد الطباخ على رجله السليمة. صرخ البحار وتلوّى ألماً. ارتفع صدره وهبط. عمل الطباخ بسرعة بالسكين. بترت الرجل. فوراً أنا وأمي تركناه وابتعدنا. ظننا أنه سيمكث هادئاً الآن، مع انتهاء آلامه. لم يفعل. جلس فوراً. صارت صرخاته أكثر حدة. راح يصرخ ورحنا نحدق به عاجزين. كان الدم يملأ المكان، والأسوأ كان ذاك التناقض بين الحركة المسعورة للبحار المسكين ورجله الراقدة بسكون على أرضية القارب. ظل ينظر إليها، كما لو أنه يأمرها بالعودة. أخيراً هوى. أسرعنا إلى الحركة. طوى الطباخ بعض الجلد فوق العظم. لففنا مكان الجذعة برقعة قماش وربطناها بحبل على الجرح لنوقف النزيف. طرحناه بأفضل طريقة ممكنة على بطانيات من ستر النجاة وأبقيناه دافئاً. فكرت أن هذا كله بلا طائل. لم أستطع أن أصدق أن إنساناً يستطيع أن ينجو بعد كل هذا العذاب. أخذ يئن طوال المساء والليل، وكان تنفسه ثقيلاً وغير منتظم. عانى من الحمى، فتوقعت أن يموت خلال الليل.

«تشبّث بالحياة، وعند الفجر كان لا يزال حياً. كان يغيب عن

الوعي ويعود. ساعدته أمي على الشرب. رأيت الرجل المبتورة والمرمية على جنب. منظرها قطع أنفاسي. بدت أهزل بعد أن فرغت من السوائل. حملت سترة نجاة واستعملتها كقفاز. حملت الرجل.

«ما الذي أنت فاعله؟» سأل الطباخ.

«سأرميها في الماء»، أجبت.

«لا تكن أحمقاً. سنستعملها كطعم. هذا هو الهدف أساساً».

«بدا نادماً على كلماته الأخيرة وهو يقولها، إذ خبا صوته بسرعة. أشحت بنظري عنه.

«الهدف الأساسي؟»، سألته أمي، «ما الذي تعنيه بذلك؟».

«ادّعى الانشغال.

«ارتفع صوت أمي: «أتقول إننا بترنا رجل الفتى المسكين لا لننقذ حياته بل لنحصل على طعم للأسماك؟».

«قابل كلماتها بالصمت.

«أجبني!» صرخت أمي.

«كوحش محشور في الزاوية رفع نظره وراح يحدق بها: «مؤننا تنفد»، ثم قال هادراً «نحتاج إلى المزيد من الطعام، وإلا متنا».

«حدقت به أمي به في المقابل، «مؤننا لا تنفد، لدينا الكثير من المؤونة والمياه. لدينا من البسكويت ما يكفينا حتى إنقاذنا». حملت الكيس البلاستيكي الذي وضعنا فيه البسكويت. وجدته خفيفاً، خشخش ما تبقى من البسكويت في داخله. «ماذا!» فتحت الكيس «أين البسكويت؟ كان الكيس ممتلئاً الليلة الفائتة!».

«أشاح الطباخ نظره. مثلما فعلت.

«أيها الوحش الأناني» صرخت أمي. السبب الوحيد في أن المؤونة تنقص هو أنك تقوم بالتهامها».

«لقد أكل هو بعضها أيضاً»، قال مؤشراً إليّ.

«التفتت عينا أمي نحوي. غاص قلبي.

«بيسين، أهذا صحيح؟».

«كان ليلاً، أماه. كنت نصف نائم وجائعاً جداً. أعطاني بسكويتة. أكلتها من دون تفكير...».

«أكانت واحدة فقط؟»، قال الطباخ بسخرية.

«كان دور أمي أن تلتفت بعيداً. بدا الغضب يغادرها. من دون أن تقول أي كلمة عادت للاعتناء بالبحار.

«تمنيت غضبها. رجوت أن تعاقبني، لكن ليس أن تصمت على ذاك النحو. ذهبت لأعد بعض ستر النجاة للبحار فقط لكي أكون على مقربة منها. همست «أنا آسف»، وعيناي تترقرقان بالدموع. حين رفعت عيناي رأيت الدموع في عينيها أيضاً. لكنها لم تنظر نحوي. كانت عيناها تحدقان في ذكرى ما في الهواء.

«نحن وحيدان تماماً، بيسين، وحيدان تماماً»، قالت، بنبرة كسرت كل أمل في جسدي. لم أشعر بوحدة كهذه قط في حياتي مثلما شعرت في تلك اللحظة. كنا منذ أسبوعين على القارب وبدأ الأمر ينهكنا. بات من الصعب أن نصدق أن أبي ورافي نجيا.

«حين التفتنا إلى الطباخ، رأيناه يحمل الرجل من الكاحل وينقعها في مياه المحيط. أمي وضعت يدها على عيني البحار.

«مات بهدوء. انسحبت الحياة منه مثلما انسحبت السوائل من

رجله. قام الطباخ بذبحه. الرجل كانت طعماً غير مناسب. اللحم الميت كان متحللاً إلى حدّ أنه لم يعلق بالصنارة؛ ذاب بكل بساطة في المياه. لا شيء يذهب هدراً مع ذاك الوحش. قطع كل شيء، بما في ذلك جلد البحار وكل إنش من أحشائه. حتى أنه حضّر أعضاءه التناسلية لتكون طعماً. أنا وأمي كنا نرتعد من الألم والرعب. صرخت أمي صرخت به: «كيف يمكنك فعل هذا أيها الوحش؟». أين إنسانيتك؟ ألا تتمتع بأي حصافة؟ ما الذي فعله لك الفتى المسكين؟ أيها الوحش؟ أيها الوحش؟».

«ردّ الطباخ بابتذال لا يصدق.

«على الأقل غط وجهه، بحق الله!»، صرخت أمي. كان لا يصدق أن يكون هذا الوجه الرائع، النبيل والجميل، له صلة بما يجري في الجهة السفلية من الجسد. رمى الطباخ نفسه على رأس البحار وأمام أعيننا سلخه وسحب وجهه. أنا وأمي تقيأنا.

«حين انتهى، رمى البقايا في الماء. بعدها بفترة قصيرة، صارت شرائح من اللحم وأجزاء من الأعضاء ممددة لتجف في الشمس في أنحاء القارب كله. تراجعنا برعب. حاولنا ألا ننظر إليها. أبت الرائحة أن تزول.

«في المرة التالية التي صار الطباخ فيها قريباً منها صفعته أمي، صفعة كاملة قوية تردد صداها في الهواء. كان فعلاً صادماً يصدر عن أمي، وكان شيئاً بطولياً أيضاً. كان فعل ثورة وشفقة وحزن وشجاعة. فعلت ذلك إكراماً لذكرى البحار المسكين، وانتقاماً لكرامته.

«ذهلت. وكذلك الطباخ الذي جمد في مكانه بينما أمي تنظر في وجهه مباشرة. لاحظت كيف أنه تحاشى النظر في عينيها.

«تراجعنا إلى أمكنتنا الخاصة. بقيت قريباً منها. كنت ممتلئاً بالإعجاب والخوف.

«ظلت تراقبه. بعد يومين رأته يفعل ذلك. حاول أن يفعل ذلك سراً، لكنها رأته يقرب يده من فمه. صرخت به: «رأيتك!، لقد أكلت قطعة! قلت إنها للطعم! كنت أعرف ذلك، أيها الوحش! أيها الحيوان! كيف أمكنك ذلك؟ إنه آدمي! من أبناء جنسك!». إذا ما توقعت منه أن يشعر بالخزي، أن ينهار، ويعتذر، فقد كانت مخطئة. استمر بالمضغ. في الواقع، رفع رأسه وبشكل واضح وضع بقية الشريحة في فمه، «طعمها كلحم الخنزير»، تمتم. عبرت أمي عن ازدرائها وغضبها بان أدارت وجهها بعنف بعيداً. أكل شريحة أخرى، «أشعر أنني صرت أقوى»، تمتم، ثم انشغل بالصيد.

«اتخذ كل منا طرفاً من القارب. من المذهل كيف يمكن لقوة الإرادة أن تبني الجدران. أيام مضت كما لو أنه غير موجود.

«لكن لم يكن يمكننا تجاهله كلياً. كان فظاً، لكنه فظ عملي. كان يجيد استعمال يديه ويعرف البحر، وكان مليئاً بالأفكار الجيدة. كان هو من فكر في بناء طوف ليساعدنا على الصيد. إذا ما كنا تمكنا من النجاة، فبفضله. ساعدته بقدر ما أستطيع. كان سريع الغضب، دائماً يصرخ بي ويهينني.

«لم آكل وأمي من جسد البحار، ولا أي قطعة، على الرغم من شدة الجوع، لكننا بدأنا نأكل بعض صيد الطباخ من البحر. أجبرت أمي نفسها، وهي النباتية طوال حياتها، على أكل لحم السمك ولحم السلاحف النيء، وعانت كثيراً جراء ذلك، ولم تتمكن من كتم اشمئزازها. كان الأمر أسهل بالنسبة إلي. اكتشفت أن الجوع يحسّن طعم أي شيء.

حين تحظى بإنقاذ مؤقت، يصعب ألا تحس ببعض العاطفة تجاه من له الفضل في ذلك. كان أمراً مبهجاً حين يتمكن الطباخ من صيد سلحفاة أو سمكة دورادو كبيرة. كان ذلك يجعلنا نبتسم ابتسامة واسعة ويرفع معنوياتنا لساعات. أمي والطباخ تحادثا بطريقة حضارية، حتى أنهما تمازحا في بعض الأحيان. عند غروب بعض الأيام، كانت الحياة على القارب تبدو جيدة. في أوقات كتلك كنت أرمقه بشيء من الحنان، أجل الحنان، الحب. خيل إلي أننا صرنا أصدقاء بسرعة، لكنه كان فظاً حتى حين يكون حسن المزاج، وظللنا نزعم أننا لا نلاحظ ذلك، حتى في قرارة كل واحد منا. قال إننا سنصل إلى جزيرة، وكان ذاك أملنا الرئيسي. أرهقنا عيوننا بحثاً عن جزيرة لم تظهر بتاتاً. كان عندها حين سرق الطعام والمياه.

«المحيط الهادئ المسطح واللانهائي ارتفع كجدار هائل من حولنا. لم أحسب أننا ستتمكن من تجاوزه.

«قتلها. الطباخ قتل أمي. كنا نتضور جوعاً. كنت واهناً جداً، فلم أتمكن من التقاط سلحفاة. ، ففقدناها. ضربني. ضربته أمي. ضربها في المقابل. التفتت نحوي وقالت إذهب. دافعة إياي نحو الطوف. قفزت إلى الطوف. حسبت أنها ستتبعني. راحا يتعاركان. لم أفعل شيئاً سوى المشاهدة. كانت أمي تقاتل رجلاً بالغاً، ضخماً وعنيفاً. أمسكها من معصكها ولواه. صرخت وهوت أرضاً. ربض فوقها. ظهرت السكين. رفعها في الهواء. هوت. ثم ارتفعت. كانت حمراء. أخذت أقفز في مكاني. لم أستطع رؤيتها. كانت في قعر القارب. رأيته هو فقط. توقف. رفع رأسه ونظر نحوي. رمى شيئاً باتجاهي. صفعتني لطخة دماء على وجهي. لا سوط كان يمكن أن يؤلمني على

هذا النحو. حملت رأس أمي بين يدي. تركته. غرقت في غيمة من الدماء، خصلة شعرها كذيل حصان. تجمعت الأسماك حوله حتى ظهر ذيل حوت واختفى. نظرت إلى أعلى. لم أستطع رؤيته. كان مختبئاً في قعر القارب. ظهر فقط حين رمى رأس أمي من القارب. كان أحملا الفم. عجّت المياه بالأسماك.

«أمضيت بقية ذلك اليوم والليل ناظراً إليه. لم ننطق بكلمة. كان يمكنه أن يفلت الطوف بقطع الحبل. لكنه لم يفعل. أبقاني قريباً منه، كما لو أنني ضميره المثقل.

في الصباح وأنا أراه بوضوح سحبت الحبل وصعدت إلى القارب. كنت واهناً جداً. لم يقل شيئاً. أبقيت على سلامي معه. التقط سلحفاة. أعطاني دمها. ذبحها وأعطاني أفضل أجزائها. أكلت.

«ثم تعاركنا وقتلته. لم يكن ثمة تعبير على وجهه، لا عن اليأس ولا الغضب، لا الخوف ولا الألم. استسلم. ترك نفسه ليقتل، ومع ذلك لم يكن قتله سهلاً. عرف أنه مضى بعيداً، حتى في معاييره الوحشية. مضى بعيداً إلى حدّ أنه لم يعد راغباً في العيش. لكنه لم يعتذر. لماذا نتشبث بأساليبنا الشريرة؟

«كانت السكين على مرأى نظري على المقعد. كنا كلانا يعرف ذلك. كان يمكنه الحصول عليها منذ البداية. كان هو من وضعها هناك. التقطتها. طعنته في بطنه. كشّر لكنه ظل واقفاً. سحبت السكين وطعنته مجدداً. تدفق الدم منه. ولم يسقط. نظر مباشرة في عيني، ورفع رأسه قليلاً. هل عنى شيئاً بذلك؟ أظن أنه عنى شيئاً. طعنته في حلقه، قرب تفاحة آدم. وقع كحجر. ومات. لم يقل شيئاً. لم تكن له كلمات أخيرة. فقط بصق الدم. للسكين قوة ديناميكية

رهيبة، ما إن تتحرك حتى يصعب وقفها. رحت أطعنه مراراً وتكراراً. سكّن دمه ألم يدي. وجدت صعوبة في اقتلاع قلبه، بسبب كل تلك الأنابيب المتصلة به. نجحت أخيراً في نزعه. كان طعمه رائعاً، أطيب بكثير من السلحفاة. أكلت كبده. قطعت أجزاء كثيرة من لحمه.

«كان رجلاً شريراً جداً. الأسوأ، مع ذلك، أن شره التقى الشر الذي في داخلي، الأنانية، الغضب، اللارحمة. عليّ أن أعيش معها.

«دخلت في عزلة طويلة. اتجهت إلى الله. نجوت.

[صمت طويل]

«أهذه أفضل؟ أهناك ما ترونه صعباً على التصديق؟ أهناك ما تريدانني أن أغيره؟».

«السيد تشيبا: «يا لها من قصة رهيبة».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «كل من حمار الوحش والبحار التايواني كسر رجله، ألاحظت ذلك؟».

«لا، لم ألاحظ».

«والضبع عض رجل حمار الوحش مثلما بتر الطباخ رجل البحار».

«أووه، سيد أوكاموتو، إنك ثاقب النظر».

«الفرنسي الأعمى الذي التقاه في القارب الآخر، ألم يعترف بقتله رجلاً وامرأة؟».

«أجل».

«الطباخ قتل البحار وأم الفتى».

«مؤثر جداً».

«القصتان متوافقتان».

«إذاً البحار التابواني هو حمار الوحش، وأمه هي إالسعلاة، والطباخ هو الضبع... مما يعني أنه هو النمر!».

«أجل. النمر قتل الضبع والفرنسي الأعمى، تماماً مثلما قتل هو الطباخ».

باي باتيل: «ألديكما لوح شوكولاتة آخر؟».

«السيد تشيبا:» فوراً!».

«شكراً لك».

السيد تشيبا: **«لكن ما يعني هذا سيد أوكاموتو؟».**

«لا فكرة لدي».

«وماذا عن تلك الأسنان؟ أسنان من في تلك الشجرة؟».

«لا أعرف، لست داخل رأس هذا الفتى».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «أستمحيك عذراً أن أسألك، لكن هل قال البحار شيئاً بصدد غرق التسمتسوم؟».

«في الحكاية الثانية؟».

«أجل».

«لا، لم يفعل».

«لم يذكر أي شيء يتعلق بيوم الثاني من تموز يمكن أن يفسر ما حدث؟».

«لا».

«لا شيء ميكانيكياً أو بنيوياً».

«لا».

«لم يحاول أن يشرح سبب غرق التسمتسوم؟».

«لا».

«ألم يقل لماذا لم ترسل السفينة إشارات استغاثة؟».

«ولو فعلت؟ بحسب تجربتي حين تغرق سفينة مهترئة من الدرجة الثالثة، ما لم تكن تحمل نفطاً، ما يكفي منه لقتل نظام بيئي، فلا أحد يبالي».

«حين أدركت شركة أويكا أن خللاً قد حصل كان فات الأوان. كانت السفينة بعيدة جداً بحيث استحال الإنقاذ الجوي. تم إبلاغ السفن التي كانت في الجوار بأن تبحث. لم يبلغ أي منها عن رؤية شيء».

«وما دمنا في الموضوع، فلم تكن السفينة فقط من الدرجة الثالثة. كذلك كان الطاقم، أولئك كانوا يتظاهرون بالعمل بجدّ فقط حين يكون الربابنة حولهم، أما في غيابهم فيتوقفون عن العمل. ما كانوا يجيدون كلمة بالإنكليزية وعند منتصف النهار كانت تفوح منهم روائح الكحول. من يمكنه أن يعرف ما فعله أولئك الأغبياء؟ أما الربابنة...».

«ما الذي تعنيه بذلك؟».

«بماذا؟».

«من يمكنه أن يعرف ما فعله أولئك الأغبياء؟.. أعني أنه ربما في غمرة سكرهم، أطلق بعضهم الحيوانات من الأقفاص».

السيد تشيبا: «بحوزة من كانت المفاتيح؟».

«بحوزة أبي».

السيد تشيبا: «إذاً كيف أمكنهم فتح الأقفاص من دون المفاتيح؟».

«لا أعرف، ربما استعملوا القضبان».

السيد تشيبا: «لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا يطلق أي كان حيوانات خطرة؟».

«لا أعرف، هل يمكن أن يتوقع أي كان تصرفات رجل سكير؟ كل ما يمكنني أن أخبرك به ما جرى. الحيوانات كانت طليقة عند الغرق».

السيد أوكاموتو: «اعذرني. ألديك شكوك حول مهنية الطاقم؟».

«شكوك عميقة».

«هل شاهدت أي من الربابنة تحت تأثير الحكول؟».

«لا».

«لكنك رأيت بعض البحارة تحت تأثير الكحول؟».

«أجل».

«هل تصرف الربابنة برأيك بشكل مهني؟».

«لم أكن قريباً منهم لأحكم، لكنهم لم يقتربوا من الحيوانات البتة».

«أعني في ما يتعلق بإدارة السفينة».

«أنى لي أن أعرف؟ أتظن أننا كنا نتناول الشاي معهم يومياً؟ كانوا يتكلمون الإنكليزية، لكنهم ما كانوا أفضل من البحارة. جعلونا نشعر

بأنه غير مرحب بنا ونادراً ما بادرونا بكلمة خلال وجبات الطعام. كانوا يتحدثون باليابانية كما لو أننا لسنا هناك. كنا بالنسبة إليهم عائلة هندية منحطة تحمل شحنة مزعجة. انتهى بنا الأمر بأن نأكل وحدنا في حجرة أمي وأبي. المغامرة تنادي، قال رافي. وهذا ما جعل الرحلة محتملة. أمضينا معظم الوقت ونحن ننظف بقايا الحيوانات وننظف الأقفاص ونطعم الحيوانات بينما قام أبي بدور الطبيب البيطري. ما دامت الحيوانات بخير كنا بخير. لا أعرف إذا ما كان الربابنة كفوئين».

«ذكرت أن السفينة كانت تستعد للرسو...».

«أجل».

«وأنه كان هناك انحناء من الجؤجؤ باتجاه الكوثل؟».

«أجل».

«إذن السفينة غرقت أولاً من جهة الكوثل؟».

«أجل».

«ليس الجؤجؤ أولاً؟».

«أجل».

«هل ارتطمت السفينة بسفينة أخرى؟».

«لم أرَ سفينة أخرى».

«هل ارتطمت بأي شيء آخر؟».

«لم أرَ شيئاً».

«هل جنحت؟».

«لا غرقت واختفت عن البصر».

«ألم تعلم بحدوث أي أعطال ميكانيكية بعد أن غادرت السفينة مانيلا؟».

«لا».

«هل بدا لك أنه هناك حمولة زائدة على السفينة؟».

«كانت المرة الأولى لي على متن سفينة. لا أعرف كيف تبدو سفينة محملة بحمولة زائدة».

«هل تظن أنك سمعت انفجاراً؟».

«أجل».

«أي أصوات أخرى؟».

«ألف صوت».

«أعني أصواتاً يمكن أن تفسر الغرق».

«لا».

«قلت إن السفينة غرقت بسرعة؟».

«أجل».

«هل يمكنك أن تقدر الوقت؟».

«من الصعب التحديد. بسرعة شديدة. يمكنني القول أقل من ثلث ساعة».

«وكان هناك الكثير من الركام؟».

«أجل».

«هل ارتطمت موجة عملاقة بالسفينة؟».

«لا أظن ذلك».

«لكن أكان هناك عاصفة؟».

«بدا البحر هائجاً. كان هناك ريح ومطر».

«ما كان ارتفاع الموج؟».

«مرتفع. خمسة وعشرون إلى ثلاثين قدماً».

«هذا موج منخفض في الواقع».

«ليس حين تكون على قارب نجاة».

«أجل بالطبع، لكن بالنسبة إلى سفينة شحن».

«ربما كانت أعلى. لا أعرف. كان الطقس سيئاً كفاية ليرعبني، هذا ما أعرفه بشكل مؤكد».

«قلت إن الطقس تحسن بسرعة. السفينة غرقت وبعدها مباشرة صار الطقس جيداً، ألم تقل هذا؟».

«أجل».

«يبدو أنها لم تكن أكثر من عاصفة عابرة».

«لقد أغرقت السفينة».

«هذا ما نتساءل حوله».

«ماتت عائلتي كلها».

«نحن آسفان لذلك».

«ليس بقدري».

«إذاً ما الذي حدث سيد باتيل؟ نحن حائران.. كل شيء كان طبيعياً ثم...؟».

«ثم غرق طبيعي».

«لماذا؟».

«لا أعرف. أنت من يجدر به أن يخبرني. أنتما الخبيران».

«لا نفهم».

[صمت طويل]

السيد تشيبا: «**ماذا الآن؟**».

السيد أوكاموتو: «**نستسلم. سيبقى سر غرق التسمتسوم في قعر المحيط الهادئ**».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «**أجل، انتهى الأمر، لنذهب**. حسناً سيد باتيل نظن أننا حصلنا على كل ما نريده من معلومات. شكراً جزيلاً على تعاونك. لقد قدمت لنا مساعدة قيمة».

«على الرحب والسعة. لكن قبل أن تذهبا، أود أن أسألكما شيئاً».

«أجل».

«لقد غرقت التسمتسوم في الثاني من تموز ١٩٧٧».

«أجل».

«وأنا وصلت إلى ساحل المكسيك، الناجي الوحيد من التسمتسوم، في ١٤ شباط ١٩٧٨».

«هذا صحيح».

«رويت لكما قصتين عما جرى خلال ٢٢٧ يوماً التي بين التاريخين».

«أجل، فعلت».

«أي منهما لا يفسر غرق التسمتسوم».

«هذا صحيح».

«أي منهما لا يشكّل فارقاً بالنسبة إلى الوقائع».

«هذا صحيح».

«لا يمكنكما أن تثبتا أي قصة هي الصحيحة وأيها لا. عليكما أن تصدقا كلمتي في هذا الشأن».

«أظن ذلك».

«في القصتين السفينة تغرق، تموت عائلتي، وأتعذب طويلاً».

«أجل، هذا صحيح».

«أخبراني إذن، بما أن أي من القصتين لا يشكل فرقاً في الوقائع، فأي القصتين تفضلان؟ أيهما القصة الأفضل، تلك التي فيها حيوانات أم التي من دونها؟».

السيد أوكاموتو: «هذا سؤال مثير للاهتمام».

السيد تشيبا: «القصة التي فيها حيوانات».

«السيد أوكاموتو: أجل «القصة التي فيها حيوانات هي الأفضل».

باي باتيل: «شكراً لكما. وكذلك الأمر مع الله».

[صمت]

السيد تشيبا: «ما الذي قاله توّاً؟».

السيد أوكاموتو: «لا أعرف».

السيد تشيبا: «أوه أنظر، إنه يبكي».

[صمت طويل]

السيد أوكاموتو: «سنقود بحذر. لا نريد أن نصادف ريتشارد باركر».

باي باتيل: «لا تخشيا. لن تصادفاه. إنه يختبئ حيث لن يعثر عليه أحد».

السيد أوكاموتو: «شكراً لك على الوقت الذي أمضيته معنا، سيد باتيل. نحن ممتنان، وآسفان جداً لما حدث لك».

«شكراً لكما».

«ما الذي ستفعله الآن؟».

«أظن أنني سأذهب إلى كندا».

«ألن ترجع إلى الهند؟».

«لا. لم يعد لي فيها سوى الذكريات الحزينة».

«بالطبع، تعرف أنك ستحصل على مال التأمين».

«أوه».

«أجل، أويكا ستبقى على اتصال بك».

[صمت]

السيد أوكاموتو: يجدر بنا الذهاب، نتمنى لك الأفضل، سيد باتيل».

السيد تشيبا: «أجل، الأفضل».

«شكراً لكما».

السيد أوكاموتو: «وداعاً».

السيد تشيبا: «وداعاً».

باي باتيل: «أتودان بعض الكعك للرحلة؟».

السيد أوكاموتو: «يكون هذا لطيفاً».

«إليكما، ثلاث لكل منكما».

«شكراً».

السيد تشيبا: «شكراً لك».

«على الرحب والسعة. ليكن الله معكما يا أخواي».

«شكراً لك، ومعك أيضاً، سيد باتيل».

السيد تشيبا: «إلى اللقاء».

السيد أوكاموتو: «إنني أتضور جوعاً. لنذهب. يمكنك إيقاف آلة التسجيل».

الفصل ١٠٠

تذكر السيد أوكاموتو التحقيق، في رسالة وجهها إلي، بوصفه «صعباً ولا ينسى». وتذكر باي باتيل على أنه فتى «فائق الهزال والقوة والذكاء».

يمضي تقريره، في الجزء الأساسي منه، على النحو التالي:

لم يلقَ الناجي الوحيد بأي ضوء على غرق التسمتسوم. يبدو أن السفينة غرقت بسرعة هائلة، مما قد يشير إلى نشوء ثقب أساسي في بدنها، وقد تعزز كميات الركام الكبيرة هذه النظرية. لكن يبقى سبب تسرب المياه غير محدد. فلم يسجّل في ذلك اليوم اضطراب كبير في الطقس، أما وصف الناجي للعاصفة فلا يمكن الاعتماد عليه. وفي

أفضل الأحوال يمكن اعتبار الطقس عنصراً مساهماً. ربما كان السبب داخلياً. يعتقد الناجي أنه سمع انفجاراً، مشيراً إلى مشكلة كبرى في المحرك، ربما انفجرت إحدى الغلايات، لكن هذا يظل في دائرة التخمينات. السفينة التي عمرها ٢٩ عاماً (من صنع «إيرلاندسون أند شانك شيبياردز»، مالمو، ١٩٤٨)، أعيد تأهيلها في ١٩٧٠. ضغط المناخي مصحوباً بتخلخل بنية السفينة قد يكون احتمالاً، لكنه يبقى تفصيلاً. إلى ذلك، لم يسجل تعرض أي سفينة أخرى للغرق في ذلك اليوم، فإذاً من غير المرجح أن يكون السبب الاصطدام بسفينة أخرى. الارتطام بالركام احتمال، لكنه غير مرجح أيضاً. ربما يكون سبب الانفجار ارتطام السفينة بلغم مائي، لكنه يبدو احتمالاً بعيداً، لأن الغرق بدأ عند الكوثل، مما يعني أن تسرب الماء بدأ عند الكوثل أيضاً. ألقى الناجي بالشكوك حول طاقم السفينة لكن لم يكن لديه ما يقوله عن الربابنة. شركة «أويكا» للشحن تزعم أن الحمولة كانت مناسبة وهي على غير علم بأي مشكلات تتعلق بالطاقم أو الربابنة.

يستحيل، بحسب المعلومات المتوافرة، تحديد سبب الغرق. شركة «ستاندرد» للتأمين تتولى الإجراءات نيابة عن شركة «أويكا». ليس مطلوباً أي خطوات أخرى. يوصى بإقفال ملف القضية.

على الهامش، قصة الناجي الوحيد، السيد بيسين موليتور باتيل، وهو مواطن هندي، هي قصة مذهلة عن الشجاعة والصمود في وجه أصعب الظروف وأكثرها مأساوية. وبحسب علم كاتب هذا التقرير فإنه ليس لقصته ما يوازيها في تاريخ غرق السفن. قلة جداً من الذين ضاعوا في البحار صمدوا في البحر المدة التي صمدها السيد باتيل، وأي منهم لم يكن بصحبة نمر بنغالي بالغ.

الفهرس

مقدمة المترجم ٥

توطئة الكاتب ٩

الجزء الأول: تورونتو وبونديتشيري ١٧

الفصل ١ .... ١٩

الفصل ٢ .... ٢٥

الفصل ٣ .... ٢٥

الفصل ٤ .... ٣١

الفصل ٥ .... ٤١

الفصل ٦ .... ٤٧

الفصل ٧ .... ٤٨

الفصل ٨ .... ٥٣

الفصل ٩ .... ٦٦

الفصل ١٠ .... ٦٧

الفصل ١١ .... ٦٩

الفصل ١٢ .... ٧٠

الفصل ١٣ .... ٧١

الفصل ١٤ .... ٧٣

الفصل ١٥ .... ٧٤

الفصل ١٦ .... ٧٥
الفصل ١٧ .... ٨٠
الفصل ١٨ .... ٨٩
الفصل ١٩ .... ٩٢
الفصل ٢٠ .... ٩٣
الفصل ٢١ .... ٩٥
الفصل ٢٢ .... ٩٦
الفصل ٢٣ .... ٩٦
الفصل ٢٤ .... ١٠٣
الفصل ٢٥ .... ١٠٤
الفصل ٢٦ .... ١٠٥
الفصل ٢٧ .... ١٠٩
الفصل ٢٨ .... ١١١
الفصل ٢٩ .... ١١٣
الفصل ٣٠ .... ١١٥
الفصل ٣١ .... ١١٦
الفصل ٣٢ .... ١٢١
الفصل ٣٣ .... ١٢٤
الفصل ٣٤ .... ١٢٦
الفصل ٣٥ .... ١٢٩
الفصل ٣٦ .... ١٣٠
الجزء الثاني: المحيط الهادىء ١٣٣
الفصل ٣٧ .... ١٣٥
الفصل ٣٨ .... ١٣٨

الفصل ٣٩ .... ١٤٥

الفصل ٤٠ .... ١٤٥

الفصل ٤١ .... ١٤٧

الفصل ٤٢ .... ١٥١

الفصل ٤٣ .... ١٥٣

الفصل ٤٤ .... ١٥٩

الفصل ٤٥ .... ١٦١

الفصل ٤٦ .... ١٦٦

الفصل ٤٧ .... ١٧١

الفصل ٤٨ .... ١٧٥

الفصل ٤٩ .... ١٧٧

الفصل ٥٠ .... ١٨١

الفصل ٥١ .... ١٨٣

الفصل ٥٢ .... ١٩٠

الفصل ٥٣ .... ١٩٢

الفصل ٥٤ .... ٢٠٣

الفصل ٥٥ .... ٢٠٥

الفصل ٥٦ .... ٢٠٧

الفصل ٥٧ .... ٢٠٩

الفصل ٥٨ .... ٢١٣

الفصل ٥٩ .... ٢١٧

الفصل ٦٠ .... ٢٢٦

الفصل ٦١ .... ٢٢٧

الفصل ٦٢ .... ٢٣٧

الفصل ٦٣ .... ٢٤٠
الفصل ٦٤ .... ٢٤٣
الفصل ٦٥ .... ٢٤٤
الفصل ٦٦ .... ٢٤٥
الفصل ٦٧ .... ٢٤٩
الفصل ٦٨ .... ٢٥٠
الفصل ٦٩ .... ٢٥١
الفصل ٧٠ .... ٢٥٢
الفصل ٧١ .... ٢٥٥
الفصل ٧٢ .... ٢٥٨
الفصل ٧٣ .... ٢٦٠
الفصل ٧٤ .... ٢٦١
الفصل ٧٥ .... ٢٦٣
الفصل ٧٦ .... ٢٦٣
الفصل ٧٧ .... ٢٦٥
الفصل ٧٨ .... ٢٦٨
الفصل ٧٩ .... ٢٧٢
الفصل ٨٠ .... ٢٧٥
الفصل ٨١ .... ٢٧٧
الفصل ٨٢ .... ٢٧٨
الفصل ٨٣ .... ٢٨٠
الفصل ٨٤ .... ٢٨٤
الفصل ٨٥ .... ٢٨٧
الفصل ٨٦ .... ٢٨٩

الفصل ٨٧ .... ٢٩٢
الفصل ٨٨ .... ٢٩٣
الفصل ٨٩ .... ٢٩٤
الفصل ٩٠ .... ٢٩٧
الفصل ٩١ .... ٣١٧
الفصل ٩٢ .... ٣١٨
الفصل ٩٣ .... ٣٤٩
الفصل ٩٤ .... ٣٤٩
الجزء الثالث: مستشفى بنيتو خواريز، تومالتان، المكسيك ٣٥٣
الفصل ٩٥ .... ٣٥٥
الفصل ٩٦ .... ٣٥٦
الفصل ٩٧ .... ٣٥٨
الفصل ٩٨ .... ٣٥٨
الفصل ٩٩ .... ٣٥٩
الفصل ١٠٠ .... ٣٩٣

هذا الكتاب

إذا استعرنا قول «باي» بأن «بعض الأشخاص الذين نلتقيهم قد يغيرون حياتنا»، فإن بعض الكتب قد يسهم أيضاً في تغيير حياتنا. ملحمة يان مارتل هذه، بالغة البساطة، وبالغة الغموض والسحر في آن، تنتمي بالتأكيد إلى هذا النوع من الكتب.